التفسير الموضوعي

لسور القرآن العظيم

تأليف

عبد الحميد محمود طهماز

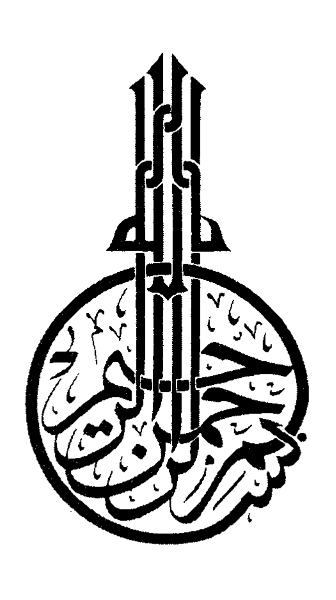
المجلد الثاني:

ويحتوي على تفسير هذه السور

النساء - المائدة - الأنعام

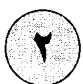


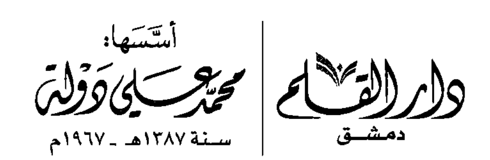
دمشق



التفسير الموضوعي

لسور القرآن العظيم





الطبعة الثانية

١٤٣٥ هـ ـ ٢٠١٤م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم ـ دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية ـ بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير ـ جدّة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤





٤

تفسير سورة النساء

حقوقُ الإنسانِ في سُورةِ النِّساء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وخاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنّ من أبرزِ ما أفرزته الحضارةُ الماديةُ الغربيّة المعاصرةُ كثرةَ العدوان على حقوق الناس ومصادرتها، وهو ما تؤكده الأصواتُ الكثيرةُ المرتفعة من كلِّ مكان، الداعيةُ إلى الدفاع عن المظلومين، وحماية حقوق المضطهدين، ومساعدة اللاجئين والنازحين عن بلادهم وأوطانهم، فراراً من الظلم والطغيان.

واهتمت الشريعة الإسلامية، التي أنزلها الله تعالى برحمته، لرعاية مصالح الناس وهدايتهم، بحقوق الإنسان اهتماماً كبيراً، حتى قرنت بينها وبين حقوقه تعالى على عباده، وقدَّمَتْها في كثير من الحالات عليها.

ولقد اهتمَّت سورة النساء بشكل خاص بحقوق الإنسان، ودارت معظمُ آياتها في فلكه، فقد قررت في أول آياتها وحدةَ الأصل الإنساني للبشر، ومساواتهم في دين الله تعالى وشرعه، وربطت بين حقوق الله تعالى وحقوق الإنسان، إذ هو تعالى خالقُ الإنسان ومالك أمره، وهو الذي شرع له هذه الحقوق، وأمر الناس أن يتَّقوه بالتزامها واحترامها.

وكلّما تشعَّبت أفكار السورة وموضوعاتها، عادت إلى التذكير بحقوق الإنسان وتعظيمها، ولعلّ هذا سببُ تأخير إحدى آيات الميراث إلى ختامها.

ولم تقرر السورة هذه الحقوق تقريراً جامداً جافّاً، كما هو الحال في القوانين والتشريعات الوضعية، بل جاء تقريرُها بأسلوب التربية والتهذيب، فالقرآن الكريم كتاب هداية وتربية، يربِّي ويشرِّع في آن واحد، ومن خلال تهذيبه للنفوس وتربيتها شرع الكثير من الأحكام المتصلة بحقوق الناس على بعضهم.

وركزت السورةُ في صدرها على **حقوق الضعفاء في المجتمع، وخاصّةً اليتامى والنساء**، وهما الجانبان المستضعفان في المجتمعات الجاهلية، فاهتمّت الآياتُ بهم اهتماماً كبيراً، وقرّرت لهم حقوقهم الإنسانية الكاملة، وأمرت الأولياءَ والأوصياءَ والقضاةَ وولاةَ الأمر بالمحافظة عليها، وأبرزت من خلال ذلك حقّ الإنسان في الملكية الفردية المشروعة، وحقه في سلامة عرضه وحياته وعقيدته وعبادته.

وغاصت الآياتُ إلى **أعماق النفس البشرية**، فكشفت الأمراضَ والآفاتِ النفسية التي تدفع الناسَ إلى العدوان على حقوق بعضهم، كآفات الحسد والبخل والكِبْر والعُجب والرياء، وعرضت شرائح من أبناء المجتمع المدني في عصر التنزيل، أصيبوا بهذه الآفات وابتلوا بها، تحذيراً لعامة الناس منها.

واهتمت الآيات **بتشريع الجهاد**، وجعلت من مقاصده الدفاع عن حقوق المستضعفين من الناس، كما بيَّنت حرص الشريعة الإسلامية على حياة الناس، فأمرت المجاهدين بالتثبّت في أثناء القتال، فالجهادُ ما شرعه الله تعالى للقتل وسفك الدماء، وإنما شرعه سبحانه لغايات سامية رفيعة، منها تأمين الحقوق والمحافظة عليها.

وحضّت الآيات الناس على أن **يحرصوا على حقوقهم**، ويتمسَّكوا بها، وأمرتهم أن يسعوا بأنفسهم لسلامتها، وشرعت لهم الوسائل التي تَسْلَمُ بها حقوقهم، كالهجرة من البلد الذي لا تصان فيه الحقوق، وكالتشهير بالظالمين وفضحهم، وتحذير الناس من ظلمهم وبغيهم.

ووقفت الآيات عند حادثة **بني الأبيرق**، فأبرزت حقّاً من أهم حقوق الإنسان،

وهو براءة ذمته حتى تثبت إدانته، وبينت أيضاً من خلال ذلك **اهتمام الإسلام بمبدأ العدل، وأداء الأمانات، وإيصال الحقوق إلى أصحابها، وأداء الشهادة بالصدق والحق،** وربطت كل ذلك بتقوى الله تعالى وعبادته وحده، فإنّ مراعاةَ حقوق العباد جزءٌ لا يتجزأ من حقه تعالى عليهم بتوحيده وعبادته وحده سبحانه.

وردّتِ الآياتُ على أهل الكتاب، الذين جحدوا نبوة النبيِّ ﷺ، وطعنوا في صحة رسالته، فبيَّنت بطلان عقائدهم، وعدوانهم على حقوق الناس، وأكلهم أموالهم بالباطل، وجُرأتهم على الأنبياء عليهم السلام، بالافتراء على بعضهم، وقتل آخرين، ثمَّ توّجت كل ذلك بشهادته تعالى على صدق نبوَّة النبي ﷺ وصحَّة رسالته، وأنها الرسالة العامة التي ختم الله تعالى بها رسالاته إلى الناس، ورضيها لهم ديناً وشرعاً يحمي بها حقوقهم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد جاء تفسير هذه السورة ـ بحمد الله تعالى ـ في فصوله السبعة، متفقاً تماماً مع موضوع السورة الأساس، ومنسجماً مع تسلسل آياتها:

- **الفصل الأول: حقوق الضعفاء.**
- **الفصل الثاني: آفات نفسية.**
- **الفصل الثالث: الحكم بشريعة الله تعالى.**
- **الفصل الرابع: التكليف بالجهاد والحض عليه.**
- **الفصل الخامس: حادثة بني الأبيرق.**
- **الفصل السادس: الثبات على الإيمان والتزام التقوى والعدل.**
- **الفصل السابع: عقائد أهل الكتاب.**

إن هذا التفسير دعوة إلى الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية، يبين المستوى الإنساني الرفيع الذي بلغته أحكام هذه الشريعة، من خلال مصدرها الأول كتاب الله تعالى.

أسأله سبحانه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم. اللهم آمين.

اللهم صَلِّ على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.





حقوق الضعفاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا (٤) وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٥) وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦) لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٨) وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠) يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ
لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۚ وَلَهُنَّ
ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا
تَرَكْتُمۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ
وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى
ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾
تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ
ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ
حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن
تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ
يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ
قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ
ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟
شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ
إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ
وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ
ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾
حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ
ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ

وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

- **الأصل الإنساني الواحد:**

بدأت سورة النساء بتقرير وحدة الأصل الإنساني لجميع البشر، من خلال هذا النداء الإلـهيّ العلويّ الموجّه إليهم جميعاً، سواءٌ في ذلك الموجودون في عصر التنزيل، وكلُّ من يأتي بعدَهم إلى قيام الساعة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ بخشيته وطاعته، والتزام أحكامِ شريعته، فهو سبحانه خالقكم ومربيكم ومالك أمركم شئتم أم أبيتم.

وظهرت في هذا النداء المناسبةُ بين توحيد الحقِّ سبحانه، ووحدةِ الأصل البشري، ودلّت كلمةُ ﴿رَبَّكُمُ﴾ على صلةِ المخاطبين بالله تعالى، وأنَّ عليهم أن يحافظوا على هذه الصلة، بعبادته سبحانه وحده، والتزام أحكام شريعته.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ والمرادُ بها نفسُ آدم عليه السلام.

وهذا دليل على كمال قدرته تعالى، وأنّه حقيقٌ أن يُتقَى، فإنَّ خلقَ الناس من نفس واحدة، مع ما بينهم من اختلاف في الأجناس والصفات والألوان والمواهب والمَلَكات، من أعظم الدلائل على وجوده تعالى، وكمالِ قدرته وحكمته، ولهذا قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

وفي الآية ردٌّ على الماديين المنكرين لوجود الخالق جل جلاله، قال الفخر الرازي رحمه الله: «فلو كان الأمرُ بالطبيعة والخاصيّة لكان المتولّد من الإنسان الواحد لم يكن إلا أشياء متشاكلة في الصفة، متشابهة في الخلقة والطبيعة، فلمّا رأينا في أشخاص الناس: الأبيض والأسود، والأحمر والأسمر، والحسن والقبيح، والطويل والقصير، دلَّ ذلك على أنّ مدبرها وخالقها فاعلٌ مختار، لا طبيعة مؤثرة، ولا علة موجبة»[1].

وذكر سبحانه هذا المعنى أيضاً في قوله الكريم: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

---

(١) التفسير الكبير: ٩/ ١٦٥.

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: وخلق من نفس آدم زوجه، وهي المرأة الأولى، خلقها تعالى من جزء من أجزاء آدم عليه السلام، وقد بيّن النبيُّ ﷺ هذا الجزء الذي خُلِقَتْ منه حوّاءُ فقال: «**إنّ المرأةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، لنْ تستقيمَ لكَ على طريقةٍ، فإن استمتعتَ بها استمتعتَ بها وبها عِوَجٌ، وإن ذهبتَ تُقِيْمُها كَسَرْتَها، وكَسْرُها طلاقُها**» [رواه مسلم (١٤٦٦)].

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً وهو يوصي بالنساء: «**واستوصوا بالنساءِ خيراً، فإنهنَّ خُلِقْنَ من ضِلَعٍ، وإنَّ أعوجَ شيءٍ في الضلع أعلاه، فإنْ ذهبتَ تُقِيْمُهُ كسرتَهُ، وإنْ تركتَه لم يزلْ أعوج، فاستوصوا بالنساءِ خيراً**» [رواه البخاري (٥١٨٦)].

قال ابن حجر رحمه الله قوله: «**فإنهنَّ خُلِقْنَ من ضِلَعٍ**» بكسر الضاد وفتح اللام، وقد تسكن، وكأنّ فيه إشارة إلى ما أخرجه ابن إسحاق في المبتدأ عن ابن عباس رضي الله عنهما: «**إنّ حوّاءَ خُلِقَتْ من ضِلعِ آدمَ الأقصر الأيسر وهو نائمٌ**» وكذا أخرجه ابنُ أبي حاتم وغيره من حديث مجاهد[1].

فالمراد من ﴿زَوْجَهَا﴾ الأم الأولى للبشر، **والزوج في لغة العرب يطلق على** الرجل والمرأة، لأنَّ الرجل يكون منفرداً، فإذا اتخذ امرأةً فقد صار زوجاً، وأصبح كل واحد منهما زوجاً للآخر، وكلمة: زوجة، لغة رديئة، وشاعت عند الفقهاء ليميزوا بينها وبين الرجل، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

فالمرأةُ خُلِقَتْ من بعضِ أجزاء الرجل، وعندها لهذا السبب ميل ونزوع فطري وطبيعي إليه، وكذلك عند الرجل ميلٌ إلى المرأة وأنسٌ بها، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

---

(١) فتح الباري: ٩/ ٢٥٣.

وهذا ينفي التصورات السخيفة التي كانت سائدةً بين الناس، والتي ترى أنّ المرأة منبع الرجس والنجاسة، وأصل الشر والبلاء[(١)].

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ أي: نشر سبحانه منهما بالتوالد والتناسل.

﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ أي: ونساءً كثيرة أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: وتقيكم البرد.

ورأى بعضُهم في ذلك تنبيهاً على أنّ اللائق بحال الرجال الظهور والاشتهار، وبحال النساء الاختفاء والخمول[(٢)].

ودلّتِ الآيةُ على أنّ جميعَ البشر أسرة إنسانية واحدة.

● **مبادئ في التواصل والتعاون:**

ثم كررت الآيةُ الأمرَ بالتقوى، إشعاراً بأهميتها، وخاصّةً في مجال الصلات الاجتماعية بين الناس، ولهذا جاء في المرة الثانية مقروناً بذكر الأرحام، التي هي أهم أسباب التواصل والتقارب بين الناس:

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ أي: اتقوا الله الذي يسأل بعضكم بعضاً به، وذلك بطاعته، وترك معصيته، واتقوا الأرحام بصلتها وعَدَمِ قطعها.

وأصل ﴿تَسَآءَلُونَ﴾ تتساءلون، وقُرئت: **(تسّاءلون)** بإدغام التاء في السين، وقرأ بعضُهم: **(الأرحامِ)** بالخفض عطفاً على الضمير **(به)** أي: تساءلون بالله وبالأرحام، كقولك: سألتك بالله وبالرحم، وناشدتك بالله وبالرحم. وكان من عادةِ العربِ أن يقولوا ذلك.

والسؤال بالأرحام ضربٌ من الاستعطاف، وليس قَسَماً بها، والمراد منها الأقارب، فتشمل كل من يجمع بينك وبينه نسب وإن بعد[(٣)].

وبهذا المعنى يكونُ في الآية تعريضٌ بعاداتهم في الجاهلية؛ إذ كانوا

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١/ ٥٧٤.

(٢) تفسير الخازن: ٢/ ٣.

(٣) روح المعاني: ٤/ ١٨٥.

يتساءلون بينهم بالرحم وأواصر القرابة، ثم يهملون حقوقها، ولا يصلونها، ويعتدون على الأيتام من إخوتهم وأبناء أعمامهم، فناقضت أفعالُهم أقوالَهُم[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ أي: حافظاً عالماً لا يغيبُ عنه شيء من أمرِ خلقه، فهو مراقب لجميع أعمالكم وأحوالكم، كما جاء في الحديث الصحيح: «**الإحسانُ أن تعبدَ اللهَ كأنّكَ تراهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تراهُ فإنّه يراكَ**» [رواه مسلم (٨)].

ففي الآيةِ تقريرٌ للمساواة بين الناس في الأصل الواحد، وحثٌّ لهم على التواصل والتعاون والتعارف، واحترام حقوق بعضهم، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

ويتأكد الأمر بالتواصل والتعاون كلما ازدادت صلات القرابة بين الناس وقويت. قال القرطبي رحمه الله: «اتفقت الملةُ على أنّ صلة الرحم واجبةٌ وأنَّ قطيعتها محرّمة، وقد صحّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال لأسماء رضي الله عنها وقد سألته: أأصِلُ أمي؟ قال: «**نَعَمْ صِلي أُمَّكِ**»، فأمرها بصلتها وهي كافرةٌ، فلتأكيدها دخلَ الفضلُ في صلة الكافر»[2].

والناس في أشد الحاجة إلى هذه المبادئ مبادئ المساواة والتعارف والتعاون والتواصل، ولا يمكن للإنسان أن يتمتع بحقوقه الإنسانية إلا في ظلها، ولهذا قررها تعالى في أول آيات السورة، بكل هذه الصراحة والوضوح والحزم والإلزام.

- **المحافظة على أموال اليتامى:**

وبادرت الآيات بعد إعلان هذه المبادئ إلى تشريع الأحكام التي تضمن تطبيقها بين الناس، فالإسلامُ لا يكتفي بإعلان المبادئ البراقة، ويتركها خالية فارغة من مضمونها.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٤/٢١٨.

(٢) تفسير القرطبي: ٥/٦.

وبدأت الآياتُ بتشريع الأحكام، التي تكفل حماية حقوق الضعفاء في المجتمع، فالمجتمعُ الذي يتمتّعُ الضعفاءُ فيه بحقوقهم كاملة، لابدَّ أن يكون مجتمعاً إنسانيّاً كريماً، يتمتع جميع أفراده بحقوقهم الإنسانية الكاملة.

والمستضعفون من الأيتام والنساء في المجتمعات الجاهلية حقوقهم مهدورة وأموالهم مأكولة؛ ولهذا توجهت الآيات بالخطاب إلى أوصياء الأيتام وأوليائهم تأمرهم بالمحافظة على أموال الأيتام، وتحذّرهم من التفريط بها والعدوان عليها:

﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾.

﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ أي: إذا بلغوا ورشدوا ـ كما سيأتي ـ.

واليتيم: الإنسان الصغير الذي مات أبوه، **من اليتم**، وهو الانفراد، ومنه الدرة اليتيمة لانفرادها، ويقع اسم اليتيم على الصغير والكبير لغة، لبقاء معنى الانفراد عن الآباء، لكن في العُرف اختصّ اسم اليتيم بمن لم يبلغْ مبلغَ الرجال، فإذا بلغَ الصبيُّ وصار يستغني بنفسه عن غيره زال عنه اسمُ اليتيم(١).

وفي الحديث الشريف: أنّه عليه الصلاة والسلام قال: «**لا يُتْمَ بعدَ احتلامٍ**» [رواه أبو داود (٢٨٧٣)].

ويستدعي تسليمُ اليتامى أموالهم عند بلوغهم المحافظة عليها، فالمراد بإيتاء أموالهم، قطع المخاطبين أطماعهم الفارغة عنها، وكفّ أكفّهم الخاطفة عن اختزالها، وتركها على حالها غير متعرَّض لها بسوء، حتى تأتيهم وتصل إليهم سالمة(٢).

ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

---

(١) تفسير الخازن: ٢/ ٥.

(٢) تفسير أبي السعود: ٢/ ١٣٩.

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ أي: لا تستبدلوا أموالَ اليتامى المحرّمة عليكم بأموالكم، فتتركوا أموالكم الحلال، وتأكلوا الحرامَ من أموالهم، فالخبيثُ والطيّبُ: الحرامُ والحلالُ.

وقد يكون المرادُ من الخبيث والطيب: الرديء والجيد، وكان أولياء اليتامى يأخذون الجيد من مال اليتيم، ويجعلون مكانه الرديء، فيأخذ أحدهم الشاة السمينة، ويجعل مكانها الهزيلة، ويأخذ الدرهم الجيّدَ، ويجعلُ مكانه الزائف، ويقول: شاة بشاة ودرهم بدرهم، فذلك تبديلهم، فنهوا عنه[1].

ثم نهاهم سبحانه عن منكر آخر كانوا يتعاطونه، فقال:

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أي: لا تأكلوها مضمومةً إلى أموالكم، ولا تسووا بينهما في الأكل، فهذا حلال وذاك حرام.

أو: لا تأكلوها مع أموالكم.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي: إنّ أكل أموالهم ذنبٌ عظيم فاحذروا من الوقوع فيه.

- **تحريم ظلم البنات اليتامى:**

ثم نهاهم سبحانه عن منكرٍ آخرَ كان شائعاً بينهم في الجاهلية، يتعلّق بحقوق البنات اليتامى، فقال:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أي: إن خفتم ألا تعدلوا في يتامى النساء إذا تزوجتم بهن.

﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: فتزوجوا ما طاب لكم من غيرهن.

فالآيةُ تحرصُ على دفع الظلم المتوقع عن اليتيمات، ولهذا بالغت في

---

(١) تفسير الخازن: ٢/ ٥.

صرفهم عنهنّ، وترغيبهم بغيرهنّ من النساء، ففيها مسارعة إلى دفع الشرّ قبل وقوعه، فربَّ واقع لا يُرفع[1].

وكانوا قبل نزول الآية يتزوّجون من تحلُّ لهم من اليتامى، لا رغبةً فيهنّ، بل في مالهنّ، ويسيئون في صحبتهنّ ومعاشرتهنّ، أو لا يعطونهنّ مهور أمثالهن من النساء؛ بينت ذلك السيدة **عائشة** رضي الله عنها عندما سألها عروةُ بنُ الزبير عن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ فقالت: يا ابن أختي، هذه اليتيمةُ تكونُ في حِجْرِ وليِّها، تشركه في ماله، ويعجبُه مالُها وجمالُها، فيريدُ وليُّها أن يتزوّجها بغير أن يقسط في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيرُه، فنهوا عن أن ينكحوهنّ، إلا أن يقسطوا لهنّ، ويبلغوا لهنّ أعلى سنّتهن في الصداق، فأُمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن.

قال عروةُ: قالت عائشةُ: وإنَّ الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية، فأنزل الله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ [النساء: ١٢٧] وقول الله تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧] رغبةُ أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلةَ المالِ والجمالِ. قالت: فنُهوا أن ينكحوا عمّن رغبوا في ماله وجماله في يتامى النساء إلا بالقسط من أجلِ رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال. [رواه البخاري (٤٥٧٤)].

ونبّه ابنُ حجر رحمه الله إلى أنّ قولَ عائشة رضي الله عنها: وقول الله تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ كذا وقع في رواية صالح، وليس ذلك في آية أخرى، وإنّما هو في الآية نفسها، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ...﴾ [النساء: ١٢٧][2]، كما سيأتي إن شاء الله.

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٢/ ١٤٢.

(٢) فتح الباري: ٨/ ٢٤٠.

- **تشريع تعدد الزوجات:**

﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أي: ثنتين ثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، لا يزاد على ذلك.

وبهذا تكونُ الآيةُ قد أضافت بيانَ حكم شرعيٍّ آخر، إلى جانب تحريم ظلم اليتامى من النساء، وهو مشروعيةُ تعدد الزوجات، فيجوزُ لكلِّ رجلٍ أن يختارَ لنفسه قسماً من هذه الأقسام بحسب حاله، فإن قدر على نكاح اثنتين فاثنتان، وإن قدر على ثلاثٍ فثلاثٌ، وإن قدر على أربعٍ فأربعٌ. لا أنه يضمُّ عدداً.

وأجمعت الأمةُ على أنه لا يجوزُ لأحدٍ أن يزيدَ على أربع نسوةٍ، وأنَّ الزيادة على أربعٍ من خصائص رسول الله ﷺ، التي لا يشارِكُه فيها أحدٌ من الأمة[١].

فالمقام مقام امتنانٍ وإباحةٍ، ولو كان يجوزُ الجمع بين أكثر من أربع لذكَرَه، قال الشافعيُّ رحمه الله: وقد دلّتْ سُنةُ رسول الله ﷺ، المبيِّنة عن الله، أنّه لا يجوزُ لأحدٍ غير رسول الله ﷺ أن يجمعَ بين أكثر من أربع نسوة. وهذا الذي قاله الشافعي مجمعٌ عليه بين العلماءِ[٢].

روي: أنّ غيلانَ بنَ سلمة الثقفي أسلمَ وتحته عشر نسوة، فقال له النبيُّ ﷺ: «**اخترْ منهنّ أربعاً**» [رواه أحمد (٣/ ١٤) والترمذي (١١٢٨) وابن ماجه (١٩٥٣)].

والجديرُ بالذكر أنّ تعدُّدَ الزوجات كان مشروعاً في الشرائع السابقة وشائعاً بين الأمم من دون حدٍّ، **فالشريعة الإسلامية هي التي حددت التعدد، ومنعت الزيادةَ على أربع.**

ولم يكتفِ الإسلامُ بالتحديد ويتركه لهوى الرجل، بل قيّده بالعدلِ، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

---

(١) تفسير الخازن: ٢/ ٧.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٣٥٦.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ أي: إن خفتم ألا تعدلوا بين أربع زوجات، أو بين ثلاثٍ أو ثنتين، فاختاروا واحدة، أو: فحسبكم واحدة، واتركوا الجمع.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: أو ما ملكتم من الإماء السراري بالتملُّكِ المشروع، وقد قيدته الشريعة الإسلامية بشروط وقيود، بحيث يندر تحققه.

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ أي: اختيار الزوجة الواحدة أقرب إلى ألَّا تميلوا عن الحق وتجوروا.

قال بعضهم: إن فيها إشارة إلى استحباب الزيادة على الواحدة لمن لم يخف عدم العدل، لأنّه سبحانه قدّم الأمرَ بالزيادة، وعلّقَ أمرَ الواحدة بخوف عدم العدل، ويا ما أُحَيْلى الزيادة إن ائتلفت الزوجات[1].

وأمّا إنْ خافَ الجَوْر فيمنع من التعدد، ويحرم عليه، درءاً لمفسدةِ الظلم، فما يؤدّي إلى الحرام فهو حرامٌ في الشريعة الإسلامية، والعدلُ مطلبٌ أساس هام في التشريع الإسلامي، كما سيأتي.

والعدل الواجب على الزوج بين نسائه **هو العدلُ الذي يقدر عليه**، وذلك بالتسوية بينهنّ في النفقة والمبيت والصحبة وحسنِ العشرة، **ولا يكلَّف أن يعدل بينهن فيما لا قدرةَ له عليه، وهو الميلُ والمحبةُ**، فذلك من أعمال القلب، ولا سلطان للإنسان على قلبه، وسيأتي قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

وفي الحديث الشريف: عن **عائشة** رضي الله عنها: أنّ النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل، ويقول: «**اللهمَّ هذا قسمي فيما أملكُ، فلا تَلُمْني فيما تَمْلِكُ ولا أَمْلِكُ**» [رواه أبو داود (٢١٣٤) والنسائي (٧/ ٦٤) والترمذي (١١٤٠) وابن ماجه (١٩٧١) وابن حبان (٤١٩٤)] قال الترمذي: يعني به الحب والمودة، كذلك فسَّره أهل العلم.

ولتعدد الزوجات في الإسلام حِكَمٌ كثيرة، أفاض العلماء في الحديث

---

(١) روح المعاني: ٤/١٩٦.

عنها، وأفردها بعضُهم بالتأليف[١]، ويكفي أن نذكر أنَّ الخلل الاجتماعي الذي تشهده كثير من المجتمعات البشرية المعاصرة، نتيجة زيادة عدد النساء على الرجال، بسبب كثرة القتل بين الرجال في الحروب المدمرة، الأمر الذي يجعل من تعدد الزوجات أمراً لازماً لحل هذه المشكلة، فضلاً عن كثير من العقبات التي تواجه كثيراً من الأزواج، كعقم الزوجة أو مرضها مرضاً يمنع زوجها من الاتصال بها، أو مسارعة الضعف والشيخوخة إليها، أو شدة الغريزة عند بعضهم، بحيث لا تكفيه امرأة واحدة لتحصينه وحمايته من شرور الزنى ومفاسده[٢].

● **حق الزوجة في المهر:**

ثم قررت الآياتُ حقّ المرأةِ المنكوحةِ في المهر مطلقاً، اليتامى في ذلك وغيرهنّ سواء، فوجهت الخطابَ إلى الأزواج، لأنهم المكلفون بذلك، وإلى الأولياء الذين يأخذون مهورَ بناتهم ونسائهم:

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةًۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾.

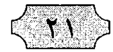
﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةًۚ﴾ أي: أعطوهنّ مهورهنّ عطيةً من الله تعالى للمرأةِ، أو: عطيةً عن طيب نفسٍ منكم.

والتعبيرُ عن إيتاء المهور بالنِّحلة، مع كونها واجبةً على الأزواج، لإفادة معنى الإيتاء عن كمال الرضا وطيب الخاطر[٣].

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ أي: فإن طابت نفوسهنَّ عن شيء من ذلك الصداق فوهبنه لكم.

---

(١) انظر كتاب: هل نملك تحريم تعدد الزوجات؟، للأستاذ بسام عبد الوهاب الجابي، من منشورات دار ابن حزم في بيروت. (الناشر).
(٢) انظر: الزواج في الإسلام، للمؤلف، ص ٧٩.
(٣) تفسير أبي السعود: ٢/١٤٣.



﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ أي: فكلوه طيباً سائغاً لا إثم فيه ولا ملامة.

وفي الآيةِ دليل على ضيق المسلك في ذلك، ووجوبِ الاحتياط؛ حيث بنى الشرط على طيب النفس فقال: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ ولم يقل: فإن وهبنَ لكم[١]، **فلا يحلُّ أخذُ ما تدفعه المرأةُ بسيف الحياء أو بالقهر والإكراه وسوء المعاملة.**

ودلتِ الآيةُ أيضاً على أنَّ المهر حقُّ المرأة، فلا يجوز لوليها أن يزوجها من دون مهر، فإن فعلَ ذلك فلها مهرُ أمثالها من النساء.

ففي الحديث الشريف: عن **ابن عمر** رضي الله عنهما: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ **نهى عن الشِّغارِ. والشّغارُ**: أن يزوِّجَ الرجلُ ابنتَه على أن يزوِّجهُ الآخَرُ ابنتَه، ليسَ بينهما صداقٌ. [رواه البخاري (٥١١٢)].

وذكرُ البنتِ في تفسير الشِّغار مثالٌ، وقد تقدّم في رواية أخرى ذكر الأخت، قال النووي: أجمعوا على أنَّ غيرَ البنات من الأخوات وبنات الأخ وغيرهن كالبنات في ذلك[٢].

- **الحجر على السفهاء:**

وكما اهتمتِ الآياتُ بالمحافظة على الحقوق الخاصة بأبناء المجتمع، وخاصة الضعفاء، اهتمّت أيضاً بالحقوق العامة للمجتمع، فالشريعة الإسلامية شريعةٌ شاملةٌ كاملةٌ، تلبّي جميع حاجات الناس التشريعية، الفردية والاجتماعية، وتقيم توازناً بين حقوق الفرد الخاصة وبين حقوق المجتمع العامة، ففي الوقت الذي تقرِّرُ حقوق الأفراد وتصونها لهم، تقرِّرُ أيضاً حقوق المجتمع وتصونها له.

وقد أبرزتِ الآياتُ هذه الحقيقة في سياق بيانها للحقوق الفردية الخاصة بالضعفاء في المجتمع، بقوله تعالى:

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٩.

(٢) فتح الباري: ٩/ ١٦٤.

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾.

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ أي: لا تعطوا السفهاء أموالهم.

والسفهاءُ: هم الذين لا يحسنون التصرّف في المال، فيضيعونه بغير فائدة.

وأصلُ **السفهِ في اللغة**: الخفّةُ والحركة، يقال: تسفَّهتِ الريحُ الشجرَ، أي: مالت به. وينسحبُ وصف السفهاء على ناقصي الأهلية من اليتامى والمجانين والصغار، وينسحبُ أيضاً على المبذرين من البالغين الأصحاء، والخطابُ في الآية لكل من يصح خطابه من الأولياء والأوصياء في المجتمع.

والمرادُ من الأموال أموالُ السفهاء، بدليل قوله بعد ذلك: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾، وفي إضافتها إلى ضمير المخاطبين إشارة إلى حق المجتمع في حفظ هذه الأموال وصيانتها، ففي حفظها وعدم تضييعها منفعةٌ للأمة بأسرها، لأنّ ما في أيدي بعض أفرادها من الثروةِ يعودُ بالصالح على الجميع، فمن تلك الأموال ينفق أربابها ويستأجرون ويشترون ويتصدَّقون، ثم تورَثُ عنهم إذا ما ماتوا، وتتوزع بين ورثتهم من أبناء المجتمع، وبهذا تتداولها أيدٍ كثيرة، وهذه إشارة لا أحسبُ أنّ حكيماً من حكماء الاقتصاد سبق القرآن إلى بيانها، وقد أبعد جماعةٌ جعلوا الإضافة لأدنى ملابسةٍ، لأنَّ الأموال في يد الأولياء... وجماعة جعلوا الإضافة للمخاطبين، لأنَّ الأموالَ من نوعِ أموالهم، وإن لم تكن أموالهم حقيقة... وأبعدَ جماعةٌ آخرون فجعلوا الإضافةَ حقيقيةً؛ أي: لا تؤتوا يا أصحابَ الأموال أموالكم لمن يضيعها من أولادكم ونسائكم، وهذا أبعد الوجوه. وقارب ابن العربي إذ قال: لأنَّ الأموال مشتركة بين الخلق تنتقل من يد إلى يد، وتخرج من ملك إلى ملك[1].

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك في وصف هذه الأموال:

---

(١) التحرير والتنوير: ٥/ ٢٣٥.

﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ وفي قراءة: (قيماً) والمعنى واحد، كما جاء عوذاً بمعنى عياذاً، أي: تقومون بها وتنتعشون(١).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «ينهى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن تمكين السفهاء من التصرّف في الأموال، التي جعلها الله للناس قياماً، أي: تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها، **ومن هنا يؤخذُ الحَجْرُ على السفهاء**»(٢).

﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ أي: اجعلوها مكاناً لرزقهم وكسوتهم، بأن تتَّجروا وتتربَّحوا حتى تكون نفقاتُهم من الأرباح لا من صلبِ المال(٣).

هذا إن وجدت الأرباح، وإلا فلابدّ من الإنفاق عليهم من أموالهم، ولهذا ذهب بعض المفسرين إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ أي: منها(٤).

﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي: قولاً جميلاً، لأنّ القولَ الجميل يؤثر في القلبِ، ويزيلُ السفه. أو: قولاً طيباً تطيبُ به أنفسهم، وترتفع معنوياتهم.

فممّا لا شكَّ فيه أنّ منع الإنسان من التصرّف في ماله يُدخِلُ عليه الألم والحزن، ويخفّف القولُ الطيِّبُ الجميل بعضَ ما يجده الإنسان في نفسه.

• **تسليم الأموال إلى اليتامى:**

ثم بيَّنت الآياتُ كيف تسلَّمُ أموالُ اليتامى لهم ووقته، بقول الله تعالى:

﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾.

﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أي: اختبروا عقولهم، وتبينوا أحوالهم ومعرفتهم بالتصرُّف

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢/١٠.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١/٣٥٨.

(٣) تفسير أبي السعود: ٢/١٤٥.

(٤) زاد المسير: ٢/١٣.

في المال قبل البلوغ، وذلك بأن يُدْفَعَ لليتيم ما يتصرّفُ فيه، حتى تتبيّنَ حاله. وفيه دليل على جواز الإذن للصبي العاقل في التجارة[1].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ أي: بلغوا مبلغَ الرجال والنساء، لقوله تعالى في **سورة النور**: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

والبلوغ للذكور والإناث بالاحتلام والسنِّ، وتختصُّ الإناثُ بالحيض والحبل، والسنُّ عند جمهور العلماء خمسَ عشرةَ سنةً، للحديث الشريف: عن **ابن عمر** رضي الله عنهما قال: عرضني رسولُ اللهِ ﷺ يومَ أُحدٍ في القتالِ، وأنا ابنُ أربعَ عشرةَ سنة، فلم يُجِزْني، وعرضني يومَ الخندقِ، وأنا ابنُ خمسَ عشرةَ سنةً، فأجازني. [رواه مسلم (١٨٦٨)].

والبلوغ عند الإمام مالك في رواية ابن القاسم: ثماني عشرة سنة للذكور والإناث، وعند الإمام أبي حنيفة: ثماني عشرة سنة للغلام، وسبعَ عشرةَ سنة للإناث.

وبلوغ ابن عمر ليس من الضروري أن يكونَ معيارَ بلوغِ عامّةِ الناس.

﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ أي: أبصرتم وتبينتم منهم حسن تصرّف في المال، من غير ضعف ولا تبذير.

﴿فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ أي: سلّموا إليهم أموالهم.

فتسليم المال إلى اليتيم يكون بشرطين: إيناس الرشد، والبلوغ، فإن وُجد أحدُهما دون الآخر لم يجز تسليم المال[2].

ودلّت الآية على وجوب المبادرة إلى دفع المال عند تحقق الشرطين، وعدم التأخير عن ذلك؛ لأن الإيناس أول ما يتبادر من العلم.

ثم أكد تعالى وجوب تسليم المال إلى اليتيم والمحافظة عليه قبل ذلك فقال:

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ١١.

(٢) تفسير القرطبي: ٥/ ٣٨.

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْۚ﴾ أي: لا تسارعوا إلى أكل أموال اليتامى قبل أن يكبروا، وذلك بالإسراف في إنفاقها.

﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْۖ﴾ أي: ومن كان من الأولياء والأوصياء غنيّاً عن مال اليتيم، غيرَ محتاج إليه، فليحترز عن أكله، ولا يأخذ منه شيئاً.

﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ أي: فليأكل بقدر جهده الذي يبذله في حفظ مال اليتيم، وهذا يختلف باختلاف أحوال الناس ومكانهم وزمانهم.

وهو ما ذهبت إليه السيدة **عائشة** رضي الله عنها، فقد قالت في الآية: إنها نزلت في مال اليتيم، إذا كان فقيراً، أنه يأكلُ منه مكانَ قيامِهِ عليه بمعروف.

وفي روايةٍ أُخرى: أنزلت في ولي اليتيم الذي يقوم عليه ويصلح ماله. [رواه البخاري (٤٥٧٥)].

وهذا يدلُّ على أنَّ الشريعة الإسلامية تحرص على حقوق جميع الناس، ولا تهمل حقَّ أحدٍ مهما كان.

ثم أرشدت الآيةُ الأوصياءَ والأولياءَ إلى الإشهاد على تسليم المال لليتيم، فإنّ ذلك يبعدهم عن تهمة الخيانة، ويدفع عنهم الخصومة:

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْۚ﴾ بأنهم قبضوها وتسلّموها، وبرأت عنها ذممكم.

وهذا الإشهادُ مستحبٌّ عند طائفة من العلماء، فإنّ القول قول الوصي لأنه أمين، وقالت طائفة: هو فرضٌ، وهو ظاهِرُ الآية، وإنّما هو أمينٌ للأب، ومن ائتمنه الأب لا يقبل قوله على غيره[١].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: محاسباً، فهو سبحانه رقيبٌ عليكم، كما مرّ في أول آيات السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، فحاسبوا أنفسكم قبل أن يحاسبكم ربكم جل وعلا، ولا تتجاوزوا حدوده التي حدّها لكم.

---

(١) تفسير القرطبي: ٥/ ٤٥.

• **تقرير المزيد من حقوق الضعفاء:**

انتعش الضعفاءُ، ورفعوا رؤوسهم، وأخذوا يتطلّعون في ظل الشريعة الإسلامية الجديدة إلى مزيد من حقوقهم المهدورة في المجتمعات الجاهلية، وها هي أم كُجّة زوجةُ أوس بن ثابت الأنصاري، الذي توفّي عنها وعن ثلاث بنات، تأتي إلى رسول الله ﷺ، تشكو إليه ما صنعه رجلانِ من أبناء عمّ زوجها، أخذا ماله، ولم يعطيا امرأته وبناته شيئاً، وكانوا في الجاهلية لا يورّثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكراً، ويقولون: لا يُعطى إلا مَنْ قاتلَ على ظهور الخيل، وطاعنَ بالرمح، وضاربَ بالسيف، وحازَ الغنيمة. فذكرت أُمُّ كُجّة ذلك لرسول الله ﷺ، فدعاهما فقالا: يا رسول الله، ولدُها لا يركبُ فرساً، ولا يحملُ كَلّاً، ولا ينكأُ عدوّاً، فقال عليه الصلاة والسلام: «**انصرفا حتى أنظرَ ما يُحدثُ الله لي فيهنّ**» فأنزل الله هذه الآية ردّاً عليهم وإبطالاً لقولهم[1]:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ أي: من المال.

﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ أي: سواء كان المال الذي تركه الميت قليلاً أم كثيراً.

﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي: مقطوعاً لابدّ لهم أن يحوزوه، فهو حقٌّ شرعي مقرَّرٌ للوارث، بيَّنت بعد ذلك آيات الميراث مقداره ـ كما سيأتي ـ.

قال القرطبي رحمه الله: «قال علماؤنا: في هذه الآية فوائدُ ثلاث:

إحداها: بيان علة الميراث، وهي القرابة.

الثانية: عموم القرابة كيفما تصرّفت من قريب أو بعيد.

---

(١) تفسير القرطبي: ٥/ ٤٦.

الثالثة: إجمالُ النصيب المفروض، وذلك مبيّنٌ في آية المواريث، فكان في هذه الآية توطئة للحكم وإبطال لذلك الرأي الفاسد، حتى وقع البيان الشافي»[1].

ولما كانت الشريعة الإسلامية تجمعُ بين العدل اللازم المفروض، وبين الإحسان المستحبّ المندوب، توجهت الآياتُ إلى البالغين من الورثة، تحضّهم على الإحسان للذين يحضرون قسمة الميراث من الأقارب واليتامى والمساكين، الذين لا نصيبَ لهم في الميراث:

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾.

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ أي: أعطوهم من الميراث شيئاً تطييباً لقلوبهم.

﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي: وقولوا لهم قولاً حسناً لا أذًى فيه ولا منةً.

- **الجزاء من جنس العمل:**

وانتقلت الآياتُ من خطاب الورثة، إلى خطاب الأولياء والأوصياء والقضاة وكل من له صلة بقسمة المواريث، تعظهم وتذكّرهم، وتوصيهم بالضعفاء من الورثة، وتستثير شفقتهم عليهم وعاطفتهم نحوهم، لكي يحفظوا لهم حقوقهم:

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾.

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾ أي: أولاداً صغاراً.

---

(١) تفسير القرطبي: ٥/٤٦.

﴿خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: خافوا عليهم من الفقر والضياع بعدهم، بسبب عدوان الأولياء والأوصياء عليهم.

﴿فَلْيَتَّقُواْ اللَّهَ﴾ أي: فليتقوا الله بهؤلاء الصغار الضعفاء الذين اؤتُمنوا على حقوقهم، وليشفقوا عليهم كما يشفقون على أولادهم الصغار، فالجزاءُ من جنس العمل، فقد يتعرّض أولادهم إلى مثل ما يتعرّض له هؤلاء الأيتام، فكما يحبون أن يُعاملَ أولادهم من بعدهم، عليهم أن يعاملوا هؤلاء الأيتام.

روى ابنُ جرير الطبري بسنده: «عن الشيباني قال: كنّا بالقسطنطينية أيام مَسْلَمَةَ بن عبد الملك، وفينا ابن محيريز وابن الديلمي وهانئ بن كلثوم، فجعلنا نتذاكر ما يكون في آخرِ الزمان، فضِقتُ ذرعاً بما سمعتُ، فقلتُ لابن الديلمي: يا أبا بشرٍ بودي أنه لا يولَدُ لي ولدٌ أبداً، فضربَ بيده على منكبي وقال: يا ابن أخي لا تفعل، فإنه ليست من نسمةٍ كتبَ الله لها أن تخرجَ من صلبِ رجلٍ، إلا وهي خارجةٌ، إن شاء وإن أبى، ثم قال: ألا أدلُّكَ على أمرٍ إن أنتَ أدركتَهُ نجّاك الله منه، وإن تركتَ ولدك من بعدِكَ حفظهم الله فيك؟ قلت: بلى. فتلا عند ذلك هذه الآية»[1].

﴿وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: عدلاً وصواباً، يحفظون فيه الحقَّ لأصحابه من غير حَيْفٍ أو جَوْرٍ، فإنّ حقوق اليتامى وأموالهم شأنها في الإسلام خطير، وأكلها ذنب كبير.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ أي: على وجه الظلم بغير حق.

﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أي: إنما يأكلون في بطونهم ما يجرُّ إلى النار، ويؤول إليها يوم القيامة.

---

(١) جامع البيان: ٤/ ٢٧٢.

﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ أي: وسيدخلون يومَ القيامةِ ناراً مسعّرة موقدةً.

• **ميراث الآباء والأبناء:**

مهد قولُه تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ. . .﴾ [النساء: ٧] لنزول آيات الميراث الثلاث، التي جمع الله تعالى فيها بإعجاز باهر، بين الإحكام والتفصيل، وقد فصّل فيها سبحانه تفصيلاً بديعاً دقيقاً أنصبة الورثة من تركةِ المتوفَّى، بإحكام وإتقان باهر.

وقد ذكروا في سبب نزول آيات المواريث، أنَّ مستضعفين آخرين أتوا إلى النبيِّ ﷺ، لكي ينصفَهم، ويدفعَ عنهم ظلمَ الجاهلية وقسوتها.

فقد أخرج [أحمد (٣/ ٣٥٢) وأبو داود (٢٨٩١) والترمذي (٢٠٩٣) وابن ماجه (٢٧٢٠)] من حديث **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما قال: جاءت امرأةُ سعدِ بنِ الرّبيع فقالت: يا رسولَ اللهِ هاتان ابنتا سعدِ بنِ الربيع، قُتِلَ أبوهما معك في أُحدٍ، وإنَّ عمَّهما أخذَ مالهما. قال: «**يَقْضِي اللهُ في ذَلك**» فنزلتْ آيةُ الميراث، فأرسل إلى عمِّهما فقال: «**أعطِ ابنتي سعدٍ الثلثينِ، وأمَّهما الثمنَ، فما بقيَ فهو لك**».

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾﴾.

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ وما أجملها من وصية! فهو سبحانه أرحم بأولادنا منا، أي: يأمركم الله بالعدل في أولادكم، فإنَّ أهلَ الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكر دون الإناث، فأمر تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث.

وقوله: ﴿أَوْلَٰدِكُمْ﴾ يشمل كل ولد موجود، ولو كان جنيناً في بطن أمه[1].

﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أي: إذا اجتمع الولد والبنتان كان له سهمان، وللبنتين سهمان.

وأما في حال الانفراد فالابنُ يأخذُ المالَ كله. والبنتان تأخذان الثلثين، دل عليه قوله تعالى بعد ذلك:

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً﴾ أي: كانت الأولادُ نساءً خُلَّصاً، بنات ليس معهن ابن.

﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي: زائدات على اثنتين.

﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ أي: ثلثا ما ترك الميت من المال.

﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً﴾ أي: كان للميت بنت واحدة.

﴿فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ أي: نصفُ ما تركَ الميتُ، إن لم يكن معها ابنٌ، فإن كان معها ابن فلها الثلث، وللابن الثلثان.

وإذا كان الثلثُ نصيبَ البنتِ الواحدةِ، فالثلثان نصيب البنتين، وسيأتي في آخر السورة ـ عند آية الميراث الثالثة ـ أن للأخت عند عدم الوالد والولد نصفَ الميراث، وللأختين الثلثين، والبنتان أمسُّ رحماً بالميت من الأختين؛ ولهذا أوجب لهما أكثر العلماء الثلثين.

وجاء نصيب الولد ضعف نصيب أخته في الميراث، منسجماً مع عدالة الشريعة الإسلامية وواقعيتها؛ إذ كلّفت الشريعةُ الإسلاميةُ الذكر بمسؤوليات مادية أكثر من الأنثى، فالأنثى في الشريعة الإسلامية لا تكلَّف بالإنفاق على أحدٍ، بل أوجبَ الإسلام نفقتها إذا لم يكن لها مالٌ على أقرب الناس منها، ولم يكلّفها بالعمل والاكتساب، فالبنتُ نفقتُها على والدها، والزوجةُ على زوجها، والأمُّ على أولادها، والأختُ على إخوتها، وإذا ما تزوّجت أخذتِ المهرَ، بينما إذا تزوّجَ أخوها كُلّفَ بدفع المهر والإنفاق على الأسرة.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٦٢.

﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ أي: لكل واحد من والدي المتوفى سدس ما ترك.

﴿إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ أي: إن كان للمتوفى ولد، ذكراً كان أو أنثى.

﴿فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ﴾ أي: ثلث ما ترك المتوفَّى.

وسكتت الآيةُ عن بيان نصيب الوالد في هذه الحالة؛ لأنه يأخذُ الباقي من التركة؛ إذ هو داخلٌ في حالته المقررة في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ فبيان نصيبِ أحدهما يدلُّ على أنَّ الباقي من التركة للثاني، وهو ما جاء مصرّحاً به في الحديث النبوي الشريف: «**أَلْحِقُوا الفرائِضَ بأهلِها، فما بقيَ فهو لأولَى رَجُلٍ ذَكَرٍ**» [رواه البخاري (٦٧٣٢)].

وينقص نصيب الأم من الثلث إلى السدس إذا كان للميت إخوة، اثنان من الإخوة والأخوات فأكثر، لقوله تعالى:

﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ﴾ وليس للإخوة في هذه الحالة شيءٌ، فالباقي يأخذه الأب، كرجل مات عن أبوين وأخوين، فإنَّ للأمِّ السدس، والباقي ـ وهو خمسة أسداس ـ للأب، سدس بالفريضة، والباقي بالتعصيب، قال قتادة: وإنّما حجب الأخوةُ الأمَّ من غير أن يرثوا مع الأب شيئاً، معونة للأب؛ لأنه يقوم بشأنهم وينفق عليهم، دون الأم[1].

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ أي: هذه الفروض والسهام، تعطى لأصحابها بعد قضاء دين المتوفّى، وإنفاذِ وصيته التي أوصى بها من ثلث ما ترك.

وذكر الوصية مقدّمٌ على الدَّين في اللفظ لا في الحكم؛ لأنَّ كلمة (أو) لا تدل على الترتيب، والدَّين يُبْدَأُ به قبل تنفيذ الوصية؛ لأنه حقٌّ سابق في مال الميت، فالمدين لا يملك من ماله إلّا ما هو فاضِلٌ عن وفاء دَينه.

---

(١) تفسير الخازن: ٢/٢٦.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أجمع العلماءُ من السلف والخلف على أنَّ الدَّين مقدم على الوصية، وذلك عند إمعانِ النظر يُفهم من فحوى الآية الكريمة.

وروى [أحمد (١/ ٧٩) والترمذي (٢٠٩٦)]: عن **عليٍّ بن أبي طالب** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: إنّكم تقرؤون: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ وإنّ رسولَ اللهِ ﷺ قضى بالدَّين قبلَ الوصيةِ»[1].

﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ﴾ أي: الذين ذكر الله فروضهم في الآية، هم آباؤكم وأبناؤكم، فالتزِموا بما فرض الله فيها، فإنّكم لا تدرون أيهم أنفع لكم، فقد ينفع الله الوالد بدعاء ولده الصالح له بعد موته، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «**إذا ماتَ الإنسانُ انقطعَ عملُه إلّا من ثلاثةٍ: إلّا منْ صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفعُ بهِ، أو ولدٍ صالحٍ يدعو لَهُ**» [رواه مسلم (١٦٣١)].

وقد ينفع الله الولد بصلاح والده يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور: ٢١].

﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي: ما قُدِّر من الفرائض في المواريث فريضة واجبة أوجبها الله تعالى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ أي: في كل ما قدّر وشرع، فالتزموا بشرعه وتمسكوا بحكمه.

- **ميراث الزوجين:**

ثم بيَّن سبحانه التوارث بسبب الزواج وعصمة النكاح، وما كانوا في الجاهلية يتوارثون به، فقال:

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٣٦٣.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي الثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)﴾.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ أي: إن لم يكن لهنّ فَرْعٌ وارث من بطونهن، ذكر أو أنثى، منكم أو من غيركم.

﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾ أي: من المال.

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ أي: من بعد وفاءِ ما عليهنّ من دين، وتنفيذ وصاياهن، وهذا يدل على أن للمرأة في الإسلام حقّاً في الإيصاء والتعامل بالدَّين كالرجل.

﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾ أي: للزوجات ربع ما ترك الزوج المتوفى إذا لم يكن له ولد، ذكر أو أنثى، منهن أو من غيرهن.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾ أي: من المال.

﴿مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ من بعد وفاء ما عليكم من دَين، وتنفيذ وصاياكم.

والجدير بالذكر أنّ الزوجةَ الواحدةَ لها الربع أو الثمن، ولو كنَّ أربع زوجات يشتركن في الربع أو الثمن، وأنَّ اسمَ الولدِ يطلق على الذكر والأنثى، ولا فرق بين الولد وولد الابن.

- **ميراث الإخوة من الأم:**

والإخوةُ من الأمِّ لهم نصيبٌ في الميراث إذا لم يكن للمتوفَّى والد أو ولد، قال تعالى:

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ أي: تورث كلالةً أيضاً.

والكلالةُ: اسم مصدرٍ من الكلالِ، وهو التعبُ والإعياءُ، والمرادُ به: **الميتُ الذي يموتُ من غيرِ والدٍ ولا ولدٍ.**

﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أي: وللمتوفَّى أخ من أم، أو أخت من أم، واكتفى ببيان حكم الرجل عن المرأة، لدلالةِ العطف على اشتراكهما فيه.

﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ﴾ لأنهم يستحقون الميراث بقرابة الأم، وهي لا ترث بأكثر من الثلث؛ ولهذا لا يفضل الذكر منهم على الأنثى[١].

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ وإنما تكرر ذكر الوصية والدَّين، لاختلاف الموصين والمدينين.

وهذا يدل على اهتمام الشريعة الإسلامية بحقوق الناس، وحرصها على وصول أصحاب الحقوق إلى حقوقهم، ولهذا شرط الله تعالى على الموصين ألا يدخلوا الضرر بوصاياهم على الورثة، فقال:

﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ﴾ أي: يوصي بها غير مُدْخِل الضرر على الورثة، كأن يوصي بأكثر من الثلث، أو يوصي بوفاء دَين ليس عليه، أو يقر بماله أو أكثره لأجنبي ويترك الورثة[٢]، أو يقر به لبعض الورثة ليحرم الآخرين، وكل ذلك إضرار محرّمٌ، مخالف لشرع الله تعالى.

﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ أي: هذه الأحكام وصية من الله تعالى عهد بها إليكم، فالتزموا بها.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بمصالح عباده.

﴿حَلِيمٌ﴾ أي: ذو حلم وأناة، لا يعاجلهم بالعقوبة حتى يرجعوا ويتوبوا.

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٣٠.

(٢) تفسير الخازن: ٢/ ٣٠.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: هذه الأحكام التي سبق بيانها، شَرْع الله تعالى الذي شرعه لكم، فهي بمثابة الحدود المحدّدة للمكلّفين لا يجوزُ لهم تجاوزها.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: ومن التزم ما شرع الله تعالى وما سنَّ له رسول الله ﷺ، ورضي بذلك:

﴿يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وجاء بعد هذا الترغيب في التمسُّك بشريعة الله تعالى الترهيب والوعيد لمن أعرض عنها:

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: ومن يخالف حكم الله تعالى وشرعه.

﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ أي: ويتجاوز شرعه سبحانه إلى ما يشرعه البشر من الشرائع والقوانين الوضعية.

﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا﴾أي: ماكثاً فيها أبداً.

﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لهوانه على الله تعالى.

ولعلّ إفراد اللفظ هنا في آية الترهيب، وجمعه هناك في آية الترغيب، للإشعار بأنّ الخلودَ في دار الثواب بصيغة الاجتماع أجلبُ للأُنسِ، كما أنَّ الخلودَ في دار العذاب بصيغة الانفراد أشدُّ في استجلابِ الوحشةِ[1].

(١) تفسير أبي السعود: ٢/ ١٥٤.

• **سلامة العِرْض:**

وكما حفظ الإسلام للإنسان حقوقه المادية، حفظ له أيضاً حقوقه المعنوية، وأهمُّها سلامةُ عِرْضِهِ، وصيانته عن القدح والذم، ولهذا حرَّم الزنى، وحرَّم أيضاً قذف الإنسان بالزنى، واتهامه به. وشرط لثبوت جريمة الزنى شهادةَ أربعةِ شهودٍ عدولٍ. وشرع سبحانه في أول الأمر عقوبةً للزناة بقوله:

﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ أي: يفعلن الفاحشة، وهي جريمة الزنى، سُمِّيت بالفاحشة لزيادة قُبحها.

﴿فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ أي: اطلبوا شهادةَ أربعة من المسلمين.

والخطابُ للحكَّام والقضاة، فلا تثبتُ جريمةُ الزنى إلا بشهادةِ أربعةِ شهودٍ، أو بإقرار الزاني أربعَ مرَّاتٍ في أربعة مجالس.

﴿فَإِن شَهِدُوا۟﴾ أي: شهدوا عليهن بالزنى.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ﴾ أي: احبسوهن في البيوت، فلا يخرجن منها.

﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: حتى يستوفي الموت أرواحهنَّ.

ففي الآيةِ تهويلٌ للموت، وتصويرٌ له في صورةِ مَنْ يتولَّى قبض الأرواح.

فالمرأة الزانية تُحبَسُ في البيت، وتُحمَلُ على الإقامة الدائمة فيه، وتُمْنَعُ من الخروج والتسكُّع في الشوارع والطرقات، فلا يتعرَّضُ لها أحد، ولا تتعرَّضُ لأحدٍ. وقد شرع هذا الحكم أولاً قبل تشريع حدِّ الزنى، ولهذا قال تعالى يشير إلى أنه حكم مؤقت:

﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ أي: يشرع لهن حكماً خاصّاً يبين فيه كيفية معاملتهن.

وأما الرجال الزناة فشرع لهم سبحانه أولاً عقوبة الأذى:

﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ﴾ أي: واللذان يفعلان الفاحشة، والمراد بهما صنفا الرجال المتزوجين وغير المتزوجين، أو اللذان يفعلان فاحشة اللواط.

﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ أي: بالشتم والتعيير، والضرب بالنعال.

﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا﴾ أي: تابا عن الفاحشة، وتركا ما كانا عليه، وصلحت أعمالُهما وحسنت.

﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ﴾ أي: فتوقفوا عن إيذائهما.

أو: أعرضوا عنهما بالإغماض والستر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ أي: يقبل توبة التائب ويرحمه.

وهذا أيضاً قبلَ تشريع حدِّ الزنى بقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النُّور: ٢] وهذا إذا كانا غير متزوجين، أمّا إذا كانا متزوجين فعقوبتُهما الرجمُ كما ثبت في السُّنَّة الصحيحة من قوله وفعله ﷺ.

- **المسارعة إلى التوبة:**

ومن المعلوم أنَّ تشريع العقوبات لا يكفي وحده لتطهير المجتمع من المجرمين، ولابدَّ أن ترافقه التربية والتوجيه والإرشاد، ولهذا اتجهت الآياتُ تخاطِبُ العصاةَ والمجرمين تحثُّهم على التوبة، وترغِّبهم فيها:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إن قبول التوبة كالأمر المحتوم على الله تعالى بمقتضى وعده بقبول توبة التائبين.

﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي: متلبسين بجهالةٍ، وهي السفه والطيش والجهل، فهي وصفٌ كاشفٌ، لأن ارتكابَ القُبح يدعو إليه السفه والجهل.

قال قتادة: أجمع أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ على أنَّ كلَّ شيءٍ عُصي اللهُ به فهو جهالةٌ، عمداً كان أو غيره(١).

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ أي: يتركون الذنب، ويتوبون عنه بعد فعله بزمن قريب، ولا يصرّون عليه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ويمتدُّ زمن التوبة إلى وقت الاحتضار وانتهاء الحياة، ولكنَّ الآية تحثُّ على المبادرة إلى التوبة، وعدم الإصرار على الذنب، لأنّ الإنسانَ لا يدري متى ينزلُ به الموتُ وينتهي أجله، فقد تفوته التوبةُ، ويموتُ مصرّاً على المعصية، وقد تُدْمِنُ النفسُ على المعصيةِ، فلا تستطيعُ تركها والتخلُّصَ منها.

وفي الآية إشارة أيضاً إلى قصر الحياة وقرب الموت، فكلُّ آتٍ قريبٌ، وعمرُ الإنسان مهما طال قليلٌ، والموتُ منه قريبٌ.

﴿فَأُولَٰٓئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يقبل سبحانه توبتهم بفضله ورحمته فهي عِدَةٌ وهبةٌ كريمة من الله ﷻ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بالتائبين المخلصين في توبتهم.

﴿حَكِيمًا﴾ في العفو عنهم وقبول توبتهم.

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْـَٰٔنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: ولا توبة للذين يعملون السيئات ويصرُّون عليها.

---

(١) تفسير الخازن: ٢/ ٣٥.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ فهي توبةُ اليأس، وهي غيرُ مقبولة، كتوبة فرعون عندما أدركه الغرق: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس].

﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي: ولا توبة أيضاً للذين يموتون على الكفر، فكما لا يقبل الله توبة الكافر يوم القيامة، فإنه لا يقبل أيضاً توبة المصرِّين حين ينزل بهم الموت.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: المذكورون من الفريقين.

﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: هيأنا لهم عذاباً مؤلماً موجِعاً.

- **تحريم مظالم جاهلية:**

وتابعت الآياتُ تقرِّرُ الحقوقَ، وتدفعُ الظلمَ عن المظلومين والمستضعفين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ﴾ أي: لا يحل لكم أن تأخذوهنَّ على سبيل الإرث كما تؤخذ المواريث، وهنّ كارهاتٌ لذلك. وهي من صور الظلم التي كانت المرأة تعاني منه في الجاهلية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: **كانوا إذا ماتَ الرجلُ كان أولياؤه أحقَّ بامرأته، إن شاءَ بعضُهم تزوَّجها، وإن شاؤوا زوَّجُوها، وإن شاؤوا لم يزوِّجُوها، وهم أحقُّ بها من أهلِها، فنزلتْ هذه الآيةُ في ذلك.** [رواه البخاري (٤٥٧٩)].

ثم أضافت الآياتُ دفعَ مظلمةٍ جاهليةٍ أُخرى كانت تصدر من الأزواج الذين يسيئون معاملة زوجاتهم، فوجهت الخطاب إليهم:

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أي: لا تضاروهنَّ في العِشرةِ

لتتركَ لك صداقها أو بعضه، أو حقّاً من حقوقها عليك، أو شيئاً من ذلك، على وجه القهر لها والإضرار[(١)].

﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ أي: إلا أن يكونَ سوءُ العشرة من جهتهنَّ، كإيذاء الزوجِ وأهلهِ، وقيل: الفاحشة هي الزنى، فالمرادُ إذا نشزت أو زنت حلَّ للزوجِ أن يسألها الخُلعَ بما أعطاها من المهرِ أو ببعضِه.

وبعد أن نهاهم سبحانه عن ظلمِ المرأةِ والإضرارِ بها، أمرهم تعالى بالمعاشرة الحسنةِ والمعاملةِ الطيبةِ، فقال:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ أي: بحسب ما أمر الله تعالى، وسَنَّ رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وكان من أخلاقه ﷺ أنّه جميلُ العِشرةِ، دائمُ البِشْر، يداعبُ أهله، ويتلطّفُ بهم، ويوسعهم نفقته، ويضاحِكُ نساءه، حتى إنّه كان يسابِقُ عائشةَ أم المؤمنين رضي الله عنها، يتودَّدُ إليها بذلك، قالت: سابقني رسولُ الله ﷺ فسبقتُه قبل أن أحمِلَ اللحمَ، ثم سابقتُهُ بعدما حملتُ اللحمَ فسبقني، فقال: «**هذِهِ بتلكَ**» [رواه أبو داود (٢٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٧٩)].

وكان يجمعُ نساءَه كلَّ ليلةٍ في بيتِ التي يبيتُ عندَها رسولُ اللهِ ﷺ فيأكلُ معهنَّ العَشاءَ في بعضِ الأحيانِ، ثم تنصرفُ كلٌّ واحدةٍ إلى منزلها. [رواه أبو داود (٢١٣٥)][(٢)].

ومن حسن العشرة أيضاً: الصبرُ عليهنَّ، واحتمالُ ضعفهنَّ وتقصيرهنَّ.

﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ﴾ أي: سئمتم صحبتهن فلا تفارقوهنَّ، واصبروا على معاشرتهنّ، فالإسلام حريص على بقاء الأسرة، ولا يشجع الطلاق.

﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ فقد تكره النفوسُ ما في عاقبته خير كثير.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٣٦٨.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٣٦٩.

ففي الآية إرشادٌ إلى التأنّي والتروّي وعدمِ الاغترار بالمظاهر الخادعة، قال رسول الله ﷺ: «**لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنةً** ـ أي: لا يبغض ـ **إن كرهَ منها خُلُقاً رضيَ منها آخرَ**» [رواه مسلم (١٤٦٩)].

ومرَّ معنا وصيتُه ﷺ بالنساءِ وقوله: «**استوصوا بالنساءِ، فإنّ المرأةَ خُلِقَتْ من ضِلَعٍ، وإنَّ أعوجَ شيءٍ في الضلعِ أعلاه، إن ذهبتَ تُقيْمهُ كَسَرْتَهُ...**» [رواه البخاري (٥١٨٦)].

وحرّمَ الله أيضاً على الأزواجِ استرداد شيءٍ من مهر المرأة، إذا أرادوا طلاقها، فقال:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ أي: إن أردتم تطليقَ امرأةٍ وتزوُّجَ أخرى.

﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ أي: مالاً كثيراً.

﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تأخذوا من القنطار شيئاً.

﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ وهو استفهامُ إنكار وتوبيخ.

والبهتان: اتهام البريء، وكان أحدُهم إذا أراد امرأةً جديدةً رمى زوجته بفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها، ويتمكّنَ بذلك من الزواج بغيرها.

وتابعت الآيات تستعظم هذا الذنب وتوبّخ فاعليه:

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: كيف تأخذون المهر! وقد

تمَّ اجتماع بعضكم إلى بعض، وخلا بعضكم إلى بعض؟ فإنَّ حسن العهد من الإيمان، واللهُ يسألُ عن صحبةِ ساعةٍ، أبَعَدَ أن صحبتَها وعاشرتَها تأخذُ مهرَها، وتظلِمُها حقَّها؟!.

وكلمة ﴿أَفْضَىٰ﴾ تدلُّ على عمق الصلة بين الزوجين، وتذكير للزوج بما كان بينه وبين زوجته قبل أن تسوءَ العلاقةُ بينهما، فهي ترسمُ عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار، وعشرات الذكريات لتلك المؤسسة التي ضمَّتهما فترةً من الزمن، وفي كلِّ اختلاجةِ حُبٍّ إفضاءٌ، وفي كلِّ نظرةِ ودٍّ إفضاءٌ، وفي كلِّ لمسةِ جسمٍ إفضاءٌ، وفي كلِّ اشتراكٍ في ألمٍ وأملٍ إفضاءٌ[1].

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي: عهداً مؤكداً شديداً عند عقد النكاح، فللصحبةُ السالفة حرمة أكيدةٌ، فراعوها، وأوفوا بموجب ميثاقها.

أخرج الحاكم والبيهقي في «الشُّعَب»: عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: جاءت عجوزٌ إلى النبيّ ﷺ، فقال: «**كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟**» قالت: بخير بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ الله، فلمّا خرجتْ قلتُ: يا رسولَ اللهِ تُقْبلُ على هذهِ العجوز هذا الإقبال؟ فقال: «**يا عائشةُ إنَّها كانتْ تأتينا زمانَ خديجةَ، وإنَّ حُسْنَ العهدِ من الإِيْمَانِ**»[2].

• تحريم الزواج من زوجات الآباء:

مرَّ معنا في أول آية في السورة أنَّ المرأةَ خُلقت من جزء من أجزاء الرجل، وأنّ هذا أصل الميل الفطري عند الرجل والمرأة إلى بعضهما، فكلُّ واحدٍ منهما زوج للآخر، ولهذا فإنَّ الزواج حقٌّ من الحقوق الطبيعية لكلٍّ من الرجل والمرأة، ومطلب ضروري لهما.

وقد شرعه الله تعالى في الإسلام، وحثّ عليه النبيُّ ﷺ قولاً وفعلاً، واهتمّت الآيات الكريمة به، فبيَّنت كثيراً من أحكامه، ومن الأحكام التي بيَّنتها

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٦٠٦.

(٢) فتح الباري: ١٠/٤٣٦.

آيات سورة النساء **بيانُ المحرَّمات في النكاح**، وبدأت الآياتُ أولاً بتحريم الزواج من أزواج الآباء، الذي كان سائداً في الجاهلية، وكان مظهراً من مظاهر الظلم الذي كانت المرأة تعاني منه كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ [النساء: ١٩]، وكثيراً ما كان الولدُ الكبيرُ للمتوفى يتزوّجُ بزوجة أبيه، حتى أنزل الله تعالى قوله الكريم:

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: لا تتزوجوا ما تزوَّجَ آباؤكم من النساء، فإنهنَّ محرَّماتٌ عليكم.

وفسّر بعضُهم النكاح بالوطء، وعليه تكون موطوءة الأب بزواجٍ أو بزنى محرَّمة على الابن.

وتشمل كلمة (**الآباء**) الأجداد مهما علوا، فنساؤهم محرَّمات على أحفادهم.

﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ﴾ أي: لكن لا تُؤَاخَذون على ما قد سلف ومضى قبل نزول التحريم، مما يدل على أنه كان سائداً في الجاهلية.

قال ابن كثير رحمه الله: «حرَّم الله تعالى زوجات الآباء تكرمة لهم، وإعظاماً واحتراماً أن توطأ من بعدِه ـ أي: من قِبَل ولدِه ـ حتّى إنها لتحرمُ على الابنِ بمجرَّدِ العقد عليها، وهذا أمر مجمع عليه»(١).

وروى ابن جرير الطبري بسنده إلى عكرمة: «أنّه قال: نزلت في أبي قيس بن الأسلت، خَلَف على أمِّ عبيد بنت ضمرة، كانت تحت الأسلتِ أبيه، وفي الأسود بن خلف، وكان خَلَفَ على بنت أبي طلحة بن عبد العزى، وكانت عند أبيه خلف، وفي فاختة بنت الأسود، وكانت عند أمية بن خلف، فخَلَفَ عليها

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٣٧٠.

صفوان بن أمية، وفي منظور بن رباب، وكان خلف على مُليكة بنت خارجة، وكانت عند أبيه رباب بن سيّار»[١].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ أي: إنّ نكاحَ زوجة الأب فاحشةٌ؛ لأنّ زوجة الأب بمنزلة الأم، ونكاح الأمهات حرام، ولهذا سماه فاحشة لأنه من أقبح المعاصي.

﴿وَمَقْتًا﴾ أي: وكان مقتاً، **والمقت**: أشدُّ الغضب، فهو يورث المقت من الله تعالى، ويورث أيضاً مقت الولد لأبيه بعد أن يتزوج امرأته.

﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي: وطريقاً سيئاً لقضاء الشهوة، كما قال في الزنى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

فمن تعاطاه بعد هذا البيان، فقد ارتدَّ عن دينه، ويعامَلُ معاملةَ المرتد.

فقد روي عن **البراء بن عازب** رضي الله عنه: عن خاله **أبي بُرْدَةَ**: أنّه بعثه رسولُ اللهِ ﷺ إلى رجلٍ تزوّجَ امرأةَ أبيه من بعدِهِ، أن يقتلَهُ، ويأخذَ ماله. [رواه أحمد (٤/ ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٧) وأبو داود (٤٤٥٧) والترمذي (١٣٦٢) والنسائي (٦/ ١٠٩) وابن ماجه (٢٦٠٧)].

- **المحرَّمات في الزواج:**

ثم أضافت الآيات بيان المحرمات في النكاح بقوله تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ أي: اللاتي ولدنكم مهما علونَ كأمِّ الأب وأم الأم.

(١) تفسير الطبري: ٤/ ٣١٨.

﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ أي: اللاتي من فروعكم مهما نزلت كبنت الابن وبنت البنت.

﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ جمعُ أختٍ، وهي كلُّ امرأة شاركتك في أصلك. فيشمل التحريمُ الأخواتِ الشقيقاتِ من الأب والأم، والأخواتِ من الأب، والأخواتِ من الأم.

﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾ جمع عمَّة، وهي كلُّ امرأة شاركت أباك في أصله، وهنَّ جميع أخواتِ الأب وأخواتِ آبائه وإن علون، وقد تكون العمّةُ من جهةِ الأم كأخت أب الأم.

﴿وَخَالَاتُكُمْ﴾ جمع خالة، وهي كل امرأة شاركتِ الأمَّ في أصلها كما في العمّات.

﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ أي: مهما نزلْنَ.

فهذه الأصنافَ السبعة محرّمة بالنسب، وحرمتهن مؤبدةٌ، لا تحلُّ بوجه من الوجوه.

وأما **المحرَّمات بالسبب** فهن:

﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ فكل امرأة أرضعتك فهي محرَّمةٌ عليك، وهي أمك من الرضاعة، وبناتها محرَّمات عليك، وهنَّ أخواتك من الرضاعة.

والجدير بالذكر: **أنه يَحْرُمُ من الرضاع ما يَحْرُمُ من النسبِ**.

وذكر سبحانه الأم والأخت ليدل على تحريم جميع الأصول والفروع.

وفي الحديث الشريف: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: قيل للنبيِّ ﷺ: ألا تتزوجْ ابنةَ حمزةَ؟ قال: «**إنّها ابنةُ أخي من الرضاعةِ**» [رواه البخاري (٥١٠٠)].

وعن **عائشة** رضي الله عنها: أنّ النبيَّ ﷺ قال: «**الرضاعةُ تحرِّمُ ما تُحَرِّمُ الولادةُ**» [رواه البخاري (٥٠٩٩)].

فكلُّ مَنْ حُرّمت بسبب الولادة والنسب حُرِّمَ نظيرُها بسبب الرضاعة، وإنّما سَمَّى الله المرضعات أمهاتٍ لأجل الحرمة، فيحرم عليه نكاحها، ويحلُّ له النظر

إليها، والخلوة بها، والسفر معها، **ولا يترتب عليه جميع أحكام الأمومة من كل وجه، فلا يتوارثان، ولا تجب على كل واحد منهما نفقة الآخر**[1].

ولا يتعدَّى التحريمُ إلى أحدٍ من قرابة الرضيع، فليست أخته من الرضاعة أختاً لأخيه، ولا بنتاً لأبيه، إذ لا رضاع بينهم[2].

والرضاع المحرِّمُ هو الذي يقع في السنتين الأوليين من عمر الرضيع، وعند أبي حنيفة يمتدُّ إلى انتهاء سنتين ونصف.

﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ فمن تزوّجَ امرأة حرِّمت عليه أمُّها وجميع جداتها من قِبَل الأب والأم، ويثبت التحريم بمجرَّد العقد عليها؛ دخل بها أو لم يدخل.

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾ أي: ويحرم عليكم بنات نسائكم اللاتي رُبِّين في بيوتكم.

وهذا بيانٌ لعلة التحريم، وليس شرطاً له، فبنتُ الزوجةِ تحرم على الزوج مطلقاً سواء نشأت في حجره أم لا.

﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ أي: بشرط أن يتم الدخول بأمها.

وأما إذا طلقها قبل الدخول بها أو ماتت، فتحل له بنتها لقوله تعالى:

﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا حرج عليكم أن تتزوجوا بناتهن إذا فارقتموهن بطلاق أو موت.

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾ أي: ويحرم عليكم أزواج أبنائكم، جمع حليلة، والرجل حليل، لأنّ كل واحد منهما يحل للآخر، أو يحل فراش الآخر؛ من الحل أو من الحلول.

﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ أي: الذين ولدوا منكم فعلاً، وهم أولادكم في النسب، وخرج بذلك الذين كانوا يتبنونهم.

---

(١) تفسير الخازن: ١/ ٤٢.

(٢) فتح الباري: ٩/ ١٤١.

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يتزوَّجَ السيدة زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنهما، وكان ﷺ قد تبنَّاه، وأنزل سبحانه في ذلك قوله الكريم: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

ودلَّت الآية على أنه يحرم على الرجل أزواج أبنائه وأبناء أبنائه مهما نزلوا من النسب والرضاع بنفس العقد، ولا يشترط الدخول.

﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ أي: وحرِّم عليكم الجمع بين الأختين في النكاح، فالجمع بين الأختين في التزويج حرام بالإجماع، سواء كانتا شقيقتين، أَمْ من أب، أَمْ من أم، وسواء النسب والرضاع[1].

وأضاف النبيُّ ﷺ تحريمَ الجمع بين المرأة وعمّتها أو خالتها؛ فعن جابر رضي الله عنه قال: **نهى رسولُ اللهِ ﷺ أن تُنْكَحَ المرأةُ على عمَّتِها أو خالتِها**. [رواه البخاري (٥١٠٨)].

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**لا يُجْمَعُ بينَ المرأةِ وعمَّتِها، ولا بَيْنَ المرأةِ وخالتِها**» [رواه البخاري (٥١٠٩)].

وورد في روايةٍ علةُ التحريم، فعند **ابن حبان**: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما: نهى أن تُزَوَّج المرأةُ على العمّةِ والخالةِ، وقال: «**إنكنَّ إذا فعلتنَّ ذلك قطعتُنَّ أرحامَكُنَّ**» إذ يحدث بينهنَّ ما يحدثُ عادةً بين الضرائر من الكراهية والقطيعة.

﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ﴾ أي: إلا ما مضى قبل التحريم، فهو مغفور لكم.

ولهذا قال تعالى بعده:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

---

(١) فتح الباري: ٩/ ١٦٠.

﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٢٤﴾.

﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: وحرِّم عليكم المتزوجات من النساء.

وحرمتهُنَّ مؤقتةٌ ما دام النكاح قائماً، فإذا انفسخ بطلاقٍ أو موتٍ، وانقضت عدتهنَّ، حلَّ الزواج منهن، فالإسلام يبيحُ تعدد الزوجات، ويحرِّم تعدد الأزواج حرصاً على سلامة الأنساب.

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ أي: إلا ما ملكتم من الأسيرات المتزوِّجات.

فإذا أذن وليُّ الأمر في استرقاقهن، فيجوزُ لمن يملكها بعد القسمة أن يطأها بملك اليمين بعد أن يستبرئها بحيضةٍ، ليتأكد من خلوِّ رحمها عن حملٍ سابق، فإذا ما حملت وولدت أصبحت أمَّ ولدٍ يحرمُ بيعها، وتصبحُ حرةً بعد موت سيدها. فالتسرِّي بملك اليمين من الأسباب المشروعة للوصول إلى الحرية، وهو أيضاً من أسباب منع الزنى وانتشار الفواحش في المجتمع كما سيأتي معنا.

﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ أي: كتب الله عليكم تحريمَ هذه الأصناف من النساء كتاباً. وقرئ بالرفع، ومعناه: هذه فرائض الله عليكم فالتزموا بها.

- **تحريم نكاح المتعة:**

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: أحل الله لكم ما سوى المحرمات المذكورات.

﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ﴾ أي: أحل الله لكم أن تطلبوا بأموالكم غير ما ذكر من النساء متزوجين:

﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾ أي: غير زانين. **والسفاح**: الزنى، من السفح وهو الصبُّ، وسُمِّي الزنى سفاحاً، لأنّ الزاني لا غرض له سوى صب النطفة[١].

ثم بيَّن سبحانه أنَّ الزوجةَ تستحقُّ المهرَ كلَّه إذا استمتع زوجها بها، فقال:

﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةًۚ﴾ أي: فما انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الصحيح فآتوهنَّ مهورهنَّ، فإذا جامعها مرَّةً واحدةً فقد وجبَ المهرُ كاملاً إن كان مسمًّى، أو مهر مثلها إن لم يسمَّ[٢].

ولا يجوز أن تُحْمَلَ الآيةُ على جواز نكاح المتعة، لأنَّ رسول الله ﷺ نهى عن نكاح المتعة وحرمه[٣].

ونكاحُ المتعةِ: **هو أن ينكحَ الرجلُ المرأةَ بمالٍ معلوم إلى أجلٍ معيَّنٍ**، ليلةً أو ليلتين أو أسبوعاً، بثبوتٍ أو غيرِ ثبوتٍ، ويقضي منها وطراً، ثم يتركها. **والإشهاد على العقدِ مستحبٌّ، وإذن الولي غيرُ معتبرٍ، ولا ميراثَ بينهما في هذا النكاح، وعلى المرأة الاعتداد بعد انتهائه بحيضتين كاملتين، فإنْ كانت لا تحيضُ فعدتها خمسة وأربعون يوماً، والفراقُ يكون بانتهاء المدّةِ، أو أن يهب المتمتِّعُ المرأةَ ما بقي منها، والنسب فيه ثابتٌ**، لأنّه ـ بزعمهم ـ عقدٌ مشروع غيرُ منسوخ[٤].

وأبيح نكاح المتعة في أول الأمر بالسُّنَّة في الغزو البعيد والسفر الطويل، إذ يشتد الشَّبَقُ، ويقلُّ الصبر، وتُخشى الفتنة، وهم حديثو عهد بإباحية وكفر، ثم حُرِّمَ بالسُّنَّة أيضاً، فلا علاقة للآية بنكاح المتعة البتةَ، إنَّما هو نكاحٌ أبيحَ بالسُّنَّةِ أولاً، ثم نُسِخَ حكمُ الإباحةِ وحرِّم بالسُّنَّةِ أيضاً، وهو ما ذهبَ إليه جمهور المفسرين.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد تكلَّف قومٌ من مفسِّري القرَّاء، فقالوا: المراد

---

(١) تفسير الخازن: ٢/ ٥٠.

(٢) تفسير القرطبي: ٥/ ١١٩.

(٣) المرجع السابق: ٥/ ١٣٠.

(٤) انظر: نكاح المتعة في الإسلام حرام، للشيخ محمد الحامد.

بهذه الآية نكاحُ المتعة، ثم نُسِخَتْ بما روي عن النبي ﷺ: **أنَّه نهى عن متعة النساء**، وهذا تكلُّفٌ لا يُحتاجُ إليه، لأنَّ النبيَّ ﷺ أجاز المتعة، ثم منع منها، فكان قوله منسوخاً بقوله، وأمّا الآية فإنّها لم تتضمّن جوازَ المتعة، لأنه تعالى قال فيها: ﴿أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ فدلَّ ذلك على النكاح الصحيح، قال الزجاج: ومعنى قوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ﴾ فما نكحتموهن على الشريطة التي جرت، وهو قوله: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ أي: عاقدين التزويج ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن، ومن ذهب في الآية إلى غير هذا، فقد أخطأ، وجهل اللغة»[1].

وقال الشيخ الآلوسي ﷺ: «هذه الآية لا تدلُّ على الحل، والقول بأنها نزلت في المتعة غلطٌ، وتفسيرُ البعض لها بذلك غير مقبول، لأنّ نَظْمَ القرآن الكريم يأباه، حيثُ بيَّنَ سبحانه أولاً المحرَّمات، ثم قال عز شأنه: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم﴾ وفيه شرطٌ بحسب المعنى، فيبطل تحليلُ الفرجِ وإعارته، ثم قال جل وعلا: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ وفيه إشارة إلى النهي عن كون القصد مجرَّد قضاء الشهوة وصب الماء واستفراغ أوعية المني، فبطلت المتعةُ بهذا القيد، لأنَّ مقصودَ المتمتع ليس إلَّا ذاك»[2].

وفي الحديث الشريف: عن **سَبْرة الجهني** ﷺ: أنّه كانَ مع رسول الله ﷺ ـ وفي رواية: عام الفتح ـ، فقال ﷺ: «**يا أيُّها الناسُ إنِّي قَدْ كُنْتُ أَذِنْتُ لكم في الاستمتاع من النساءِ، وإنَّ اللهَ قد حرَّمَ ذلكَ إلى يوم القيامةِ، فَمَنْ كانَ عِنْدَهُ منهنَّ شيءٌ فليخلِّ سبيلَهُ، ولا تأخذوا مما آتيتموهنَّ شيئاً**» [رواه مسلم (١٤٠٦)].

وعن **علي بن أبي طالب** ﷺ: **أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نهى عن مُتْعَةِ النِّساءِ يَوْمَ خَيْبر، وعَنْ أَكْلِ لحومِ الحُمُرِ الإنسيَّةِ**. [رواه مسلم (١٤٠٧)].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ أي: لا حرجَ عليكم

---

(١) زاد المسير: ٢/ ٥٤.

(٢) روح المعاني: ٥/٦.

فيما يتمُّ عليه الاتفاق والتراضي بين الزوجين بعد تسمية المهر، كأن تحطَّ عنه بعضَه، أو تهبَ له كله، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤] أو يزيد لها على مقداره، أو فيما تراضيا به من مقام أو فراق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

- **حقوق الزوجات المملوكات:**

ولمَّا كان الزواجُ حقّاً من حقوق الإنسان مهما كان لونه أو جنسه أو مستواه المادي، أرشدتِ الآياتُ الرجالَ الفقراءَ ـ الذين لا قدرة لهم على مهور النساء الحرائر والإنفاق عليهن ـ إلى الزواج من النساء المملوكات، فالزواجُ منهنَّ أقلُّ كلفةً، وأخفُّ مؤونةً من الزواج بالحرائر.

ويحقق هذا فوائد اجتماعية كثيرة، إذ يؤدِّي إلى إحصانِ كثير من الشباب والفتياتِ في المجتمع، ويحولُ دون انحدارهم إلى دركاتِ الانحلال الأخلاقي وممارسة الفواحش، كما يؤدِّي إلى قيام كثير من الأُسر، وإزالة العوائق المادية التي تعوق قيامها، فهو من محاسن نظام الرق الإسلامي، إذا التزمَ الناسُ بضوابطه وقيوده الشرعية. قال تعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ أي: فضلاً وسعة، وهو الغنى الذي يتمكن

صاحبه من المهر والنفقة، وسُمِّيَ الغنى طَولاً، لأنّه ينال به من المراد ما لا ينال مع الفقر(١).

﴿أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: أن يتزوج الحرائر المسلمات.

﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: فليتزوج من الإماء المؤمنات، **والفتيات**: الجواري المملوكات، جمع فتاة، أطلق عليهنّ الفتيات تكريماً لهنّ.

وقد جاء في الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**لا يَقولَنّ أحدُكُمْ: عَبْدِي وأَمَتي، كلُّكُم عبيدُ اللهِ، وكُلُّ نسائِكُمْ إماءُ اللهِ، ولكنْ لِيَقُلْ: غُلامي وجارِيَتي، وفتايَ وفتاتي**» [رواه مسلم (٢٢٤٩)].

والتقييد بالمؤمنة للاستحباب؛ بدليل أنّ الإيمانَ ليس شرطاً في الحرائر اتفاقاً، إذ يجوزُ نكاحُ الحرة الكتابية، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ومِمَّا وسَّع الله على هذه الأُمَّة نكاحُ الأَمَة اليهودية والنصرانية وإنْ كان موسراً(٢).

وذهبَ بعضُهم إلى أنّ التقييدَ بالمؤمنة شرطٌ، فلا يجوزُ التزوج بالأَمَة الكتابية.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمْ﴾ أي: فاكتفوا بظاهر الإيمان، فإنّه سبحانه العالم بالسرائر، ورُبَّ أمةٍ مؤمنةٍ تفضُلُ حرّةً.

﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي: كلُّكم من نفس واحدة، كما مرَّ معنا في أول آيات السورة [١] فالأحرار والأرقاء من أصلٍ واحدٍ.

---

(١) تفسير الخازن: ٢/ ٥٢.

(٢) تفسير النسفي: ٢/ ٥٣.

ولا يخفى ما في الآيةِ من تشجيعٍ على نكاح الإماء عند الضرورة، فقد كانوا يستنكفون عن ذلك، ويفتخرونَ بالأحساب والأنساب، ولا التفاتَ إلى شيءٍ من ذلك في الإسلام، لأنَّ التقوى أساسُ التفاضل فيه.

والإسلام يحفظُ حقوقَ جميع الناس، ولا يهدر حقَّ أحدٍ على حساب غيره، ولهذا شُرِطَ لصحّةِ نكاح المملوكات إذْنُ سادتهنَّ، قال تعالى:

﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أي: اخطبوهن إلى ساداتهن.

واتفق العلماء على أن نكاح الأمة بغير إذن سيدها باطل، لأنّ الله تعالى جعل إذن السيد شرطاً في جواز نكاح الأَمَة[1].

وتأمَّل جمال التعبير القرآني ﴿أَهْلِهِنَّ﴾ وما فيه من تكريمٍ للإنسانِ، وتقديرٍ لمشاعره مهما كان.

ثم بيَّنت الآياتُ الشروطَ الأخرى الواجب مراعاتها في الزواج من المملوكات، التي تحفظ لهنَّ حقوقهنَّ كاملةً، فلا فرق في هذا بينهن وبين الحرائر:

﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: أدُّوا إليهن مهورهنَّ بإذن أهلهن، وحذف ذلك لتقدُّم ذكره، قال مالك رضي الله عنه: المهر للأمةِ ذهاباً إلى الظاهر[2]. أي: الظاهر المتبادر من الآية.

﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: من غير مُطْلٍ وإضرار ونقصان.

﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ أي: بشرط أن يكنَّ عفيفات غير زانيات، وغير ذواتِ أخدان.

والأخدان: جمع خِدْن، وهو الصاحب، وأكثرُ ما يستعمل فيمن يُصاحِبُ بشهوة، يقال: خدن المرأة، وخدينها، يعني حِبُّها الذي يزني بها في السرِّ.

فالمسافِحَةُ: الزانية مع غير شخص معيَّن، تتبع كلَّ من يدعوها.

---

(١) تفسير الخازن: ٢/ ٥٤.

(٢) تفسير البيضاوي: ٢/ ٥٤.

وذات **الخِدْن**: هي التي تتخِذُ خليلاً تختصُّ به، فلا تزني بغيرِه حتى تملَّه، وهو أمرٌ شائع كثيراً في المجتمعات الغربية.

﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ أي: بالزواج، فهو حصن ووقاية من الفواحش.

كما قال رسول الله ﷺ: «**يا مَعْشَرَ الشبابِ مَنِ استطاعَ مِنْكُمُ الباءَةَ فليتزوَّجْ، فإنَّه أغضُّ للبصرِ، وأحصنُ للفرجِ، ومَنْ لم يستطعْ فعليه بالصومِ فإنَّه له وِجاءٌ**» [رواه مسلم (١٤٠٠)].

- **تخفيف العقوبة عن الضعفاء:**

﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ﴾ أي: إن قارفن الزنى وفعلنه.

﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: فعليهنَّ نصف ما على الحرائر إذا زنينَ، والمرادُ به الجَلدُ، أمَّا الرجمُ فلا يتنصَّف؛ فيجلدن خمسين جلدة.

وهذا يدل على أنَّ الشريعة الإسلامية تقدِّرُ ظروف الإنسان، وتخفِّفُ عنه بعض ما عليه بسببها، **والرقُّ من أسباب التخفيف**، لأنَّه ضعفٌ، والشريعة الإسلامية تراعي الضعفاء، بخلاف ما كان سائداً في أعراف وقوانين المجتمعات الجاهلية، كانوا يشدِّدون على الضعفاء، ويخفِّفون على الأقوياء.

كما جاء في الحديث الشريف: عن **عائشة** ﵂: أنَّ قريشاً أهمَّتهم المرأةُ المخزوميةُ التي سَرَقَتْ، فقالوا: مَنْ يُكَلِّمُ رسولَ اللهِ ﷺ، ومن يجترئُ عليه إلَّا أسامةُ حِبُّ رسولِ اللهِ ﷺ، فكلَّم رسولَ اللهِ ﷺ، فقال ﷺ: «**أتشفعُ في حَدٍّ مِنْ حدودِ اللهِ؟!**» ثم قامَ فَخَطَبَ فقال: «**يا أيُّها الناسُ إنَّما ضَلَّ** ـ وفي رواية: هَلَكَ ـ **مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أنّهم كانوا إذا سَرَقَ الشَّرِيْفُ تركوه، وإذا سَرَقَ الضعيفُ فيهم أقاموا عليه الحَدَّ، وايمُ اللهِ لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمَّدٍ سرقتْ لَقَطَع مُحَمَّدٌ يَدَها**» [رواه البخاري (٦٧٨٨)].

وكان المعمول به في **القانون الروماني** الشهير أنْ تشدَّدَ العقوبةُ كلما انحطت الطبقة، فكان يقول: ومن يستهوِ أرملةً مستقيمةً أو عذراء فعقوبتُه إنْ كان

من بيئةٍ كريمةٍ مصادرة نصف ماله، وإن كان من بيئةٍ ذميمةٍ فعقوبته الجلد والنفي من الأرض.

وكان المعمول به في **القانون الهندي** الذي وضعه منو، وهو القانون المعروف باسم منوشاستر: أنَّ البرهميَّ إن استحقَّ القتل، فلا يجوزُ للحاكم إلا أن يحلقَ رأسه، أما غيره فيقتل[1].

وما تزال الجاهليةُ الحديثةُ في أمريكة وفي جنوب إفريقية وفي غيرها تزاوِلُ هذه التفرقة العنصرية، وتغفِرُ للأشراف البيض ما لا تغفِره للضعافِ الملوَّنين، والجاهلية هي الجاهلية حيث كانت[2].

ولا فرق في الشريعة الإسلامية في عقوبة الأرقاء بين المتزوج وغيره، فالآيةُ شَرَعَتْ هنا عقوبةَ الأمة الزانية المتزوجة، والسُّنّةُ شرعتها لغير المتزوجة، قال الزهري: فالمتزوجةُ محدودةٌ بالقرآن، والمسلمة غير المتزوجة محدودة بالحديث[3].

فعن **أبي هريرة وزيد بن خالد** رضي الله عنهما: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عن الأمةِ إذا زَنَتْ ولم تحصن، قال: «**إذا زنتْ فاجلدُوْها، ثم إذا زَنَتْ فاجلدُوْها، ثم إذا زَنَتْ فاجلِدُوْها، ثم بيعوها ولو بضفيرٍ**» [رواه البخاري (٦٨٣٧)].

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ أي: إن تشريع نكاح الإماء للذي خاف الإثم الذي تؤدي إليه غلبةُ الشهوة وشدتُها، وهو الزنى.

ومعنى **العنت** في اللغة: المشقة، واستُعِيْرَ للزنى لما فيه من الإثم والضرر في الدين والبدن والعرض.

﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: إن تصبروا عن نكاح الإماء حتى ييسر الله لكم الحرائر خير لكم، وذلك حتى لا يكون الولدُ رقيقاً يتبع أمه في الحرية

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ٦٢٩.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) تفسير القرطبي: ٥/ ١٤٣.

والعبودية، وقد لا تستطيعُ المملوكةُ القيام بواجباتها الزوجية كالحرة لانشغالها بخدمة سيدها.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

• **تذكير وتحذير:**

وقد عوَّدَنا الحقُّ سبحانه أنّه كلّما ذكر بعض آيات الأحكام ذكر بعدها ما يؤكدها ويشجع على التمسُّك بها، ولهذا قال سبحانه هنا:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي: يريد سبحانه أن يبيِّن لكم الأحكام التي فيها صلاحكم وسعادتكم.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: ويدلُّكم أيضاً على مناهج الأنبياء والصالحين من قبلكم.

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ويقبل ﷻ توبتكم إذا قصرتم وأخطأتم، أو يريد أن يجعل طاعتكم له فيما شرع لكم كفارة عما سلف من ذنوبكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليمٌ بمصالح عباده، حكيمٌ في كل ما شرع لهم.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ يريد أن يقبل توبتكم فتمسَّكوا بشرعه، والتزموا بأحكامه، فهي لسعادتكم.

كرر سبحانه هذا المعنى تأكيداً بأسلوب الجملة الاسمية إظهاراً لفضله

تعالى على عباده فيما شرع لهم، وحثّاً لهم على الانقياد لأحكامه والتسليم لها، ولهذا قال في مقابل ذلك:

﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ أي: ويريدُ الذين غلبت عليهم شهواتهم فصاروا عبيداً لها، وأطاعوها من دون الله تعالى، كما في قوله سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان].

﴿أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أي: أن تميلوا عن الحق الذي شرعه سبحانه لكم، فتهجروه إلى شرائعكم الوضعية الناقصة، التي تميلُ مع مصالح واضعيها الشخصية أو الحزبية أو الطبقية أو القبلية، كما هو معروفٌ من حال القوانين الوضعية التي يضعها الناس لأنفسهم.

وتبيِّنُ الآيةُ حرصَ المنحرفين عن الحق من عبيد الأهواء والشهوات على نشر فسادهم بين الناس.

ويا سبحان الله ما أصدقَ كلام الله تعالى! إنَّه يفسّرُ لنا ما نشاهده في المجتمعات المعاصرة من النشاط الدؤوب المتواصل لرؤساء الضلال والفساد في نشر فسادهم وضلالهم، وكيف يحشدون له كل ما يستطيعون من وسائل الإعلام والتزوير والتحسين، فالزناةُ يسعون بجدٍّ ونشاط إلى إشاعة الفواحش بين الناس، وكذلك المدمنون على الخمر والمخدرات... إلخ.

ولا يدلُّ قوله سبحانه: ﴿مَيْلًا عَظِيمًا﴾ على جواز الميل القليل ـ في مفهومه المخالف ـ عن أحكام شريعة الله، إنّما الآيةُ جاءت تصفُ واقعَ المفسدين، وأنهم يبذلون جهودهم لكي يبعدوننا إبعاداً كاملاً عن ديننا وشريعة ربنا جلَّ وعلا، فلنحذرهم على ديننا، فخطرهم كبيرٌ وعظيمٌ، ففي الآيات تذكيرٌ لنا بفضله سبحانه علينا فيما شرع لنا، وفيها أيضاً تحذيرٌ لنا من مخالطة المفسدين وبيان خطرهم علينا وعلى ديننا.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ﴾ أي: يريد سبحانه في هذه الشريعة السمحة الميسَّرة أن يخفف عنكم الأثقال التشريعية، التي في الشرائع السابقة، وهذا من فضله تعالى الكبير على هذه الأمة، أنه جعل شريعتها شريعةَ رحمةٍ وسماحةٍ ويُسرٍ كما مر معنا في **سورة البقرة** [١٨٥].

﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ أي: خلق الإنسان خلقاً محدوداً عاجزاً، ولهذا خفَّف سبحانه التكاليف فيما شرع له في هذه الشريعة السمحة، وجعل مناط التكليف فيها ما تتسع له إمكاناته الضعيفة، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ الآية [البقرة: ٢٨٦].

وقد يكون المعنى: وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً أمام ميوله وشهواته الفطرية، ولهذا أحلَّ له تعالى ما يؤدّي إلى الاستجابة لهذه الشهوات دون إفراطٍ ولا تفريطٍ، كما في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقوله أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

فالشريعةُ الإسلاميةُ شريعةُ التوسط والاعتدال، تلبِّي كلَّ الحاجات والرغبات دون إفراطٍ ولا تفريطٍ.

ففي الآية إشارة إلى ميزات الشريعة الإسلامية على غيرها من الشرائع.

- **حرمة الأموال والأنفس:**

وخَتَمتِ الآياتُ حديثَها عن حقوق الضعفاء بتقرير حقَّيْنِ من أهم حقوق الإنسان؛ وهما: **حقه في التملك** المشروع للمال، **وحقه في الحياة**؛ من خلال نداء وجهته للمؤمنين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: لا يأخذ بعضكم مال بعض بطريق الكسب المحرم.

فللأموال في الشريعة الإسلامية حُرمتها، وللإنسان حق في ملكية المال، الذي يصل إليه بطريق مشروع، ولا يجوزُ الاعتداء على هذا المال، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

والباطل: الحرام، ويشمل طرق الكسب المحرَّمة في الإسلام كلها، كالربا والقمار، والغصب، والسرقة، والغش، والاحتيال، والرشوة... إلخ. ومنها أكلُ أموال اليتامى ظلماً، ومهور النساء بغير حق، كما مرّ معنا.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ﴾ أي: لكنّ أخذَ المال واكتسابه بوسيلة من وسائل الكسب المشروعة جائزٌ، كالتجارة القائمة على رضا العاقدين، فهي مثال للكسب المشروع في الإسلام.

وخُصَّتِ التجارة بالذكر لأنَّ أكثر المبادلات المالية بين الناس تتم بها، فهي البيع والشراء، واشتهرت قريشٌ بالتجارةِ، وكان للعرب في مكة وحولها أسواق معروفة مشهورة كعكاظ ومجنة وذي مجاز.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضاً، فللحياة البشرية حرمتها في الإسلام، **ومن قتل غيرَه عامداً تسبَّب في قتل نفسه قصاصاً**.

أو: **ولا تقتلوا أنفسكم فإنكم كنفس واحدة**، فمن قتل نفساً فكأنَّما قتل الناس جميعاً، كما قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

أو: لا يقتلْ أحدُكم نفسَه بالانتحار، فكما حرَّمَ الإسلامُ على الإنسان أن يقتلَ غيرَه، حرّمَ عليه أيضاً أن يقتل نفسه، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ نفسَه بحديدةٍ، فحديدتُهُ في يدِهِ يتوجَّأُ فيها (يطعن) في بطنِهِ في نارِ جهنَّمَ خالداً مخلَّداً فيها أبداً، ومن شَرِبَ سمّاً فقتلَ نفسَه، فهو يتحسَّاهُ في نارِ جهنَّمَ خالداً مخلَّداً فيها أبداً، ومن تردَّى من جبلٍ فقتَلَ نفسَه، فهو يتردَّى في نارِ جهنَّمَ خالداً مخلَّداً فيها أبداً**» [رواه مسلم (١٠٩، ١١٠)].

وقال ﷺ أيضاً: «**مَنْ حَلَفَ على يمينٍ بمِلَّةٍ غيرِ الإسلامِ كاذِباً فَهُوَ كما قالَ، ومَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيءٍ عُذِّبَ بهِ يومَ القيامةِ، وليس على رجلٍ نَذْرٌ في شَيْءٍ لا يملِكُهُ**» [رواه مسلم (١١٠)].

وينسحبُ هذا المعنى أيضاً على من يقتل نفسه بتعريضها لأسباب الهلاك في غير مواطن القتال والجهاد.

أخرج [الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢٠٣، ٢٠٤) وأبو داود في «سننه» (٣٣٤)]: عن **عمرو بن العاص** رضي الله عنه قال: احتلمتُ في ليلةٍ باردةٍ في غزوةِ ذاتِ السلاسلِ، فأشفقتُ أنْ أغتسلَ فأهلكَ، فتيمَّمتُ، ثم صليتُ بأصحابي الصبحَ، فذكروا ذلك لرسولِ اللهِ ﷺ فقال: «**يا عَمْرُو صليتَ بأصحابِكَ وأنتَ جُنُبٌ؟!**» فأخبرتُه بالذي منعني من الاغتسال وقلتُ: إنِّي سمعتُ الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ومن رحمته سبحانه بكم: أنّه شرع لكم ما يصونُ أموالكم، ويحفظ حياتكم، فالجؤوا إليه تعالى في الأزمات والشدائد، وأحسنوا الظنَّ به، فإنَّه يجيبُ المضطر، ويكشفُ السوء: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

---

(١) بذل المجهود: ٣/ ٥٩.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: يأخذ مالاً، أو يقتل نفساً، أو يفعل كلَّ ما نهى عنه سبحانه فيما تقدم من الآيات.

﴿عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾ أي: معتدياً فيه ظالماً في فعله، كأنْ يكونَ عالماً بتحريمه، متجاسراً على انتهاكه.

﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ أي: فسوف ندخله يوم القيامة ناراً شديدة هي نار جهنم.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لأنه تعالى قادِرٌ على كلِّ شيء، فعّالٌ لما يريد.

ودلَّ هذا الوعيدُ الشديدُ على أنّ العدوان على حرمات النفوس والأموال من كبائر الذنوب، وأنَّ الشريعة الإسلامية تهتم بحقوق الإنسان، وتعظِّم حرمتها.

ولمَّا خطب النبيُّ ﷺ في مكة المكرمة يوم النحر قال: «**يا أيُّها الناسُ أيُّ يوم هذا؟**» قالوا: يومٌ حرامٌ، قال: «**فأيُّ بلدٍ هذا؟**» قالوا: بلدٌ حرامٌ، قال: «**فأيُّ شَهْرٍ هذا؟**» قالوا: شهرٌ حرامٌ، قال: «**فإنَّ دماءَكُم وأموالَكُم وأعراضَكُم عليكم حرامٌ كَحُرْمَةِ يومِكُم هذا، في بلدِكُم هذا، في شهرِكُم هذا**» فأعادها مراراً، ثم رفع رأسه فقال: «**اللهمَّ هَلْ بلغتُ؟ اللهمَّ هل بلغتُ؟**» قال ابن عباس رضي الله عنهما: فو الذي نفسي بيده إنها لوصيته إلى أمته: «**فليبلغِ الشاهدُ الغائبَ، لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**» [رواه البخاري (١٧٣٩)].

وأتبع سبحانه هذا الوعيدَ الشديدَ على انتهاك حرمات الإنسان ترغيباً في اجتناب هذه الكبائر، والمحافظة على حقوق الناس، فقال:

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: كبائر الذنوب التي نهاكم الله تعالى

عنها، ونهى عنها أيضاً رسوله ﷺ، ولا شكَّ أنَّ منها: قتل النفس، وأكل المالِ ظلماً وعدواناً.

وفي الحديث الشريف: عن **أنس** رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ في الكبائرِ، قال: «**الشِّرْكُ باللهِ، وعقوقُ الوالدينِ، وقتلُ النفسِ، وقولُ الزورِ**» [رواه مسلم (٨٨، ٨٩)].

وعن **أبي هريرةَ** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**اجتنبوا السَّبْعَ المُوْبِقَاتِ**» ـ أي: المهلكات ـ قيل: يا رسولَ اللهِ وما هنَّ؟ قال: «**الشِّرْكُ باللهِ، والسِّحْرُ، وقَتْلُ النَّفْسِ التي حَرَّمَ اللهُ إلا بالحقِّ، وأكلُ مالِ اليتيمِ، وأَكْلُ الرِّبا، والتولِّي يومَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلَاتِ المُؤمِناتِ**» [رواه مسلم (٢٣٣)].

﴿نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ أي: نغفرها لكم، ونمحُها عنكم.

فصغائر الذنوب تكفَّر باجتنابِ الكبائر وفعل الطاعات، أمَّا الكبائر فلابدَّ لها من التوبةِ والاستغفارِ بعدَ الإقلاع عنها، والندم على فعلها، قال رسول الله ﷺ: «**الصلواتُ الخَمْسُ، والجمعةُ إلى الجمعةِ، ورمضانُ إلى رمضانَ مكفِّراتٌ ما بينهنَّ إذا اجْتُنبتِ الكبائرُ**» [رواه مسلم (٢٣٣)].

﴿وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ أي: حسناً شريفاً تكرّمون فيه، هو الجنة.



الفَصْلُ الثَّانِي

آفات نفسيّة

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ

وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

• **تربية وتشريع:**

يقرن الله تعالى في القرآن الكريم بين بيان الأحكام وتشريعها؛ وتربية النفوس وتهذيبها، لكي تنقادَ لهذه الأحكام، وتتمسّكَ بها، فالقرآنُ الكريم كتاب هداية وتشريع، وتربية وتهذيب.

هذه الحقيقة القرآنية الكريمة تبدو في سورة النساء واضحةً أكثر من غيرها

من السور، وهاهي الآياتُ في هذه السورة بعدما شرعت من الأحكام ما شرعت تتجه إلى تربية النفوس وتهذيبها، وتخليصها من الآفات النفسية الخطيرة التي تُبتلى بها.

والحسد أعظمُ الآفاتِ النفسية خطراً، وأكثرها أثراً على سلوك الإنسان، وترجع إليه أكثرُ أسباب الخلافِ والنزاع القائمة بين الناس، وهو الباعث الأول على الظلم والعدوان وانتهاك حرمة الحقوق الإنسانية.

ويتولَّد الحسد في نفوس الناس بسبب التفاوت الذي قدره الحكيم العليم بين الناس في المواهب والملكات والأرزاق، **هذا التفاوت** الذي جعله سبحانه سبباً لقيام التعاون والتعارف بين الناس، كما قال جل وعلا: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

كان أيضاً سببَ ابتلاء بعضهم ببعض، إذ الحياة الدنيا دار للابتلاء والاختبار، والناجحون بهذا الابتلاء هم الذين يستجيبون لنداء الحق سبحانه وقوله:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢)﴾.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: لا يحسد بعضكم بعضاً.

فالحسدُ: أن يتمنَّى الحاسدُ زوال النعمة عن أخيه، وتتحوَّل إليه، فعلى الإنسان أن يرضى بما قسم الله تعالى له، ولا يحسد أخاه على ما أعطاه ربه سبحانه.

روي: أن **أمَّ سلمةَ** رضي الله عنها قالت: يا رسولَ اللهِ يغزو الرجالُ ولا نغزو، ولنا نِصْفُ الميراثِ؟ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [رواه أحمد (٦/ ٣٢٢) والترمذي (٣٠٣٢)].

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ﴾ أي: لكل من الرجال والنساء الحق أن يملك ناتجَ جهده وكسبه، والرازق هو الله تعالى، فعلى المقلِّ ألا يتمنَّى نصيبَ غيره، وعليه أن يتوجَّه إلى الله تعالى يسأله المزيد من فضله:

﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ﴾ فإنّ خزائنه سبحانه لا تنقص ولا تنفد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فهو تعالى يَعْلَمُ ما يصلحُ لعبادِه، فارضوا بما قسم الله سبحانه لكم، ولا تعترضوا على قسمته وحكمته.

وعن **عبد الله بن مسعود** ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**سَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ، فإنَّ الله يُحِبُّ أن يُسْأَل، وإنَّ أَفْضَلَ العبادةِ انتظارُ الفَرَجِ**» [رواه الترمذي (٣٥٧١)].

- **نسخ التوارث بالتحالف:**

وأقربُ مثال على التفاوت في الأرزاق تفاوت سهام الورثة وحظوظهم من التركة، وعلى كلِّ وارثٍ أن يرضى بنصيبه وحظه الذي قدَّره المشرِّع الحكيم سبحانه دون أدنى اعتراض:

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ﴾ أي: جعل الله لكل تركة ورّاثاً يتولون تقاسمها كما شرع سبحانه، فالتزموا بشرعه.

﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ﴾ أي: والذين بينكم وبينهم تحالف وتعاقد على التوارث، فآتوهم نصيبهم من الميراث بحسب التحالف الذي تمَّ بينكم، وهذا كان في ابتداء الإسلام، يتوارثون بالحِلْفِ ثم نُسخ.

وعن **ابن عباس** ﷺ: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ...﴾ قال: كان المهاجرون حين قدموا المدينة، يرثُ المهاجريُّ الأنصاريَّ دون ذوي رحمه

بالأخوة التي آخى رسولُ اللهِ ﷺ بينهم، فلمَّا نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ نسخت. [رواه البخاري (٢٢٩٢ و٦٧٤٧)][(١)].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: قبل نزول هذه الآية. ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي: من الميراث، فأيما حلف عقد بعد ذلك فلا تأثير له[(٢)].

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ فهو سبحانه عالم الغيب والشهادة، وهو أبلغ وعد ووعيد؛ وعد للطائعين، ووعيد للمخالفين.

- **تنظيم الأسرة:**

ثم ساقت الآياتُ مثالاً آخرَ على التفاوت في المواهب والملكات، بينت معه نظام الأسرة، قال تعالى:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أي: يقومون عليهن قيام الولاةِ على الرعية، فإدارةُ الأسرةِ ورعايتُها منوطةٌ بالرجل، وتنتقل في غيابه إلى المرأة.

﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: بسبب ما جعل الله بين الرجال والنساء من تفاوت في المواهب والملكات، فالرجالُ أقوى على تحمُّل المسؤوليات من النساء في الأعمِّ الأغلب.

﴿وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي: وبسبب آخر، وهو تكليف الرجال بالإنفاق

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٣٨٤.

(٢) المصدر السابق نفسه.

على الأسرة، **فالغُنْمُ بالغُرْم**، فما دام الرجلُ هو المكلّفُ بنفقة المرأة، فينبغي أن تكون له القوامة عليها.

والمرأة الصالحة هي التي ترضى بشرع الله تعالى، فتطيع زوجها، وتجعل من طاعتها له طاعة لله تعالى فيما أمر وشرع.

﴿فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ﴾ أي: مطيعات لله تعالى قائمات بحقوق الأزواج.

﴿حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أي: يحفظن في غيبة أزواجهن ما كلفهنَّ الله بحفظه من العرض والمال، فهنَّ الراعيات في غيبة أزواجهن، ومسؤولات عما استرعاهن الله تعالى.

﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ أي: في مقابل حفظ الله تعالى لهنّ حين أوصى الأزواج بهنّ، وأمرهم بحُسن معاشرتهن وأداء حقوقهن كاملة كما مرّ معنا.

وقد ذكر الإمام البخاري في «**صحيحه**» باباً مستقلّاً قال فيه: باب: المرأةُ راعيةٌ في بيت زوجها، ثم أورد فيه حديث **ابن عمر** ﵄: عن النبيِّ ﷺ قال: «**كلُّكُم راعٍ، وكلُّكُم مسؤولٌ عن رعيته، والأميرُ راعٍ، والرجلُ راعٍ على أهل بيتِهِ، والمرأةُ راعيةٌ على بيتِ زوجِهَا وولدِه، فكلُّكُم راعٍ، وكُلُّكُم مسؤولٌ عن رعيته**» [٥٢٠٠].

- **معالجة نشوز المرأة:**

والإسلامُ حريصٌ على سلامة الأسرةِ واستمرارها في أداء وظيفتها، ولهذا بيَّنَ سبحانه للأزواج كيفية معالجةِ ما يطرأُ على جوِّ الأسرة من سوء تفاهم، يؤدِّي إلى تعكير صفو الحياةِ الزوجية بسبب نشوز المرأة، فقال:

﴿وَٱلَّـٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ أي: تخافون عواقبه السيئة.

والنشوز: العصيانُ، مأخوذٌ من النَّشز، وهو ما ارتفعَ من الأرضِ، **والمرأةُ الناشِزُ**: هي التي تتعالى على زوجها، وترفع نفسَها عن طاعته.

﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ أي: خوِّفوهن عقوبةَ الله تعالى، لأنّه سبحانه هو الذي كلَّفها بطاعة زوجها في غير معصيةٍ، وانصحوهنَّ بالترغيب والترهيب، كتذكيرها بقول

النبيِّ ﷺ: «**إذا باتتِ المرأةُ مُهاجرةً فراشَ زوجها لعنتْها الملائكةُ حتّى ترجعَ**» [رواه البخاري (٥١٩٤)].

وقوله ﷺ أيضاً: «**إذا صلَّتِ المرأةُ خمسَها، وصامتْ شهرَها، وحفِظَتْ فرجَها، وأطاعتْ زوجَها، قيل لها: ادخلي مِنْ أيِّ أبوابِ الجَنَّةِ شِئْتِ**» [رواه أحمد (١/ ١٩١) والطبراني].

فإن لم تنتفع بالموعظة لجأ إلى أسلوب هجرها في الفراش:

﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي: اهجروهن في الفراش، واعتزلوا النوم معهنَّ، والمضجعُ موضعُ الإغراءِ والجاذبيَّةِ التي تبلغُ فيه المرأةُ الناشِزُ قوّةَ سلطانها، فإذا استطاعَ الرجلُ أن يقهر دوافعه تجاه هذا الإغراء، فقد أسقط من يدِ المرأة الناشز أمضى أسلحتها التي تعتزُّ بها، وتصبِح في الغالب أميل إلى التراجع والملاينة.

فإن لم تنجحْ، وأصرَّتِ المرأةُ على نشوزِها وعنادِها، واستبدَّ بها الهوى الجامح، فلابدَّ حينئذٍ ـ حتى لا يستفحل المرضُ، ويهدِّدَ الأسرةَ بالسقوط ـ من استعمالِ دواءٍ أقوى وأشدَّ، ولو كان مؤلماً مُرّاً، **إذ يُحْتَمَلُ أخفُّ الضررينِ لدفع أشدِّهما**، وهو ضربُ التأديب الذي تصاحِبُه شفقةُ المؤدِّب والمربي:

﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ أي: ضرباً غير مبرِّح ولا شائن، كما قال رسول الله ﷺ في خطبةِ حجةِ الوداع: «**اتقوا اللهَ في النِّساءِ، فإنَّكُم أخذتموهنَّ بأمانِ اللهِ، واستحللتُم فروجهنَّ بكلمةِ اللهِ، ولكم عليهنَّ ألا يُوْطِئْنَ فُرُشَكُمْ أحداً تَكْرَهُوْنَهُ، فإنْ فعلنَ فاضربوهنَّ ضرباً غير مبرِّح**» [رواه مسلم (١٢١٨) وانظر تمام الحديث ثمة].

وقوله: «**تكرهونه**» أي: لا يأذنَّ لأحد تكرهونه في دخول بيوتكم.

والضرب المبرِّح: هو الضربُ الشديدُ الشاقُّ، ومعناه: اضربوهنَّ ضرباً ليس بشديدٍ ولا شاقٍّ، وهو الذي لا يكسِرُ عظماً، ولا يتركُ أثراً.

ومن المعلوم أنّه عليه الصلاة والسلام ما ضربَ امرأةً قط، فقد روي عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: «**ما ضربَ رسولُ اللهِ ﷺ امرأةً له ولا خادِماً قط، ولا ضربَ**

بيدِهِ شيئاً قطُّ إلا في سبيلِ اللهِ، أو تُنْتَهَكَ حرماتُ اللهِ فَيَنْتَقِمُ للهِ» [رواه مسلم (٢٣٢٨) والنسائي في الكبرى (٩١١٩) أحمد (٦/ ٢٨١)].

وكان ﷺ يحثُّ أصحابَهُ على عدمِ الضربِ، ويقول: «**لا يجلِدُ أحدُكُم امرأتَهُ جَلْدَ العبدِ، ثم يُجامِعُها في آخرِ اليومِ**» [رواه البخاري (٥٢١٤)].

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ أي: بترك النشوز والعودة إلى الطاعة والموافقة.

﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي: لا تطلبوا وتبحثوا عن طريقةٍ تحتجُّون بها عليهنَّ، وتؤذونهنَّ بسببها، فعلى الأزواجِ أن يغضُّوا النظرَ عن عثراتِ نسائهم، ويحتملوا هفواتهنَّ ـ كما مرَّ معنا ـ.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ فاحذروا غضبه، فإنَّه تعالى أقدرُ عليكم منكم على أزواجكم، ففيه تهديدٌ للرجالِ الذين يبغون على نسائهم من غير سببٍ.

وقد يكون النشوزُ أحياناً من كلا الزوجين، فعلى أولياءِ الأمورِ في مثل هذه الحال، أن يعملوا على إزالةِ ما بين الزوجين من نزاعٍ وخلافٍ، وإعادةِ الوفاق والتفاهم إليهما بواسطة التحكيم:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ أي: إن علمتم حدوث خلاف بين الزوجين.

﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ﴾ أي: رجلاً يَصْلُحُ للتحكيم من أهل الزوج.

﴿وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي: وابعثوا آخَرَ من أهل المرأة.

فإنَّ أقاربَ الزوجين يحرصون في العادة على الإصلاح، ويعرفون بواطن الأمور أكثر من غيرهم، فإن لم يوجدْ من أهلهما مَنْ يصلحُ لذلك يرسَلُ من غير أهلهما.

﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ أي: إن قصد الحَكَمان الإصلاح أوقع

الله تعالى بحسن سعيهما الأُلفة والوفاق بين الزوجين. وقد يكون المعنى: يوفق الله بين الحَكَمين، فيتفقان على رأي واحد يتم بواسطته التوفيق بين الزوجين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ وفي ذلك تهديدٌ للزوجين والحَكَمَيْنِ ليسلكوا طريق الحق ويلتزموا به.

ودلَّتِ الآيةُ على أنَّ الإسلامَ يفضِّل أن تسوَّى الخلافات الزوجية في نطاق الأسرة بين الزوجين، وإذا تعذَّر عليهما ذلك بسبب عُمْقِ الخلاف، واستفحال النزاع يُلجأ حينئذ إلى تحكيم الأقارب منهما.

- **أسرة إنسانية واحدة:**

ثم خرجت الآيات عن نطاق الأسرة الزوجية، إلى دائرة الأسرة الإنسانية الواحدة التي تضمُّ جميعَ البشر، كما مرَّ معنا في أول السورة، فبيَّنت كيف يجبُ أن تكون الصِّلاتُ الاجتماعية بينهم بعد بيان صلتهم مع الله تعالى:

﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أي: اعبدوا الله وحده، وأخلصوا في طاعته وعبادته، فلا تشركوا معه شيئاً، فاللهُ سبحانه لا يقبلُ من العمل إلَّا ما كانَ خالصاً له جَلَّ جَلَالُهُ.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أنا أغنى الشركاءِ عن الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عملاً أشركَ فيهِ معي غيري تركتُه وَشِرْكَهُ**» [رواه مسلم (٢٩٨٥)].

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ أي: أحسنوا إلى الوالدين إحساناً، فهما أحقُّ الناس بالشكر والإحسان، والبر والطاعة، بعد شكر الخالق وطاعته، ولهذا ذُكرا في الآية قبل غيرهما من الناس، وقد قرن سبحانه شكرهما بشكره في **سورة لقمان**

فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ أي: أحسنوا إلى الأقارب واليتامى والمساكين، بالمحافظة على حقوقهم والاهتمام بشؤونهم، فالشريعة الإسلامية تهتمُّ كثيراً بالضعفاء في المجتمع، وتسعى إلى تقوية الصلات الاجتماعية بين الناس وخاصة الأقارب والجيران، ولهذا أضافت الآية الوصية بالجيران:

﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: أحسنوا إلى الجار القريب، فله حقوق القرابة وحقوق الجوار.

• **حقوق الجيران:**

فللجارِ في الإسلام حقوقٌ أمرَ الله برعايتها، منها: تفقُّدُ أحواله، وطلاقَةُ الوجه عند لقائه، ومعاونته فيما يحتاجُ إليه؛ وكفُّ أسبابِ الأذى عنه.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي شريح**: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**واللهِ لا يُؤْمِنُ، واللهِ لا يُؤْمِنُ، واللهِ لا يُؤْمِنُ**» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «**الذي لا يأمنُ جارُه بوائِقَهُ**» [رواه البخاري (٦٠١٦)]، وزاد [أحمد (٦/ ٣٨٥)] في رواية: قالوا: وما بوائقه؟ قال: «**شرُّه**».

وهذا يدل على تعظيم حق الجار، وأنّ الإضرار به من الكبائر.

وعن **عائشة** رضي الله عنها، عن النبيِّ ﷺ قال: «**ما زال جبريلُ يوصيني بالجارِ حتَّى ظننتُ أنّه سيورِّثُهُ**» [رواه البخاري (٦٠١٤)].

﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ أي: وأحسنوا أيضاً إلى الجار الذي لا قرابةَ له، فله عليكم حقوق الجوار فقط.

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ أي: وإلى الجار المصاحب في مجلسٍ أو سفرٍ أو عملٍ، فمجاورتُه مؤقتةٌ، وليست مستمرةً، فله عليك حقُّ الصحبةِ في مؤانسته وملاطفته ودفع الأذى عنه.

قال ابن حجر رحمه الله: «اسم الجار يشمَلُ المسلمَ والكافِرَ، والعابدَ والفاسقَ،

والصديقَ والعدوَّ، والغريبَ والبلديَّ، والنافعَ والضارَّ، والقريبَ والأجنبيَّ، والأقربَ داراً والأبعدَ، وله مراتبُ بعضُها أعلى من بعضٍ، فأعلاها مَنِ اجتمعتْ فيه الصفات الأُول كلها، ثم أكثرها وهلم جرّاً... فيُعطى كلٌّ حقه بحسب حاله»[1].

● **حق الضيف والغريب:**

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: أحسنوا إلى ابن السبيل، وهو المسافر أو الضيف يمرُّ بك فتكرمه وتساعده، وتحسن إليه.

فللضيف في الإسلام حقٌّ، حتى إنَّ الإمام البخاري قال في «**صحيحه**»: باب حق الضيف. ثم روى الحديث الشريف بسنده: عن **عبد الله بن عمرو** رضي الله عنهما قال: دخلَ عليَّ رسولُ اللهِ ﷺ فقالَ: «**أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تقومُ الليلَ وتصومُ النهارَ؟**» قلتُ: بلى، قال: «**فلا تَفْعَلْ، قُمْ ونَمْ، وصُمْ وأَفْطِرْ، فإنَّ لِجَسَدِكَ عليكَ حَقّاً، وإنَّ لِعَيْنِكَ عليكَ حَقّاً، وإن لزَوْرِكَ عليكَ حَقّاً، وإنَّ لِزَوْجِكَ عليكَ حَقّاً**» [رواه البخاري (٦١٣٤)]. **والزَّوْرُ**: الزائرُ والضَّيْفُ.

وعن **عقبة بن عامر** رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسولَ اللهِ إنّك تبعثُنا فننزِلُ بقوم فلا يُقْرُوْنَنَا، فما ترى؟ فقال: «**إنْ نزلتَ بقومٍ فَأَمَرُوا لَكُمْ بِمَا يَنْبَغي للضَّيْفِ فَاقْبَلُوْا، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوْا فَخُذُوا مِنْهُم حَقَّ الضَّيْفِ الذي يَنْبَغِي لَهُمْ**» [رواه البخاري (٦١٣٧)].

وكما جعل النبيُّ ﷺ للضيف حقّاً؛ أوصاه ألا يُثْقِلَ على أهل البيت، حتَّى لا يُحْرِجَهم، فقال: «**مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، جَائِزَتُه يومٌ وليلةٌ، والضيافةُ ثلاثةُ أيّامٍ، فما بَعْدَ ذلكَ فهو صَدَقةٌ، ولا يَحِلُّ له أَنْ يثويَ عِنْدَهُ حَتَّى يُحْرِجَهُ**» [رواه البخاري (٦١٣٥)].

والجدير بالذكر أنّ الشريعة الإسلامية جعلت لابن السبيل ـ وهو المسافر المنقطع في الطريق ـ سهماً من مصارف الزكاة، فيجوز إن كان مسلماً مساعدته من أموال الزكاة.

---

(١) فتح الباري: ١٠/ ٤٤١.

• **حقوق العبيد:**

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي: وأحسنوا إلى ما ملكت أيمانكم من العبيد والإماء، فإنّهم من الضعفاء الذين اهتمَّ الإسلامُ بحماية حقوقهم، وكثيراً ما أوصى النبيُّ ﷺ بهم في حياته وعند وفاته عليه الصلاة والسلام، فعن **علي** رضي الله عنه قال: كانَ آخرُ كلامِ النبيِّ ﷺ: «**الصلاةَ الصلاةَ، اتقوا الله فيما ملكتْ أيمانُكُم**» [رواه أحمد (٣/ ١١٧) وابن ماجه (٢٦٩٧)].

وفصَّلَ رسول الله ﷺ في حديثٍ آخرَ كيف يجبُ أن تكونَ معاملتهم، فعن **المعرور بن سُويد** قال: مررنا بأبي ذَرٍّ بالرَّبذَة، وعليهِ بُرْدٌ، وعلى غلامِه مثلُه، فقلنا: يا أبا ذَرٍّ لو جمعتَ بينهما كانت حُلَّةً، فقال: إنّه كان بيني وبينَ رَجُلٍ من إخوانِي كلامٌ، وكانتْ أُمُّهُ أعجميةً، فعيّرتُهُ بأمِّهِ، فشكاني إلى النبيِّ ﷺ، فقال: «**يا أبا ذَرٍّ إنَّكَ امرؤٌ فيكَ جاهليةٌ، هُمْ إخوانُكُم، جَعَلَهُمُ اللهُ تحتَ أيديكُم، فأَطعِمُوهم ممَّا تأكلونَ، وأَلبسُوهم مما تَلبَسُونَ، ولا تكلِّفوهُم ما يَغْلِبُهم، فإنْ كلَّفتموهم فَأَعِيْنُوْهُم**» [رواه مسلم (١٦٦١)].

وأمرَ رسول الله ﷺ مَنْ ضَربَ مملوكَه أن يعتقَهُ، فعن **عبد الله بنِ عُمَرَ** رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**مَنْ لَطَم مَمْلُوْكَهُ أو ضَرَبَهُ، فَكَفَّارَتُهُ أن يُعْتِقَهُ**» [رواه مسلم (١٦٥٧)].

وعن **سُويدِ بن مُقْرِن**: أنَّ جاريةً له لطمَها إنسانٌ، فقال له سويدٌ: أمَا عَلِمْتَ أنَّ الصورةَ محرمةٌ؟ لقد رأيتُني وإنِّي لسابعُ إخوةٍ لي مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ، وما لنا خادِمٌ غير واحدٍ، فعمدَ أحدُنا فلطمَهُ، فأمرَنا رسولُ اللهِ ﷺ أن نعتقَهُ. [رواه مسلم (١٦٥٨)].

وعن **أبي مسعود الأنصاري** رضي الله عنه قال: كنتُ أضرِبُ غلاماً لي، فسمعتُ مِنْ خلفِي صوتاً: «**اعلمْ أبا مسعودٍ، للهُ أقدرُ عليكَ مِنْكَ عليه**» فالتفتُّ فإذا رسولُ الله ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ هو حرٌّ لِوَجْهِ اللهِ، فقال: «**أمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ، أو لَمَسَّتْكَ النَّارُ**» [رواه مسلم (١٦٥٩)].

.. هكذا حمى الإسلامُ الضعفاءَ، وصانَ لهم حقوقَهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾ أي: متكبراً متعاظماً في نفسه، لا يحترم الناسَ، ولا يقومُ بحقوقهم.

﴿فَخُورًا﴾ أي: يفتخرُ على الناس ويتطاول عليهم.

ولا يخفى شدة الاتساق بين موضوع الآيةِ وخاتمتها، فالمختالُ الفخورُ يأنَفُ من أقاربه الفقراء، ومن جيرانه الضعفاء، فلا يحسِنُ إليهم، ولا يلوي بنظرِهِ عليهم، ولأنَّ المختالَ هو المتكبِّر، ومَنْ كانَ متكبِّراً فلا يقومُ بحقوقِ الناسِ[(١)].

• **التحذير من البخل:**

وثمة آفة نفسية أخرى، قرينة للحسد، ولا تقلُّ عنها قُبحاً وخطراً، وهي آفةُ **البُخْلِ**، وهي كالحسدِ، لها آثارٌ سلبيةٌ على علاقةِ الإنسانِ مع أبناء مجتمعِهِ، تَحْمِلُه على حُبِّ الذات والأثرة والمادية والجشع، وتورثه قسوةً في طبعه، وغلظةً في نفسه، وتدفعه إلى انتهاك حقوق الآخرين والعدوان عليهم. قال تعالى في المتصفين بها:

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ وكأنَّ الآيةَ تعني المختالين الفخورين الذين لا يحبُّهم سبحانه، فهم الذين يبخلون، ويمتنعون عن أداء ما أوجبَ اللهُ عليهم لأقاربهم وجيرانهم وسائر أبناء مجتمعهم، ويظلمونهم ويستحلُّون حقوقهم.

كما في الحديث الشريف: عن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**اتَّقُوا الظُّلْمَ فإنَّ الظُّلْمَ ظُلْمَاتٌ يومَ القيامةِ، واتَّقوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ**

---

(١) تفسير الخازن: ٢/ ٧٢.

مَنْ كانَ قَبْلَكُم، حَمَلَهُم على أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُم، واستحلُّوا مَحَارِمَهُم» [رواه مسلم (٢٥٧٨)]. **والشحُّ**: أشدُّ أنواع البخل.

﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ أي: ويشجِّعون على البخل، ويأمرون غيرَهم به، لأنَّهم يكرهون السخاء، ويمقتون الجودَ والكرمَ، فهم لا يبخلونَ بما عندهم فقط، وإنّما يبخلون بما عند غيرهم أيضاً.

﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: ويتظاهرون بالفقر، ويجحدون نعم الله عليهم، فالبخيلُ يجحدُ نعمةَ الله، فلا تظهرُ عليه آثارها، ولا تتبيَّنُ في مأكله ولا في ملبسِه ولا في عطائه وبذله.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي: هيأنا للكافرين نعمة الله الجاحدين لها عذاباً مهيناً.

والكفرُ: هو السترُ والتغطيةُ، والبخيلُ يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجحدها[1].

والجدير بالذكر أنه سبحانه يحبُّ أن يرى أثر نعمته على عبده، ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وفي الحديث الشريف: عن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: «**لا يدخلُ الجنّةَ مَنْ كانَ في قَلْبِهِ مُثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ**» قال رجلٌ: إنَّ الرّجلَ يحبُّ أن يكونَ ثوبُه حسناً، ونعلُه حسنةً؟ قال: «**إنّ اللهَ جميلٌ يُحِبُّ الجمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النّاسِ**» [رواه مسلم (٩١)].

ومعنى **بطر الحق**: إنكاره ودفعه. **وغمط الناس**: احتقارهم.

- **التحذير من الرياء وحب الظهور:**

ونبَّهت الآياتُ إلى **آفة نفسية أخرى**، قد يظنُّها بعضُ الناس كرماً وجوداً،

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٣٩٠.

وهي في حقيقتها مظهرٌ من مظاهرِ حُبِّ الذات والتكبر والافتخار؛ وهي آفة حب السمعة والرياء، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ أي: ينفقون أموالهم من أجل السمعة والشهرة بين الناس، لكي يُمْدحوا بالكرم والإحسان، حتى إنَّ بعضَهم ينفق على المدّاحين من رجال الصحافة والإعلام أكثر مما ينفِقُ على المحتاجين واليتامى والضعفاء.

ومرّ معنا [الآية: ٣٦] أنّه سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له.

﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ولا يؤمنون الإيمان الصحيح بالله تعالى ولا باليوم الآخر.

فما بعثهم على الإنفاق إيمانهم بالله تعالى، وتصديقهم باليوم الآخر، إنّما الذي بعثهم على هذا الإنفاق الشيطانُ الذي زيّنَ لهم هذه الآفات الخطيرة: الحسد والبخل والكبر والرياء، قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وقال أيضاً: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

وختم الله سبحانه الآية هنا بقوله:

﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ أي: ومن يكن الشيطان صاحباً له فبئس الصاحب، لأنه إلى الشر ساحب.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أيُّ شيءٍ على أولئك الذين يبخلون ويحسدون ويراؤون؟ أي مسؤولية تلحقهم:

﴿لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾، فهو سؤالٌ فيه توبيخٌ لهم على الجهل بالمنفعة الحقيقية، فأيُّ مصلحةٍ لهم في ذلك؟ وهذا كما يقال للعاقِّ: ما ضرَّك لو كنت بارّاً؟!(١).

وفي السؤال مع التوبيخ تحريضٌ لهم على التفكير، لعلّه يؤدي بهم إلى إدراك ما هم عليه من خطأ، ومعرفة الحق والصواب.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ لا تخفى عليه سبحانه حقيقة أعمالهم ومقاصدهم.

● **عدل وفضل:**

ثم قال سبحانه يبيّن كمال عدله وعظيم فضله:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي: لا يكونُ منه ظلمٌ أبداً، ولا حتّى مقدار ذرة فما دونها في الصغر، فلا ينقِصُ أحداً ثوابَ عمل عمله مهما كان صغيراً، كما في قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧].

وقوله أيضاً: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

هذا عدل الله سبحانه، وأما فضله فبيَّنه بقوله:

﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ أي: وإنْ كانَ مثقال الذرة حسنة يضاعفها أضعافاً كثيرة، كما قال: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقال أيضاً: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل].

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٧٢.

﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ﴾ أي: ويعطِ من عنده على سبيل التفضُّل.

﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً عظيماً لا يحيطُ بمقداره إلا الله ﷻ.

فلا ينبغي لأحد أن يتوجَّه إلا إليه سبحانه، ولا يعتمد إلا عليه.

ويُظهر سبحانه عدله وفضله يوم القيامة:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾.

﴿فَكَيْفَ﴾ أي: كيف يكون حالهم يوم القيامة وهم يحملون كبائر الذنوب كالحسد والبخل والكبر والرياء.

﴿إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ أي: إذا جئنا يومَ القيامةِ بنبيِّ كلِّ أمة ليشهدَ على أعمالهم وما فيها من قبح وفساد.

﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ أي: يا محمد ﷺ.

﴿عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ أي: لتشهدَ على هؤلاء الذين بلّغتهم دعوتك، ووصلتهم رسالتك.

وقد بكى رسول الله ﷺ عندما سمع هذه الآية، فعن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**اقرأ عليَّ**» قلتُ: أقرأُ عليكَ وعليكَ أُنزلَ؟ قال: «**إنِّي أشتهي أَنْ أسمعَه مِنْ غيري**» فقرأتُ النِّساءَ حتى إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال لي: «**كُفَّ، أو أمسك**» فرأيت عينيه تذرفان. [رواه البخاري (٥٠٥٥)].

واختلفوا في سبب بكائه، فرأى بعضهم أنّه ﷺ بكى لأنّه مثل لنفسه أهوال يوم القيامة، وشدة الحال الداعية له إلى شهادته لأمته بالتصديق، وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف، وهو أمرٌ يحقُّ له طول البكاء.

ورأى ابن حجر رحمه الله أنه بكى رحمة لأمته، لأنه علم أنّه لابدّ أن يشهدَ

عليهم بعملهم، وعملُهم قد لا يكونُ مستقيماً، فقد يُفضي إلى تعذيبهم(١).

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: جحدوا فضل الله تعالى عليهم.

﴿وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: وخالفوا سنة الرسول ﷺ.

﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: لو يُدفنون في تراب الأرض، ويصبحون جزءاً منها، وذلك بسبب ما يرون من أهوال هذا اليوم، وما يلحقهم فيه من الخزي والفضيحة، كما قال سبحانه في **سورة النبأ**: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ أي: وحالهم أنهم لا يستطيعون أن يخفوا شيئاً من قبائحهم وفضائحهم.

- **الحرص على الطهارة:**

وعندما وصلتِ الآياتُ إلى هذا الحدّ من الترهيب والتخويف، والتربية والتهذيب، التفتت إلى المؤمنين تخاطبهم، وتشرع لهم من الأحكام ما فيه نجاتهم من هول يوم القيامة وأفزاعه.

فالقرآنُ الكريمُ يقدِّمُ التشريع تارةً، ثم يعقّبُ عليه بتربية النفوس وتهذيبها لِتُقْبلَ على هذا التشريع وتعمل به، كما مرّ معنا في صدر السورة [الآية: ١٧]، وتارة أخرى يمهد للتشريع بتهذيب النفوس وتربيتها، وبذلك يرفعها إلى المستوى الذي تصبح فيه مستعدة لقبول التكليف والتزام الأحكام، كما هو الحال هنا.

والأمر المُعْجِبُ المُعْجِزُ أن تَكَوُّن الأفكارِ وتغير الأسلوب في الآيات الكريمة لا يؤثر على اتساق جرسها، وانسجام تسلسلها ووقعها على المسامع والقلوب، إنّه كلام العزيز الحكيم.

---

(١) انظر: فتح الباري: ٩/ ٩٩.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ أي: لا تصلوا وأنتم في حال السكر من نحو خمر أو نوم.

﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ أي: ما تقرؤون في الصلاة.

ففي الحديث الشريف: أن النبيَّ ﷺ قال: «**إذا نعسَ أحدُكم في الصلاةِ فلينمْ حتّى يعلمَ ما يقرأُ**» [رواه البخاري (٢٦٣)].

وعن **عائشة** رضي الله عنها: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إذا نَعِسَ أحدُكم وهو يصلّي فَلْيَرْقُدْ حتى يذهبَ عنه النومُ، فإنَّ أحدَكُم إذا صلّى وهو ناعِسٌ لا يدري لعلَّه يَسْتَغْفِرُ فيسبَّ نفسَهُ**» [رواه البخاري (٢١٢)].

هذه الآية نزلت قبل التحريم القطعي للخمر، وقد ذكروا في سبب نزولها [ما أخرجه أبو داود (٣٦٧١) والترمذي (٣٠٢٦) وحسنه، والنسائي، والحاكم (٢/ ٣٠٧) وصححه]: عن **علي** رضي الله عنه قال: صنع لنا عبدُ الرحمن بن عوف رضي الله عنه طعاماً، فدعانا وسقانا من الخمر، فَأَخَذَتِ الخمرُ منا، وحضرتِ الصلاةُ، فقدّموني، فقرأتُ: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون. فنزلت. وفي رواية [ابن جرير (٥/ ٩٥) وابن المنذر]: إنَّ إمام القوم يومئذٍ هو عبد الرحمن، وكانت الصلاةُ صلاةَ المغربِ، وكان ذلك لمّا كانتِ الخمرُ مباحة(١).

ومن المعلوم أنَّ الخمر لم تحرَّم دفعةً واحدةً:

ـ فقد أنزل الله تعالى أولاً ما ينفِّرهم عنها في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البَقَرَة: ٢١٩].

---

(١) روح المعاني: ٥/ ٣٨.

ـ ثم أنزل آية النساء هذه، فضيّقَ فيها عليهم أوقات شربها.

ـ ثم أنزل تحريمها القطعي في قوله الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة].

وأكد هذا قولُ السيدةِ **عائشةَ** ﵂: إنّما نزلَ أوّلَ ما نزلَ منه سورةٌ من المفصّل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثابَ الناسُ إلى الإسلامِ نزل الحلالُ والحرامُ، ولو نزل أوّل شيءٍ: لا تَشربوا الخمرَ، لقالوا: لا ندعُ الخمرَ أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندعُ الزِّنى أبداً. [رواه البخاري (٤٩٩٣)].

﴿وَلَا جُنُبًا﴾ أي: ولا تصلُّوا وقد أجنبتم.

والجنب: هو غيرُ الطاهرِ من إنزالِ مني بشهوةٍ أو جماعٍ، وأصلُ الجنابة لغةً: البعد، وسُمِّي الذي أصابته الجنابة جنباً، لأنّه يتجنَّب الصلاة والمسجد، وقيل: لمجانبته الناس حتى يغتسل[١].

﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ أي: غيرَ مسافرين، أو غير مجتازين في المسجد.

﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ أي: إلى أن تغتسلوا.

فالمعنى على **الأول**: لا تقربوا الصلاة وأنتم جنبٌ، إلا أن تكونوا مسافرين ولم تجدوا الماء، فتيمموا.

وعلى **الثاني**: لا تقربوا المسجد وأنتم جنب، إلا مجتازين فيه، كأنْ تكونَ طريقُه عليه فيمرَّ فيه.

وقد ذكروا في سبب النزول ما يؤيِّدُ المعنى الثاني، قال ابن كثير ﵀: «يروى أنّ رجالاً من الأنصارِ كانت أبوابُهم إلى المسجدِ، فكانت تصيبُهم

---

(١) تفسير الخازن: ٢/ ٧٩.

الجنابةُ، ولا ماءَ عندهم، فيردون الماء، ولا يجدون ممرّاً إلّا في المسجد، فأنزل الله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾»(١).

ويؤيده قولُ النبيِّ ﷺ: «**لا يبقينَّ في المسجدِ بابٌ إلا سُدَّ، إلا بابُ أبي بكر**» [رواه البخاري (٣٦٥٤) وانظره بتمامه ثَمَّة].

وعن **جسرة بنت دجاجة** قالت: سمعتُ **عائشةَ** ﵂ تقول: جاء رسولُ اللهِ ﷺ، ووجوهُ بيوتِ أصحابِهِ شارعةٌ في المسجدِ، فقال: «**وَجِّهُوا هذهِ البيوتَ عن المَسْجِدِ**» ثمَّ دخلَ النبيُّ ﷺ ولم يصنعِ القومُ شيئاً؛ رجاءَ أن تنزلَ فيهم رخصةٌ، فخرجَ إليهم فقال: «**وَجِّهُوا هذهِ البيوتَ عن المَسْجِدِ، فإنِّي لا أحلُّ المسجدَ لحائضٍ ولا جُنُبٍ**» [رواه أبو داود (٢٣٢)].

ثم شرع تعالى التيمُّمَ بدل الغُسل والوضوء للعاجز عن استعمال الماء، بسبب فقدِ الماءِ أو المرض، فقال:

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ والمراد مرض يضرُّه استعمالُ الماءِ، كزيادة ألمٍ، أو تأخيرِ بُرْءٍ.

﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي: ولا ماءَ معكم.

﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ أي: أحدثَ بخروجِ شيءٍ من أحدِ السبيلين.

وأصل الغائط في اللغة: هو المكانُ المنخفِضُ من الأرضِ، وكان العربُ يقصدون الأماكن المنخفضة لقضاء الحاجة.

﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي: جامعتموهن، أو (لامست بشرتُكم بشرتهنّ)(٢).

﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ أي: فلم تقدروا على استعمال الماء، لعدمه أو بُعْده، أو فَقْدِ آلة الوصول إليه، أو لوجود مانعٍ يحولُ بينكم وبينه.

﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي: فاقصدوا وجه الأرض الطاهر.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٣٩٤.

(٢) هذا قول الشافعية، ومذهب الجمهور أن ملامسة بشرة المرأة لا تنقض الوضوء أو التيمم إلا إذا كانت بشهوة.

﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ﴾ أي: أوقعوا المسح بوجوهكم وأيديكم منه، كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ ولذلك يسَّرَ الأمرَ عليكم، ورخَّص لكم.

فالتيمم من خصائص الأمة المسلمة، وهو دليلٌ على يُسر أحكام الشريعة الإسلامية وسماحتها.

- **الضالُّون المضلُّون:**

ثم سلكتِ الآياتُ مسلكاً جديداً، واتّبعتْ أسلوباً مغايراً في تربيةِ المؤمنين، وتنقيةِ نفوسهم من الآفات الخطيرة التي سبق التحذير منها، فعرضت أصنافاً من الناس ابتلوا بهذه الآفات، وبيَّنت كيفَ استولت على نفوسهم، وتمكنت من قلوبهم، ودفعتهم إلى الظلم والعدوان، وإلى الكذب والاحتيال، وأوصلتهم إلى تحريف كلام الله تعالى، والعدوان على أنبيائه ورسله عليهم السلام.

اختارت الآيات صنفين من الناس، كانوا يعيشون مع المؤمنين في المدينة المنورة، ويشكّلون قطاعاً كبيراً من مجتمعها، وهم **اليهود والمنافقون**، وبهذا المسلك الجديد، جمعتِ الآياتُ بين تربية المؤمنين، وتنقية نفوسهم من هذه الآفات، وبين تحذيرهم أيضاً من مكرِ وكيدِ اليهود والمنافقين.

اتَّبعتِ الآيات في عرضها أسلوبَ الاستفهام التقريري، الذي يُقْصَدُ به التعجيب وتنبيه المخاطب، ليتأمل أحوال هؤلاء الناس، ويراهم على حقيقتهم المزرية وصورتهم القبيحة.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؟ أي: ألم تنظر إلى الذين أُعطوا جزءاً

يسيراً من علم الكتاب المنزل عليهم؟! والمراد بهم أحبار اليهود الذين أعطوا حظّاً من التوراة فقط، فقد حُرِموا من بركةِ فهمه والعمل به.

﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ أي: يختارون الضلالة، ويستبدلونها بالهدى، كما فعل المنافقون الذين قال تعالى فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: ويريدون منكم ـ أيها المؤمنون ـ أن تضلّوا سبيلَ الحقِّ، وتنحرفوا عنه كما ضلّوا، لأنّهم لا يريدون لكم الهداية والخير، فهم ضالُّون مضلُّون، حالهم كحال الذين يتّبعون الشهوات، كما مرَّ عند قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْۚ﴾ وهؤلاء من جملتهم، فكونوا على حذر من كيدهم ومكرهم.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ أي: متولياً لأموركم، فثقوا بولايته تعالى لكم، وتمسّكوا بأحكام دينه وشرعه.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ أي: ينصركم ويؤيدكم.

ولا يخفى ما في ختام الآية من تثبيت للمؤمنين، وشحذ لعزائمهم، ورفع لهممهم، وهم يواجهون أعداءهم.

ثم أماطت الآيات اللثام عن هؤلاء الضالين المضلين:

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: هم من اليهود، و(من) هنا لبيان الجنس.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي: يزيلون كلام الله تعالى عن مواضعه التي وضعه سبحانه فيها، حسبما تقتضيه شهواتهم من إبدال غيره مكانه، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤٠] أي: التي وضعه سبحانه فيها.

ثم بيّنت الآيات كيف تجرؤوا على الرسول ﷺ، وحاولوا المكر به، وتوجيه الأذى إليه:

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي: ويقولون للرسول ﷺ: سمعنا كلامك، ولا نطيعك فيه، وقد بلغوا في هذا الغاية في الكفر والعناد وسوء الأدب.

﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ وهو قول ذو وجهين: يحتمل الذم، أي: اسمع منا مدعوّاً عليك بلا سمعتَ، فلو أجيبتْ دعوتهم لم يسمع رسول الله ﷺ شيئاً، ويحتمل المدح، أي: اسمع غير مسمع مكروهاً. وهم لا يريدون بها المدح، إنّما يقولونها نفاقاً، ويضمرون الذم.

﴿وَرَٰعِنَا﴾ أي: أرعنا سمعك، وهم يريدون نسبته عليه الصلاة والسلام إلى الرعونة.

﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ أي: يقولون ذلك صرفاً للكلام إلى ما يضمرون من السبِّ والتحقير.

﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: واتهاماً للنبيِّ ﷺ، وطعناً في صحة نبوته، إذ كانوا يقولون فيما بينهم: لو كان نبيّاً حقّاً لعرفَ ذلك، وأظهره الله عليه.

ويدلُّ قولهم هذا على شدّةِ غبائهم، فقد كان النبيُّ ﷺ يعرفُ ما يريدون من كلامهم، وما يضمرون في نفوسهم، ولكنّه ﷺ ما كان يواجههم بما يكرهون، ولا ينزل إلى مستواهم، بسبب أخلاقه العالية الكريمة.

ففي الحديث الشريف: عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: دخلَ رهطٌ من اليهودِ على رسولِ اللهِ ﷺ، فقالوا: السّامُ عليكُم، قالت عائشة: ففهمتُها، فقلت: وعليكم السّامُ واللعنةُ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مهلاً يا عائشةُ، إنّ اللهَ يحبُّ الرِّفْقَ في**

الأمرِ كُلِّهِ» فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أو لمْ تسمعْ ما قالوا؟! قال رسولَ اللهِ ﷺ: «**قد قلتُ: وَعَلَيْكُم**» [رواه البخاري (٦٠٢٤)].

وقد فضحهم سبحانه هنا وكشف خبيئة نفوسهم، فقال:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا﴾ أي: بدل قولهم: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا﴾.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ أي: لكان قولُهم هذا خيراً لهم عند الله تعالى وأعدل، وأبعدَ عن الريبة.

وهذا يدل أنّ على الإنسان أن يبتعد عن الكلمات المريبة، التي تحتمل معاني قبيحة سيئة.

﴿وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: ولكنَّه سبحانه خذلهم، ولم يوفقهم إلى الهدى والصلاح، وطردهم من ساحاته، بسبب كفرهم وعنادهم وجحودهم.

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: فلا ينجّيهم ولا يقبلُ منهم؛ لأنهم آمنوا ببعض الرسل، وكفروا ببعضهم، فقلوبُهم محرومةٌ من الخير، مُبْعَدةٌ عنه. أَوْ: لا يستجيبُ للإيمانِ منهم إلّا عددٌ قليل، كعبد الله بن سلام، وزيد بن سُعْنة رضي الله عنهما.

- **طمس الوجوه:**

ثم توجَّهتِ الآياتُ بالخطاب مباشرةً إليهم، تدعوهم إلى الإيمان الكامل؛ إقامةً للحجّة عليهم، وإلزاماً لهم بها، وتتوعدهم بأشدِّ أنواعِ الوعيد والعذاب، وتذكّرهم ببعض أنواعه التي أنزلها الله تعالى على أسلافهم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ أي: على محمد ﷺ.

ويلاحظ أنّه تعالى وصفَهم هنا بأنّهم أُوتوا الكتاب، ولم يصفهم بأنهم أوتوا

نصيباً من الكتاب؛ تأليفاً لهم، لكي يستجيبوا لدعوته، وتذكيراً لهم بأنّ عندهم الكتاب الذي يشهدُ بصدقِ دعوة النبيِّ ﷺ، وصحة رسالته.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ أي: مصدقاً للتوراة، ومعنى تصديقه إيّاها: نزوله حسبما نُعِتَ لهم فيها، أو كونه موافقاً لها في توحيد الله تعالى والإسلام له، والإذعان لدينه وشرعه، أو شاهداً على أنّ الله تعالى أنزلها على موسى عليه السلام.

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ أي: من قبل أن نمحوَ ملامحَها، وصورَ ما فيها من عين وحاجب وأنف وفم، ونجعلها على هيئة أقفائها، أو نديرها فنجعلَ الوجوه إلى الخلف والأقفاءَ إلى الأمام.

وقد يكون المراد طمس القلب والبصيرة، وتغيير أحوالهم إلى الصَّغارِ والذلة بعد العز.

وفي تنكير (وجوه) المفيد للتكثير، تهويلٌ للخطب، وفي إيهامها لطفٌ بالمخاطبين، وحسن استدعاء لهم إلى الإيمان[1].

﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ أي: أو نلعنهم ونطردهم من الرحمة، ونُنْزِل بهم العذابَ، كما عذبنا أصحاب السبت من أسلافهم، وهم الذين ذكرهم تعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة].

وفصّلَ خبرهم أكثر في قوله أيضاً: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف].

وقد اختلف العلماءُ الذين حَمَلوا طمسَ الوجوه على الحقيقة، في زمن

---

(١) تفسير أبي السعود: ٢/ ١٨٥.

وقوعه، هل يقعُ في الدنيا أم في الآخرة؟ بعضُهم قال: في الآخرة، وبعضُهم قال: إنه منتظر بعدُ، ولابدّ من طمسٍ في اليهود ومسخٍ قبلَ قيامِ الساعة، ورأى بعضُهم أنَّ الوعيد بوقوع أحد الأمرين، كما يدل عليه ظاهر قوله تعالى: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ فإن لم يقع الأمرُ الأول، فلا نزاعَ في وقوع الأمر الثاني، فإنّ اليهودَ ملعونون بكلِّ لسان، وفي كلِّ زمَان، فاللعنُ بمعناه الظاهر، والمراد من التشبيه بلعن أصحاب السبت، الإغراقُ في وصفه[1]، أي: المبالغة في وصفه.

ورأى بعضُهم أنّه مثلٌ ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق، وردهم إلى الباطل، ورجوعهم عن المحجة البيضاء، إلى سبيل الضلالة يهرعون، ويمشون القهقرى على أدبارهم[2]. لكن هذا لا ينسجم مع قوله تعالى في ختام الآية: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: نافذاً أو كائناً، فهو واقعٌ لا محالةَ إن لم يؤمنوا، فالأمرُ ليسَ مثلاً، إنّما هو تهديد بعذاب واقع.

• الذنب الذي لا يُغفر:

وتابعتِ الآياتُ تهديدَها، وقرّرتْ معه قاعدةً هامةً من قواعد العقيدة الإسلامية:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ أي: إن مات عليه، فهو حُكْمٌ مُبْرَمٌ قدّره الله تعالى، فالكفرُ ذنبٌ لا يُمْحَى أثره، وصاحبُه مخلَّدٌ في العذاب أبداً.

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: يغفر ما دون الشرك ولو كان ذنباً كبيراً.

﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: لمن تعلّقت مشيئتُه تعالى بمغفرة ذنوبه.

---

(١) روح المعاني: ٥/ ٥٠.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٤٠٠.

ففي الآية ـ بعدما تقدّم من الوعيدِ ـ ترغيبٌ بالتوبة، وحثٌّ عليها، كما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وفيها أيضاً دليل على أنّ صاحب الكبيرة إذا مات من غير توبة، فإنّه في خطر المشيئة، إن شاء عفا الله تعالى عنه، وأدخله الجنة بمنّه وكرمه، وإن شاء عذّبه بالنار، ثم أدخله الجنة برحمته وإحسانه(١).

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي: ارتكب ما تُسْتَحْقَرُ دونه الآثام، وهو إشارة إلى المعنى الفارق بينه وبين سائر الذنوب، والافتراء كما يُطلق على القول يُطلق على الفعل(٢).

فالفرق بين الشرك وغيره من الذنوب والآثام أنه ذنبٌ لا يغفر.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي ذر** رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**أتاني جبريلُ** عليه السلام **فبشّرني أنَّه مَنْ ماتَ مِنْ أُمّتِكَ لا يشرِكُ باللهِ شيئاً دخلَ الجنّةَ، قلتُ: وَإِن زنى وَإِنْ سَرَقَ؟ قال: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ**» [البخاري (٧٤٨٧) ومسلم (٩٤)].

- **المادحون أنفسهم:**

والتزمت الآيات أسلوبَ التقرير والتعجيب، في عرضها لقبائح أهل الكتاب وبيان آفاتهم النفسية:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ﴾ أي: يمدحون أنفسهم، ويثنون عليها.

وأصل **التزكية لغةً**: هي التطهير والتنزيه من القبيح قولاً، كما هو الظاهر

(١) تفسير الخازن: ٢/ ٩٤.
(٢) تفسير البيضاوي: ٢/ ٩٥.

هنا، وفعلاً، كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، وقوله أيضاً: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣](١).

والمراد بهم اليهود الذين يقولون: نحنُ أبناءُ اللهِ وأحباؤه، ويرون أنّ لهم تفوُّقاً وامتيازاً على الناس، وهو ما جعلهم يستحلُّون العدوان على حقوق الناس، ويسعَوْن في نشر الفساد بينهم، كما أنّ هذا القولَ أساسُ الفكرة الخبيثة العنصرية التي تنادي بتفوُّق بعض الأجناس البشرية، والتي كانت ولا تزالُ سببَ كثير من الحروب المدمرة.

﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أي: يثني سبحانه على من يشاء، ويهدي إلى الأخلاق الفاضلة والخصال الرفيعة من يشاء؛ لأنّه سبحانه العليم الحكيم، كما قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النَّجم: ٣٢].

وأفادت كلمة (**بل**) التي هي للإضراب، على أنّ التزكيةَ المعتدَّ بها هي تزكيةُ الله تعالى، لا تزكيةُ غيره، وأنّ هؤلاءِ الذين يزكون أنفسهم لا حظَّ لهم من تزكية الله تعالى.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: إن الله تعالى يعاقب الذين يزكون أنفسهم، ولا يظلمهم شيئاً، ولا مقدار فتيلٍ، وهو ما يحدثُ بفتلِ الأصابع من الوسخ، أو هو الخيطُ الرفيعُ في شقِّ نواةِ التمرِ، فالله تعالى حَكَمٌ عَدْلٌ منزَّهٌ عن الظلم مطلقاً.

ثم أوردت الآيات تعجيباً آخر، وهي تخاطب النبي ﷺ:

﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ فإن تزكيتهم لأنفسهم بادّعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنه تعالى لن يعذبهم على ذنوبهم، يتضمَّن ما هو أعظمُ جرماً،

(١) انظر: روح المعاني: ٥/ ٥٤.

وأكثر قبحاً من تزكيتهم أنفسهم؛ إذ ينسبون إلى الله تعالى ما يستحيلُ عليه سبحانه بالكلية، من قبولِ الكفر، ورضاه به، ومغفرة كفر الكافر[1].

وهو سبحانه لا يرضى أبداً عن الكفر كما قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، ولا يغفره أيضاً، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٩].

فتزكيتُهم أنفسهم كذب على الله تعالى؛ ولهذا جعل افتراءهم عينَ الكذب؛ لشدة قبحه وشناعته، كأنه أمرٌ مرئي ينظر إليه، مع أنه مما يُقَالُ ويُسْمَعُ.

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ فافتراؤهم على الله تعالى فقط إثمٌ كبيرٌ واضح يستحقون به أشد العقوبات وأعظمها.

- **المؤمنون بالجبت والطاغوت:**

وقد دفعتهم هذه الآفات النفسية الخطيرة ـ وخاصةً آفةُ الحسد ـ إلى الكفر برسالة النبيِّ ﷺ وجحودها، وإلى طمس ما في التوراة من صفاته ونعوته عليه الصلاة والسلام، ودفعتهم أيضاً إلى تفضيل عبادة الأصنام والأوثان على عبادة الله تعالى وطاعته وحده؛ ولهذا أنزل الله فيهم قوله الكريم:

> ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي: يؤمنون بالأوثان والأصنام، ويصدقون من يدعو إلى عبادتها.

فالجبت: الأصنام والأوثان. **والطاغوت**: المبالغ بالطغيان، وهي كلمةٌ تنسحبُ على كل من يدعو إلى عبادة غير الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ

---

(١) تفسير أبي السعود: ٢/ ١٨٩.

يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقد نزلت هذه الآية في حُيَي بن أخطب وكعب بن الأشرف، من زعماء يهود المدينة، عندما جاؤوا إلى مكة بعدَ غزوةِ بني النضير، يستنصرونَ المشركين على حرب رسول الله ﷺ والمسلمين، فأجابوهم، وخرجوا معهم، مما أدى إلى غزوة الخندق أو الأحزاب.

روى ابن أبي حاتم: عن **عكرمة** قال: جاء حُيَي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة، فقالوا لهم: أنتم أهلُ الكتاب وأهل العلم فأخبرونا عنّا وعن محمّد، فقالوا: ما أنتم وما محمّد؟ فقالوا: نحنُ نصلُ الأرحام، وننحرُ الكَوْماء، ونسقي الماء على اللبن، ونفكُّ العاني، ونسقي الحجيجَ، ومحمّد صنبور، قطعَ أرحامنا، واتبعه سراقُ الحجيج من غِفَارٍ، فنحنُ خيرٌ أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلاً، فأنزل الله هذه الآية[1].

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: يقولون لأجل الذين كفروا وفي حقهم:

﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ أي: هؤلاء الذين يعبدون الأصنام أقوم ديناً وأرشد طريقة من محمد ﷺ ومن معه من المؤمنين.

وسارعت الآيات بعد أن فضحتهم، وحكت مقالتهم الشنيعة القبيحة، إلى كشف مصيرهم وبيان مآلهم:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أبعدهم من رحمته وطردهم من ساحات فضله.

﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ أي: لن تجد من يدفع عنه وينصره في الدنيا والآخرة.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٩/ ٤٠٣.

ولهذا لن ينتفعَ اليهودُ بجيوش الأحزاب التي قدمت لنصرتهم، وعاد الأحزابُ خائبين خاسرين، كما قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

● **الكافرون برسالات الأنبياء:**

وانتقلت الآيات من ذمِّهم على تزكية أنفسهم، إلى ذمِّهم على بخلهم وشحهم:

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ أي: لو كان لهم نصيبٌ في السلطة والتصرُّف في توزيع الأرزاق على الناس.

﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي: فعند ذلك يبخلون على الناس، ولا يعطون أحداً مقدار نقير. **والنقير**: النقرةُ في ظهرِ النواةِ، وهو مَثَلٌ في القلة كالفتيل.

فالحمد لله الذي جعل تقسيم الأرزاق بيده، لا بيدِ أحدٍ من عباده، فمن شأن الناس البخلُ والشحُّ، بَلْهَ اليهودُ أكثر الناسِ شُحّاً، وأعظمهم حقداً وحسداً، وكيف يؤتون الناس شيئاً وهم البغاة الحسَدَةُ، الذين حسدوا النبيَّ ﷺ على ما آتاه الله تعالى من النبوة والرسالة، وحسدوا المسلمين على التوفيق والهداية.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۖ﴾ والمراد بالناس محمد ﷺ وأصحابه، أو المراد محمد ﷺ وحده، وجاز أن يقعَ عليه لفظُ الجمع وهو واحد؛ لأنه عليه الصلاة والسلام اجتمعت فيه من خصال الخير والبركة ما لا تجتمع مثلها في جماعة، ومن هذا القبيل يقال: فلان أمة وحده، يعني أنه

يقوم مقام أمة[(١)].

﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ أي: فقد جعلنا في أسباطِ بني إسرائيل ـ وهم من ذرية إبراهيم ـ النبوةَ، وأنزلنا عليهم الكتاب، وأعطيناهم ملكاً كبيراً، حتى جمعَ اللهُ لبعضهم النبوة والملك كداود وسليمان عليهما السلام.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ أي: ومع ذلك فمن اليهود من آمن بإبراهيم وما أنزل الله عليه وعلى الأنبياء والمرسلين من أولاده، ومنهم من أعرضَ عنه وكفر به، وسعى في صدِّ الناس عن دعوته.

﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي: كفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وجحودهم.

ولا شكَّ أنَّ الكفرَ برسالة نبينا محمد ﷺ كفر برسالة إبراهيم عليه السلام، فرسالةُ جميع الأنبياء واحدةٌ، وهي الدعوة إلى الإسلام لله تعالى وتوحيده، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النّحل: ١٢٣].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

- **من الحقائق العلمية في القرآن:**

وإمعاناً في الوعيد والتهديد، وصفت الآياتُ صورةً من صورِ تَسَعُّرِ جهنم بهؤلاء المكذبين المعاندين:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ أي: سوف ندخلهم ناراً نشويهم فيها.

(١) تفسير الخازن: ٢/ ٩٨.

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ أي: كلما احترقت جلودهم.

﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ أي: أعدنا تلك الجلود غير محترقة، فالجلود تعاد في كل مرة.

وإنما قال: ﴿جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ لتبديل صفتها، كما تقول: بدلت الخاتم قرطاً[١].

﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: ليدوم إحساسهم بالعذاب، فلا ينقطعُ بل يزيدُ، كما قال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ أي: غالباً على أمره، فعالاً لما يريد.

﴿حَكِيمًا﴾ في كل ما قدر وحكم.

ومن المعلوم أنّ المراكز العصبية في الجلدِ هي التي تنقلُ الإحساسَ والشعورَ بالألم إلى داخل النفس، فالآيةُ تشيرُ إلى حقيقة علمية كبيرة ما كانت معروفة عند نزول القرآن الكريم.

وقال تعالى في مقابل هذه الصورة المرعبة:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: من كل نقص وعيب يكون في نساء الدنيا، كالحيض والنفاس والأخلاق المذمومة.

﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي: ظلّاً ممتدّاً منبسطاً، في غاية الاعتدال.

فما أعجب هذا التقابُلَ! وما أحكمه! إنّ له وقعاً قويّاً على القلوب، ففي مقابل السعير المتأجِّج والجلودِ الناضجة المشوية، نرى الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات ندية، وظلال ممتدة رخية.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: تفاسير البيضاوي والخازن والنسفي: ١/ ٩٩.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

الحُكم بشَريعةِ اللهِ تعالى

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

• **أداء الأمانات وحفظ الحقوق:**

بهذا تكون الآيات الكريمة عملتْ لتفتحَ مغاليقَ العقول، وتزيلَ صدأ القلوب، وتطهِّرَ النفوسَ من رواسب الحسدِ والكِبْرِ والرياءِ، حتى تهيئها لتقبُّلِ الأحكام العملية والمبادئ الأخلاقية، وهاهي تصبُّ فيها الآن مبدأ أخلاقيّاً رفيعاً، في تواصل الناس وتعاملهم، وأصلاً كبيراً هامّاً من أصول التشريع والحكم في الإسلام، قال القرطبي رحمه الله: «هذه الآيةُ من أمهات الأحكام، تضمَّنت جميعَ الدين والشرع»[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ فالآمرُ هو الله جل جلاله، والمأمورون هم جميعُ المكلَّفين، والأمرُ صريحٌ ملزمٌ، وهو أداء الأمانات إلى أصحابها، وهو يتناول حقوق الله تعالى على عباده، وحقوقَ العباد بعضهم على بعض.

قال ابن كثير رحمه الله: «وهو يعمُّ جميعَ الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله عز وجل على عباده من الصلاة، والزكاة، والصيام، والكفارات، والنذور، وغير ذلك. ممّا هو مؤتمنٌ عليه، لايطَّلعُ عليه العبادُ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض، كالودائع وغير ذلك»[٢].

وقسّم بعضُهم الأماناتِ التي أُمِرَ الناسُ بأدائها إلى ثلاثة أقسام:

الأول: رعاية الأمانة في عبادة الله عز وجل: وهو فعلُ المأمورات، وترك المنهيات، قال ابن مسعود: الأمانةُ لازمةٌ في كلِّ شيءٍ، حتَّى في الوضوءِ والغُسْلِ من الجنابةِ، والصلاة، والزكاة، والصوم، وسائرِ أنواع العبادات.

---

(١) تفسير القرطبي: ٥/ ٢٥٥.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٤٠٥.

الثاني: هو رعاية الأمانة مع نفسه: وهو ما أنعمَ الله به عليه من سائر أعضائه، فأمانةُ اللسانِ حفظُه من الكذب والغيبة والنميمة ونحو ذلك، وأمانةُ العينِ غضُّها عن المحارم، وأمانةُ السَّمعِ ألا يُشْغِلَه بسماع شيء من اللهو والفحش، ثم سائر الأعضاء على نحو ذلك.

الثالث: هو رعاية أمانة العبد مع سائر عباد الله تعالى(١).

ويجب أداء الأمانات إلى أصحابها، ولو كانوا فُجَّاراً فُسَّاقاً، فالإسلام يحفظ لجميعِ الناس حقوقهم، ومن الكلمات المأثورة عن علماء المسلمين: **العقوقُ لا يمنع الحقوقَ.**

وكان ميمون بن مهران من علماء السلف يقول: ثلاثٌ يؤدَّيْنَ إلى البَرِّ والفاجرِ: الرحمُ توصَلُ برّةً كانت أو فاجرةً، والأمانةُ تؤدَّى إلى البَرِّ والفاجرِ، والعهدُ يوفّى به للبرِّ والفاجرِ(٢).

ويؤكد هذا المعنى قول النبيِّ ﷺ: «**أدِّ الأمانةَ إلى مَنِ ائْتَمَنَكَ، ولا تَخُنْ مَنْ خانَكَ**» [رواه أبو داود (٣٥٣٤ و٣٥٣٥) والترمذي (١٢٦٤)].

وقد نزلت هذه الآية يوم الفتح على النبيِّ ﷺ، وهو داخل الكعبة المعظَّمة، روى ابن جرير بسنده: عن ابن جُريج قال: نزلت في عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، قَبَضَ منه النبيُّ ﷺ مفاتيحَ الكعبةِ، ودخل بها البيتَ يومَ الفتحِ، فخرج وهو يتلو هذه الآية، فدعا عثمان، فدفع إليه المفتاح.

وقال عمرُ بنُ الخطاب ﷺ: لمّا خرجَ رسول الله ﷺ، وهو يتلو هذه الآية ـ فداؤه أبي وأمي ـ ما سمعتُه يتلوها قبلَ ذلك(٣).

ولا شك أنَّ الحكم بين الناس بالعدل من أعظم الأمانات، وأثقل التبعات، التي يحملها الحُكَّام والقضاة، فأداء الأمانات أساسُ التعامل الأول بين الناس

(١) انظر: تفسير الخازن: ٢/١٠١.
(٢) روح المعاني: ٥/ ٦٤.
(٣) تفسير الطبري: ٥/١٤٥.

في المجتمع، والحكم بالعدل أهم أسس نظام الحكم في الإسلام؛ ولهذا قرن تعالى بينهما فقال:

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾ أي: وإنّ الله تعالى يأمركم أن تحكموا بين الناس بالعدل، فعلى الحاكم أن يأخذ الحقَّ ممَّن وجب عليه، لمن وجب له، كما قال أبو بكر الصديق ﷺ في أول خطبةٍ له بعد أن بويع بالخلافة: «وإنّ أقواكم عندي الضعيفُ حتى آخذَ له بحقِّه، وإنَّ أضعفَكم عندي القويُّ حتى آخذَ منه الحقَّ»[1].

فولاية الناس في الإسلام مسؤولية جسيمة وكبيرة، وأمانة ثقيلة؛ ولهذا جاء الأمر بالعدل مقيّداً بالحكم بين الناس، ولم يأتِ مطلقاً، كما هو الحال في أداء الأمانات، فهو كالتصريح أنه ليس لجميعِ الناسِ أن يشرعوا في الحكم، بل ذلك لبعضهم ممن يصلح له ويقدر عليه[2].

ففي الحديث الشريف: عن أبي ذر ﷺ: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: **«يا أبا ذرّ! إنّي أراكَ ضعيفاً، وإنّي أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسي، لا تأمَّرَنَّ على اثنينِ، ولا تولّيَنَّ مالَ يتيمٍ»**.

وفي رواية أخرى قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ ألا تستعملني؟ قال: فضربَ بيدِه على منكبي، ثم قال: **«يا أبا ذَرٍّ إنّكَ ضعيفٌ، وإنَّها أمانةٌ، وإنَّها يومَ القيامةِ خِزْيٌ وندامةٌ، إلَّا مَنْ أخذَها بحقِّها، وأدَّى الذي عليه فِيْها»** [رواه مسلم (١٨٢٥)].

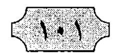
وفي مقابل ذلك، فإنّ للحاكم العادل ـ الذي يقدِرُ على حمل أمانة الحكم، ويؤدِّي الحقوق كاملة إلى رعيته ـ مكانةٌ كبيرةٌ عالية يوم القيامة.

ففي الحديث الشريف: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ المقسطينَ عندَ اللهِ على منابرَ من نورٍ، عن يمينِ الرحمنِ ﷻ، وكلتا يديه يمينٌ، الذين يعدلونَ في حُكمِهم وأهلِيْهِم وما وُلُّوا»** [رواه مسلم (١٨٢٦)].

---

(١) حياة الصحابة: ٣/ ٤٢٧، طبعة دار القلم ـ دمشق.

(٢) انظر: تفسير الرازي: ١٠/ ١٤٦.



فالعدل حقٌّ من أهم حقوق الإنسان في الشريعة الإسلامية، مهما كان هذا الإنسان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ أي: نعم الشيء الذي يعظكم الله به، آمراً ومذكراً

فكلمة ﴿يَعِظُكُم﴾ تفيد الأمر والتذكيرَ والنصحَ، وهذا الشيءُ هو أداء الأمانات والعدل في الحكومات، فالأمر إذاً خطير وكبير.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ فراقبوه في أعمالكم وأماناتكم، فهو سبحانه سميع لأقوالكم، بصير بجميع أعمالكم وأحوالكم.

- **طاعة أولي الأمر وتحكيم شريعة الله:**

ولا يقوم المجتمع العادل الذي يتمتَّع الناس فيه بحقوقهم كاملةً، إلا في ظل شريعة الله تعالى، وطاعة المحكومين للحاكم الملتزم بهذه الشريعة، وهو ما بينه تعالى من خلال ندائه للمؤمنين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: الزموا طاعته في كلِّ ما أمركم به ونهاكم عنه.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: أطيعوه أيضاً في كلِّ ما أمركم به، ونهاكم عنه؛ لأنّه ﷺ لا ينطِقُ عن الهوى، إنْ هُوَ إلا وحيٌ يوحى.

وأعاد الفعل (**أطيعوا**) وإن كانت طاعة الرسول مقترنةً بطاعة الله تعالى؛ اعتناء بشأنه ﷺ، وقطعاً لتوهُّم أنَّه لا يجبُ امتثال ما ليس في القرآن، وإيذاناً بأن له استقلالاً بالطاعة لم يثبت لغيره، ومن ثَمَّ لم يُعِدْه في قوله سبحانه:

﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ إيذاناً بأنهم لا استقلالَ لهم فيها استقلال الرسول ﷺ[١].

---

(١) روح المعاني: ٥/ ٦٥.

وهم الحكّام والقادة، وأضاف بعضهم إليهم العلماء، فطاعتهم مقيدة بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ.

وأكد هذا المعنى سببُ نزول الآية، فعن **علي** رضي الله عنه قال: بعثَ النبيُّ ﷺ سريةً، فاستعملَ رجلاً من الأنصارِ، وأمرَهُم أن يطيعوه، فغضبَ فقال: أليسَ أمَرَكُم النبيُّ ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: فاجمعوا لي حطباً، فجمعوا، فقال: أوقدوا ناراً، فأوقدوها، فقال: ادخلوها. فهمُّوا، وجعلَ بعضُهم يمسِكُ بعضاً ويقولون: فررنا إلى النبيِّ ﷺ من النارِ، فما زالوا حتَّى خمدتِ النارُ، فسكنَ غضبُه، فبلغ النبيَّ ﷺ فقال: «**لو دَخَلُوْهَا ما خَرَجُوْا مِنْها إلى يومِ القيامةِ، الطاعةُ في المعروفِ**» [رواه البخاري (٤٣٤٠)].

وعن **ابن عباس** رضي الله عنهما: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن حُذافة بن قيس بن عدي، إذ بعثه النبي ﷺ في سرية. [رواه البخاري (٤٥٨٤)].

وعن **عبد الله بن عمر** رضي الله عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**السمعُ والطاعةُ على المرءِ المسلمِ فيما أحبَّ وكرهَ، ما لمْ يُؤْمَرْ بمعصيةٍ، فإذا أُمِرَ بمعصيةٍ فلا سمعَ ولا طاعةَ**» [رواه البخاري (٧١٤٤)].

وعن أم **الحصين**، قالت: حججتُ مع رسولِ اللهِ ﷺ حجّةَ الوداع، فسمعتُه يقول: «**إنْ أُمِّرَ عليكُم عبدٌ مُجَدَّعٌ** (أي: مقطوع الأطرافِ) ـ وحسبتُها قالت: أسودُ ـ **يقودُكم بكتابِ اللهِ، فاسمعوا له وأطيعوا**» [رواه مسلم (١٨٣٨)].

وقوله: ﴿مِنكُمْ﴾ يدل على أن الحكّام يجب أن يكونوا من المسلمين، فلا تجوز ولاية الكافر على المسلم، قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١] ـ كما سيأتي معنا ـ.

فطاعة ولي الأمر واجبةٌ على الرعية ما دام متمسِّكاً بالكتاب والسُّنَّة، فإذا زال عنهما فلا طاعة له، وإنما تجب طاعته فيما وافق الحق[١].

---

(١) تفسير الخازن: ٢/ ١٠٤.

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾ أي: اختلفتم في شيء.

وكلمة (شيء) نكرةٌ تفيد العموم، فالشريعةُ الإسلامية تلبي حاجاتكم التشريعية لكل شيء تتنازعون فيه.

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي: فراجعوا فيه كتاب الله تعالى، وسُنَّة رسول الله ﷺ.

﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ أي: إن كنتم تؤمنون بالله تعالى حقّاً، وأنكم مسؤولون أمامه يوم القيامة، فيجب عليكم طاعته، والاحتكام إلى دينه وشرعه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [الشّورى: ١٠].

فالحاكمية والتشريع في نظام الإسلام لله تعالى وحده، فهو سبحانه الخالق والمالك، وله الحكم في خلقه وملكه، كما قال سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ودلَّت الآية على أنّ الذي لا يرضى بتحكيم شريعة الله تعالى غير مؤمن، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [النساء: ٦٥].

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ أي: تحكيمُ شريعة الله تعالى بينكم خير لكم من تحكيم الشرائع التي يشرعها البشر؛ لأنّها شرائعُ ناقصة وغيرُ عادلةٍ، تتأثر بأهواء ومصالح واضعيها.

﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ أي: وأحسنُ مرجعاً وعاقبة ومآلاً.

فإنّ تحكيم شريعة الله يؤدِّي إلى إشاعة الأمن والعدل والسلام والتعاون بين أبناء المجتمع، كما يؤدِّي إلى الرخاء وسَعةِ العيش، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

• الإعراض عن تحكيم شريعة الله كُفر ونفاق:

فالرِّضا بأحكام الشريعة الإسلامية دليل على صحة الإيمان وصدقه، والإعراض عنها دليل على الكفر والنفاق، ولهذا قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ أي: يدَّعون.

﴿أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: من الشرائع الإلٰهية السابقة.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ أي: إلى رأسٍ من رؤوس الضلال والكفر.

﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: وقد أمرهم الله تعالى أن يكفروا بالطاغوت، وبما يدعو إليه من شرك وضلال.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا إنكارٌ من الله ﷻ، على من يدَّعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله ﷺ وعلى الأنبياء الأقدمين صلوات الله عليهم وسلامه، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية، أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهوديُّ يقول: بيني وبينك محمد، وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف»[١].

﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾، ولهذا زَيَّنَ لهم الإعراض عن شريعة الله، والتحاكم إلى ما يشرعه طواغيتُ الكفر والضلال، مما يدلُّ على

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٤٠٩.

أنهم وقعوا في حبائل الشيطان، فأسلموا أمرهم إليه، وأذعنوا لنزغاته ووساوسه.

وكلما دعوتَهم إلى الانقيادِ والتحاكم لشرع الله تعالى، أعرضوا مستكبرين:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾.

أي: يعرضون عنك وعما تدعوهم إليه إعراضاً كاملاً، يدل على عنادهم وتكبرهم، ويدل على كذب ادعائهم الإيمانَ، فهم كذَّابون منافقون، أظهر إعراضُهم عن تحكيم شريعة الله كفرَهم ونفاقَهم، ولهذا صرحت الآية بنفاقهم.

وما أكثر الذين تنسحب عليهم هذه الآيات في المجتمعات الإسلامية، من الذين يعرضون عن شريعة الله تعالى، ويعارضون تحكيمها، ويسعون جاهدين إلى عزلها وحصرها في مجال العبادات الفردية الشخصية، مما يدلُّ على أنَّ النفاقَ قد استشرى كثيراً بين المسلمين.

- **أعذار واهية وأيمان كاذبة:**

ويؤدِّي الإعراضُ عن تحكيم شريعة الله تعالى، وتعطيلِ أحكامها، إلى البلاء والغلاء والفتن، وهو الواقعُ المشاهَدُ في أكثر المجتمعات الإسلامية، وهو ما حذَّرَنا سبحانه منه بقوله:

﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿فَكَيْفَ﴾ أي: كيف يكون حالُ هؤلاء المعرضين عن شريعة الله تعالى.

﴿إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: إذا نزلت بهم المصائب والنوازل بسبب إعراضهم عن شريعة الله، وتحكيمهم شرائع طواغيت الكفر والضلال.

﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ أي: ثم يأتون إليك، حين يصابون؛ معتذرين.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ أي: يحلفون بالله تعالى أنهم ما أرادوا بالتحاكم إلى غيرك الإساءة والمخالفة؛ بل أرادوا الإحسان والتوفيق.

وهي دائماً دعوى كل من يحيد عن الاحتكام إلى منهج الله وشريعته، إنَّها حجَّة الذين يزعمون الإيمان، وهم غيرُ مؤمنين، وحجَّةُ المنافقين الملتوين، هي هي دائماً وفي كل حين، والله سبحانه يكشِفُ عنهم هذا الرداء المستعار، ويخبِرُ رسولَه ﷺ أنه يعلم حقيقةً ما تنطوي عليه جوانحهم[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: عن قبول عذرهم، دون أن تفضحهم؛ ليظلوا على وجلٍ وحذرٍ.

أو: أعرض عنهم، ولا تهتمَّ بهم؛ فإنّ الله مجازيهم.

﴿وَعِظْهُمْ﴾ أي: ازجرهم عن النفاقِ والكُفْرِ والكذبِ، وخوِّفهم من عذاب الله تعالى يوم القيامة، وأنّ ما أصابهم في الدنيا من المصائب شيءٌ يسيرٌ بالنسبة لما ينتظرهم يومَ القيامةِ إن أصرُّوا على الكفرِ والنفاقِ.

﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: خالياً بهم، فإنَّ النصيحة في السرِّ أنجعُ وأقربُ إلى القبول.

﴿قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ أي: قولاً مؤثراً.

فكأنَّها تقولُ للنبيِّ ﷺ: ابسط لهم لسانَ الوعظِ، بمقتضى الشفقةِ عليهم، وانقبض بقلبك عن المبالاة بهم، والسكون إليهم.

فما أعظمَ هذه الشريعة، وما أرحمَ أحكامها! إنَّها تأمر النبيَّ ﷺ أن يعامل

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٥/ ٦٩٥.

المعرضين عنها هذه المعاملةَ الرحيمةَ الحكيمةَ، تأمُرُه أن يبذلَ جهده في وَعْظهم وإرشادهم، وإنقاذِهم من وهدة النفاق وشقوته، وسوءِ عاقبتِه، مع أخذِ الحِذْرِ منهم، وعدم الاطمئنانِ إليهم.

● **طاعة رسول الله ﷺ وشفاعته:**

ثم قررتِ الآياتُ وجوبَ طاعة كل رسول أرسله الله تعالى، فالرسولُ ليس مجرَّدَ واعظٍ يلقي كلمته ويمضي، لتذهبَ في الهواءِ بلا سلطان، كما يقول المخادعون عن طبيعة الدين وطبيعة الرسل، فللرسولِ سلطانٌ، ويجبُ أن يُطاعَ، لكي يحقِّقَ المنهج الذي أرسله الله تعالى به[1]:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: بأمرٍ من الله تعالى، فطاعتُه طاعةٌ لله تعالى، ومعصيتُه معصيةٌ لله تعالى ـ كما سيأتي عند قوله سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ﴾ [النساء: ٨٠].

وفي هذا التقرير توبيخٌ للمعرضين عن طاعته عليه الصلاة والسلام.

وفتحت الآيةُ بعد هذا التقرير والتوبيخ للمعرضين سبيلاً للتوبة، كما هو شأن القرآن الكريم دائماً، فبعد أن يحذِّر وينذِرَ وينبِّه إلى موضع الداءِ، ومكمنِ الخطرِ، يدعو إلى الاستغفارِ والتوبةِ، فلا يأسَ مِنْ رحمةِ الله تعالى، ومهما كانتِ الذنوبُ كبيرةً، فإنَّ رحمته تعالى ومغفرتَه أوسعُ منها:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: بالنفاق والتحاكم إلى شرائع الطواغيت.

﴿جَآءُوكَ﴾ أي: تائبين من النفاق، نادمين على ما سلف منهم.

﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: سألوا الله تعالى أن يغفر لهم.

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٦٩٥.

﴿وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ بالشفاعةِ لهم، وسأل اللهَ أن يغفرَ لهم، ويقبلَ توبتهم.

والقياسُ يقتضي أن يقول: واستغفرتَ لهم، وإنَّما عدلَ الخطابُ عنه تفخيماً لشأنه عليه الصلاة والسلام، وتنبيهاً على أنَّ مِنْ حقّ الرسول ﷺ أن يقبلَ اعتذارَ التائب، وإن عظم جُرمه، ويشفع له(١).

فإذا جاؤوك فقد جاؤوا مَنْ خصَّه الله برسالته، وجعله سفيراً بينه وبين خلقه، ومن كان كذلك فإنَّ الله تعالى لا يردُّ شفاعته، فلهذا السبب عدل إلى طريقة الالتفات، من لفظ الخطاب إلى لفظ الغيبة(٢).

﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ أي: لعلموا أنّ الله يقبل توبتهم ويرحمهم.

ثم أقسم الله تعالى بذاته المقدَّسة، وأضافها إلى ضمير الخطاب الموجَّه إلى النبيِّ ﷺ تكريماً له وتشريفاً، على انتفاء إيمانهم حتى ينقادوا لحكمه عليه الصلاة والسلام انقياداً كاملاً، ويسلِّموا له تسليماً مطلقاً:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: فو ربك لا يؤمنون، وزيدت (لا) لتأكيدِ معنى القسم.

﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: فيما اختلفوا فيه من الأمور، ووقع بينهم تنازع بشأنه، ومنه الشجر لتداخل أغصانه.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾ أي: لا يجدوا في أنفسهم أي ضيقٍ وانزعاجٍ من حكمك، بل يرضوا بما حكمتَ.

﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ أي: وينقادوا لك انقياداً ظاهراً وباطناً.

---

(١) تفسير البيضاوي: ١٠٨/٢.

(٢) تفسير الخازن: ١٠٨/٢.

فلا يصحُّ إيمانُ أحدٍ بالله تعالى إلا إذا آمن بالنبيِّ ﷺ، وانقادَ لحكمه انقياداً كاملاً كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النُّور: ٥١].

وذكروا في سبب نزول هذه الآية: أنّ رجلاً من الأنصار خاصم الزبيرَ بن العوام رضي الله عنه عند النبيِّ ﷺ في شِراجِ الحَرَّةِ التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاريُّ: سرِّح الماءَ يمر، فأبى عليه، فاختَصما عند النبيِّ ﷺ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ للزبير: «**اسقِ يا زبيرُ، ثم أرسلِ الماءَ إلى جارِكَ**» فغضبَ الأنصاريُّ فقال: أنْ كان ابن عمَّتِكَ. فتلوَّنَ وجهُ رسولِ اللهِ ﷺ ثم قال: «**اسقِ يا زبيرُ، ثم احبسِ الماءَ حتى يرجعَ إلى الجُدُرِ**» فقال الزبيرُ: واللهِ إنِّي لأحسبُ هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [رواه البخاري (٢٣٥٩)].

وشراج الحرة: أماكن مسيل الماء في الحرة. **والجدر**: هي الحواجز التي تحبس الماء.

ومن المعلوم أنّ خصوصَ السبب لا يمنعُ عموم الحكم، وحكم هذه الآية باقٍ إلى يوم القيامة، وليس مخصوصاً بالذين كانوا في عصر النبي ﷺ، فإنّ قضاء شريعته عليه الصلاة والسلام قضاؤه(١).

- **يُسْر الشريعة وسماحتها:**

ثم بيَّنت الآياتُ يُسْرَ الشريعة الإسلامية وسماحتها، وأنّه تعالى ما كلَّفنا فيها التكاليفَ الشاقة، فما كلَّفنا إلا طاعة الرسول ﷺ والتمسُّك بسنَّته ﷺ:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾ أي: لو أنه سبحانه فرض علينا التكاليف الشاقة الصعبة كقتل النفس والخروج من الديار.

---

(١) روح المعاني: ٥/ ٧١.

﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: ما فعل هذا التكليفَ إلا قليل من المؤمنين.

لقد علم تعالى ضعفنا فرحمنا، وأرسل إلينا هذا الرسول الكريم ﷺ الذي وصفه سبحانه بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

والذي وصفته **السيدة عائشة** ﵂ بقولها: **ما خُيِّرَ رسولُ اللهِ ﷺ بين أمرينِ إلا أخذَ أيسرَهُما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كانَ أبعدَ الناسِ مِنْهُ، وما انتقمَ رسولُ اللهِ ﷺ لنفسِهِ إلا أن تُنْتَهَكَ حرمةُ اللهِ فَيَنْتَقِمُ للهِ بها**. [رواه البخاري (٣٥٦٠)].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي: ما يؤمرون به من طاعة الرسول ﷺ والتمسُّك بشريعته.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ أي: ثباتاً على الإيمان وعلى التمسك بشريعة الإسلام، فإنّ يسر الشريعة، وسهولة تكاليفها يستدعي التمسُّكَ بها، والثباتَ عليها، فلا عذر لأحد في تركها وهجر أحكامها.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يوصي بالاعتدال في العبادةِ، وينهى عن التشدد والغلو فيها؛ ففي الحديث الشريف: عن **عائشة** ﵂: أنَّ النبيَّ ﷺ دخلَ عليها وعندَها امرأةٌ قال: «**مَنْ هذه؟**» قالت: فلانةٌ، تذكرُ مِنْ صلاتِهَا قال: «**مَهْ عليكمُ بما تُطِيْقُونَ، فو اللهِ لا يَمَلُّ اللهُ حتّى تَمَلُّوا**» وكانَ أحبُّ الدِّين إليه ما دامَ عليه صاحِبُه. [رواه البخاري (٤٣)].

وقولها: (**تذكر من صلاتها**) أي: يذكرون أن صلاتها كثيرة، وأنها لا تنام في الليل.

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾.

أي: وفي حال ثباتهم على الدين، وتمسكهم بشريعته، نعطيهم من عندنا أجراً عظيماً، لا يعلمُ مقدارَه إلا معطيه، وهو الله ﷻ.

﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٦٨﴾.

أي: ونوفقهم أيضاً للسير على الصراط المستقيم، الذي يصلون به إلى أعلى المراتب التي تتطلَّعُ إليها نفوسُ المؤمنين الصالحين والشهداء والصديقين.

• **الرفيق الأعلى:**

واستمرَّتِ الآياتُ ترغِّبُ المؤمنين في طاعة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام والتمسك بشريعته وسنته، وتطمِعُهم بمرافقة أكرم الخلائق في أرفع المراتب وأعلاها يوم القيامة:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ أي: المبالغين في الصدق والإخلاص في أقوالهم وأفعالهم، وهم خواصُّ المقرَّبين من الأنبياء كأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ وهم الذين بذلوا أرواحهم في طاعته تعالى وإعلاء كلمته.

﴿وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ أي: المتمسكين بشريعته وسنَّته، فلا صلاحَ للإنسان إلا إذا التزم بشرع الله تعالى وتمسَّكَ بسنَّة النبي ﷺ.

﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ أي: وما أحسنَ صحبة هؤلاء ومرافقتهم في الملأ الأعلى في الجنة! **فالرفيق**: الصاحِبُ، مأخوذ من الرفق، وهو لين الجانب واللطف في المعاشرة.

فطاعةُ الرسولِ ﷺ مفتاحُ الوصولِ إلى المقامات العالية الرفيعة، مقامات النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وكفاه عليه الصلاة والسلام بذلك شرفاً وتكريماً، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عِمرَان: ٣١].

وعن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال: كنتُ أبيتُ مع رسولِ اللهِ ﷺ فأتيته بِوَضُوْئِهِ وحاجتِهِ، فقال لي: «**سَلْ**» فقلتُ: أسألُكَ مرافقتَكَ في الجنَّةِ، قال: «**أو غيرَ ذلِكَ؟**» قلت: هو ذاكَ، قال: «**فأعنِّي على نفسِكَ بكثرةِ السُّجُوْدِ**» [رواه مسلم (٤٨٩)].

وعن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ أهلَ الجنَّةِ ليتراءونَ أهلَ الغُرَفِ مِنْ فوقهم كما تتراءوْنَ الكوكبَ الدرِّيَّ الغابِرَ في الأُفُقِ مِنَ المشرقِ أو المغربِ لتفاضُلِ ما بينهم**» قالوا: يا رسول الله تلكَ منازِلُ الأنبياء لا يبلغُها غيرهم؟ قال: «**بلى والذي نفسِي بيدِهِ، رجالٌ آمنوا باللهِ وصدَّقوا المرسلينَ**» [رواه مسلم (٢٨٣١)].

وعن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه أيضاً قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**التاجِرُ الصدوقُ الأمينُ مع النبيينَ والصديقينَ والشهداءِ**» [رواه الترمذي (١٢٠٩)].

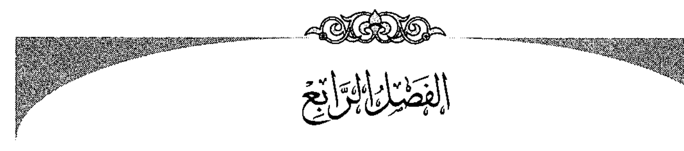
﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: بلوغهم هذه المراتب الرفيعة في الجنة فضل تفضَّل الله تعالى به عليهم.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ أي: بعباده وأعمالهم، وما يتفضّل به عليهم، فما نالوا هذه الدرجات العالية إلا بفضله سبحانه عليهم، فلا ينبغي لأحدٍ أن يغترَّ بعمله، ويُعْجَبَ بعبادته، فالله سبحانه هو الذي وفقهم إلى هذه العبادات والطاعات، وأعانهم عليها، فالفضل منه سبحانه أولاً وآخراً.

وفي الحديث الشريف: عن **عائشة** رضي الله عنها زوج النبيِّ ﷺ في الدنيا والآخرة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**سَدِّدُوا وقارِبُوا وأَبْشِرُوا، فإنَّه لن يُدخِلَ الجنّةَ أحداً عَمَلُه**» قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمَّدني اللهُ مِنْه برَحْمَةٍ، واعلموا أنَّ أحبَّ العملِ إلى اللهِ أدومُهُ وإنْ قَلَّ**» [رواه مسلم (٢٨١٨)].

❁ ❁ ❁



الفصل الرابع

التكليف بالجهادِ والحضّ عليه

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾ ۞فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ

يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَاۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءًۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ .

- **تحذير ونفير:**

وما دام الناس معرَّضين لهذه الآفات النفسية الخطيرة التي تدفعهم إلى الاختلاف والتنازع وإلى البغي والعدوان، فلا مناصَ من تكليف المؤمنين بالقتال، وحثّهم على الجهاد، لكي يتمتعوا بحقوقهم، ويعيشوا بسلامٍ واطمئنانٍ، فما أكثرَ ما يُفْرَضُ السلام بالقوة، وهو ما يسمَّى في عصرنا الحاضر عند رجال السياسة: التوازن الاستراتيجي، فإذا ما اختلَّ هذا التوازن، وتفوّقت إحدى القوى على غيرها أصبح السلامُ في خطر، وتعرَّضت حقوق الناس للعدوان والظلم.

ولهذا توجَّهت الآيات الكريمة بخطابها إلى المؤمنين تناديهم محذِّرةً ومستنفرةً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ **الحِذْرُ**: الحَذَرُ، أي: الحَذَر الحَذَر؛ وهو لا يكون إلا من مَخُوفٍ وخطر، يقال: أخذ حِذْره، إذا تيقَّظ، واحترز من المخوف، كأنّه جعل الحذر آلته التي يقي بها نفسَه، ويعصم بها روحه. والمعنى: احذروا واحترزوا من العدو(١).

والحذر يكون بالانتباه والاستعداد والأخذ بأسباب القوة والوقاية والحيطة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وبعد بيان التحذير من العدو أمر سبحانه بالنفير:

﴿فَٱنفِرُواْ﴾ أي: اخرجوا للجهاد وقتال الأعداء.

﴿ثُبَاتٍ﴾ أي: متفرِّقين، جماعةً بعدَ جماعةٍ، وسريةً بعدَ سريةٍ، وهذا عندما لا يكونُ الخطر كبيراً، فيكفي حينئذٍ أن يخرجَ للقتال بعضُ أفراد الأمة، وينصرف الآخرون إلى الاهتمام بمتطلَّبات الحياةِ الأخرى كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ أي: اخرجوا إلى الجهاد مجتمعين إذا كان النفير عامّاً، وذلك عندما يكونُ الخطرُ كبيراً، ويحتاجُ إلى حشد كل طاقات الأمة القتالية، فحينئذٍ يكونُ الجهادُ فرضَ عينٍ على كل قادر عليه، كما في قوله تعالى:

(١) تفسير النسفي: ٢/ ١١٣.

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

- **المتقاعسون عن الجهاد:**

ولا تخلو أمةٌ أو مجتمعٌ عن الجبناء المتقاعسين عن القتال، ولهذا اتجهت الآيات إلى الحديث عنهم، ووصف أحوالهم، وبيان مواقفهم، فهم ثغرة كبيرة في جسم الأمة يجب المبادرة إلى سَدِّها، وإحكام إغلاقها، وإلَّا تسرَّبَ العدو منها إلى مَقاتِلِ الأمة فأجهزَ عليها.

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢)﴾.

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ أي: ليتثاقلنَّ وليتخلَّفنَّ عن الخروج إلى الجهاد، من بطَّأ بمعنى أبطأ، أو ليُبطئن غيره ويثبطه، من بطأ منقولاً من بطؤ[1]، كما قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨]، والواقع فإنّ التباطؤ والتقاعس عن الجهاد يؤدّي إلى تشجيع الآخرين على التباطؤ والتقاعس.

﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أي: أصابتكم في الجهاد مصيبة كهزيمة أو قتل.

﴿قَالَ﴾ أي: المتباطئ المتخلِّف عن الجهاد.

﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ﴾ أي: بالقعود والتخلُّف، فإنّه يرى التخلّف عن الجهاد نعمة من الله، مع أنه معصية كبيرة.

﴿إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي: حاضراً مع المجاهدين في المعركة، فلو كنتُ معهم لأصابني مثل ما أصابهم.

وهكذا اختلَّت نظرته إلى الأمور فرأى التخاذل والجبن نعمة من نعم الله تعالى عليه.

---

(١) انظر: تفسير أبو السعود: ٢/ ٢٠٠.

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: فانتصرتم وغنمتم.

﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ أي: كأنه غريبٌ عنكم، ولا صلةَ بينكم وبينه.

﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ﴾ أي: كنتُ مع المجاهدين في ميدان القتال.

﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: فأنال نصيباً وافراً من الغنيمة.

فهو يتحسَّر على الكسب المادي الذي فاته بسبب تخلُّفه عن الجهاد، لا على ما فاته من ثواب الجهاد وشرفه، وكأنَّ الآية تكشِفُ سببَ جُبنه وتخلُّفه عن الجهاد، إنه الحرص على المنافع المادية، والتعلق بالشهوات الأرضية الفانية، وهذا ما صرحت به الآيات الكريمة في موضع آخر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وأعرضتِ الآياتُ عن المتخلِّفين، والتفتت إلى المجاهدين تحضُّهم على الجهاد، وتبيِّن لهم الثوابَ العظيم، الذي أعدّه الله لهم:

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾.

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي: يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة.

فكلمة ﴿يَشْرُونَ﴾ من ألفاظ الأضداد، وقد جاءت بمعنى البيع أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يُوسُف: ٢٠].

فهم الذين تعلَّقت قلوبهم وأرواحهم بالآخرة فآثروها على الدنيا، فإن تقاعسَ المتقاعسون عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم في سبيل الله طلباً لرضوانه وفسيح جنانه.

﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ أي: فللمجاهدين الأجر العظيم والثواب الجزيل في حال استشهادهم، أو في حال فوزهم على عدوهم وانتصارهم.

فليس أمام المجاهدين في أرضِ المعركة إلا إحدى الحُسْنَيين: الشهادة أو النصر، كما جاء في الحديث الشريف: «**تضمَّنَ اللهُ لِمَنْ خرجَ في سبيلِهِ لا يُخْرِجُه إلا جهاداً في سبيلي، وإيماناً بي، وتصديقاً بِرُسُلي، فهو عليَّ ضامِنٌ أن أدخلَه الجنّةَ، أو أرجعَهُ إلى مسكنِهِ الذي خرجَ منه، نائلاً ما نالَ مِنْ أجرٍ أو غنيمةٍ**» [رواه مسلم (١٨٧٦)].

- **وجوب مساعدة المستضعفين:**

وتابعتِ الآياتُ حضَّ المسلمين على الجهاد والثبات مع بيان مقصد آخر من مقاصده، وهو نصرةُ المستضعفين، وتخليصهم من المجتمعات الظالمة التي لا يتمتَّعُ الإنسانُ فيها بحقوقه الإنسانية وكرامته.

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ أي: وفي سبيل مساعدة المستضعفين، فإنَّ مساعدةَ المستضعفين وتخليصَهم من أيدي الظالمين جهادٌ في سبيل الله، فهو من قبيل عطفِ الخاصِّ على العام.

والمرادُ بهم الذين يعيشون تحت قهر الظَّلَمة وفي سلطانهم، كالذين لم يتمكنوا من الهجرة من ضعفاء المسلمين، وقد كان الرسول ﷺ كثيرَ الاهتمام بهم حتى كان يدعو لهم في صلاته.

ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما النبيُّ ﷺ يصلّي العشاءَ إذ قال: «سمعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَه» ثم قال قبلَ أَنْ يسجدَ: «**اللهمَّ نجِّ عَيّاشَ بنَ أبي ربيعةَ، اللهمَّ نَجِّ سَلَمةَ بنَ هشام، اللهمَّ نجِّ الوليدَ بنَ الوليدِ، اللهمّ نجِّ المستضعفينَ مِنَ المؤمنينَ، اللهمَّ اشْدُدْ وطأتك على مُضَر، اللهمَّ اجعلها سنينَ كسني يوسُفَ**» [رواه البخاري (٤٥٩٨)].

وتدلُّ الآية أنَّ على المسلمين أن يساعدوا الجاليات المسلمة المستضعفة التي تعيشُ في بلاد الكفر، حتى يتمتعوا بحقوقهم كاملةً، ويؤدُّوا العبادات المفروضة عليهم بحرية، فإن كثيراً من الجاليات المسلمة لا تتمتع بأبسط الحقوق الإنسانية، ففي البلاد الغربية التي يرفعُ أهلُها شعارات المحافظة على حقوق الإنسان يُمنع المسلمون من رفع أصواتهم في الأذان، ويضيِّقون على المرأة المسلمة التي تلبس الملابس الإسلامية الساترة، كما يضيقون عليهم في أسباب كسبهم ومعاشهم.

﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ وهو بيان للمستضعفين وأصنافهم.

وذكرت الآية الولدان تكميلاً للإثارة، والحضّ على دفع الظلم عنهم، وتنبيهاً على شدّةِ الظلم الواقع عليهم حتى وصل إلى أطفالهم. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الإسلامَ يحفظ حقوق جميع الناس صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ أي: الذين ظَلَمَ أهلُها بالكفر والشرك والعدوان على حقوق المستضعفين.

ودلَّ دعاؤهم هذا على أنهم كانوا متبرِّمين من الإقامة فيها، ويتمنَّون مغادرتها، بسبب ما يلقون فيها من ظلم وعدوان.

﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ أي: اجعل لنا وليّاً يتولّى أمرنا، ويستنقذنا من أعدائنا.

﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ أي: ينصرنا عليهم.

كانوا يدعونه بالخلاص ويستنصرونه، فيسّرَ الله لبعضهم الخروج إلى

المدينة، وبقي بعضُهم إلى الفتح، حتى جعل الله لهم من لدنه خيرَ وليّ وناصر، وهو محمد عليه الصلاة والسلام، فتولاهم أحسنَ التولي، ونصرهم أقوى النصر[1].

• **بين غايتين:**

ثم عقدتِ الآياتُ مقارنةً بين الغاية الأساس للقتال عند المسلمين، وبين غاية القتال عند المشركين؛ إبرازاً لنُبْل وسموِّ غاية القتال عند المسلمين، وهو أسلوبٌ جديدٌ اتبعته الآيات لحثِّ المسلمين على القتال، بتعريفهم بغايته النبيلة، إذ الأشياء تُعْرَفُ بأضدادها:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ وشتَّان ما بين الغايتين والمقصدين، بين الذين يقاتلون لرفع كلمة الله في الأرض، ونشر دين الحق وشريعة العدل والسماحة، وبين الذين يقاتلون من أجل رؤوس الشرك والكفر والظلم ودعاة الضلال والفساد.

﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ﴾ أي: فقاتلوا يا جندَ الرحمنِ أتباعَ الشيطانِ وأنصارَه وجنودَه، ولا تخافوا منهم ومن مكرهم وكيدهم واحتيالهم.

﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وهو رأس الطواغيت.

﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ لأنه تعالى يؤيدكم وينصركم.

ولا يعني هذا الاستهانةَ بمكر الأعداء، فمكرُهم في حدِّ ذاته كبيرٌ وخطيرٌ، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]، فعلينا واجب الحذر منه، والعمل على كشفه وإبطاله.

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ١١٦.

وعادتِ الآياتُ إلى أسلوب التعجيب، التعجيبِ من أحوال هؤلاء الجبناء المتقاعسين عن القتال، والذين كان بعضُهم قبل التكليف به ونزول آياته يطلبونه ويتشوّقون إليه، فلمّا كُلِّفوا به جبنوا وتقاعسوا عنه:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ أي: عن القتال.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: اشتغلوا بما أمرتم به من الطاعات كالصلاة والزكاة.

فلا ينبغي للمؤمن أن يتعرَّض للبلاءِ ويتمنّاه، فقد يجزع ويضعف عند لقائه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**أيُّها الناسُ! لا تتمنَّوا لقاءَ العدوِّ، وسلوا اللهَ العافيةَ، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أنَّ الجنَّة تحتَ ظلالِ السيوفِ**» ثم قال: «**اللهمَّ مُنْزِلَ الكتابِ، ومُجْرِيَ السحابِ، وهازمَ الأحزابِ، اهزمْهُم وانصرنا عليهم**» [رواه البخاري (٢٩٦٦)].

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ أي: يخافون من قتال الكفار كما يخافون أن ينزّلَ اللهُ عليهم بأسه، لا شكّاً في الدين، ولا رغبةً عنه، ولكن نفوراً عن الأخطار بالأرواح، وهذه خَشْيَةُ طَبْع، لا أنَّ ذلك منهم كراهة لحكم الله وأمره اعتقاداً، فالمرءُ مجبولٌ على كراهة ما فيه هلاكه غالباً[1].

ويمكن صدور مثل هذا الشعور عن أي إنسان بحكم جبلته وأصل فطرته، قال تعالى يصفُ حال بعض المؤمنين عندما توجّه النبيُّ ﷺ إلى بدر: ﴿كَمَآ

(١) تفسير النسفي: ٢/ ١١٨.

أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال].

وقد تكون هذه الآيات في المنافقين، فإنّ التكليف بالقتال يمحِّصُ المؤمنين، ويميز بينهم وبين المنافقين، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمَّد: ٢٠].

ويؤكد هذا المعنى ما حكاه سبحانه بعد ذلك من أقوالهم:

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾، فمثل هذا القول لا يصدرُ عن المؤمنين؛ إذ فيه اعتراضٌ على حكم شرع الله تعالى، وإنْ كان بعضُ المفسِّرين رأى أنه سؤال عن وجه الحكمةِ في فرض القتال عليهم، لا اعتراضٌ لحكمه[1].

لكنْ يضعِّفُ هذا الرأي سؤالهم تأخيرَ تكليفهم بالقتال:

﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: هلا تركتنا ولم تفرض علينا القتال، حتى نموتَ بآجالنا. والقائلون لهذا القول هم المنافقون، لأنّ هذا القول لا يليق بالمؤمنين[2].

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ أي: تمتعكم بالدنيا قصير؛ لأنها فانيةٌ زائلةٌ، وهذا يدلُّ على أن تعلقهم بالدنيا هو الذي حملهم على التثاقل عن القتال والخشية منه.

﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي: اتقى الله تعالى بطاعته، وبادر إلى تنفيذ أمره، مجاهداً في سبيله.

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: ولا تنقصون من أجوركم شيئاً قليلاً، ولو قَدْرَ فتيل، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ [محمَّد].

ودلّتِ الآياتُ على أنَّ أحكامَ الشريعة الإسلامية لا تتأثر بعواطف الناس،

---

(١) تفسير النسفي: ٢/١١٨.

(٢) تفسير الخازن: ٢/١١٨.

ولا تستجيبُ لموجات الحماس الآنية التي تطرأ عليهم، إنها تشريع العليم الحكيم الخبير.

● **تَطَيُّرٌ ونفاق:**

ثم ذكَّرَتْهم الآيات بحقيقة يعرفونها، لكنّهم يغفلون عنها في غمرة انشغالهم بالدنيا وتعلقهم بما فيها:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: ينزل بكم الموت، فلا نجاةَ لكم منه، فالأجلُ مقدَّرٌ، والتباطؤ عن الخروج إلى الجهاد لا يمنع منه.

والتعبير بـ ﴿يُدْرِككُّمُ﴾ يدل على شدّة تباعدهم عن أسباب الموت، وهو قريب جدّاً منهم، فهم مجدُّون في الهرب منه، وهو مجدٌّ في طلبهم، لا يفتر نَفَساً واحداً في التوجه إليهم[1].

فحال الموت معهم طالب ومطلوب، والمطلوب لا يفوت الطالب مهما أمعن بالهرب والفرار.

﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ﴾ أي: ولو كنتم في حصون مرفوعة عالية.

فالله سبحانه قدَّر لكلِّ نفسٍ موعداً مع الموت فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال أيضاً: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

ومن عادة الجبناء المتقاعسين عن القتال، كثرة التشاؤم والتطيُّر، وتوقُّع المكروه، وهو أمرٌ مذموم، حكاه الله تعالى عن المعارضين لدعوة الأنبياء كقوم

---

(١) روح المعاني: ٥/ ٨٧.

فرعون، قال: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وذكره أيضاً سبحانه من قول أصحاب القرية التي جاءها المرسلون: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨].

وذكره الله سبحانه هنا من أقوال أعداء النبي ﷺ من يهود المدينة والمنافقين فيها:

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ أي: ما تحسن أحوالهم به في الدنيا، كالنصر والسعة في العيش والرخاء.

﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: ينسبوها إلى الله تعالى.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: ما تسوء بها أحوالهم كالهزيمة والقحط وغلاء الأسعار.

﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: ينسبوها إلى النبيِّ ﷺ، ويضيفوها إليه، قائلين: ما حصلت إلا بشؤمك.

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: كلٌّ من الخير والشر بقضاء الله تعالى وقدره، فهو سبحانه خالقُ كلِّ شيءٍ، كما قال: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي: لا يكادون يفهمون حديثاً.

وهو تقبيح لحالهم، وتعجيب من شدة غباوتهم.

ولمّا كان الموضوعُ يتصل بأمر هام من أمور الاعتقاد، فصَّله سبحانه بعدما أجمله، حتى لا يبقى فيه أدنى لَبْس أو غموض، فقال:

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾.

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: فمنه سبحانه خَلْقاً وإحساناً وتفضُّلاً.

﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ أي: منك أيها الإنسان تسبباً واستجلاباً، فهو كقوله في موضع آخر: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشّورى: ٣٠].

فالمصائبُ والبلايا منا تسبباً، ومن الله تعالى خَلقاً وإيجاداً وتقديراً، كما قرر فيما سبق: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [النساء: ٧٨].

﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ﴾ أي: إنّ الله تعالى أرسلك رسولاً للناس، تبين لهم دين الله وشرعه، ولا علاقة لك في الحوادث، ولا تأثيرَ لك عليها.

فهو ردٌّ على قولهم عندما تصيبهم السيئة: ﴿هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ﴾ [النساء: ٧٨].

وفيه دليل أيضاً على عموم رسالته عليه الصلاة والسلام، فهو رسول إلى كل الناس، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على صدق نبوتك وعموم رسالتك.

وأوجبَ الله تعالى طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام، وجعلها طاعة له سبحانه؛ تأكيداً لصدق رسالته وصحة نبوته، فقال:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ لأنّه عليه الصلاة والسلام المبلِّغ عن الله تعالى.

﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: تحفظ أعمالهم وتحاسبهم عليها، إنَّما عليك البلاغُ وعلينا الحسابُ.

ويجب الإخلاص في طاعة الرسول ﷺ، كالإخلاص في طاعته تعالى، في القول والعمل، والسرِّ والعلن، ولا ينبغي أن تكونَ طاعته عليه الصلاة والسلام كطاعة المنافقين، الذين كانوا يتظاهرون أمامه بالانقياد والطاعة، ويضمرون في قلوبهم مخالفته ففضحهم الله تعالى بقوله:

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ أي: يقولون إذا أمرتهم بأمر: أمرك طاعة.

﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ﴾ أي: خرجوا من عندك.

﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ أي: أضمر فريقٌ منهم مخالفة أمرك.

فالتبييت: كلُّ أمرٍ يُفْعَلُ بالليل. أو من الإعداد والتزوير بالنفس، كما يفعل الشاعرُ عندما يبيِّتُ ما يقول شعراً في نفسه، والمراد أنهم يضمرون خلاف ما يظهرون.

﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ لأنّه تعالى عليم بذات الصدور، ويكتبه عليهم ليجازيهم عليه.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تبالِ بهم، فإنهم لا يضرون بذلك إلا أنفسهم.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: كفى به سبحانه وليّاً وناصراً وحافظاً ومعيناً لمن توكل عليه.

- **التحدي بمعاني القرآن الكريم:**

ومن الطبيعي بعد أن وصفتهم الآيات بقلَّةِ الفهم، في قوله تعالى الذي مرَّ معنا: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] أن تدعو الناس إلى إعمال الفكر في آيات القرآن الكريم؛ لفهم معانيها، والاسترشاد بهديها:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: يتأملون في معانيه، ويتبصَّرون في مبانيه.

والتدبر: التأملُ والنظرُ في أدبار الأمر، وما يؤول إليه في عاقبته، ثمَّ استُعْمِل في كل تأمل وتفكر[١].

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ١٢٣.

ولا يخفى ما في الآية من تحدٍّ للمعاندين المخالفين، فهذه دعوةٌ قرآنيةٌ تدعو المتشككين في صحته وصدقه إلى التأمل والتفكر في معانيه، فشواهدُ صدقه وصحته فيه، ومخالفتهم للقرآن وتشككهم في صحته نتيجة قصورهم عن فهم آياته، فالعيبُ فيهم، والقصورُ منهم؛ ولهذا قال سبحانه في موضع آخر: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

فمعاني القرآن الكريم بارزةٌ واضحةٌ، وقلوبهم هي المقفلةُ دون فهمها وإدراكها.

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: كما يزعم الكفار والجاحدون.

﴿لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ أي: لوجدوا فيه تناقضاً وتفاوتاً كثيراً، كما هو حال كلام البشر.

فلا يوجدُ متكلِّم من البشر يتكلَّم كثيراً، إلا وقع في كلامه اختلافٌ كثيرٌ وتضارب، كالتفاوت في اللفظ، أو التناقض في المعنى، أو مخالفة الحقيقة والواقع، بينما القرآن الكريم كله في أعلى درجات البلاغة يشبِهُ بعضُه بعضاً، ويكمِّل بعضُه بعضاً، ويُفسِّرُ بعضُه بعضاً، كما قال تعالى في وصفه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزُّمَر: ٢٣].

فلا يوجد فيه أدنى تناقض وتفاوت واضطراب، ودلَّ ذلك على أنه كلام الحكيم العليم: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَت].

- **التحذير من نشر الإشاعات:**

ومن عادةِ الجبناء المتقاعسين عن القتال، إشاعةُ الأكاذيب، ونشرُ الأراجيف، وهو أمرٌ مذموم، يستفيدُ منه الأعداء كثيراً في أوقات الحروب والأزمات، وللإشاعات في العصر الحاضر تأثيرٌ كبيرٌ على سير القتال ونتائجه،

ويسمّون ذلك الحرب الإعلامية النفسية، وقد اهتمَّت بها الدول كثيراً، ورصدت لها الأموال الضخمة، وحشدت لأجلها كثيراً من المختصين بها، وبيَّن ﷻ خطرها وأهميتها بقوله:

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ أي: إذا وصل إلى مسامعهم أيُّ خبر يوجِبُ أمناً أو خوفاً، بادروا إلى إذاعته بين الناس قبل التثبُّتِ من صحته.

وكثيراً ما يعمد العدو إلى إشاعة أخبار كاذبة عن هزيمته وضعفه، فيأمن الناس، ويتركون أسباب الحذر والحيطة، فيباغتُهم بهجومه، أو يشيع أخباراً عن هزيمة لحقت بسرية من سرايا المسلمين، تؤدّي إلى انتشار الذعر والخوف والاضطراب في سائر صفوف المسلمين وجنودهم، فيستفيد العدو من ذلك أيضاً، والواجب في مثل هذه الأحوال السكوت، وعدم إذاعة وإشاعة ما تسمع.

وقد جاء في الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**كفى بالمرءِ كَذِباً أن يحدِّثَ بكلِّ ما سَمِعَ**» [رواه مسلم في المقدمة (٥)].

والواجبُ أيضاً التثبُّتُ من صحة الأخبار، وذلك بسؤال أهل الخبرة والاختصاص، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أي: إلى أصحاب الاختصاص، الذين يعرفون حقيقة ما يذاع ويشاع.

﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ أي: لعلم حقيقة هذا الخبر أهل التدبير والفطنة والتجربة، وهم المختصُّون بمعرفة مكايد العدو في الحروب.

والاستنباط: من النبط، وهو الماءُ الذي يخرج من البئر أول ما تحفر،

واستنباطه استخراجه، فاستعير لما يخرجه الرجل من المعاني بفضل ذكائه وصفاء ذهنه وفطنته[1].

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أي: بما شرع لكم من أسباب السلامة والوقاية، ونبّهكم وحذّركم من مكايد عدوكم.

﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أي: لوقعتم في أشراك الشيطان وحبائل أعوانه من شياطين الإنس والجن.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلا قليلاً من ذوي الفطانة والذكاء والمعرفة والتجربة، وهم أهل البصائر النافذة، والعزائم المتمكنة، والنيات الخالصة من أفاضل المؤمنين، الذين يعلمون أنّه ليس من شرط كون الدين حقّاً حصول الدولة في الدنيا، أو كونه باطلاً حصول الانكسار والانهزام، **بل مدار الأمر في كونه حقّاً وباطلاً على الدليل**[2].

وفي الآية حثٌّ على الوقاية والحذر من مكايد العدو، وذلك برصد حركاته ووسائل إعلامه، ودراسة كل ما يصدرُ عنه من إذاعات وإشاعات، لمعرفة مقاصده وأهدافه القريبة والبعيدة، فالقرآن الكريم يربِّي المسلمين، ويهيئهم لظروف الحرب والسلم.

وفيها إشارةٌ أيضاً أن استنباط الحقائق والأحكام من مظانِّها، يتصدى له المختصون من العلماء، فهو فنٌّ مِن الفنونِ لا يحسنُه إلا أصحاب الدراية والاختصاص، كما جاء في الحديث الشريف: أنه ﷺ قال في خطبةِ الوداع: «**فإنَّ دماءَكم وأموالَكُم وأعراضَكُم بينكم حرامٌ كحُرْمَةِ يومِكُم هذا، في شهرِكُم هذا، في بلدِكُم هذا، ليبلِّغَ الشاهدُ الغائبَ، فإنَّ الشاهدَ عسى أنْ يبلِّغَ مَنْ هو أوعى له مِنْهُ**» [رواه البخاري (٦٧)].

وفي روايةٍ أخرى بلفظ: «**ربَّ مُبلَّغٍ أوعى مِنْ سامعٍ**».

---

(١) تفسير الخازن: ٢/ ١٢٤.

(٢) روح المعاني: ٥/ ٩٥.

• **التحريض على القتال:**

ولمَّا فرغتِ الآياتُ من وصف مواقف المتقاعسين عن القتال والجهاد، التفتت فجأةً إلى النبيِّ ﷺ تأمره أن يقاتِلَ في سبيل الله وحدَه، وبهذا تعود الآيات إلى ما سبق من التحريض على القتال بأسلوب جديد:

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾﴾.

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ولو تخلَّف عن القتال معك الجبناءُ المتقاعسون.

﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ أي: لا يضرك قعودُهم وتقاعُسُهم، فتقدَّمْ إلى الجهادِ، وإنْ لم يخرجْ معك أحدٌ، فإنّ النصرَ من الله تعالى لا من الجنود.

وما كان ﷻ ليأمرَه بشيءٍ إلّا وهو كفءٌ له، فهو ﷺ مَلِيءٌ بمقاتلة الكفار كلهم وحده، وإن كانوا أهل الأرض كلهم(١).

والجدير بالذكر أنّ الصحابة ﷺ لم يتخلَّفوا عن الخروج إلى الجهاد مع رسول الله ﷺ، بل كانوا يحرصون حرصاً شديداً على الخروج معه، حتى إنّ بعضَهم كان يبكي أسفاً وحزناً إذا لم يتمكَّن من الخروج معه إلى الجهاد، وقد خلَّد الله تعالى في التنزيل الحكيم دموعَهم بقوله سبحانه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التّوبة: ٩٢].

وكان رسول الله ﷺ يتخلَّف أحياناً عن الخروج إلى الجهاد مواساةً لهم، ويقول في ذلك: «**والذي نفسُ محمّدٍ بيدِهِ لولا أَنْ يَشُقَّ على المسلمين ما قعدتُ خلافَ سَرِيةٍ تغزو في سبيلِ الله أبداً، ولكنْ لا أجدُ سَعَةً فَأحْمِلَهُم، ولا يجدونَ سَعَةً، ويشقُّ عليهم أَنْ يتخلّفوا عَنِّي**» [رواه مسلم (١٨٧٦)].

---

(١) نظم الدرر: ٥/ ٣٤٥.

فما كان يتخلَّف عن الخروج إلى الجهاد معه عليه الصلاة والسلام إلا المنافقون وأصحاب الأعذار، وثلاثة فقط من غير المنافقين وأصحاب الأعذار تخلَّفوا عنه في غزوة تبوك، وهم الذين أنزل الله تعالى فيهم قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

وقد شهد الله تعالى بجهاد الصحابة ﷺ مع رسوله عليه الصلاة والسلام بقوله الكريم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال].

وأكد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: رغبهم في القتال وشجعهم عليه، كما قال في **سورة الأنفال**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ الآية [٦٥].

وفي هذا دليلٌ على أنّ من واجب أمير الجندِ الاهتمام برفع معنويات جنوده، فإنّه يؤدّي إلى ثباتهم واستبسالهم، ويسمّونه في العصر الحاضر التوجيه المعنوي، أو التعبئة النفسية.

وكان رسول الله ﷺ يفعل ذلك، ففي الحديث الشريف: أنّه عليه الصلاة والسلام قال في ميدانِ المعركة في غزوة بدر: «**قومُوْا إلى جَنّةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ**» فسمعه عميرُ بن الحمام الأنصاري فقال: يا رسول الله جنَّةٌ عرضُها السماوات والأرض؟ قال: «**نَعَمْ**» قال: بخٍ بخٍ، فقال رسول الله ﷺ: «**ما يَحْمِلُكَ على قولِكَ: بخٍ بخٍ؟**» قال: لا واللهِ يا رسولَ الله إلا رجاءة أن أكونَ من أهلِها، قال: «**فإنّكَ من أهلِهَا**» فأخرجَ تمراتٍ من قرنه (أي: جعبته) فجعلَ يأكلُ منهنَّ، ثم قال: لئن أنا حييتُ حتى آكلَ تمراتي هذه إنَّها لحياةٌ طويلةٌ، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتِل. [رواه مسلم (١٩٠١)].

وكان قادة الجند من الصحابة يفعلون ذلك، فقد روي عن **أبي موسى الأشعري** رضي الله عنه: أنه قال لجنده وهم يواجهون العدو: قال رسول اللهِ ﷺ: «إنَّ

أبوابَ الجنّةِ تحتَ ظلالِ السيوفِ» فقام رجلٌ رثُّ الهيئةِ، فقال: يا أبا موسى أنتَ سمعتَ رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم، فرجعَ إلى أصحابه فقال: أقرأُ عليكُمُ السلامَ. ثم كسرَ جفنَ سيفِهِ، فألقاه، ثم مشى بسيفهِ إلى العدوِّ، فضربَ به حتّى قُتِلَ. [رواه مسلم (١٩٠٢)].

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ﴾ أي: لعلّ الله أن يكفَّ قوة الكفار وشدتهم بثبات المؤمنين واستبسالهم.

وكلمة ﴿عَسَى﴾ تفيدُ بالنسبة لله تعالى تحقق الوقوع.

﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ أي: قوة، فهو القوي القادر القاهر.

﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أي: عقوبة وعذاباً.

فإنّه تعالى قادرٌ على تدمير قوة الكافرين من غير تكليف المؤمنين بقتالهم، ولكنّه تعالى جعل الحياة دارَ اختبارٍ وابتلاءٍ وتكليفٍ، ولهذا كلَّف المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال عز شأنه: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمَّد: ٤].

- **الدال على الخير كفاعله:**

والداعي إلى الجهاد والمحرض عليه كالمجاهد في الأجر، بيّنَ سبحانه ذلك من خلال تقريره للقاعدة التالية:

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَاۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ أي: يشفع لغيره ليجلبَ له حقّاً، أو يدفع عنه ضرراً، أو يحرّضه على عمل مشروع مبرور، أو يصلح بين متخاصمين، بشرط أن يفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى.

﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَاۖ﴾ أي: من ثواب الشفاعة، أو من ثواب الخير الواقع

بها، كما قال النبيُّ ﷺ: «**مَنْ دلَّ على خيرٍ فله مثلُ أجرِ فاعلِهِ**» [رواه مسلم (١٥٠٦)].

وقال أيضاً: «**مَنْ دَعَا إلى هدًى كانَ له مِنَ الأجرِ مثلَ أجورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا ينقصُ ذلك من أجورهم شيئاً، ومَنْ دعا إلى ضلالةٍ كان عليه من الإثمِ مثلُ آثامِ مَنْ تَبِعَهُ، لا ينقُصُ ذلك مِنْ آثامِهِم شيئاً**» [رواه مسلم (٢٦٧٤)].

وكما أنَّ الداعي إلى الخير له مثل أجورِ من تبعه، فالداعي إلى الشرِّ عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾ كأن يدعو إلى بدعةٍ أو ضلالةٍ، أو يعوّق عن طاعةٍ وعبادةٍ، أو تؤدّي شفاعته إلى ظلمِ الناسِ والعدوانِ على حقوقهم:

﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ أي: نصيب من وزرها.

والكِفْلُ: هو المثل المساوي.

واختيار النصيب في الشفاعة الحسنة؛ لأنَّ جزاء الحسنة يضاعفُ، والكِفْل في الشفاعة السيئة؛ لأنّ من جاء بالسيئة لا يُجزى إلى مثلها، ففي الآية إشارة إلى لطف الله تعالى بعباده[1].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ أي: مقتدراً أو حفيظاً.

- **السلام في الإسلام:**

وتستدعي الشفاعة اللقاءَ والزيارةَ، ومن أهمِّ آدابها التحيةُ، وتحيةُ المسلمين فيما بينهم السلام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النُّور: ٢٧].

فالإسلام دينُ السلامِ والمحبَّةِ، ودينُ التواصلِ والتعاونِ، وما شرع الله تعالى الجهاد، وحرّض على القتال إلا لدفع العدوان، ورد الظلم، وقمع الطغيان، ونشر دعوة الإسلام بين الناس، فكان من المناسب في سياق آيات

---

(١) روح المعاني: ٥/٩٨.

التحريض على القتال، إيراد آية التحية والسلام؛ إبرازاً لحرص الإسلام على نشر السلام والتعاون بين الناس.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ أي: إذا قوبلتم بتحية، أو وُجِّهت لكم تحية، كأن يقال: حياك الله، أو حياكم الله، أي: جعل الله لك حياة، فهي دعاء.

وكانت العرب تقول هذه اللفظة، فلمّا جاء الإسلام بدل بذلك السلام، وإنّما اختير لفظ السلام على لفظ حياك الله؛ لأنّه أتمُّ وأحسنُ وأكملُ، فمعنى السلام السلامة عن الآفات، فإذا دعا الإنسانُ بطول الحياة بغير سلامة، كانت حياته مذمومة منغصة[1].

ومن عادة العرب أيضاً أنّهم إذا تبادلوا التحية عند اللقاء، كان ذلك دليلاً على المسالمة والمودّة وعدم الاعتداء، فكانوا يرون التحية عهداً والتزاماً بالمسالمة والمودّة، ينبغي الوفاء به.

﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ أي: قابلوا التحية بأحسن منها، فالإسلام يشجِّعُ كلَّ فضيلة، ويحثُّ على التنافس في الخيرات، والتسابق إلى الفضائل.

﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ أي: ردوا مثلها، فالزيادةُ على التحية مندوبةٌ، والمماثلة مفروضةٌ.

وفي الحديث الشريف: عن **عمران بن الحصين** رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: السلامُ عليكُم، فردَّ عليه، فقال النبيُّ ﷺ: «**عَشْرٌ**» ثم جاءَ آخرُ، فقال: السلامُ عليكُم ورحمةُ اللهِ، فردَّ فجلسَ، فقال: «**عشرون**» ثم جاء آخر، فقال: السلامُ عليكُم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه، فردَّ فَجَلَس، فقال: «**ثلاثون**» [رواه أبو داود (٥١٩٥) والنسائي (في الكبرى) والترمذي (٢٦٨٩) وحسنه].

فالمماثلةُ في الردِّ مشروعةٌ في الإسلام.

---

(١) انظر: تفسير الخازن: ٢/ ١٢٧.

قال القرطبيُّ ﷺ: «أجمعَ العلماءُ على أنَّ الابتداءَ بالسلام سنَّةٌ مرغَّبٌ فيها، ورده فريضة؛ لقوله تعالى: ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾»(١).

وإنّما كان الردُّ واجباً لأنّ السلام معناه الأمان، فإذا ابتدأ به المسلم أخاه فلم يجبه، فإنّه يتوهّم منه الشر، فيجب عليه دفع ذلك التوهم عنه(٢).

واتفقوا على أنّ من سلّم لم يجزئ في جوابه إلا السلام، ولا يجزئ في جوابه: صُبِّحْتَ بالخير، ونحو ذلك(٣).

فالتحيةُ في الإسلام السلامُ ابتداءً وردّاً، وقد حثَّ النبيُّ ﷺ على إفشائه بين المسلمين، للآثار الطيبة التي تترتّبُ عليه، فقال ﷺ: «**لا تدخلون الجنّةَ حتى تُؤْمِنوا، ولا تُؤْمنُوا حتّى تحابّوا، أولا أدلُّكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحابَبْتُم؟ أفشوا السلامَ بينكُم**» [رواه مسلم (٥٤)].

فالسلام سنَّةٌ لمن عرفت ومن لا تعرف.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ أي: محاسباً ومجازياً على كل شيء، ومنه التحية وردّها.

والحساب والجزاء يوم القيامة، دليل على كمال قدرته تعالى وتمام حكمته وعدله، ولهذا أكده تعالى بقوله:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ فهو الواحد الأحد، الذي لا معبود بحق سواه.

﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾ أي: لا شك فيه.

﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ أي: لا أحدَ أكثرُ صدقاً من الله تعالى.

---

(١) تفسير القرطبي: ٥/٢٩٨.

(٢) فتح الباري: ١١/٧.

(٣) المصدر السابق: ١١/١٤.

فإخبارُه تعالى عن يوم القيامة حقٌّ وصدقٌ لا خُلْفَ فيها أبداً.

• **توحيد المواقف من المنافقين:**

وبعد التحذير والتنفير والحضّ على القتال، وكشف مواقف الجبناء المتقاعسين عنه، انتقلت الآياتُ إلى الحديث عن المنافقين، فهم أكثرُ الناسِ تقاعساً عن الجهاد، وتعويقاً عنه، كما أنهم أنشط الناس في نشر الإشاعات الكاذبة، وإذاعة الأراجيف في أثناء القتال، إنهم الطابور الخامس الممالئ للعدو، كما يسمَّوْن في هذا العصر، يعملون جاهدين لتفكيك المجتمع الإسلامي، وإشاعة الخلل والاضطراب فيه، فهم أخطر عليه من العدو الظاهر، الذي يقاتله المسلمون في ميادين القتال، فليس للمنافقين ميدان معيَّن يواجَهون فيه، فهم مبثوثون ومنتشرون بين المسلمين في كل مكان، ويشكلون جزءاً من البنية الداخلية للمجتمع، ويعرفون جميع مداخله وعوراته وثغراته ونقاط ضعفه، فلا عجبَ أن تهتمّ الآياتُ الكريمةُ بهم في سياق حديثها عن القتال والجهاد، ومواقف المتقاعسين والمعوقين، فخطرهم كبير، وضررهم عظيم، وعلى المسلمين واجب الحذر منهم، وأن يقفوا منهم موقفاً موحداً، لا تردد فيه، ولا اختلاف؛ فأوقاتُ الحروب والأزمات لا تحتمل مواقف الخلاف والنزاع والتردد؛ ولهذا قال سبحانه منكراً على المسلمين اختلافهم في شأن المنافقين:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ أي: ما لكم تفرقتم في شأن المنافقين فرقتين، ولم تتفقوا على كفرهم.

﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ﴾ أي: والله سبحانه ردَّهم إلى الكفر بسبب أعمالهم الخبيثة. فأصل معنى **الركس** لغةً: ردُّ الشيء مقلوباً.

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ أي: من أبعده الله عن الهدى بسبب سوء كسبه واختياره.

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ أي: طريقاً إلى الهداية، فكل طرق الهداية مسدودة عليه؛ بسبب انطماس بصيرته، وإصراره على كفره وفجوره.

وكيف ترجون هدايتهم، وهم يريدون الكفر لكم؟!:

﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ﴾ أي: متساوين معهم في الكفر.

﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي: لا توالوهم وتجعلوهم لكم أصحاباً وأنصاراً.

﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: حتى يؤمنوا ويبرهنوا على صدق إيمانهم بهجرة خالصة في سبيل الله تعالى.

والهجرة إما أن تكون من دار الكفر إلى دار الإسلام، أو بِهَجْرِ الكفر والفجور، أو بالخروج للقتال والجهاد في سبيل الله.

ويبدو أنّ المراد منها هنا المعنى الأخير؛ إذ جاءت الآيةُ في سياق ما سبق معنا من آيات التحذير والتنفير، وكان المنافقون يتخلّفون عن الخروج إلى القتال، فإذا ما خرجوا إليه وثبتوا فيه، دلَّ ذلك على صحة إيمانهم وصدق إسلامهم.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي: أعرضوا عن الهجرة في سبيل الله تعالى.

﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ﴾ أي: في أي مكان ظفرتم بهم وتمكنتم منهم.

﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: وإن بذلوا لكم الولاية والنصرة فلا تقبلوها منهم، فهم في الحقيقة لا يقدِّمون لكم إلا الخذلان والضعف.

ثم استثنتِ الآيات طوائف منهم بقوله تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ أي: إلا الذين ينتسبون وينتمون إلى قوم بينكم وبينهم عهد ومسالمة.

وهذا الاستثناء يرجع إلى القتلِ لا إلى الموالاةِ؛ لأنَّ موالاةَ الكفّارِ والمنافقين لا تجوزُ بحال[1].

﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ أي: أو الذين جاؤوكم ممسكين عن القتال، لا معكم ولا عليكم، وهم طائفةٌ ثانية غيرُ الأولى، ينتسبون إلى قوم محاربين للمسلمين، جاؤوا إلى المسلمين، يعلنون بألسنتهم دخولهم في الإسلام.

﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ أي: ضاقت صدورهم عن قتالكم؛ لأن ذلك يظهر نفاقهم، كما ضاقت عن قتال قومهم؛ لأنهم أقاربهم.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ أي: من لطفه سبحانه بكم أن كفَّهم عنكم.

﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: المسالمة والمصالحة.

﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أي: فما أذن تعالى لكم في قتالهم.

وثمة طائفة ثالثة من المنافقين، لهم حكمٌ يختلِف عن الطائفتين سالفتي

---

(١) تفسير الخازن: ٢/ ١٣٣.

الذكر، فهؤلاء لا هَمَّ لهم إلا أنفسُهم ومصالحُهم، فهم يتظاهرون بالإسلام أمام المسلمين، ويتظاهرون بالكفر أمام قومهم:

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾ أي: يأمنوا منكم بالتظاهر بالإسلام.

﴿وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ أي: بالوفاق وإظهار الكفر.

﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ أي: كلما دُعوا إلى الكفر رجعوا إليه وانتكسوا فيه، فإذا ما دعتهم مصالحهم وأهواؤهم إلى الكفر والشرك، كفروا وأشركوا، فهم أسرى مصالحهم وأهوائهم.

﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ أي: إن لم يتركوا قتالكم.

﴿وَيُلْقُوٓا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: ولم ينقادوا لكم مسالمين.

﴿وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: ولم يكفوا عن قتالكم سرّاً أو جهراً.

﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: حيث ظفرتم بهم وتمكنتم منهم.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي: جعلنا لكم حجة واضحة في قتالهم؛ وذلك لظهور حالهم من الغدر والكفر.

- **حكم القتل خطأ:**

ودلَّ تقسيم المنافقين إلى هذه الطوائف الثلاث، والتمييز بينها في الحكم، على حرص الإسلام على نشر السلم والعدل بين الناس، وأنه سبحانه عندما شرع القتال ما جعله غايةً في حدّ ذاته، إنّما شرعه وسيلةً لنشر العدل والسلام، ولهذا قال تعالى في بيان حكم القتل خطأً:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ أي: ليس من شأن المؤمن ولا يليق به أن يقتل مؤمناً بغير حق، إلا على وجه الخطأ، كأن يرمي حيواناً أو عدوّاً محارباً فيصيب مسلماً.

فقوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ ليست على النفي، وإنّما هو على التحريم والنهي، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣][(١)].

ولما كان إثم الخطأ مرفوعاً في الإسلام لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥] بيَّن تعالى أن الأمر في القتل الخطأ ليس كذلك؛ حفظاً للنفوس، فعلى الإنسانِ واجبُ التثبّت والتحرِّي والتأني، عند أي فعل يمكن أن يؤدي إلى القتل.

وعلى القاتل خطأً الكفارةُ حتى يغفر الله له إثم ترك التثبُّت، وقد بينها سبحانه بقوله:

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: فعليه تحرير نفس مؤمنة من الرقِّ وذلِّ العبودية.

وفي الآية إشارةٌ إلى أنّ الحرّيةَ حياةٌ، وأنَّ العبوديةَ موتٌ، فمن تسبَّبَ في موت نفس حية، فعليه أن يسعى في إحياء نفسٍ كالميتة، وهي النفسُ المستعبدة، وذلك بتحريرها وتخليصها من العبودية.

وتشريعُ كفَّارة القتل الخطأ، وسيلة من الوسائل الكثيرة التي شرعها الإسلام

---

(١) تفسير القرطبي: ٥/ ٣١١.

لتحرير الأرقاء، وتخليصهم من ذلّ العبودية، وإلى جانب ذلك ضيَّق الإسلامُ طرق الاسترقاق، وأغلق منافذه الكثيرة التي كانت في الجاهلية، فَقَصَرها على وسيلةٍ واحدةٍ، وهي الأسرُ في أثناء القتال، بعد أن يأذن وليُّ أمرِ المسلمين في استرقاق الأسرى، إذا رأى المصلحةَ في ذلك.

﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ أي: وعليه أيضاً ديةٌ تسلَّمُ إلى أهل القتيل، وهي ما يُعطى من المال عوضاً عن دم القتيل إلى أهله الذين يرثونه.

﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ۚ﴾ أي: إلا أن يعفوَ أهلُ القتيل عن القاتل، بترك أخذ الدية منه، وسُمِّيَ العفو عنها صدقةً حثّاً عليه، وتنبيهاً على فضله، وعن النبيِّ ﷺ قال: «**كلُّ معروفٍ صدقة**» [رواه مسلم (١٠٠٥)][1].

وأما الكفارةُ التي هي حقُّ الله تعالى فلا تسقطُ عن القاتل بعفوهم.

﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ أي: إن كان المقتولُ خطأً من قومٍ كفّارٍ محاربين لكم.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: والمقتول خطأً مؤمنٌ.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ﴾ أي: فعلى قاتله الكفارةُ فقط، ولا تُعطى لأهله الديةُ؛ لأنّهم كفّارٌ محاربون، فلا نعطيهم ما يستعينون به على قتالنا.

﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ﴾ أي: إن كان المقتول خطأً من قوم كفّار معاهدين أو أهل ذمَّة، فحكمُه حكمُ المسلم في وجوب الكفارة والدية.

فالإسلامُ يحفظُ الحقوقَ لجميع الناس، ولو كانوا غير مسلمين، ويشرعُ الأحكامَ التي تحفظ الحياة، وتُشيعُ الأمن والسلام بين جميع الناس.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي: النفس المؤمنة المملوكة؛ بسبب إعسار، أو تعذر الحصول عليها، كما هو الحال في هذا العصر.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢/ ١٣٦.

﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي: فالواجب عليه صيام شهرين متتابعين، بدلاً من إعتاق الرقبة المؤمنة.

﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: شرع سبحانه الكفارة والدية، توبة منه سبحانه على القاتل خطأ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: فيما أمر وقدَّر وشرع.

- **تحريم العدوان على حق الحياة:**

ومهدت الآيةُ السابقةُ في حكم القتل خطأ، للحكم المقصود تقريره، وهو تحريمُ قتل النفس، وتقبيحُ جريمةِ العدوان على حقِّ الحياة، فقال تعالى بعد ذلك مباشرة:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ أي: قاصداً قتله، كأن يرميه بآلة تَقْتُلُ عادةً.

﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ وذلك بسبب ارتكابه جرماً كبيراً عظيماً، وهو القتلُ والعدوانُ على الحياة الإنسانية، وقد قرنه تعالى بالشرك، الذي هو أعظم الذنوب، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان].

فقتلُ النفسِ جريمةٌ كبيرةٌ وورطة عظيمة، وفي الحديث الشريف: عن **معاوية** رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**كلُّ ذنبٍ عسى اللهُ أن يغفرَه إلا الرجلُ يموتُ كافراً، أو الرجلُ يقتلُ مؤمناً متعمداً**» [رواه النسائي (٧/ ٨١) والحاكم (٤/ ٣٥١) وصححه][1].

---

(١) انظر: الترغيب والترهيب: ٣/ ٩٥.

وعن **ابن عمر** رضي الله عنهما: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**لَنْ يزالَ المؤمنُ في فُسْحةٍ من دينِهِ ما لمْ يُصِبْ دماً حراماً**» [رواه البخاري (٦٨٦٢)].

والجدير بالذكر أنّ مثل هذا الوعيد الشديد، الذي ذكرته الآية في قتل المؤمن عمداً، قد أوردتِ السُّنَّةُ مثلَه في قتل الكافر المعاهد، فعن **عبد الله بن عمرو** رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ قال: «**مَن قتلَ نفساً معاهَداً لم يرحْ رائحةَ الجنَّةِ، وإنَّ ريحَها ليوجَدُ مِنْ مسيرةِ أربعينَ عاماً**» [رواه البخاري (٦٩١٤)].

ودلَّت الآيةُ الكريمةُ والأحاديث الشريفة على خلود القاتل المتعمد في النار، وأنه لا توبةَ له، وشاع هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وأجاب بعضُ العلماء بأنّ ذلك جاء على سبيل التغليظ في الزجر؛ لما مرّ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، ولتظاهر النصوص الدالة على أنّ عصاة المؤمنين لا يخلدون في النار، ويجوزُ في حقِّ الله تعالى أن يخلفَ الوعيد، ويمتنع في حقه أن يخلف الوعد، ومن أدعية الصالحين: يا مَنْ إذا وعدَ وفى، وإذا توعَّدَ عفا.

وحمل الآخرون الآية على أنّها في القاتل المستحلِّ، وكفره مما لا شك فيه، فليس ذلك محلّاً للنزاع، واستدلوا بما ورد في سبب نزولها، فقد أخرج ابن أبي حاتم: عن **ابن جبير**: أنها نزلت في مَقِيْس بن ضُبابة الكناني، أنه أسلم هو وأخوه هشام، وكانا بالمدينة، فوجد مقيس أخاه هشاماً ذات يوم قتيلاً في الأنصار، في بني النجار، الذين قالوا: ما نعلمُ له قاتلاً، ولكن نؤدّي الديةَ، فدفعوا إلى مقيس مئةً من الإبل دية أخيه، فلمّا انصرف مَقِيسٌ، ومعه رجل من بني فهر، أرسله النبيُّ ﷺ معه إلى بني النجار، عمد مقيس إلى الفهري فقتله، وارتدَّ عن الإسلام، وركبَ جملاً من الدية، وساق معه البقية، ولحقَ بمكة، وهو الذي أهدر النبيُّ ﷺ دمَه يوم فتحِ مكةَ، وقُتل وهو متعلّقٌ بأستار الكعبة[1].

ومهما قيل في الآية، فإنّ فيها دليلاً على حرص الشريعة الإسلامية على

---

(١) انظر: روح المعاني: ٥/ ١١٥.

حماية حق الإنسان في الحياة، فالعدوان على حياة إنسان واحد في نظر الإسلام، عدوان على حياة جميع الناس، قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

- **الأمر بالتثبُّت في أثناء الجهاد:**

ولهذا اتجهت الآيات، تخاطِبُ المؤمنين آمرةً لهم بالتثبُّت، في أثناء خروجهم إلى الجهاد، لكي لا يقتلوا نفساً معصومة، ولا يعتدوا على حياةٍ بريئة، فالجهاد في الإسلام ما شُرع للقتل وسفك الدماء، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا خرجتم إلى الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى.

﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ أي: فتثبَّتوا وتحقَّقوا، حتى تميزوا بين العدو المحارب المستحق للقتل، وبين غيره.

وقد نزلت هذه الآيةُ عندما كانتِ الأسلحةُ بسيطةً فرديةً، لا تزيدُ عن سيف ورمح، وأما في العصر الحاضر، وبعد أن صنع الإنسان أسلحة الفتك والدمار الجماعي الشامل، فيتأكد الأمر بالتثبُّت أكثر من ذي قبل، فلا يجوزُ القصف العشوائي الشامل المدمر، الذي يقتل المقاتلين وغيرهم ممن لا يجوز قتلهم.

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ أي: لمن حيّاكم بتحية الإسلام.

وفي قراءة: (السَّلَم) أي: ألقى إليكم الاستسلام والانقياد.

﴿لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾ أي: لست من أهل الإيمان، وإنّما قلتَ ذلك متعوِّذاً من القتل، فتقتلوه.

﴿تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: تطلبون غنيمة ماله الذي هو حطام سريع.

وفي الحديث الشريف: عن **أسامة بن زيد** رضي الله عنهما قال: بعثنا رسولُ اللهِ ﷺ إلى الحُرقَةِ من جُهينةَ، فصبَّحْنا القومَ فهزمناهم، قال: ولحقتُ أنا ورجلٌ من الأنصارِ رجلاً منهم، فلمّا غشيناه، قال: لا إلٰه إلا الله، فكفَّ عنه الأنصاريُّ، فطعنته برمحي حتى قتلتُهُ، فلمّا قَدِمْنا بلغَ ذلك النبيَّ ﷺ، فقال لي: «**يا أسامةُ أقتلتَه بعدما قال: لا إلٰه إلا الله؟**» قلتُ: يا رسولَ اللهِ إنّه إنّما كان متعوِّذاً، قال: «**قتلتَهُ بعدما قالَ: لا إلٰه إلا الله؟**» فما زال يكرِّرُها عليَّ حتى تمنيتُ أني لم أكنْ أسلمتُ قبل ذلك اليوم. [رواه البخاري (٦٨٧٢)].

قوله: (**حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم**) أي: إن إسلامه كان ذلك اليوم، لأنّ الإسلامَ يجبُّ ما قبله، فتمنى أن يكون ذلك الوقت أول دخوله في الإسلام؛ ليأمن من جريرة تلك الفعلة.

وفي رواية عند الطبراني في «الكبير»، والبزار في «مسنده»: إنّ رسول الله ﷺ بعثَ سريةً فيها المقدادُ، فلمّا أتوهم وجدوهم تفرّقوا، وفيهم رجلٌ له مالٌ كثيرٌ، لم يبرح، فقال: أشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله، فأهوى إليه المقدادُ فقتله، فذكروا ذلك لرسولِ اللهِ ﷺ، فقال: «**يا مقدادُ، قتلتَ رجلاً قال: لا إلٰهَ إلا الله؟!**» فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾.

ولا مانع أن تنزل الآية في الأمرين معاً(١).

﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ﴾ أي: عند الله لكم غنائمُ كثيرة تغنيكم عن قتل أمثاله.

﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ﴾ أي: أول دخولكم في الإسلام، عندما نطقتم

---

(١) انظر: فتح الباري: ٨/ ٢٥٩، ١٢/ ١٩٠.

بلفظ الشهادةِ، فحصنتم بها أنفسكم وأموالكم، قبل التأكد من صدق إيمانكم، ومن مواطأة قلوبكم لألسنتكم.

﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: بالهداية وصدق الإيمان، والثبات على الإسلام، وكأن الآية تقول لهم: عاملوا من ينطق بكلمة الإسلام كما عوملتم.

﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أي: ولا تعجلوا بقتل إنسانٍ معصومِ الدمِ، وكرر هذا الأمر تأكيداً لتعظيمه، وبياناً لخطورته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فلا تسرعوا إلى القتل وسفك الدماء، وخذوا بأسباب الحَيْطةِ والحذر، فإنّه تعالى مطَّلِعٌ على أعمالكم، وسائِلُكم عنها.

- **درجات المجاهدين في الجنة:**

وحتى لا يحتجَّ المتثاقلون عن الجهاد بما سبق من الأمر بالتثُّبت، فيحتجوا بها على قعودهم، عادتِ الآياتُ تحضُّ على الجهاد والقتال، بأسلوبٍ جديدٍ تبيّنُ من خلاله درجات المجاهدين وفضلهم:

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ أي: عن الجهاد.

﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ أي: غير أصحاب الأعذار، كالمرضى والضعفاء، بسبب الشيخوخة والعجز، فإنّهم كالمجاهدين، لأنّ العذرَ أقعدَهم عن الجهاد.

وفي الحديث الشريف: عن **جابر** رضي الله عنه قال: كُنَّا مع النبيِّ ﷺ في غَزَاةٍ فقال: «**إنَّ بالمدينةِ رجالاً، ما سِرْتُم مَسِيْراً، ولا قطعتُم وادياً، إلا كانوا مَعَكُم، حَبَسَهُمُ المَرَضُ**» [رواه مسلم (١٩١١)].

وعن **زيد بن ثابت** رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ أملى عليه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فجاءه ابنُ أمِّ مكتومٍ، وهو يُمليها عليَّ، قال: يا رسولَ اللهِ، واللهِ لو أستطيعُ الجهادَ لجاهدتُ ـ وكان أعمى ـ فأنزلَ اللهُ على رسولِهِ ﷺ وفَخِذُهُ على فَخِذي، فثقلتْ عليَّ، حتى خِفْتُ أن ترضَّ فَخِذي، ثم سُرِّيَ عنه، فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾. [رواه البخاري (٤٥٩٢)].

﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ﴾ أي: لا مساواةَ بين المجاهدين وبين القاعدين عن الجهاد من غير عذر.

ونفى التساوي بين المجاهد والقاعد بغيرِ عذرٍ، وإنْ كان معلوماً، توبيخاً للقاعد عن الجهاد، وتحريكاً له عليه، ونحوه: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ﴾ [الزمر: ٩] فهو تحريك لطلب العلم، وتوبيخ على الرضا بالجهل[١].

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ﴾ أي: في الآخرة، فالمراد درجة من درجات الجنة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أرادَ بالقاعدينَ هنا أولي الضرر، فضّلَ الله المجاهدين على أولي الضرر درجةً؛ لأنَّ المجاهدَ باشرَ الجهادَ بنفسِهِ ومالِهِ مع النيةِ، وأولو الضرر، كانت لهم نيةٌ، ولم يباشروا الجهاد، فنزلوا عن المجاهدين درجة[٢].

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾ أي: كلّاً من المجاهدين والقاعدين وعد الله المثوبة الحسنى، وهي الجنة، بِحُسن عقيدتهم وإخلاصهم في نيتهم.

﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ أي: الذين لا عذر لهم ولا ضرر فيهم.

﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً جزيلاً، بيَّنه سبحانه بقوله بعد ذلك:

﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ﴾، ففي الجنة درجات خاصة للمجاهدين، ذكرها النبي ﷺ في قوله: «**مَنْ آمنَ باللهِ وبرسولِهِ، وأقامَ الصلاةَ، وصامَ رمضانَ، كان**

(١) تفسير النسفي: ٢/ ١٤٤.
(٢) تفسير الخازن: ٢/ ١٤٥.

حقّاً على اللهِ أن يدخلَه الجنَّة، جاهدَ في سبيلِ اللهِ، أو جلسَ في أرضِهِ التي وُلِدَ فيها» فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشِّرُ الناسَ؟ قال: «**إنَّ في الجنَّةِ مئةَ درجةٍ، أعدّها اللهُ للمجاهدينَ في سبيلِ الله، ما بينَ الدرجتينِ كما بينَ السماءِ والأرضِ، فإذا سألتُمُ اللهَ فاسألوه الفِرْدَوْسَ، فإنَّه أوسطُ الجنّةِ، وأعلى الجنّةِ** ـ أراه قال: **وفوقه عرشُ الرحمنِ ـ ومنه تفجَّرُ أنهارُ الجنّةِ**» [رواه البخاري (٢٧٩٠)].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «وليس في هذا السياق ما ينفي أن يكونَ في الجنّةِ درجات أخرى، أُعدّت لغير المجاهدين، دون درجة المجاهدين»[1].

ويؤكده قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: يغفر لهم ويرحمهم.

- **الهجرة من بلاد الكفر والظلم:**

وكما قرَّرَ الإسلامُ للإنسان حقوقه كاملةً، أوجبَ عليه أن يسعى بنفسه لتحصيل هذه الحقوق، بأن يجاهد لتحصيلها ـ كما مرّ ـ فإن غُلبَ وعَجزَ عن تحصيلها بنفسه، فعليه أن ينأى عن الإقامة في البلد الذي تُهْدَرُ فيه حقوقه، ولا تصان كرامته، ويفتن فيه عن دينه، فسلامةُ الدِّينِ هي أوّلُ المهمات في نظر الإسلام، ولهذا أنزل الله في المتقاعسين والمتثاقلين عن الهجرة، فراراً بدينهم وحقوقهم، قوله الكريم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: إن الذين تقبض الملائكة أرواحهم عند حلول آجالهم.

---

(١) فتح الباري: ٦/١٢.

﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: وهم في حال ظلمهم أنفسَهم، بسبب إقامتهم في بلد يُفتنون فيه عن دينهم، وتصادر حقوقهم، ولا تصان كرامتهم.

ويبدو أنَّ هذه الآية نزلت في قومٍ من أهل مكة، أسلموا، ولم يهاجروا، وأجبروا على الخروج مع جيش المشركين إلى بدر، فقُتِلَ بعضُهم في صفوف المشركين.

وهو ما تفعله في العصر الحاضر كثيرٌ من دول الكفر، إذ تجنّدُ رعاياها من المسلمين، وتسوقهم إلى قتال الشعوب المسلمة، والعدوان على بلادهم.

قال **ابن عباس** رضي الله عنهما: إنّ ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثّرون سوادَ المشركين على رسول الله ﷺ، يأتي السهمُ يُرمى به فيصيبُ أحدهم فيقتله، أو يضرب فيقتل، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمۡ﴾. [رواه البخاري (٤٥٩٦)].

قال ابن حجر: «هكذا جاء في سبب نزولها، وفي روايةٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما، عند ابن المنذر والطبري: كان قومٌ من أهل مكة قد أسلموا، وكانوا يخفون الإسلامَ، فأخرجهم المشركون معهم يومَ بدرٍ، فأصيبَ بعضُهم، فقال المسلمون: هؤلاء كانوا مسلمين فأُكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت، فكتبوا بها إلى مَنْ بقيَ بمكّةَ منهم، وأنهم لا عذرَ لهم»[١].

﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ﴾ أي: قالت لهم الملائكةُ: في أيِّ الفريقين كنتم؟ أفي فريق المسلمين أم في فريق المشركين؟ وهو سؤالُ توبيخٍ وتقريعٍ.

﴿قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: كنا مقهورين ذليلينَ في أرض الكفر، فأكْرَهَنا الكفّارُ على الخروج إلى القتال معهم، وقولهم هذا اعتذارٌ عمّا وبّخَتْهم الملائكةُ به، لكنّ الملائكةَ لم تقبل اعتذارهم، وردوه عليهم مكذبين موبخين:

﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ أي: كنتم قادرين على الهجرة، وأرضُه سبحانه واسعةٌ، فلماذا لم تهاجروا فراراً بدينكم كما فعل غيركم؟.

---

(١) فتح الباري: ٨/٢٦٣.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مصيرهم إلى أن تكون جهنم مسكنهم وموضع إقامتهم، بسبب ترك الهجرة الواجبة عليهم، حتى فتنوا عن دينهم، فساعدوا الكفار، وقاتلوا تحت رايتهم.

﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: وبئس المصير مصيرهم إلى جهنم.

ثم استثنى الله سبحانه أصحاب الأعذار من الضعفاء الذين لا يستطيعون الهجرة والتحول عن بلد الكفر والظلم، ممَّا يدل على يُسر الشريعة الإسلامية وسماحة أحكامها، فقال:

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾.

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ أي: لا يستطيعون الحيلة، وهي تحصيلُ أسبابِ الهجرة وما تحتاج إليه.

﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي: ولا يعرفون إذا خرجوا المسالكَ والطرقَ.

وأفاد ذكر ﴿ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ وهم الصغار، إلى أنّ عليهم الهجرة أيضاً، والواجب على أوليائهم أن يهاجروا بهم، فخطرُ الافتتانِ عن الإسلام في جانبهم أشدُّ وأعظمُ، إذ ينشؤون في بلاد الكفر، في ظل أنظمته الكافرة، وتوجيهاته الفاجرة، في مدارسه ومعاهده وتقاليده البعيدة عن أخلاق المسلمين وعاداتهم.

قال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قسّم العلماء الذهابَ في الأرضِ قسمين: هرباً وطلباً، فالأول ينقسم إلى:

١ ـ **الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام**: وهذه الهجرةُ باقيةٌ مفروضةٌ إلى يوم القيامة، والتي انقطعت بالفتحِ هي القصدُ إلى النبيِّ ﷺ، فإن بقيَ في دار الحرب عصى.

٢ ـ **الخروج من أرض البدعة**: قال ابن القاسم: سمعتُ مالكاً يقول: لا يحلُّ لأحدٍ أن يقيمَ في أرضٍ يُسَبُّ فيها السلفُ.

٣ ـ **الخروج من أرض غلب عليها الحرام**: فإنّ طلبَ الحلال فرضٌ على كل مسلم.

٤ ـ **الفرار من الأذية في البدن**: فإذا خشي على نفسه، فقد أذن الله في الخروج عنه والفرار بنفسه، ليخلّصها من ذلك المحذور.

٥ ـ **الفرار خوف الأذية في المال**: فإنّ حُرْمَةَ مالِ المسلمِ كحرمة دمه، والأهل مثله(١).

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ٩٩﴾.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المستضعفون الذين لا يستطيعون الهجرة.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ﴾ أي: يتجاوز عنهم بفضله تعالى. و﴿عَسَىٰ﴾ من الله تعالى واجب؛ لأنّه إطماعٌ وترجٍّ، والله سبحانه إذا أطمع عبداً وصله(٢).

وفي تعليق العفو بكلمة الإطماع والترجي إشارةٌ إلى أنّ تركَ الهجرة الواجبة أمر خطير، حتى إنَّ أصحابَ الأعذار غير مستيقنين بالعفو والنجاة من المسؤولية.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا﴾ أي: يعفو عن عباده بفضله ويغفر لهم.

ثم قال تعالى يحثُّ على الهجرة في سبيله ويشجع عليها:

﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٠﴾.

﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا﴾ أي: يجد مكاناً يؤويه، أو يجد طريقاً يراغم بسلوكه الظالمين، أي: يفارقهم على رغم أنوفهم.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٥/ ٣٥٠.

(٢) تفسير الخازن: ٢/ ١٤٨.

والرغم: الذل والهوان، وأصلُه في اللغة: لصوقُ الأنفِ بالرُّغام، وهو التراب[١].

﴿وَسَعَةً﴾ أي: ويجدُ أيضاً سعةً وخلاصاً من الهمِّ والضيق الذي كان فيه، إما سعة في الرزق، أو في حرية العبادة وإظهار الدين، أو الأمن بعد الخوف، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي: يموت في الطريق قبل وصوله إلى مقصده.

﴿فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾ أي: ثبت أجره عندَ اللهِ تعالى، ثبوت الأمر الواجب بحكم الوعد السابق، الذي لا خُلْفَ فيه.

ويدخل في حكم الآية، من قَصَدَ فعلَ طاعةٍ من الطاعات، ثم عجز عن إتمامها، كتب اللهُ له ثوابَ تلك الطاعة كاملاً[٢]، لقوله ﷺ: «**إنّما الأعمالُ بالنيةِ، وإنّما لامرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرتُه إلى اللهِ ورسولِهِ، فهجرتُه إلى اللهِ ورسولِهِ، ومن كانتْ هجرته لدنيا يصيبُها، أو امرأةٍ يتزوّجُها، فهجرتُه إلى ما هاجر إليه**» [رواه مسلم (١٩٠٧)].

وقال ﷺ أيضاً: «**مَنْ سألَ اللهَ الشهادةَ بصدقٍ، بلّغه اللهُ منازلَ الشهداءِ، وإنْ ماتَ على فراشِهِ**» [رواه مسلم (١٩٠٩)].

وذكروا في سبب نزول الآية، ما رواه ابن أبي حاتم: عن عكرمة، عن ابن **عباس** رضي الله عنهما قال: خرجَ ضمرةُ بنُ جندبٍ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فماتَ في الطريقِ قبل أن يصلَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فنزلت الآية[٣].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: يغفر للفارِّين بدينهم ويرحمهم، وييسِّر لهم سبل الأمن والسلام.

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ١٤٩.

(٢) تفسير الخازن: ٢/ ١٤٩.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٤٢٨.

• **قصر الصلاة في السفر:**

وبمناسبة ذكر الهجرة والسفر في سبيل الله تعالى، ذكر سبحانه رخصةَ قصر الصلاةِ في السفر، وكأنّه تعالى أراد ببيانِ هذه الرخصة، في هذا الموضع، التشجيعَ أيضاً على الضربِ في الأرضِ والسفرِ في سبيله:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سافرتم في نواحي الأرض، في برِّها وبحرِها وجوِّها.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: لا حرج عليكم أن تخفِّفوا من الصلاة، فتصلوا الصلاة الرباعية المفروضة ثنائية.

فالمسافر يصلّي الظهرَ والعصرَ والعشاءَ، ركعتين ركعتين، حتى يقيمَ، فحينئذٍ يعود إلى صلاتها أربعاً أربعاً.

﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: إن خفتم أن يتعرَّضوا لكم بقتال أو غيره من العدوان.

وقد نزلت هذه الآية قبل أن يمتدَّ سلطانُ الإسلام وأمنه إلى البوادي والمناطق البعيدة عن المدينة، وبقي حكمُها مشروعاً بعد أن زال الخوف، وأعزَّ الله الإسلام، وانتشر الأمن والسلام في أطراف الأرض.

وفي الحديث الشريف: عن **أنس** رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبيِّ ﷺ إلى مكةَ، فكان يصلِّي ركعتينِ ركعتينِ، حتى رجعنا إلى المدينة. [رواه البخاري (١٠٨١)].

وعن **حارث بن وهب** قال: صلَّى بنا النبيُّ ﷺ، آمَنَ ما كانَ، بمنًى ركعتين. [رواه البخاري (١٠٨٣)].

وعن **يعلى بن أمية** قال: قلتُ لعمر بن الخطاب: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فقد أمنَ الناسُ! فقال: عجبتُ منه، فسألتُ

رسولَ اللهِ ﷺ عن ذلكَ قال: «**صدقةٌ تصدّقَ اللهُ بها عليكم، فاقبلوا صدقته**» [رواه مسلم (٦٨٦)].

﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي: فاحذروهم، ولا تثقوا بهم.

- **صلاة الخوف:**

أما صلاة الخوف في حال المواجهة وتوقُّعِ الخطر، فلها أحكامٌ خاصّة، شرعها سبحانه بقوله:

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: إذا كنت يا محمد - ﷺ - في أصحابك، وأردتَ أن تقيمَ الصلاة بهم جماعة.

﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ أي: فلتقف فرقة منهم معك، فتصلي بهم.

وفي الآية إيجازٌ، فقد دلّت على أنَّ الإمامَ يقسِّمُ الجنود فرقتين: فرقة تصلّي أولاً مع الإمام، بينما تكونُ الأُخرى في مواجهة العدو.

﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي: وليحملوا أسلحتهم وهم في الصلاة، حيطةً وحزماً، والمراد الأسلحة الخفيفة التي يمكن حملها.

﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟﴾ أي: أتموا الركعة وسجدوا لها، أو أتموا صلاتهم، وفرغوا منها. فقد ذكرت الأحاديث الصحيحة أنه عليه الصلاة والسلام، صلى صلاة الخوف بأصحابه أكثر من مرّة، وبهيئات مختلفة.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صلّى رسولُ اللهِ ﷺ صلاةَ الخوفِ في بعض أيامه، فقام طائفةٌ معه، وطائفةٌ بإزاء العدو، فصلّى بالذين معه ركعةً، ثم ذهبوا، وجاء

الآخرون فصلّى بهم ركعةً، ثم قضت الطائفتانِ ركعةً ركعةً. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: فإذا كان خوفٌ أكثرَ من ذلك، فصلِّ راكباً أو قائماً، تومِئُ إيماءً. [رواه مسلم (٨٣٩)].

وعن **سهل بن أبي حثمة**: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ صلّى بأصحابه في الخوفِ، فصفَّهم خلفه صفّين، فصلّى بالذين يلونه ركعةً، ثم قام، فلم يزلْ قائماً حتى صلّى الذين خلفهم ركعةً، ثم تقدَّموا، وتأخر الذين كانوا قدَّامهم، فصلّى بهم ركعةً، ثم قعد حتى صلى الذين تخلَّفوا ركعة، ثم سلَّم. [رواه مسلم (٨٤١)].

وثمّةَ هيئةٌ أخرى لصلاة الخوف، رُويت عن النبيِّ ﷺ، ويرجع اختلاف هيئات الصلاة، لاختلاف ظروف المواجهة مع العدو، ومدى تحقق الخطر.

ثم أكملت الآيةُ وصفها لصلاة الخوف، بقوله تعالى:

﴿فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ أي: فليرجع الذين صلوا معك أول الصلاة، ليقفوا في مواجهة العدو.

﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ أي: الركعة الثانية التي بقيت عليك ثم يتمون بقية صلاتهم.

﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، كرر تعالى الأمر بحمل السلاح، وأضاف إليه الأمر بالحَذَرِ من العدو؛ لأنه قد لا ينتبه إلى انشغال المسلمين بالصلاة في أول الأمر، ويحاولُ عندما يشعر بانشغالهم بالصلاة انتهازَ الفرصة، ويفوّت عليه ذلك التيقظ والحذرَ مع أخذ الأسلحة.

﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ أي: يتمنّى الكفارُ أن ينالوا منكم غرة وغفلة عن أسلحتكم وعددكم.

﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي: فيهجمون عليكم هجمة واحدة مباغتة.

فللمفاجأة في الحرب أثر كبير في إضعاف العدو وتحطيم قوته.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ أي: ولا إثم ولا حرج عليكم في حال المطر أو المرض أن تضعوا

أسلحتكم بجانبكم، لصعوبة حمل السلاح في مثل هذه الأحوال، بشرط أن تكونوا في أقصى درجات الانتباه والحذر.

﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ أي: من مباغتة العدو ومفاجآته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي: أعد لهم عذاباً فيه إذلال وإهانة.

وهذا وعد للمؤمنين بالنصر على الكفار بعد أمرهم بالحزم والحذر، وفيه رفع لهمم المسلمين، وتقوية لعزائمهم، فالأمر بالحذر وأخذ أسباب الحيطة لا يعني ضعف المسلمين، وقوة عدوهم، إنما هي أحكام كلّفنا الله تعالى بها، مع توكلنا عليه، واعتقادنا أن النصر بيده جل وعلا.

وقد دلَّت هذه الأحكام على أنَّ الشريعة الإسلامية حريصةٌ على سلامة قوة المسلمين وعزتهم، وأن ذلك في نظرها أهم الواجبات، فهو مقدَّمٌ حتى على الصلاة، التي هي أهم أركان الإسلام بعد النطق بالشهادتين، فإذا كانت أحوال المواجهة شديدة، ولم يتمكنوا معها من الصلاة جماعة، أو كانت الصلاة جماعة تعرضهم لخطر التدمير والقتل، كما هو الحال في هذا العصر، بعد أن صنع الناس أسلحة الدمار الجماعي الشامل، يصلّون فرادى، قائمين أو جالسين، إذا كان القيام يعرِّضهم للخطر، وعند تعذُّر أداء الصلاة في وقتها بسبب شدة القتال، يأخِّرونها كما فعل النبيُّ ﷺ عندما اشتد على المسلمين الحصارُ في معركةِ الخندق.

فعن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما قال: جاءَ عمرُ يومَ الخندقِ، فجعلَ يسبُّ كفّارَ قريشٍ ويقول: يا رسولَ اللهِ ما صلّيتُ العصرَ حتى كادتِ الشمسُ أن تغيبَ، فقال النبيُّ ﷺ: «**وأنا واللهِ ما صلَّيْتُها بعدُ**» قال: فنزل إلى بُطحان، فتوضَّأ، وصلّى العصر بعدما غابتِ الشمسُ، ثم صلّى المغربَ بعدها. [رواه البخاري (٩٤٥)].

ويجوزُ أيضاً تأخيرُ الصلاة لتفويت فرصة الفرار على العدو، وتعجيل النصر للمسلمين، كما فعل الصحابة في معركة السوس، التي تمَّ بها فتح حصن تُسْتُر، في بلادِ فارس.

قال **أنس بن مالك** ﷺ: حضرتُ عند مناهضة حصن تُسْتُر عند إضاءة الفجر، واشتدَّ اشتعالُ القتالِ، فلم يقدروا على الصلاة، فلم نصلِّ إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها ونحنُ مع أبي موسى ـ الأشعري ـ ففُتحَ لنا. وقال أنس: وما يسرُّني بتلكَ الصلاةِ الدنيا وما فيها. [رواه البخاري في كتاب صلاة الخوف، باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو].

ودلّت مشروعية صلاة الخوف على أهمية صلاة الجماعة، كما دلّت على حرص الشريعة الإسلامية على سلامة المسلمين، فشرعت لهم صلاةَ الخوفِ في حال الخطر ومواجهة العدو، لكي لا يستفيدَ العدوُّ من انشغال المسلمين بالصلاة.

وقد تعلّقَ بظاهر الخطاب بعضُ الفقهاء، فرأوا أن صلاة الخوف شرعت على وجه الخصوص معه عليه الصلاة والسلام فقط، ولكنّ جمهورَ العلماءِ يقولون بمشروعيتها أبداً، والخطابُ للنبيِّ ﷺ ليقتدي به غيره، وقد فعلها الصحابةُ بعدَه عليه الصلاة والسلام.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: إذا أديتم الصلاة وفرغتم منها.

﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أي: أكثروا من ذكر الله في جميع الأحوال.

فذكره تعالى مطلوب من المسلم في جميع تقلباته، وخاصة في ميادين القتال عند مواجهة العدو، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ أي: فإذا أمنتم وزالت أسباب الخوف.

﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدوها تامة بجميع شروطها وفروضها.

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ أي: فرضاً مفروضاً في أوقات محدودة، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة].

وتابعت الآيات شدّ عزائم المسلمين، ورفع هممهم، لكي يستمروا على طريق الجهاد:

﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٠٤﴾.

﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ أي: لا تضعفوا ولا تتوانَوا.

﴿فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾ أي: في ملاحقة الكفّار وقتالهم، حتى لا تبقى لهم قوة تهددكم.

﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ﴾ أي: فإنّ آلامَ القتال مشتركَةٌ بينكم وبينهم، فكما تُكابِدون من آلام القتال والجراح فإنهم يكابدون مثلها، كما قال تعالى: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ أي: وتمتازون عليهم بإيمانكم بالله تعالى، ورغبتكم بثوابه ونصره، فينبغي أن تكونوا أصبرَ منهم على مشقات القتال وآلامه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: عليماً بأحوالكم، حكيماً فيما شرع لكم وكلّفكم.

❁ ❁ ❁

الفَصْلُ الخَامِسُ

حادثة بني أُبَيْرِق

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾

أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾.

- **الحادثة وحُقوقُ الإنسان:**

اهتمت الآيات في سورة النساء بهذه الحادثة اهتماماً كبيراً؛ لصلتها بالعدوان على حقٍّ من أهم حقوق الإنسان، وهو براءة ذمته عن أيِّ مسؤوليةٍ حتّى تثبتَ بالأدلة القطعية، واتهام الإنسان البريء والعدوان عليه وسيلةٌ شائعةٌ، كثيراً ما تلجأ إليها أنظمة الحكم الاستبدادية، لتتخلَّصَ من مناوئيها ومعارضيها.

ولـمّا كان الإسلام دين العدل والمساواة ـ كما مرّ في آيات السورة ـ وتحرصُ الشريعة الإسلامية على حماية الحقوق لجميع الناس، مسلمين أو غير مسلمين، ودفع الظلم عنهم، أنزل الله تعالى الآيات التالية على النبيِّ ﷺ، ليحميَ حقَّ إنسانٍ واحد، ويدفع عنه الظلم، ويُبَرِّئَهُ مما اتُّهِمَ به كذباً وبهتاناً، وقد ذكرت بعضُ الروايات أنه يهودي، من يهود المدينة المنورة.

وملخّصُ الحادثةِ: أنَّ أهل بيتٍ من بني ظَفَرٍ من بيوت الأنصار، يقال لهم: بنو أُبيرق، ثلاثة إخوة، بشر وبشير ومبشّر، نقبوا مشربةً لرفاعةَ بن زيد في الليل، وسرقوا منها أدراعاً له وطعاماً، وقيل: إنَّ السارق بشيرٌ وحده، وكان منافقاً، وقيل: إن اسمه طعمة بن أبيرق، فشكاهم ابن أخي رفاعة، قتادة بن النعمان، إلى رسول الله ﷺ، فجاء ابنُ عمٍّ لهم يدعى أسير بن عروة مع رجال من بني

ظَفَر، يدافعون عن بني أبيرق، فقال أسير: يا رسول الله، إنَّ هؤلاء عمدوا إلى أهل بيت، هم أهل صلاح ودين، فأنَّبوهم بالسرقة، ورموهم بها من غير بيِّنة.

وجعل يجادل عنهم، ويتهم بالسرقة لبيد بن سهل، وقيل: زيد بن السمين، يهوديين، وقيل: رجل من الأنصار، حتى قال النبيُّ ﷺ لقتادة: «**عمدتَ إلى أهلِ بيتٍ ذُكِرَ فيهم إسلامٌ وصلاحٌ، ترميهم بالسرقة، على غير ثبتٍ ولا بينةٍ**» فرجع قتادة إلى عمه، فأخبره بما قال رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان، فأنزل الله الآيات التالية. [رواه الترمذي (٤/ ٩٣) والحاكم (٤/ ٣٨٥) وابن جرير (٩/ ١٨١)][(١)]:

- **اجتهاد النبي ﷺ**:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ أي: بما عرّفك الله، وأوحى به إليك، إما بوحي ونص، أو بنظر واجتهاد، على قواعد الوحي وأصوله.

ففي الآيةِ دليلٌ على أنَّ للنبيِّ ﷺ أن يجتهدَ فيما لم ينزل عليه فيه شيء، وربّما أدّاه اجتهادُه إلى أمر فيحكم به، ويكون في الباطن بخلاف ذلك، لكنّ مثل ذلك لو وقع لم يُقرَّ عليه ﷺ لثبوتِ عصمته.

ويؤكد ذلك حديث أم سَلَمة رضي الله عنها: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سمع خصومةً بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: «**إنَّما أنا بَشَرٌ، وإنّه يأتيني الخَصْمُ، فلعلَّ بعضَكم أن يكونَ أبلغَ من بعضٍ، فأحسبُ أنّه صادِقٌ، فأقضي له بذلك، فَمَنْ قضيتُ له بحقِّ مسلمٍ فإنَّما هيَ قطعةٌ مِنَ النَّارَ، فليأخذْهَا أو لِيَتْرُكْهَا**» [رواه البخاري (٧١٨١)].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٥/ ٣٧٦؛ مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٤٣٤.

قال ابن حجر: «والحكمةُ في ذلك، مع أنه كان يمكن إطلاعه بالوحي على كل حكومة، أنه لما كان مشرِّعاً كان يحكم بما شرع للمكلفين، ويعتمده الحكّام بعده... ولا يسمّى ذلك خطأ في الاجتهاد، قال الشافعي: الحكم بين الناس يقع على ما يسمع من الخصمين، بما لفظوا به، وإن كان يمكن أن يكون في قلوبهم غير ذلك، وأنه لا يقضي على أحد بغير ما لفظ به، فمن فعل ذلك فقد خالف كتاب الله وسنَّة نبيه ﷺ»(١).

وسكوته ﷺ عن بعض المسائل التي عرضت له، حتى نزل عليه الوحي بحكمها، كانت من المسائل التي ليس لها أصول في الشريعة.

﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ أي: لا تكن لأجل الخائنين مخاصماً للبرآء.

وفي هذا دليلٌ على أنّ النيابة عن المبطل والمتهم في الخصومة لا تجوز، فلا يجوز لأحدٍ أن يخاصمَ عن أحد، إلا بعد أن يعلم أنَّه محق.

ومشى الكلام في السورة على حفظ أموال اليتامى والنساء، فبيّنَ أنَّ مال الكافر محفوظ عليه كمالِ المسلم، إلا في الموضع الذي أباحه الله تعالى(٢).

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ أي: استغفر الله للمذنبين من أمتك والمتخاصمين بالباطل، وقد مرَّ معنا من قريب قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

وذهب الطبريُّ إلى أنَّ المعنى: استغفر الله من ذنبك في خصامك للخائنين. وردّه ابنُ عطية فقال: «وهذا ليسَ بذنبٍ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ إنّما دافع عن الظاهر، وهو يعتقد براءتهم»(٣).

---

(١) انظر: فتح الباري: ١٣/ ١٧٤.

(٢) تفسير القرطبي: ٥/ ٣٧٧.

(٣) المحرر الوجيز: ٤/ ٢١٩.

فالحاكِمُ يحكم ـ كما مرَّ معنا ـ بما يسمع، ولا يُعَدُّ النبي ﷺ مذنباً إذا حكم بحسب ما سمع وأخطأ، ولكن لا يُقَرَّ عليه الصلاة والسلام على الخطأ، لثبوت عصمة النبوة له.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: يغفر للتائبين ويرحمهم.

- **تحريم الدفاع عن المجرمين:**

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ﴾ أي: لا تدافع عن الذين يخونون أنفسهم بالمعصية.

جعلتِ الآيةُ معصيةَ العصاةِ خيانةً منهم لأنفسهم؛ لأنّ وبال المعصية راجع إليهم. والخطاب للنبيِّ ﷺ، والمراد به غيره، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [النساء: ١٠٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ أي: مبالغاً في الخيانة والإثم، مفرطاً فيهما، ومصرّاً عليهما.

وبذلك أخرجت الآية من وقع في الخيانةِ والمعصيةِ مرة، وبادر إلى التوبة والاستغفار، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٥].

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: يستترون من الناس حياءً وخوفاً من ضررهم.

﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يستحيون منه سبحانه، وهو أحقُّ أن يُستحيا منه، ويُخشى عقابه، وإنّما فُسِّرَ الاستخفاء منه تعالى بالاستحياء؛ لأنّ الاستتار

منه عز شأنه محال، فلا فائدةَ في نفيه، ولا معنى للذم في عدمه[١].

﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ أي: على الوجه اللائق به سبحانه، أو هو معهم بعلمه وسمعه وقدرته جَلَّ جَلَالُهُ، لا يخفى عليه خافٍ من سرِّهم، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: إذ يدبِّرون ويزوّرون سرّاً قولاً لا يرضى سبحانه عنه، لأنّ فيه دفاعاً عن المجرم؛ واتهاماً للبريء.

وذلك أنّ قوم طعمة قالوا فيما بينهم: نرفعُ الأمرَ إلى النبيِّ ﷺ، فإنّه يسمعُ قول طعمة، ويقبل يمينه، لأنّه مسلم، ولا يسمعُ قولَ اليهوديِّ لأنه كافر[٢].

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ أي: عالماً بكل أعمالهم علم إحاطة، لا يخفى عليه شيء منها.

﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: يا هؤلاء المجادلون عن المجرمين في الحياة الدنيا، وهو خطاب مشافهة للتوبيخ والتقريع.

﴿فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: لا أحدَ يجادلُ اللهَ عنهم يوم القيامة؛ إذ كلُّ إنسانٍ مشغول بنفسه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس].

﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: ولا أحدَ يكونُ عليهم حافظاً ومحامياً من بأس الله تعالى وعقابه.

---

(١) روح المعاني: ٥/ ١٤١.

(٢) تفسير الخازن: ٢/ ١٦٢.

● **اتهام البريء بُهتان:**

هكذا كشفت الآيات الحقيقة، وأظهرتْ براءةَ البريء، وأشارت إلى المجرم الحقيقي، ووبَّخت المدافعينَ عنه، ثم دعتهم إلى التوبة والاستغفار، وشجعتهم عليها، بأسلوب الخبر، وتقرير الحكم العام، الذي ينسحِبُ عليهم وعلى غيرهم. وهو أسلوب تربوي حكيم من أساليب القرآن الكريم المهذِّبة، والتي تأتي في مواضعها المناسبة المؤثرة، حيث تكون النفوسُ مستعدة للاستجابة والتوبة، بعد أن وُوْجِهَتْ بخطئها، وعرفت شناعة وفداحة جرمها.

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ أي: يسيء به إلى غيره، كأن يتهم بريئاً.

﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ أي: بفعل معصية يعود ضررها على نفسه فقط.

﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: يغفر سبحانه له ذنوبه، إن تاب عنها ويرحمه.

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾.

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ﴾ لأنّ وباله يعودُ على نفسِه، فالمسؤولية شخصية، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فلا يعاقِبُ بذنبٍ غيرَ فاعله.

وبعد أن قررت الآياتُ مسؤوليةَ الإنسان الشخصية عن ذنوبه، توعَّدت الذين يتَّهمون غيرَهم بجرائمهم ومعاصيهم، ويحاولون التملُّص من المسؤولية عنها، بأشد أنواع الوعيد والتهديد:

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾.

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا﴾ أي: ومن يفعل ذنباً صغيراً كان أو كبيراً.

﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ أي: ثم يتهم به إنساناً بريئاً.

وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الأصل في الإنسانِ براءتُه، وأنَّ محاولة إسقاط هذه البراءة عدوانٌ على حقٍّ من أعظم حقوقه.

﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا﴾ أي: كذباً عظيماً، سُمِّيَ بهتاناً من البهت، وهو الكذب الذي يُتَحيّرُ في عظمه وشناعته وقبحه.

﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: واحتمل أيضاً مع البهتان ذنباً ظاهراً.

إذ ارتكب في الحقيقة ذنبين، واتصف بصفتين قبيحتين، فهو بفعل الذنب آثم، وبرمي البريء باهت.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «**أتدرونَ ما الغيبةُ؟**» قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «**ذِكْرُكَ أخاكَ بمَا يَكْرَهُ**» قيل: أرأيتَ إنْ كانَ في أخي ما أقولُ؟ قال: «**إنْ كانَ فيهِ ما تقولُهُ فقد اغتبتَهُ، وإنْ لَمْ يَكُنْ فيه فَقَدْ بَهَتَّهُ**» [رواه مسلم (٢٥٨٩)].

- **عصمة النبوة:**

ودلَّ ما حدث على صدق النبيِّ ﷺ وصحة رسالته ونبوته، كما دلَّ على فضل الله تعالى عليه، وعنايته به، وعصمته له، فالنبيُّ ﷺ لا يُقَرُّ على خطأ؛ لأنَّه محفوظٌ بحفظ الله تعالى، ومعصوم بعصمته، ولهذا توجَّهتِ الآياتُ بالخطاب إلى النبي ﷺ، تبيّن له فضل الله تعالى عليه، بقوله الكريم:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ أي: لولا فضله سبحانه ورحمته عليك، لتمكّنَ فريقٌ من الناس، وهم قوم طعمة بن الأبيرق، أن يبعدوك عن القضاء بالحق والعدل، مع علمهم بحقيقة الحال.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: والحقيقة أنهم ما تمكنوا من ذلك، وعاد وباله عليهم.

﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ أي: فإنّهم وإنْ سَعَوْا في إضلالك، فإنك ما وقعت فيه، وما أصابك منه ضرر؛ لأنك اتبعت أصول القضاء الصحيحة، وبيّنتَ حكمك على ظاهر الحال.

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: أنزل عليك القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة.

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ أي: علّمك من أحكام الشرع وأمور الدين، ومن علوم الغيب وخفيات الأمور، التي لا يعلمها إلا هو سبحانه، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشّورى: ٥٢].

﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ أي: كان فضل الله تعالى عظيماً فيما علّمك وأنعم عليك من النعم الجليلة والخصائص العظيمة.

ولهذا كان ﷺ يقوم من الليل حتّى ترمَ قدماه، فيقال له، فيقول: «**أفلا أكونُ عبداً شكوراً**» [رواه البخاري (١١٣٠)].

ومن فوائد ما حدث أيضاً: بيانُ كمال علمه تعالى، وأنّه مطلع على مكنونات الضمائر والسرائر، فما يدبره المؤتمرون فيما بينهم سرّاً، للاحتيال على الناس والإضرار بهم، والعدوان على حقوقهم، لا يخفى على الله تعالى، الذي يعلم سرَّهم ونجواهم، ولهذا قال تعالى:

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾.

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ أي: لا خير في كثير ممَّا يدبرونه سرّاً؛ ويتناجون به.

والنجوى: المسارّة، والناسُ عادةً إذا أرادوا المكر والشر يخفونه ويتحدّثون به سرّاً، كما فعل بنو الأبيرق.

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: إلا نجوى من أراد أن يخفي صدقته، فإنَّ إخفاء الصدقة أفضل من إظهارها، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٧١].

﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ أي: أمر بعمل من أعمال البر المعروفة المشروعة.

فالتناجي في عملِ الخيرِ جائزٌ، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجَادلة: ٩].

﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي: سعى في إصلاح ذات البين، وإزالةِ أسباب الخصام بين المتخاصمين، فله أن يتحدَّث سرّاً مع كل جانب، ولو كان في حديثه كاذباً، إذا قصد الإصلاح.

وفي **الحديث الشريف**: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**ليسَ الكذَّابُ الذي يُصْلِحُ بينَ النّاسِ، ويقولُ خيراً وينمي خيراً**» [رواه مسلم (٢٦٠٥)].

وإصلاح ذات البين من أعظم القُرُبات والعبادات، فهو يؤدّي إلى إشاعة الأُلفة والمحبة بين أبناء المجتمع، ويخلّصهم من الاختلاف والنزاع، قال عليه الصلاة والسلام: «**ألا أخبِرُكُم بأفضلَ مِنْ درجةِ الصيام والصلاةِ والصدقةِ؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**إصلاحُ ذاتِ البَيْنِ، فإنَّ فسادَ ذاتِ البَيْنِ هي الحالِقَةُ، لا أقولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ، ولكنْ أقول: تَحلِقُ الدِّيْنَ**» [رواه أبو داود (٤٩١٩) والترمذي (٢٥٠٩)].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي: خالصاً لوجه الله تعالى.

﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم قدره إلا الله ﷻ.

• **حجية الإجماع:**

ومن فوائد ما حدث أيضاً: بيانُ خطر مخالفة الرسول ﷺ ومعاداته، ومحاولة تلبيس الأمر عليه، حتى يخطئَ في قضائه وحكمه، كما فعل بنو الأُبيرق، قال تعالى:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: ومن يخالف الرسول ﷺ، من بعدِ وضوحِ الأدلّةِ الدالة على صدقه، وصحة رسالته ونبوته، فمخالفتُهُ حينئذٍ مخالفةُ عنادٍ وجحودٍ.

﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: ويسير في غير طريق المؤمنين، الذين يطيعون الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، ويعظّمونه ويتمسّكون بسنّته.

﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: ندعه ونخلّي بينه وبين طريق الضلال الذي اختاره، فيزداد ضلالاً وإثماً، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال أيضاً: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصَّف: ٥].

﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾ أي: ندخله فيها ونشويه بنارها.

﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ .

دلَّت الآية على أنّ الله تعالى حفظ المؤمنين من الاجتماع على الخطأ والضلال، فلا تجتمعُ آراؤهم على ضلالة.

وجاء في الأثر: عن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه قال: «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن» [رواه أحمد (٣٦٠٠) والبزار (١٣٠) والطيالسي (٢٤٦) والطبراني في الكبير (٩/ ١٨) رقم (٨٥٨٣، ٨٥٩٣) وأبو نُعيم في الحلية (١/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨)، وهو موقوف حسن].

وهذه الآية دليلٌ في رأي كثير من العلماء على حجيّة الإجماع، وهو اتفاق آراء العلماء على حكم قضية حادثة لا نص فيها.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكونُ المخالفةُ لنصّ الشارع، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما عُلِمَ اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنّه قد ضُمِنَتْ لهم العصمة من الخطأ في اجتماعهم، تشريفاً لهم، وتعظيماً لنبيهم ﷺ. وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذلك، ومن العلماء من ادَّعى تواتر معناها، والذي عوّل عليه الشافعيُّ بعد التروي والفكر الطويل في الاحتجاج على كون الإجماع حجةً تحرم مخالفته، [هو] هذه الآية الكريمة وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها»[1].

وقد عوَّدنا الله في كتابه الكريم، أنّه كلّما توعّدَ ببعض آيات الوعيد، أتبعها ببعض آيات الترغيب، وها هي الآيات تفتحُ لبني الأُبيرق وأمثالهم باب التوبة وترغبهم فيها، فلا يأسَ من رحمةِ الله تعالى، ومهما كانت ذنوبُ الإنسان كبيرة، فإنّ الله تعالى يغفرها، إلا ذنب الشرك به سبحانه، ولهذا كرر تعالى قوله الكريم للمرَّة الثانية في السورة:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ وكأنه تعالى ذكر قوله الكريم هذا في سياق قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥] لكي يبيّن خطرَ مخالفة الرسول ﷺ، وخطر مخالفة إجماع المسلمين، إذ يؤدِّي ذلك إلى الذنب الكبير العظيم الذي لا يغفر، وهو الإشراك به جل وعلا.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٤٣٧.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ أي: ابتعدَ كثيراً عن طريق الحق، الذي هو طريق الرسول ﷺ، وسنَّته من بعده، وما تُجْمِعُ عليه أمته من بعده أيضاً.

ويلاحظ أنه تعالى ختم الآية في المرَّة الأولى بقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]؛ لأنها جاءت هناك في سياق الخطاب الموجَّه لأهل الكتاب، فنبهوا بهذا إلى أن الشرك افتراءٌ كبيرٌ على الله تعالى الواحد الأحد. وأما هنا فالكلام موجه إلى المسلمين، فنُبِّهوا على أن الشرك من الضلال البعيد؛ تحذيراً لهم من مخالفة الرسول ﷺ، فالمغايرة في ختام الآية جاء حسبما يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقه[1].

• **حقيقة الشرك ومصدره:**

ثم بيَّنت الآياتُ حقيقة الشرك ومصدره الأصلي، وبعض مظاهره العملية؛ تأكيداً لما قرره تعالى في قوله السابق: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ وتحذيراً للمؤمنين من مقارفته ومقاربته:

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾.

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ أي: هؤلاء المشركون ما يعبدون من دون الله تعالى إلا إناثاً.

وهو تصويرٌ للشرك في أقبح صُوَره، فقد كان العرب يستضعفون الأنثى ويظلمونها، ويحرمونها من أكثر حقوقها ـ كما مرّ في صدر السورة ـ وكانوا أيضاً يعبدون أصناماً يسمُّونها بأسماء الأنثى، كاللات والعزى ومناة وإساف ونائلة، فأيُّ ضلال أبعد من هذا الضلال، يشركون بالله تعالى غيره، ويزعمون أن شركاءه تعالى إناث؟!.

ثم كشفت الآيات عن مصدر هذا الضلال البعيد ومنبعه، بقوله تعالى:

﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ أي: وعبادتهم لهذه الأصنام هي في

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٢/٢٣٣.

الحقيقة طاعةٌ للشيطان المتمرِّد على الله تعالى، العريق في العصيان، فهو مصدر كل كفر وشرك؛ إذ هو الذي دعاهم إليه، وزينه لهم، وهم في حقيقة الأمر عبّاد للشيطان، وكثيراً ما حذَّر الله تعالى الإنسان من طاعة الشيطان وعبادته، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يسٓ].

﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾.

﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: أبعده تعالى من رحمته، بسبب تكبره وجراءته على مخالفة أمره، كما في قوله سبحانه: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحِجر].

فالشيطان هو العدو الأول للإنسان، يعمل دائماً لإضلال الناس وإبعادهم عن طاعة ربهم سبحانه، ومن وقاحته أنه أعلن ذلك:

﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي: قال للحقِّ سبحانه بعد أن تكبر عن أمره، ورفض سجود التكريم والتحية لآدم: لأتخذنَّ من عبادِكَ جزءاً كبيراً معلوماً، قدر لي أن أغويهم وأضلهم.

ودلَّ قول الخبيث هذا على ثقته الكبيرة في قدرته على إضلال الناس وإغوائهم، ولعلّ ذلك يرجعُ إلى دراسته لطبيعة تكوين الإنسان، واطِّلاعه على نقاط الضعف فيه، ففي الحديث الشريف: عن **أنس** رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لمّا صَوَّرَ اللهُ آدمَ في الجنَّةِ تركه ما شاءَ اللهُ أن يتركَه، فجعلَ إبليسُ يطيفُ بهِ، ينظرُ ما هُوَ، فلمّا رآهُ أجوفَ عرفَ أنّهُ خُلِقَ خلقاً لا يتمالَكُ**» [رواه مسلم (٢٦١١)] أي: لا يملك نفسَه ويحبِسُها عن الشهوات.

وقد تمكَّن الخبيث فعلاً عن طريق الشهوات من إضلال أكثر الناس، كما أخبر عنه تعالى في قوله: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ﴾ [الأعراف].

وقال أيضاً: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر].

والعجيبُ أنَّ أحدَ الكتّاب المعاصرين، الذين كتبوا في التفسير، غفل عن هذه الآيات وأمثالها في التنزيل الحكيم، وعن الواقع الأليم الذي انحدر إليه أكثر الناس في الماضي والحاضر، فزعمَ أنَّ الصلاح غلبَ على جماعَةِ البشر في كلِّ عصر، وبقي معها من الشرور حظٌّ يسير، ينزع فيه الشيطان منازعه، وكَّلَ الله أمرَ الذيادِ عنها إلى إرادة البشر، بعد تزويدهم بالنصح والإرشاد بواسطة الشرائع والحكمة(١).

وكأن صاحبَ هذا الكلام لم يقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله أيضاً: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩]، كما غفل عن دركات الشرور والفتن والظلم والطغيان في المجتمعات البشرية ماضياً وحاضراً.

- **صرعى الأماني الباطلة:**

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۝١١٩﴾.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ أي: بدعوتهم إلى الضلال وتزيينه لهم.

﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾أي: ولألقينّ في نفوسهم الأماني الباطلة، والمواعيد الكاذبة؛ لأشغلهم بها عن عبادتك وطاعتك.

يقال: منّاه، إذا وعده المواعيد الباطلة التي يحبُّها، وما أكثر الذين أوقعهم الشيطان في شراكه بالأماني الباطلة التي منّاهم بها، كما حكى الله عنه فيما يقوله لأهل النار يوم القيامة: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ

---

(١) انظر: التحرير والتنوير: ٥/ ٢٠٤.

وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: فليقطعُنّ آذان الأنعام استجابةً لأمري.

وكان العرب في الجاهلية يفعلونه بالبحائر والسوائب، وهي الحيوانات التي كانوا يسيبونها لآلهتهم، ويتركونها دون أن ينتفعوا بها، وقد أبطل ذلك سبحانه فقال: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ أي: ولآمرنَّهم بتغيير صورة الأعضاء السوية، إلى ما يظنون أنها أحسنُ من الصورة التي كانت عليها، كالوشم في الجلد، ووشر الأسنان، والنمص لإزالة الحواجب المستوية.

وفي الحديث الشريف: عن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه قال: لعنَ اللهُ الواشماتِ والمستوشماتِ، والمتنمّصاتِ والمتفلِّجاتِ للحُسْنِ، المغيّراتِ خلقَ اللهِ، ما لي لا ألعنُ مَنْ لعنه رسولُ اللهِ ﷺ، وهو ملعونٌ في كتابِ اللهِ. [رواه البخاري (٥٣٤٣)].

قوله: **(وهو ملعون في كتاب الله)** يشير إلى الآية الكريمة: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

ويُستثنى من ذلك إزالة الشاذّ عن أصل الخلقة السوية، وإزالة ما يحصل به ضررٌ، كإصبع زائدة، أو سن زائدة، أو طويلة تعيقُ عن الأكل والاستعمال، أو إزالة ما نبت لامرأة من لحية أو شارب أو عنفقة، كما يجوزُ للزّوجةِ التحميرُ والنقشُ والتطريف[١] إذا كان بإذن الزوج، لأنه من الزينة[٢].

---

(١) هو عملية قص الأظافر وتزيين اليد.

(٢) انظر: فتح الباري: ١٠/٣٧٨.

ومن تغيير خلق الله تعالى: العلاقات الجنسية الشاذة عن أصل الفطرة السوية، كاللواطة والسحاق، ويلتحقُ بهما ما استحدثه الناس ممّا يسمّى التلقيح الاصطناعي وأطفال الأنابيب[1].

وكل ذلك مظاهر على طاعة للشيطان وموالاته، وقد توعد الله تعالى من يفعل ذلك بقوله:

﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ أي: ظاهراً.

فطاعة الشيطان تودي بالإنسانِ إلى التعب والعناء في الدنيا، وإلى الشقاء والعذاب في نار جهنم يوم القيامة، وتلويث البيئة وإفسادها أكبر شاهد واقعي على التعب والعناء الذي يترتّب على تغيير خلق الله المحكم.

والسببُ في ذلك أنَّ مواعيده خداع وغرور:

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ أي: يعدهم الشيطان بالمواعيد الكاذبة، ويمنّيهم بالأماني الخادعة الفارغة، فيتعبون في تحصيلها، ويظلون طول أعمارهم راكضين لاهثين وراءها، فلا يقبضون إلا على الريح، ولا يجنون إلا الحسرة والألم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النُّور: ٣٩].

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: إلا باطلاً وضلالاً وكذباً واحتيالاً، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر].

وهو ما قرره سبحانه هنا في قوله:

---

(١) انظر: الأنساب والأولاد، للمؤلف.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ١٢١﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين غرهم الشيطان فأطاعوه واتبعوه.

﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي: مفرّاً أو ملجأً يمتنعون به من النار، فلا بدّ لهم من ورودها، ولا يعدلون عنها إلى غيرها.

وفي المقابل، بيّنتِ الآياتُ مصيرَ الذين أطاعوا الرحمن، وعصوا الشيطان بقوله سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ١٢٢﴾.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أي: وعده سبحانه وعد حق وصدق لا يتخلف، فهو ليس كوعد الشيطان.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ أي: لا أحد أصدق من الله تعالى، وهو توكيد لقوله: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾، وهذه التوكيداتِ أتتْ في مقابل مواعيد الشيطان الكاذبة لأتباعه وأوليائه.

- **ميزان العقاب والثواب:**

فحياة الإنسان وموتُه لا يقومان على أساس الأماني الفارغة، والمواعيد الخادعة، التي يلقيها الشيطان في نفوس كثير من الناس:

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ١٢٣﴾.

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَٰبِ﴾ أي: ليس الأمرُ منوطاً بأماني الكافرين المنكرين للمسؤولية والحساب بعد الموت، ولا بأماني أهل الكتاب،

الذين أطمعهم الشيطان بالمغفرة والجنة، حتى قالوا ما حكاه الله عنهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤].

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

إنّما الأمرُ منوطٌ بتشريع شرعه العليم الحكيم، أساسُه التكليف والمسؤولية، والجزاء القائم على المبدأ التالي:

﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ أي: يعاقب بسببه، إذا أصرّ عليه، ولم يتب عنه، والسوء يشمل كل مخالفة لدين الله وشرعه.

﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: ولا يجد له يوم القيامة غير الله تعالى وليّاً يمنعه، ولا نصيراً ينصره. هذا هو ميزان الحساب والعقاب.

وفي مقابله بيَّنت الآيات ميزان الفضل والثواب بقوله تعالى:

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فالنساءُ يُثَبْنَ على أعمالهنّ الصالحات كالرجال، وينبغي أن يتمتعنَ بحقوقهنَّ الإنسانية الكاملة في الدنيا.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ أي: ولا ينقصون شيئاً من ثواب أعمالهم مهما كان قليلاً، ومرَّ معنا أن **النقير** النقرة الصغيرة في النواة، وهو مَثَلٌ في القلة كالفتيل، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزَّلزَلة].

- **أحسن الناس ديناً:**

ثم أثنى سبحانه على المستسلمين المنقادين لأحكام دينه وشرعه، وسنَّة نبيه

عليه الصلاة والسلام، وجاء هذا الثناء في مقابل ما مرَّ معنا من قوله سبحانه في المعاندين الجاحدين: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ [النساء: ١١٥]:

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: أسلم نفسه لله تعالى إسلاماً كاملاً، وجعلها سالمة له جل وعلا، منقادة له وحده، ونبَّه في هذا الاستفهام على أن ذلك منتهى ما تبلغه القوة البشرية(١).

فأحسنُ الناس ديناً مَنْ يسلِمُ نفسَه لله تعالى إسلاماً كاملاً.

﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ أي: في عمله وعبادته وسلوكه وأخلاقه، وذلك باتّباع شرع الله تعالى، والتمسُّك بسُنَّة النبي ﷺ.

﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ﴾ أي: مائلاً عن سائر ما يخالفها من العقائد والنحل، فهي ملّةُ التوحيد، التي أُمرنا بالتمسُّك بها، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة].

فأساسُ ملّة التوحيد الإسلام الكامل لربِّ العالمين.

﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ أي: بوأه الله تبارك وتعالى هذه المكانة الرفيعة، وتفضَّل عليه بها لكمال إسلامه واستسلامه له جل وعلا.

والخلَّة: صفاء المودة، وقيل: **الخلة**: الافتقار والانقطاع، فخليلُ اللهِ: المنقطع إليه، وسمّي إبراهيمُ خليلاً لأنّه انقطعَ إلى الله في كلّ حالٍ، وقيل:

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢/ ١٧٤.

الخلَّة: الاختصاص والاصطفاء، وسُمِّي إبراهيمُ خليلاً لأنه والى في الله وعادى في الله[١].

وفائدة الإخبار عن هذه المرتبة الرفيعة، التي تفضَّل الله سبحانه بها على إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ تأكيدُ وجوب اتباع ملَّته وطريقته؛ لأنَّ مَنْ بلغَ من الزلفى عند الله أنِ اتخذه خليلاً، كان جديراً بأن تتبع ملَّته وطريقته[٢].

وقد أمر الله نبينا ﷺ بذلك بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

وله سبحانه أن يتفضّل على مَنْ يشاء من عباده بما يشاء؛ لأنه المالك الخالق:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ خلقاً وملكاً وتدبيراً.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ إحاطة علمٍ وقدرةٍ، جلَّ وعلا.

وبهذا تكون الآياتُ الكريمةُ قد بَيّنت لنا حقيقة التوحيد وملّته، ووجوب التمسُّك به، بعد أن بيّنت حقيقةَ الشركِ ومصدره.

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: تفسير الخازن: ٢/ ١٧٤. وقيل: **الخلة**: تخلل الحب كل ذرة في القلب، قال الشاعر:

قد تخللتَ موضع الروح مني ... ولذا سُمِّي الخليل خليلا

(٢) تفسير النسفي: ٢/ ١٧٤.



الثبات على الإيمان والتزام التقوى والعدل

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ

ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾.

- **تعظيم حُقوق الضعفاء:**

وعادت الآيات إلى الموضوع الأصلي، الذي أبرزته في صدر السورة، وهو تقرير حقوق الضعفاء في المجتمع وحمايتها، ويبدو أنّ تشريعَ ميراث النساء والصغار أثار نوعاً من الدهشة والاستغراب عند بعضهم؛ إذ رأوه تشريعاً جديداً عليهم لم يألفوه، ولم يكن له سابقة في مجتمعهم الجاهلي، فقد كانوا لا يورّثون النساء ولا الصغار، فلمّا نزلت آياتُ الميراث قالوا: يا رسول الله، كيفَ ترثُ المرأةُ والصغير؟ فأجابهم بهذه الآية.

وذكر بعضُ المفسِّرين أنّ عُيينةَ بن حِصْنٍ أتى النبيَّ ﷺ فقال: أُخبرنا أنك



تعطي الابنةَ النصفَ والأختَ النصف، وإنّما كنّا نورِّثُ من يشهدُ القتالَ ويحوزُ الغنيمةَ، فقال عليه الصلاة والسلام: «**بذلكَ أُمِرْتُ**»[1]. وأنزل الله تعالى:

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: ويستخبرونك في شأن النساء وحالهن.

والاستفتاء: طلب الفتوى، وهو إظهار ما أشكل من الأحكام الشرعية وكشفه وتبيينه.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ أي: قل: الله تعالى يبيّنُ لكم حكمه فيهنّ.

فهذه الأحكام شرعها الله تعالى، وما عليكم إلا الإذعان لها والرضا بها، وهذا هو المظهر العملي للاستسلام لله تعالى، الذي مرَّ في الآية السابقة: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٢٥].

وأفاد تقديمُ لفظ الجلالة (الله) تعظيم شأن هذه الأحكام، وزاد في تعظيمها قوله سبحانه بعد ذلك:

﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: وهذه الأحكام التي تتلى عليكم موجودة في الكتاب العلوي، وهو اللوح المحفوظ.

فهي أحكام إلٰهية علوية، تفيد أنَّ العدل والإنصاف في حقوق النساء واليتامى من أعظم الأمور عند الله تعالى، فعليكم مراعاتها وعدم الإخلال بها.

وقد يكون المراد من الكتاب: القرآن الكريم، والمعنى: إن الله يفتيكم في النساء بما أنزل في كتابه عليكم.

﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ أي: ما فرض لهن من الميراث

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢/ ١٧٦.

والمهور، وكان الرجل منهم ـ كما سبق ـ يضمُّ اليتيمة ومالها إلى نفسِهِ، فإن كانت جميلةً تزوَّجها، وأكلَ مالها، وإن كانت دميمةً منعها من الزواجِ وعضلها، حتى لا يشارِكَه أحد في مالها.

﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي: **في** أن تنكحوهنّ لجمالهنّ، أو: **عن** أن تنكحوهنّ لدمامتهنّ، فَحَذْفُ حرف الجرِّ بعد (**ترغبون**) أفاد كلا المعنيين.

﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ أي: ويفتيكم في المستضعفين من الولدان، وهم الصغار، لكي تورثوهم كما شرع الله في آيات الميراث.

﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ أي: ويأمركم أن تقوموا برعاية حقوق اليتامى والمحافظة عليها بالعدل، كما بيَّنه سبحانه في صدر السورة.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ وهو حثٌّ لهم على الاستكثار من فعل الخير، وخاصَّة في مجال رعاية اليتامى والضعفاء، وحفظ حقوقهم وأموالهم.

- **اختيار أخفِّ الضررين:**

ولا يعني تعظيمُ حقوق الضعفاء، التمسُّك بها كاملة في جميع الظروف والأحوال، فقد تطرأ أحوالٌ تحتاجُ المرأةُ فيها للتنازل عن بعض حقوقها، لحماية ما هو أهم لها منها، وهو ما يسمّى في الشريعة الإسلامية: اختيار أخف الضررين لدفع أعظمهما، وهو ما شرعه تعالى في قوله:

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ أي: خافت من زوجها ترفعاً عليها أو تجافياً عنها.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أي: لا حرج ولا إثم على الرجل

والمرأة أن يتصالحا بينهما، ويتفقا على أنْ تتنازلَ له الزوجةُ عن شيءٍ من حقوقها، لكي تحافظَ على الأسرة، وتبقى الصلة الزوجية قائمةً بينهما، كأن تنزل له عن حقها في القسمة، أو عن شيء من مهرها أو نفقتها.

عن **عائشة** ﵂: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا﴾ قالت: الرجلُ تكونُ عندَه المرأةُ، ليس بمستكثرٍ منها، يريدُ أن يفارِقَها، فتقول: أجعلُكَ من شأني في حِلٍّ. فنزلت هذه الآية في ذلك. [رواه البخاري (٤٦١٠)].

ومعنى قولها: **(ليس بمستكثر منها)** أي: في المحبةِ والمعاشرةِ والملازمةِ.

وقولها: **(أجعلك من شأني في حل)** أي: وتتركني من غير طلاقٍ(١).

﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ أي: الاتفاق خيرٌ من الفراق، فالإسلام حريص على سلامة الأسرة واستمرارها.

قال ابن كثير ﵀: «ولما كان الوفاقُ أحبَّ إلى اللهِ من الفراق قال: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ بل الطلاقُ بغيضٌ إليه ﷻ؛ ولهذا جاء في الحديث: عن **عبد الله بن عمر** ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أبغضُ الحلالِ إلى اللهِ الطلاقُ**» [رواه أبو داود (١٢٧٨) وابن ماجه (٢٠١٨)]»(٢).

﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ أي: جُبِلَتْ الأنفسُ على الشح، وهو أشدُّ البخل، فهو حاضر معها، لا يغيب عنها، فكل واحد من الزوجين يشح بحقه، ولا يتنازل عن شيء منه للآخر لمصلحة الأسرة.

ثم حثَّ سبحانه على مقاومة الطبع ومتابعة الشرع فقال:

﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ﴾ أي: تحسنوا معاشرة أزواجكم، وتصبروا عليهنّ، وإن كرهتموهنّ، مراعاة لحق الصحبة، وبقاء الأسرة.

﴿وَتَتَّقُواْ﴾ أي: وتتقوا الله في حق المرأة، فلا تظلموها، ولا تجوروا عليها.

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٢٦٦.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٤٤٥.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازيكم بأعمالكم ويثيبكم على إحسانكم.

- **العدل بين الزوجات:**

ثم واجهت الآياتُ الرجال المتزوجين بأكثر من امرأة، بحقيقة الضعف البشري عن إقامة العدل الكامل، الشامل للأمور المادية والمعنوية بين نسائهم، بقوله تعالى:

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي: مهما حرصتم على العدل والتسوية بينهنّ، فلن تستطيعوا ذلك؛ لأنّ الإنسانَ لا يستطيعُ التحكُّمَ بعواطفه ومحبته، فيميلُ إلى واحدةٍ أكثرَ من الأخرى دون إرادته.

وقد جاء في الحديث الشريف: عن **عائشةَ** رضي الله عنها قالت: كان رسولُ اللهِ ﷺ يقسِمُ بين نسائِهِ فيعدِلُ، ثم يقول: «**اللهمَّ هذا قَسْمي فيما أَمْلِكُ، فلا تَلُمْنِي فيما تَمْلِكُ ولا أَمْلِكُ**» يعني القلب. [رواه أبو داود (٢١٣٤) والترمذي (١١٤٠) والنسائي (٧/ ٦٤) وابن ماجه (١٩٧١)].

وبما أنَّ التكليفَ في الشريعة الإسلامية منوطٌ بالوسع والقدرة بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فلا يكلَّفُ الرجل أن يعدل بين نسائه في الأمور العاطفية، كالمحبة والميل، ومع ذلك لا يجوز له أن يميل إلى المرأة التي يحبها ميلاً كاملاً، بحيث يعرض عن الأخرى:

﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ أي: فلا تبالغوا بالميل إلى واحدة منهن.

﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ أي: حتى تصبح الأخرى كالمعلقة، لا هي ذاتُ زوجٍ، ولا مطلقةٌ، فهذا ظلم محظور في الإسلامِ.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «مَنْ

كانَ عِنْدَهُ امرأتانِ، فلمْ يَعْدِلْ بينهما، جاءَ يومَ القيامةِ وشِقُّه ساقِطٌ» أي: مائلٌ. [رواه أبو داود (٢١٣٣) والترمذي (١١٤١) والنسائي (٧/ ٦٣) وابن ماجه (١٩٦٩) والحاكم (٢/ ١٨٦) وصححه].

ثم شجَّعت الآيةُ الأزواجَ الذين يسيئون معاشرة نسائهم على الإصلاح، وترك سوء المعاشرة، بقوله تعالى:

﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟﴾ أي: ما مضى من سوء المعاشرة لنسائكم.

﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ أي: تتقوا الله تعالى في ذلك، فتقبلوا عليه تائبين مستغفرين.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: يغفر لكم ما مضى من سوء المعاشرة ويرحمكم.

وقد مرَّ معنا أن النبي ﷺ بيَّن فضيلة التزام الحق والعدل في جميع شؤون الحياة، وخاصة مع الأهل في داخل الأسرة، وفي كل من كانت له عليه ولاية، فقال: «**إنَّ المقسطينَ عندَ اللهِ على منابرَ من نورٍ، عن يمينِ الرحمنِ ﷻ، وكلتا يديه يمينٌ، الذين يَعْدلُوْنَ في حكمهم وأهليهم وما وُلّوا**» [رواه مسلم (١٨٢٧)].

وإن لم يتمكَّن الزوجان من الصلح، واستمرَّ الخلافُ قائماً بينهما، وتعذرت إزالته، فيمكنهما في هذه الحالة أن يفترقا، لقوله تعالى:

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ﴾ أي: من فضله وغناه سبحانه.

وفي هذا تسليةٌ لكلِّ واحدٍ من الزوجين بعد الطلاق ووقوع الفراق.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا﴾ أي: في فضله ورحمته وغناه.

﴿حَكِيمًا﴾ في كل ما يشرع من أحكام.

وتشريع الطلاق في مثل هذه الحالة، عندما تتعذَّرُ إزالةُ الخلاف بين الزوجين، تشريع حكيم، فيه درءٌ لمفاسدَ كثيرةٍ وخطيرة، تترتب على إجبار

الزوجين المتنازعين أن يعيشا مع بعضهما، وهما في تنافر وخصام مستمرين، فإنَّ هذا يؤثر على الأولاد، ويمتد فساده إلى المجتمع المحيط بالأسرة.

وبعد أن كانت كثير من الدول النصرانية تنكِرُ على المسلمين تشريعَ الطلاق، تراجعوا عن إنكارهم، وأقروه في مجالسهم التشريعية، بعد أن تفاقمت الأضرار والمفاسد الاجتماعية المترتبة على منعه.

• **الوصية الخالدة:**

يتوقف الالتزامُ بأحكام الشريعة الإسلامية وتطبيقها على مدى شعور كلٍّ من الزوجين بمراقبة الله تعالى وخشيته، وهو ما دأبت آيات السورة من أولها على تقويته في النفوس وتمكينه في القلوب، فلقد رأينا في **أول آية** كيف تكرر الأمر بالتقوى، وكيف ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، واستمرت الآيات على ذلك، وخاصة في خواتيمها.

وها هي بعد أن تُقَرِّرَ أنَّه تعالى له ملك السماوات والأرض، تبيِّنُ أنَّ التقوى هي وصيته الخالدة لجميع الناس، في كل كتاب أنزل، وعلى لسان كل نبي أرسل:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾ أي: بخشيته وطاعته والتزام شرائعه.

فالتقوى وصيةٌ قديمةٌ ما يزال سبحانه يوصي عباده بها.

﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟﴾ أي: إن تجحدوا وصيته وتعرضوا عنها.

﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي: فاعلموا أنَّ له تعالى ما في السماوات وما في الأرض، فهو غنيٌّ عنكم وعن عبادتكم وطاعتكم وتقواكم،

كما قال تعالى إخباراً عمَّا قاله موسى عليه السلام لقومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وكذلك قال هنا أيضاً:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ أي: كان سبحانه ولا يزال غنيّاً عن عباده، محموداً في كل ما يقدّره ويشرعه.

ثم أكد تعالى هذا المعنى، مبيِّناً كمال رقابته على خلقه وكمال قدرته عليهم، فقال:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾.

أي: شهيداً على كل شيء وحافظاً له.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ﴾ فهو غني عنكم، ووجودكم ليس أمراً لازماً، فهو منوط بمحض مشيئته تعالى وقدرته.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ ولا يخفى ما في الآية من تحدٍّ للناس، وبيان شدّةِ افتقارهم جميعاً لله تعالى في إيجادهم وإمدادهم، قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

قال بعضُ السَّلفِ: ما أهونَ العبادَ على اللهِ إذا لم يطيعوا أمره، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم][١].

فالخيرُ كلُّ الخيرِ في طاعته تعالى وتقواه، ففي ذلك خير الدنيا والآخرة:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ أي: فاعلم يا مَنْ همّه

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٤٤٦.

في الدنيا، أنّ عند الله تعالى خيرَي الدنيا والآخرة، فإذا ما أقبلتَ على عبادته وطاعته، وتمسَّكتَ بشريعته، أعطاك وأغناك في الدنيا والآخرة، فالعطاءُ فيهما منوطٌ بمشيئته وحده، كما قال سبحانه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

فلا يقتصرنَّ قاصرُ الهمَّة على السعي للدنيا فقط، ولتكن همَّته ساميةً إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

فما لطلاب الدنيا يطلبون أخسّهما، ويحرمون أنفسهم من خير الآخرة الباقي، الذي لا يفنى ولا يبيد، ويعرِّضون أنفسهم لعذاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

وقد جمعت الآية بين الوعد والوعيد، فضلاً عن رفعها لهمم الناس عن حصر اهتمامهم بالدنيا، وقصر نشاطهم عليها.

- **التزام العدل والثبات عليه:**

ومن المظاهر العملية لتقوى الله تعالى: التمسُّك بمبدأ العدل في مختلف الشؤون، في الحُكم والشهادة والتعامل مع الآخرين، وعدم الانحراف عنه مراعاة لمصالح شخصية وصلات اجتماعية، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: كونوا مواظبين على العدل، مجتهدين في إقامته.

فالقوّام بالقسط: المبالغُ في القيام بالعدل في جميع الأحوال.

﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ أي: تقيمونَ شهاداتكم بحقٍّ وصدقٍ لوجه الله تعالى.

﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: ولو كانت الشهادة على أنفسكم، كالإقرار بالحق.

﴿أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي: أو كانت على الوالدين والأقربين، فعليكم أن تتمسكوا بالعدل وتقولوا الحق، ولو على أنفسكم أو على الوالدين والأقربين، فأقيموا الشهادة عليهم لله تعالى.

﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي: إن يكن المشهودُ عليه غنيّاً أو فقيراً، فالله أولى بهما منكم، فكِلُوا أمرَهم إلى الله تعالى، فهو أعلمُ بحالهم منكم، فلا تحابوا غنيّاً لغناه، ولا ترحموا فقيراً لفقره، واشهدوا بالحق والصدق.

﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ أي: فلا تتأثروا بهوى أنفسِكُم فتعدلوا عن الحق في أداء الشهادة.

﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟﴾ أي: تلووا ألسنتكم إلى غير الحق. **فاللَّيُّ**: هو التحريف وتعمُّد الكذب.

﴿أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾ أي: تعرضوا عن أداء الشهادة بكتمانها، وقد نهى سبحانه عن كتمانها فقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وختم سبحانه الآية بتهديد الفريقين المحرِّفين للشهادة والكاتمين لها فقال:

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ وسيجازيكم عليه.

ففي الآية تربيةٌ وتهذيبٌ للمسلمين، وتعويد لهم على التزام الحق والصدق في الحكم والشهادة، مهما كانت الأحوال والظروف، ولا يخفى ما فيها أيضاً من صلة بحادثة بني الأُبيرق، وتأديب قومهم الذين جادلوا عنهم، وحاولوا دفع التهمة عنهم إلى غيرهم.

- **الدوام على الإيمان والثبات عليه:**

وكما أمر تعالى المؤمنين بالدوام على مبدأ العدل وقول الحق، في جميع

الأحوال والظروف، أمرهم أيضاً بالثبات على الإيمان، والتمسُّك بأركانه؛ لأنه الأصل الذي يقوم عليه العدل والحق:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: اثبتوا على الإيمان بالله، وداوموا عليه.

﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: وآمنوا بصدق رسوله محمد عليه الصلاة والسلام وصحّة نبوته.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي: وآمنوا بالقرآن الكريم.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ أي: وآمنوا بكل كتاب أنزله تعالى من قبله كالتوراة والإنجيل.

وأشار قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ وقوله: ﴿أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ إلى أن القرآن الكريم نزل مفرّقاً منجّماً بخلاف الكتب قبله.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ وهي أركان الإيمان الأساسية، فمن يكفر بواحدة منها:

﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ أي: ابتعد كثيراً عن الإيمان، فالكفر بواحدة منها كفر بها كلها.

وبعد دعوة المؤمنين للثبات على الإيمان، والتمسُّك بجميع أركانه، توعدت الآياتُ المترددين بين الإيمان والكفر بقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ أي: بالإصرار عليه حتى الموت.

﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ لأنّه تعالى لا يغفِرُ الكفرَ والشرك، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١١٦].

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾ أي: ولا يهديهم إلى طريق النجاة من العذاب، بسبب تمسُّكهم بالكفر وإصرارهم عليه.

- **تحريم الجلوس في مجالس الكفر والمعاصي:**

ولما كان التردد بين الإيمان والكفر شأن المنافقين، أمر الله النبيَّ ﷺ أن يخبرهم بالعذاب الأليم الذي ينتظرهم، بأسلوب التهكم:

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾.

أي: أخبرهم يا محمد، بأنّ لهم عند الله عذاباً أليماً. ووضع ﴿بَشِّرِ﴾ مكان: أخبر؛ تهكماً بهم.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الذين يوالون الكافرين ويتخذونهم أنصاراً وأحباباً، ويعرضون عن المؤمنين، مع أنّه سبحانه حرّم ذلك في آياتٍ كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ أي: أيطلبون العزة والمنعة بموالاة الكفار؟! وهو سؤال إنكار وتوبيخ.

﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: فإنّ العزة بمشيئته وقدرته تعالى، يُعِزُّ من يشاء، ويذل من يشاء، صرَّح بذلك في آيات كثيرة:

منها قوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ﴾ [فاطر: ١٠].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو القرآن الكريم.

﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ﴾ فقد كان المشركون يخوضون في ذكر القرآن الكريم في مجالسهم، مستهزئين به، فنُهي المؤمنون عن القعود معهم ما داموا خائضين فيه، وأنزل الله في ذلك قوله الكريم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

ثم إنّ اليهودَ في المدينة كانوا يفعلون مثل فعل المشركين، وكان المنافقون يجلسون إليهم، ويخوضون معهم في الاستهزاء بالقرآن الكريم.

﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ﴾ أي: إنكم في الوزر مثلهم؛ لأنّكم قادرون على الإعراض عنهم والإنكار عليهم، أو إنكم مثلهم في الكفر إن رضيتم بذلك.

قال العلماء: وهذا يدلُّ على أنّ مَنْ رضيَ بالكفر فهو كافر، ومن رضي بمنكرٍ أو خالطَ أهلَه كانَ بالإثم بمنزلتهم إذا رضي به، وإن لم يباشره(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ لأنّهم كانوا يجتمعون على الكفر بآيات الله تعالى والاستهزاء بها.

---

(١) تفسير الخازن: ٢/١٨٨.

- **من صفات المنافقين ومواقفهم:**

واستطردت الآيات إلى بيان بعض صفات المنافقين، وبيان مواقفهم من المسلمين، بقوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ أي: ينتظرون ما ينزل بكم من خير أو شر.

ويدلُّ سياق كلمات الآية على أن المنافقين يتربَّصون في أثناء الجهاد، وقد تخلَّفوا عنه، منتظرين ما يسفِرُ عنه من نصر المسلمين أو هزيمتهم.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تحقق لكم نصر من الله تعالى.

﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي: ادَّعى المنافقون أنّهم كانوا معكم؛ ليشاركوكم في الغنيمة.

﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أي: وإن كان للكافرين ظهور على المسلمين.

﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قال المنافقون: ألم نتمكن من قتالكم وقتلكم، فأبقينا عليكم ولم نفعل ذلك.

والاستحواذ: الاستيلاء والغلبة والتمكُّن.

﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك بتخذيلهم عن قتالكم، وإفشاء أسرارهم لكم، فأعطونا نصيباً مما غنمتم.

فغايةُ المنافقين تحقيقُ المنافع المادية، لا يهتمُّون بدينٍ أو مبدأٍ، فهم عبيدُ الدرهمِ والدينارِ، يقفون معه حيث يكون.

وسمّى الله ظفرَ المسلمين فتحاً تعظيماً لشأنهم، بينما سمّى ظفر الكافرين نصيباً تخسيساً لحظِّهم؛ لأنّه لحظة من الدنيا يصيبونها(١).

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ١٨٨.

﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ أي: فالله سبحانه يفصِلُ بين المؤمنين والمنافقين يوم القيامة، عندما تُبلى السرائر، وتنكشِفُ الضمائر، فلا ينتفعُ المنافقون بما كانوا يتظاهرون به في الدنيا.

﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي: في يوم القيامة، أو في الدنيا بتسليط الكافرين على المؤمنين تسليطاً كاملاً يؤدّي إلى استئصالهم، يمكن أن يحصل للكافرين ظهور على المؤمنين في بعض الأحيان، ابتلاءً للمؤمنين وتمحيصاً، ولكنَّ العاقبةَ للمتقين في الدنيا والآخرة.

ويمكن أن ينصرفَ المعنى إلى الظهور بالحجة والبرهان، والمؤمنون دائماً أعلى حجة وأقوى برهاناً.

وقد يكون المراد: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ ما دام المؤمنون متمسِّكين بدينهم، كما قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

فما غُلِبَ المسلمون إلَّا بسبب تفرقهم وتخاذلهم وبُعْدِهم عن أحكام دينهم وشريعتهم.

ويكون قوله تعالى على هذا ردّاً على المنافقين فيما أمَّلوه ورجوه من زوال دولة المؤمنين، وظهور الكافرين عليهم.

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: بزعمهم وظنِّهم، ممَّا يدل على غبائهم وجهلهم، فالله سبحانه لا يُخدع؛ لأنّه العالم بالسرائر والضمائر.

والخديعة: الحيلة والمكر، وأصل معناها في اللغة: الإخفاء، والمخادع: يُظهِرُ ضدَّ ما يُضمر، قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [البَقـَرَة: ٩].

﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ أي: وهو سبحانه يعامِلُهم معاملةَ المخادِعِ لهم؛ لأنه يعلم سرائرهم وضمائرهم فيملي لهم استدراجاً وزيادة في ضلالهم وطغيانهم، ثم يخذلهم ويحرمهم من المنافع الدنيوية، التي تعلَّقت بها نفوسهم، فلا يجدون إلا الحسرة والألم، ويحشرهم يوم القيامة مع المؤمنين في أول الأمر، ثم يعزلهم عنهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

وبعد أن كشفت الآيات سرائر المنافقين وصفت ظواهرهم وبيَّنت مواقفهم:

﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ﴾ أي: قاموا إليها متثاقلين كارهين؛ لأنهم لا يتذوَّقون حلاوتها، ولا يشعرون بلذة مناجاة الله تعالى فيها؛ بسبب ظلمةِ الكفرِ التي تملأ قلوبهم.

﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: لا يقومون إلى الصلاة إيماناً واحتساباً، وإنما يقومون إليها رياءً وسمعة.

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لا يذكرون الله في صلاتهم إلا ذكراً قليلاً بألسنتهم؛ لأنهم في صلاتهم ساهون لاهون.

وفي الحديث الشريف: عن **أنس** رضي الله عنه: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ وصفَ الذي يؤخِّرُ الصلاةَ عن وقتها فقال: «**تلكَ صلاةُ المنافقِ، يجلسُ يرقُبُ الشمسَ، حتى إذا كانتْ بَيْنَ قرني الشيطانِ قامَ فنقرَها أربعاً، لا يذكرُ اللهَ فيها إلا قليلاً**» [رواه مسلم (٦٢٢)].

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: متحيرين مترددين بين الإيمان والكفر.

﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: لا يُعَدُّون من المؤمنين ولا من الكافرين.

فالقومُ لا هوية لهم ولا مبدأ، مبدؤهم ـ كما مرَّ ـ مصالِحُهم المادية،

يدورون معها حيث تدور، وهذا شأنُ كثيرٍ من الناس في هذا العصر، بسبب حياتهم في ظل الحضارة المادية الغربية، مما يدلُّ على كثرة النفاق وذيوعه بين الناس.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً إلى الهدى، كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النُّور: ٤٠].

ثم التفتتِ الآياتُ إلى المؤمنين، تنهاهم عن التشبه بالمنافقين وموالاة الكافرين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾.

أي: أتريدون بموالاةِ الكفَّارِ أن تجعلوا لله عليكم حجة ظاهرة تستحقون بموجبها العذاب، فالله سبحانه لا يعذِّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه باستحقاقه العذاب.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: في أسفل طبقات النار، فهم أشدُّ الناس عذاباً، فاحذروا أن تكونوا مثلهم وتتشبهوا بهم.

﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ يخرجهم من العذاب أو يدفعه عنهم.

ثم فتحت الآياتُ للمنافقين باب التوبة؛ حثّاً لهم على ترك النفاق:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ أي: عن النفاق.

﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ أي: ما أفسدوا من نياتهم وأعمالهم في أثناء نفاقهم.

﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: تمسَّكوا بدينه تعالى، ووثقوا به جَلَّ جَلَالُهُ وحده.

﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أي: جعلوا طاعتهم وعبادتهم لله تعالى وحده، خالصة عن كل رياء وشرك.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في عداد المؤمنين في الدنيا والآخرة.

﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعمُّهم جميعاً، المؤمنين في الأصل والتائبين عن النفاق.

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ أي: الله سبحانه غنيٌّ عن تعذيبكم، فعذابكم منوطٌ بكفركم وجوداً وعدماً، فإذا ما زال عنكم الكفرُ، وحلَّ محله الإيمان والشكر، انتفى عنكم العذاب.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾ أي: يرضى بالقليل من أعمال عباده، ويجزي عليها الثواب الجزيل.

﴿عَلِيمًا﴾ بأحوالهم وحقيقة أعمالهم.

- **التشهير بالظالمين وفضحهم:**

ومن الوسائل التي شرعها الله تعالى للمظلومين، لدفع الظلم عنهم، وتحصيل حقوقهم: التشهير بالظالمين، وفضحهم بين الناس، وقد أثبتتِ الوقائعُ جدوى هذه الوسيلة في ردع الظالمين عن ظلمهم، وخاصّةً في العصر الحاضر، بعد أن أصبح لوسائل الإعلام تأثيرٌ قوي على الناس؛ ولهذا نرى الطغاة المستبدِّين، عندما يتسلَّمون مراكز السلطة، يبادرون إلى تسخير رجال الإعلام ووسائله لخدمة أغراضهم، والتستر على طغيانهم وظلمهم وفسادهم.

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾.

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: لا يحب الله سبحانه إعلان السوء والقول القبيح.

﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ أي: إلا جهر من ظُلِمَ. وقد يكونُ الاستثناءُ منقطعاً، ويكون المعنى: لكنَّ المظلومَ يجوزُ أن يجهر بظلم الظالم.

قال العلماء: لا يجوزُ إظهار أحوال الناس المستورة المكتومة؛ لأنَّ ذلك يصير سبباً لوقوع الناس في الغيبة، ووقوع ذلك الشخص في الريبة، لكن مَنْ ظُلِمَ يجوز له إظهار ظلمه فيقول: سُرِق مني، أو غُصِبَ مني، ونحو ذلك، وإن شُتِمَ جاز له أن يشتم بمثله، ولا يزيد شيئاً على ذلك[1].

ففي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**المستبَّانِ ما قالا فَعلى البادئِ، ما لَمْ يَعْتَدِ المظلومُ**» [رواه مسلم (٢٥٨٧)].

فالتشهير بالظالمين وفضحهم أمر مشروع في الإسلام، وهو من قبيل الانتصار للمظلومين عليهم، ودفع ظلمهم عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشّورى].

وللمظلوم أيضاً أن يدعوَ على ظالمه، وهو من قبيل الانتصار للمظلوم على الظالم، وذكره بعضُهم في معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾.

وفي الحديث الشريف: أنّه عليه الصلاة والسلام قال **لمعاذِ بن جبلٍ** رضي الله عنه حين أرسله إلى اليمن: «**واتّقِ دعوةَ المظلومِ، فإنَّه ليسَ بينها وبينَ اللهِ حجابٌ**» [رواه البخاري (١٤٩٦)].

وقوله: «**حجاب**» أي: ليس لها صارف يصرفها ولا مانع. والمراد: أنها مقبولة وإن كان عاصياً.

كما جاء في حديث **أبي هريرة** رضي الله عنه مرفوعاً: «**دعوةُ المظلوم مستجابةٌ، وإن كان فاجراً ففجورُهُ على نفسِهِ**» [رواه أحمد (٢/ ٣٦٧) وإسناده حسن][2].

---

(١) تفسير الخازن: ٢/ ١٩٥.

(٢) فتح الباري: ٣/ ٣٦٠.

ومما يدلُّ على أنَّ التشهير بالظالمين وسيلةٌ ناجعةٌ لكفِّهم عن ظلمهم، الحديث النبوي الشريف: عن **أبي هريرة** ﵁ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو جاره، فقال له: «**اذهب فاصبر**» فأتاه مرتين أو ثلاثاً، فقال: «**اذهبْ فاطرحْ متاعكَ في الطريقِ**» ففعل، فجعل الناسُ يمرُّون ويسألونه، فيخبرُهم خبرَ جاره، فجعلوا يلعنونه: فعل الله به وفعل، وبعضهم يدعو عليه، فجاء إليه جاره فقال: ارجع فإنك لن ترى مني شيئاً تكرهه. [رواه أبو داود (٥١٥٣)].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ أي: يسمع دعاء المظلومين، ويعلم ظلم الظالمين.

ومع أنّه تعالى أعطى المظلومين حقَّ الانتصار من الظالمين، حثَّ المظلومين على العفو عمَّن ظلمهم عند التمكُّن منهم، فقال:

﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾.

﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا﴾ أي: مكان الجهر بالسوء.

﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أي: تخفوا الخير فتعملوه سرّاً.

﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾ أي: تعفوا عن مَظْلَمةٍ، وتتركوا التشهيرَ بالظالم والانتقام منه بعد القدرة عليه.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي: إنه تعالى كان ولم يزل ذا عفوٍ عن أصحاب المعاصي والآثام، مع قدرته على عقابهم، فاعفوا أنتم عمّن ظلمكم إذا تاب عن ظلمه وكف عنه.

فالانتقام من الظالم عدلٌ، والعفو عنه عندَ المقدرةِ عليه فضلٌ وإحسانٌ، شجّع عليه تعالى في عدد من الآيات، منها: قوله الكريم: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النّحل: ١٢٦].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

❁ ❁ ❁

الفصل السابع

عقائد أهل الكتاب

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ
بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ
وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ
أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ
عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ
بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا
﴿١٥٣﴾ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ
وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ
وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ
مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴿١٥٦﴾ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ
وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا
﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ
وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ
وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴿١٦٠﴾ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ
وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ
إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ
أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ
وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ

وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

- **كفر الجاحدين لرسالة الإسلام:**

بعد أن تحدَّثت الآيات فيما سلف، عن مواقف أهل الكتاب من النبيِّ ﷺ، ومعارضتهم لدعوته، وبعد أن بيَّنتِ الآفاتِ النفسيةَ الخطيرة التي ابتلوا بها، والتي دفعتهم إلى العدوان على الناس، وانتهاك حرمة حقوقهم، كان من

الضروري أن تكشف عن زيغهم عن الحق، وانحرافهم عن عقيدة التوحيد، التي دعا إليها جميعُ الأنبياء والمرسلين.

ولعلَّ سببَ تأخير هذا الحديث المتعلق بعقائد أهل الكتاب إلى ختام السورة تقريباً، ليأتيَ في مقابل ما سبق من الحديث عن الإيمان وحقيقته وأركانه، وعن الإسلام لله تعالى والانقياد لأحكام دينه وشرعه، وعن الطاعة الكاملة لرسول الله ﷺ، والتمسُّك بسُنَّته، وعن وصية الله الخالدة لجميع الأنبياء والمرسلين، بالتزام التقوى، والتمسُّك بمبدأ العدل واحترام حقوق الناس.

فإذا ما أتى بعد ذلك الحديث عن عقائد أهل الكتاب، تمَّ التقابل وظهرت معالم الطريق الحقيقي الذي يجب على جميع الناس أن يسيروا عليه، والذي تُصان لهم به كرامتهم وحقوقهم.

أبرزت الآيات في مستهل عرضها لعقائد أهل الكتاب، تفريقهم للإيمان بين الرسل، فهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، مع أن الرسل جميعاً قد دعوا إلى توحيد الحق سبحانه وعبادته وحده، والاستسلام لأحكام شرعه، والكفر ببعض الرسل كفر بهم جميعاً، والإيمان بهم جميعاً ركنٌ أساسٌ من أركان الإيمان كما تقدَّم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: بحسب ما تقتضيه آراؤهم، وتؤدِّي إليه مذاهبهم.

﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ أي: نؤمن ببعض الأنبياء والرسل ونكفر ببعضهم، وهذا هو سبب كفرهم بالله تعالى ورسله.

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: يريدون أن يتخذوا طريقاً وسطاً

بين الإيمان والكفر، ولا توسط في ذلك، والحقُّ كلٌّ لا يتجزأ، والإيمان بالله تعالى لا يتم إلا بالإيمان بجميع رسله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ﴾ أي: أولئك المفرّقون بين الله ورسله في الإيمان، هم الكافرون كفراً محقَّقاً، وهو ما فعله أهلُ الكتابِ من اليهود والنصارى، صدَّق اليهود بموسى والأنبياء، وكفروا بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وصدَّق النصارى بعيسى والأنبياء، وكفروا بمحمد ﷺ.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي: يُهانون فيه ويُذَلون.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: لم يفرقوا في الإيمان بينهم، بل آمنوا بهم جميعاً، كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ففي الآية ترغيبٌ لأهل الكتاب بالإيمان برسالة محمد ﷺ، خاتمة الرسالات، فإذا آمنوا بها غفر الله لهم ما سلفَ منهم في حال كفرهم، وأعطاهم أجوراً مضاعفة.

• **جحود وعناد:**

ثم شرعت الآياتُ تعدِّدُ بإيجازٍ مواقفَ الجحود والعناد التي وقفها أهل الكتاب من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فبدأت بموقفٍ لهم من خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ:

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ أي: يسألك يا محمد أهلُ الكتاب، وهم أحبارُ اليهود، جاؤوا إلى الرسول ﷺ، وطلبوا منه أن ينزِّلَ اللهُ عليهم كتاباً مكتوباً من السماء، كما نزّل التوراةَ على موسى.

فردَّ الله تعالى عليهم، مبيِّناً أنَّ سؤالهم هذا سؤال تعنُّتٍ وجحودٍ وعنادٍ، لا سؤال إيمان وتصديق، فقال:

﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: فقد سأل أسلافُهم موسى سؤالاً أكبر عناداً وجحوداً وتعنتاً.

﴿فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: عياناً.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ﴾ أي: بسبب ظلمهم، وهو تعنُّتهم، وسؤالهم أمراً في غير موضعه، فقد اختارهم موسى ليذهبوا معه إلى موضع مناجاته ربه، لكي يستغفروا الله عن عبادة العجل، كما مرَّ تفصيل قصتهم في **سورة البقرة**، عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة].

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: وأعظم من ذلك شناعة وقبحاً، عبادتهم العجل الذهبي، بعد المعجزات الكثيرة التي أجراها الله تعالى لهم على يد موسى عليه السلام.

﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ﴾ أي: تجاوزنا عن كل ذلك تفضُّلاً منَّا وإحساناً.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي: حجة ظاهرة على من خالفه.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ أي: ورفعنا فوقهم جبل الطور؛ تهديداً لهم عندما رفضوا إعطاء العهد والميثاق على العمل بأحكام التوراة والتمسُّك بها.

وقد ذكر الله تعالى ذلك في عدد من الآيات الكريمة:

كقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: ادخلوا بابَ القريةِ التي أذن الله لهم بدخولها دخول الخاضعين له تعالى.

فخالفوا أمره، كما أخبر سبحانه عنهم في قوله الكريم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة].

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي: لا تتجاوزوا أمره تعالى في يوم السبت.

فخالف بعضُهم أمرَه، واحتالوا على شرعه، وأخبر سبحانه عن ذلك في قوله الكريم: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة].

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي: أخذ سبحانه منهم عهداً مؤكداً شديداً لكي يلتزموا أمره وشرعه. فكانت نتيجة ذلك كلّه:

• **كفر متوارث:**

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي: غضبنا عليهم ولعنَّاهم وفعلنا بهم ما فعلنا بسبب نقضهم ميثاقهم.

﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: وبسبب كفرهم بآيات الله تعالى التي أنزلها عليهم في التوراة.

﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام.

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أي: قلوبنا محجوبةٌ عن دعوتك ورسالتك؛ وهو ما قالوه لخاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام، عندما دعاهم إلى الإسلام، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

وقال تعالى هنا في معرض الرد عليهم:

﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بل ختم الله على قلوبهم بسبب كفرهم وعنادهم.

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: فلا يؤمنُ منهم إلا عددٌ قليل، استجابوا لدعوة الإسلام، كعبد الله بن سلام، وزيد بن سُعْنة.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ أي: وبسبب كفرهم في أمر عيسى عليه السلام.

وتأمَّل كم مرّةً وُصِفوا بالكفر، فكفرهم متوالٍ عليهم، ومتعاقِبٌ تعاقبَ أجيالهم، فهو كفر عريق متوارث فيهم، ينتقل من السلف إلى الخلف.

﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ أي: وافترائهم على مريم فرية عظيمة، فقد

اتهموها زوراً وكذباً بالزنى، عندما قالوا لها: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم: ٢٨].

﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: وبسبب ادِّعائهم الكاذب أنهم قتلوا عيسى ابن مريم رسول الله، وجاء وصفهم له بالرسالة على سبيل الاستهزاء والعناد.

ونفى سبحانه ادِّعاءهم الكاذب هذا نفياً قاطعاً، بعد أن حكاه عنهم مباشرة، فقال:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ﴾ أي: اشتبه عليهم أمره عليه السلام، فأخذوا غيره، فقتلوه، أما عيسى عليه السلام فرفعه تعالى إلى السماء، كما ذكر تعالى في قوله الكريم: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [آل عِمران: ٥٥].

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ أي: اختلفوا في شأن عيسى عليه السلام.

﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ﴾ أي: لفي تردد وحيرة.

﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾ أي: ليس لهم علمٌ بحقيقة ما حدث لعيسى عليه السلام، لكنّهم يتبعون الظن.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ أي: وما قتلوه قتلاً يقيناً كما زعموا بقولهم: ﴿إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾.

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ أي: بل الحقيقة أن الله تعالى رفعه إليه، ونجّاه من

مكرهم وكيدهم، فهو حيٌّ في السماء، وسينزل قُبيل قيامِ الساعة، فيقتلُ الدجالَ، ويكسِرُ الصليبَ، كما سيأتي في الحديث الشريف الصحيح.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: وكان الله ولا يزالُ قويّاً لا يُغْلَبُ، حكيماً في كلِّ ما قدَّر وشرع[1].

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾.

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: وما من أحد من أهل الكتاب.

﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي: إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام الإيمانَ الصحيح بأنّه عبد الله ورسوله قبل موت عيسى عليه السلام، بعد نزوله إلى الأرض.

فالمراد: أهل الكتاب الموجودون في زمن نزول عيسى إلى الأرض.

وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ: عمومُ أهل الكتاب، وردوا الضمير إلى الكتابي عندما يموت، وهذا الإيمانُ لا ينفعه، لأنَّه جاء متأخراً عند اليأس من الحياة.

لكنّ الأحاديثَ الشريفة الصحيحة، التي بلغت مبلغَ التواتر، والتي تحدّثت عن نزولِ عيسى قُبيلَ قيام الساعة إلى الأرض، تقوّي الرأيَ الأول:

منها: ما رواه **أبو هريرة** رضي الله عنه: أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**والذي نفسي بيدِهِ ليوشِكَنَّ أنْ ينزلَ فيكم ابنُ مريمَ حَكَماً عَدْلاً، فيكسِرُ الصليبَ، ويقتلُ الخنزيرَ، ويضعُ الحربَ** - وفي رواية: **الجزيةَ** - **ويفيضُ المالُ حتى لا يقبلَهُ أحدٌ، حتى تكونَ السجدةُ الواحدةُ خيراً من الدنيا وما فيها**» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾. [رواه البخاري (٣٤٤٨)].

وهذا مصيرٌ من أبي هريرة رضي الله عنه إلى أنَّ الضميرَ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ

---

(١) انظر: تفسير سورة آل عمران (التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

بِهِۦ﴾ وكذا في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ يعودُ على عيسى، أي: إلا ليؤمنَنَّ بعيسى قبل موت عيسى، وبهذا جزم **ابنُ عباس** رضي الله عنهما فيما رواه ابنُ جرير من طريق سعيد بن جبير عنه **بإسناد صحيح**، ومن طريق أبي رجاء عن **الحسن** قال: قبل موت عيسى، واللهِ إنَّه الآنَ لحيٌّ، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون، ونقله عن أكثر أهل العلم، ورجّحه ابن جرير وغيره[(١)].

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي: شهيداً على أنه بلَّغهم رسالةَ ربه، وأقرَّ بالعبودية على نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة].

- **عدوان أهل الكتاب على حقوق الناس:**

وكما اعتدى اليهودُ من أهل الكتاب على الأنبياء، فقتلوا بعضَهم، وافتروا على بعضهم، فاتهموهم بِتُهَم كاذبة باطلة، كذلك اعتدوا على كثير من الناس، فبَغَوْا عليهم، وظلموهم، وأكلوا حقوقهم، وهو ما أخبر عنه تعالى بقوله:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ أي: بسبب الظلم الذي فعله اليهود حرَّمَ الله عليهم بعض الطيبات التي كانت حلالاً لهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي: وبسبب منعهم كثيراً من الناس عن

---

(١) فتح الباري: ٦/ ٤٩٢.

الإيمان بالله تعالى، والاستجابة لدعوة رسله، وهذه سجيةٌ لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه، ووقائع التاريخ شواهد عليها.

﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١)﴾.

﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ أي: وبسبب أكلهم الربا مستحلِّين له، وقد حرَّمه تعالى عليهم، فهم الذين ابتدعوا هذه النظمَ الاقتصاديةَ القائمة على الربا، والتي يتمكَّنون بها من امتصاص خيرات الأمم والشعوب في جنبات الأرض.

﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: وبسبب عدوانهم على أموال الناس، وأكلهم لها بالطرق المحرَّمة، كالرشوة والغش والقمار والغصب.

لهذه الأسباب كلِّها شدَّد الله تعالى عليهم في الدنيا، وحرّم عليهم بعض الطيبات التي كانت حلالاً لهم.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الآخرة.

ثم استثنى تعالى المؤمنين منهم، كعبد الله بن سَلَام وأصحابه، فقال:

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢)﴾.

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ أي: الثابتون في العلم المتمكِّنون فيه، أو الذين يعملون بعلمهم، ولمّا علموا من صفات النبي ﷺ ما أوصلهم إلى الإيمان به، والتصديق برسالته، آمنوا وصدقوا.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: وعامة المؤمنين من المهاجرين والأنصار.

﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ فلا يفرِّقون في الإيمان بين نبي ونبي، ولا بين كتاب وكتاب.

﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: وأمدح المقيمين الصلاة، ونُصِبَتْ على الاختصاص والمدح؛ إبرازاً لفضيلة إقامة الصلاة.

﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: المؤدُّون الزكاة المفروضة عليهم.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي: المؤمنون الإيمان الصحيح بأنّ الله هو الواحد الأحد، المنزّه عن الشريك والصاحبة والولد، ويصدّقون باليوم الآخر وما فيه من مسؤولية وجزاء.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم قدره إلا الله تعالى المتفضّل به، ويلاحظ كيف أنّ الآية الكريمة أبرزتْ حقيقةَ الإسلام الكامل بوجهيه اللذين لا ينفصلان عن بعضهما، وهما: التصديق القلبي، والانقياد العملي.

- **الوحي والنبوة:**

وردّاً على أهل الكتاب المنكرين لصحة رسالة نبيّنا ﷺ وصدق نبوته قال تعالى:

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ﴾ كهود وصالح وشعيب عليهم السلام، فظاهرةُ الوحي إلى جميع الأنبياء واحدة، لا خلاف فيها، تقوم بين ذاتين، ذات علوية آمرة ملقية، وذات ضعيفة مأمورة متلقية.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ وهم الأنبياء الذين أوحى الله إليهم من قبائل بني إسرائيل.

﴿وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ وهو الكتاب المنزل على داود عليه السلام.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي: سمَّيناهم لك، وأخبرناك بخبرهم من قبل نزول هذه الآيات، كآدم وزكريا ويحيى وإدريس وإلياس ولوط واليسع وذي الكفل، عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام.

﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أي: لم نذكرهم لك، ولم نقصَّ عليك شيئاً من أخبارهم، فلا يعلمُهم إلا الله تعالى، لكنَّه سبحانه نوَّه بذكرهم، وأخبر في عدّة آيات أن أنبياءه ورسله إلى جميع الأمم، كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقوله أيضاً: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

فالنبوّاتُ والرسالاتُ تتابعت على البشر منذ فجر وجودهم، وأولهم آدم عليه السلام، وآخرهم وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ، وتوقَّفَ الوحيُ وفتر بينه وبين عيسى عليه السلام تمهيداً لبعثته، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

وانقطع الوحي، وخُتمت النبوة بوفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام، فلا نبيَّ بعده أبداً، كما أخبر عليه الصلاة والسلام في عدد من الأحاديث الشريفة الصحيحة، وأكد ذلك الله سبحانه بصريح قوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ أي: خاطبه تعالى من وراء حجاب وأسمعه كلامه بلا واسطة.

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: أرسل

الله تعالى الرسل يبشرون الناسَ بفضله ورحمته، وينذرونهم من عقابه وأليم عذابه؛ إزاحة لعذرهم، لئلا يقولوا يوم القيامة: لولا أرسلْتَ إلينا رسولاً يبيِّن لنا شريعتك وعبادتك وطاعتك، فلقد تمَّت حجةُ الله على المكلَّفين من خلقه ببعثة الرسل وإنزال الكتب، ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فما أرسلَ الرسلَ، وأنزلَ الكتبَ إلَّا بمحض إرادته ومشيئته وحكمته جل وعلا.

• **الشهادة الأزلية الخالدة:**

إنكار أهل الكتاب لنبوة خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ، وجحودهم لرسالته: عدوان كبير على أعظم وأقدس حقوقه عليه الصلاة والسلام، فهو اتهام له بالكذب على الله تعالى، وهو أقبحُ أنواع البهتان، ولهذا ردّ الله جل وعلا عليهم أبلغ رد، فأعلن شهادته الأزلية الخالدة بصدق رسالته عليه الصلاة والسلام وصحة نبوته، فقال:

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ﴾ أي: من القرآن الكريم المعجز.

﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ﴾ أي: أنزله وهو سبحانه عالم بمن ينزله عليه، فهو العليم الحكيم المحيط بأحوال خلقه، يعلم أين يجعلُ رسالته، كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ﴾ أي: والملائكة يشهدون أيضاً بصدق رسالتك وصحة نبوتك.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: وحسبك يا محمد شهادةُ اللهِ تعالى، وإن لم يشهد معه غيره، فشهادته أعلى وأعظم من كلِّ شهادة، وتغنيك عن غيرها.

فسيدنا محمد ﷺ خيرته سبحانه من خلقه، وصفوته من عباده، اختاره بعلمه وحكمته، ليحملَ للنّاسِ أعظمَ رسالة وأكملها وأتمَّها، ويختم به وحيه المنزل على خلقه. فالويل كل الويل لمن ينكر نبوته عليه الصلاة والسلام ولا يؤمن برسالته، بعد أن شهد الله تعالى له هذه الشهادة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: كفروا برسالته ﷺ وجحدوا نبوته.

﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ومنعوا الناس عن سبيل الحقِّ، وهو الإسلام، رسالة خاتم الأنبياء ﷺ.

﴿قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ فهم الضالون المضلون، كما مرَّ عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾ أي: ظلموا سيدنا محمداً ﷺ، بإنكار رسالته وجحد نبوته.

﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: إن أصروا على كفرهم وظلمهم، إذ ينطبق عليهم قوله تعالى المتقدّم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾ وذلك بسبب عنادهم وجحودهم وإصرارهم على ظلمهم.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: خلودهم أبداً في النار يسير عليه تعالى غير عسير.

وبعد أن بيَّنت الآيات الشهادة الربَّانية الخالدة، على صحة رسالة النبي ﷺ وصدق نبوته، وجَّهت الدعوة إلى كلِّ الناس للإيمان به:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: جاءكم الرسول الخاتم ﷺ بالدين الحق الثابت، الذي لا يقبل الله سبحانه غيره.

﴿فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أي: فآمنوا برسالته، وأذعنوا لدعوته، خيراً لكم في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟﴾ أي: تصروا على الكفر وتعرضوا عن قبول دعوته.

﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: فإنه سبحانه غني عنكم، لأنه مالك السموات والأرض. ونظيره قوله تعالى الذي مرَّ: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١].

فما أرسلَ الله لكم هذا الرسول، وأنزل عليكم هذا الكتاب إلا رحمةً بكم، إذ هو عليمٌ بأحوالِكُم، وبما يصلح لكم، ويسعدكم في الدنيا والآخرة:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

- **حقيقة عيسى عليه السلام:**

ثم وجّه سبحانه دعوة خاصة إلى النصارى من أهل الكتاب، بيَّن لهم فيها حقيقة عيسى عليه السلام وعبوديته لله جل جلاله، كما بيَّن لهم ضلالهم عن الحق، وكشف لهم سبب هذا الضلال، ثم دعاهم إلى الإيمان برسالة النبي الخاتم ﷺ، رسالة الإسلام، فقال:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ أي: لا تتجاوزوا الحدَّ في أمر عيسى فترفعوه فوق عبوديته لله تعالى.

والغلو: مجاوزة الحد، وهو سبب انحراف النصارى عن الحق.

﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ أي: لا تفتروا على الله تعالى وتصفوه بصفات لا تليقُ بكماله ووحدانيته، فهو سبحانه منزَّه عن الصاحبة والولد والشريك.

ولهذا كان النبيُّ ﷺ يقول لأصحابه: «**لا تُطْرُوْني كما أَطْرَتِ النصارى ابنَ مريمَ، فإنَّما أنا عبدُه، فقولوا: عبدُ اللهِ ورسولُهُ**» [رواه البخاري (٣٤٤٥)].

﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: إنّما هو عبد لله تعالى ورسول، شأنه كشأن بقية الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ أي: وهو أيضاً كلمة الله تعالى، لأنّه تعالى خلقه بالكلمة التكوينية (كن) فكان، كما مرَّ آنفاً، وكما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ أي: خلقها في مريم، وأوصلها إليها، كما قال سبحانه: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران].

﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ أي: وهو أيضاً روح من أمر الله تعالى ومن خلقه ومن عنده.

فـ (من) ليست للتبعيض، بل هي بيانية، كما في قوله سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣][1].

وأضيفت الروح إلى الله تعالى على وجه الاختصاص، لأنّها مما استأثر تعالى بعلمها، كما قال سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

أو أضيفت على وجه التشريف، كناقة الله وبيت الله، وقد أضاف سبحانه روح آدم إليه أيضاً في قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: فصدقوا بأنّ الله واحدٌ أحدٌ، لا شريك له ولا ولد، وآمنوا برسله، وكلّهم دعوا إلى عبادته تعالى وحده، وكلهم عبيد له، اختارهم تعالى لحمل رسالته إلى خلقه.

﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾ أي: لا تقولوا بالتثليث، فتجعلوا عيسى وأمه شريكين لله تعالى في صفات الألوهية، فهي عقيدةٌ باطلةٌ مكفِّرةٌ، حكم سبحانه على قائليها بالكفر فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

ووصف سبحانه المسيح وأمه بقوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

﴿ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أي: اتركوا هذه الأقوال الفاسدة الباطلة يكن خيراً لكم.

﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: تعالى وتقدَّس عن ذلك وتنزَّه.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلقاً وملكاً وتدبيراً، فهو سبحانه غني عن الولد والشريك.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٤٦٨.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: حافظاً ومدبراً، فهو سبحانه قائمٌ على جميع مخلوقاته، فلا يحتاج إلى غيره، وكلّهم محتاجون إليه جل وعلا.

- **اعتزاز عيسى بعبوديته لله تعالى:**

ثمَّ بيَّنت الآيات أنّ عيسى عليه السلام يعتزّ بعبوديته لله جل جلاله، ويتمسَّك بها ولا يأباها:

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ أي: لن يأنف عيسى عليه السلام عن عبوديته لله تعالى، ولن يتركها ويتخلّى عنها أو يتنحى عنها.

وأصل معنى **يستنكف**: من نكفتُ الشيءَ إذا نحَّيته، ونكفت الدمعَ إذا نحيته بإصبعك عن خدك.

﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: وكذلك الملائكة المقربون، فإنّهم مع علو منزلتهم وكرامتهم، لن يستنكفوا عن عبوديتهم لله تعالى وخضوعهم له جل جلاله.

﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ أي: ومن يمتنع عن عبادته تعالى، ويستكبر من جميع خلقه.

﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أي: سيجمعهم يوم القيامة، فيحاسبهم ويجازيهم.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهم الذين عبدوه سبحانه وحده، وأذعنوا لأمره ومشيئته، وتمسَّكوا بشرعه واتبعوا رسله.

﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ بما أعدّ لهم في الجنة من النعيم المقيم.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي: وأما الذين لم يذعنوا لأمره، ولم ينقادوا لدينه وشرعه.

﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

• **برهان ونور:**

بهذا البيان الواضح ظهرت معالم الحق، وأشرقت أنواره، وتميَّزت تميُّزاً ظاهراً عن الضلال، من دون أدنى غموض أو لبس، وآنَ للآياتِ الكريمةِ أن توجِّه نداءها مرَّة ثانية إلى جميع الناس، كما فعلت في أول السورة ومطلعها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: قد جاءكم في هذه السورة وفي غيرها من سور القرآن الكريم، برهان واضح جلي من ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ورباكم، فدلَّكم على العقيدة الصحيحة والمنهج القويم.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ أي: وأنزلنا إليكم أيضاً نوراً موضحاً.

وهي الأحكام التي شرعها الحق لكم، والتي تبيِّنُ لكلِّ إنسانٍ حقوقه وواجباته، فإذا ما التزمتم بهذه الأحكام وتمسَّكتم بها في جميع شؤون حياتكم، حفظت لكل إنسان حقوقه كاملة، فلا يعتدي أحدٌ على أحدٍ، ولا يظلمُ أحدٌ غيرَه، فالنور قوي واضح، يميز بين الحقوق، ويعرف بالواجبات.

ودين الله وشريعته هو النور، والإعراض عنه ظلمة وحَيْرة وعدوان وخذلان:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: تمسَّكوا بدينه وشرعه.

﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ أي: ببركة تمسُّكهم بدينه وشرعه ينزل عليهم الرحمات، ويبارك لهم في الخيرات، فيعيشون في سعة ورخاء وسلام.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: ويدلُّهم على الطريق الذي يوصلهم إلى رحمته وجنته ورضوانه، وهو الصراط المستقيم، طريق الإسلام لله تعالى وحده، والاستسلام لأمره وشرعه، الطريق الذي يتوجه المؤمنون إلى الله تعالى في كلِّ صلاة، يسألونه بضراعة أن يثبتهم عليه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

• **حقوق الله تعالى وحقوق الإنسان:**

فحقُّ الله على عباده أن يعبدوه وحده، ويتمسَّكوا بدينه وشرعه، وحقُّ العبادِ على الله تعالى أن يتفضَّلَ عليهم برحمته وهدايته وجنته.

وفي الحديث الشريف: أنّ رسول الله ﷺ قال لمعاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنه: «**هل تدري ما حَقُّ اللهِ على العبادِ؟**» قال: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «**فإنَّ حقَّ اللهِ على العبادِ: أن يعبدوه، ولا يُشْرِكوا به شيئاً**»، ثم قال: «**هَلْ تَدْري ما حَقُّ العبادِ على اللهِ إذا فعلوا ذلك؟**» قال: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «**أَنْ لا يُعَذِّبَهُم**» [رواه مسلم (٣٠)].

وتبرز من خلال طاعة الناس لله تعالى وعبادتهم له وحده حقوقُ الإنسان على أخيه الإنسان، فهي في الحقيقة حقوق لله تعالى، لأنه هو الذي قررها للإنسان وشرعها له، وقد أخر تعالى الآية الثالثة من آيات المواريث، التي يقرِّرُ فيها حق الإخوة الأشقاء في الميراث إلى آخر سورة النساء، فختم بها السورة، بعد أن قرر في سباقها حقوقه تعالى على عباده، وحق عباده الذي تفضَّل به عليهم، وأفاد بذلك أن حقوق الإنسان في الإسلام من حقوق الله تعالى على عباده، فالالتزام بها والمحافظة عليها عبادة وطاعة لله تعالى.

وفي الحديث الشريف: عن **جابر** رضي الله عنه: دخلَ عليَّ النبيُّ ﷺ وأنا مريضٌ، فدعا بِوَضُوْءٍ، فتوضَّأَ، ثم نضحَ عليَّ مِنْ وَضُوْئه، فأفقتُ فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّما لي أخواتٌ. فنزلتْ آيةُ الفرائضِ. [رواه البخاري (٦٧٤٣)].

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي: يسألونك أن تفتيهم.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِۚ﴾ وهو من لا ولد له ولا والد.

﴿إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: وليس له والد.

فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر، لأن السؤال في الفتيا كان عن الكلالة، والمراد من الولد الذكر والأنثى.

﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ أي: له أخت شقيقة من أبيه وأمه، أو من أبيه.

﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَۚ﴾ أي: لها نصف ما ترك الميت من المال.

﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌۚ﴾ أي: والأخ يرثُ الأختَ، ويأخذُ جميعَ مالها، إن قُدِّرَ الأمرُ على العكس، بأن ماتت هي، وبقي أخوها بعدها، وليس لها ولد ذكراً كان أو أنثى.

﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ﴾ أي: فإن كانت الأختان اثنتين، فلهما الثلثان مما ترك الميت.

﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۗ﴾ أي: فللذكر منهم نصيب ثنتين من أخواته.

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ أي: يبيِّن الله لكم هذه الأحكام، لئلا تضلوا، فهي بمثابة النور الكاشف، الذي يبيِّن لكم الصراط المستقيم الذي يحفظكم من الضلال.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو سبحانه يعلم ما يصلحكم ويحفظ لكم حقوقكم

ويسعدكم في الدنيا والآخرة، فالتزموا بأحكام شرعه، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين، وسلم تسليماً كثيراً.





٥

تفسير سورة المائدة

الحَلالُ والحَرامُ في سُورةِ المَائدة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنَّ معرفة ما أحلَّ الله تعالى للناس وما حرَّم عليهم في الشريعة الإسلامية؛ التي هي خاتمةُ الشرائع الإلٰهية من أوجبِ الواجباتِ، وأهمِّ الضرورات، فلا تستقيمُ حياةُ الإنسان إلا إذا أقامها على هَدْي الدين الحنيف، المستمدِّ من كتاب الله تعالى، وسُنَّةِ نبيه ﷺ.

وإنَّ لتشريع الحلال والحرام في الإسلام التصاقاً قويّاً بحياة الإنسان العملية، في عبادتِه، وطعامِه، وشرابِه، وملبسِه، ونكاحِه، ومعاملاتِه، وأخلاقِه، وسلوكِه، وسائرِ شؤونه.

وموضوع سورة المائدة يظهر للمتأمِّل في أول آياتها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾.

ومن المعلوم أنّه ما مِنْ آيةٍ في القرآن الكريم ابتدأت بنداء الله سبحانه عباده

المؤمنين بصفة الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إلا بيَّن الله تعالى فيها بعضَ أحكام دينه ومعالم شريعته.

قرر هذه الحقيقةَ الصحابيُّ الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عندما جاءه رجلٌ فقال: اعهدْ إليَّ (أي: أوصني) فقال له: إذا سمعتَ اللهَ يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فَأَرْعِهَا سمعَكَ، فإنّه خيرٌ يأمُرُ به، أو شرٌّ يَنْهَى عنه[1].

وفي القرآن الكريم ثمانٍ وثمانون آية صُدِّرت بهذا النداءِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، منها ستَّ عشرةَ آيةً في سورة المائدة؛ وهي:

١ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [١].

٢ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [٢].

٣ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ﴾ [٦].

٤ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ [٨].

٥ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ [١١].

٦ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [٣٥].

٧ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ﴾ [٥١].

٨ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ [٥٤].

٩ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا﴾ [٥٧].

١٠ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [٨٧].

١١ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ﴾ [٩٠].

١٢ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ﴾ [٩٤].

١٣ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ﴾ [٩٥].

١٤ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ [١٠١].

١٥ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [١٠٥].

١٦ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ﴾ [١٠٦].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢.

والجدير بالذكر أن الله تعالى لم يذكر في أي سورة من سور القرآن الكريم مثل هذا العدد من الآيات الكريمة المصدَّرة بهذا النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ فسورةُ البقرةِ ـ وهي أطولُ سور القرآن الكريم ـ فيها عشر آيات فقط مفتتحة بهذا النداء.

فافتتاح سورة المائدة بقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ . . .﴾ وتضمُّن السورة هذا العدد الكبير من الآيات الكريمة المصدَّرة بهذا النداء الإلـٰهي العُلْويِّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يدلُّ على موضوع السورة الأساس، وهو التشريعُ المتعلِّق بالحلال والحرام، قالت السيدة عائشة ﵂ في سورة المائدة: «إنّها من آخر ما أنزلَ اللهُ، فما وجدتم فيها مِنْ حلالٍ فأحِلُّوه، وما وجدتم فيها من حرامٍ فحرِّموه»[1].

ولو تدبَّرنا هذه الآيات الكريمة المصدَّرة بهذا النداء، وموقع كل آيةٍ منها بين آيات سورة المائدة الأخرى، لرأينا أنَّ جميع آياتِ سورة المائدة تدورُ في فَلَكِ هذه الآيات الستَّ عشرة التي تبيِّنُ وتشرِّعُ أحكاماً كثيرة، أبرزها يتصل بموضوع الحلال والحرام في الطعام والشراب والصيد والذبائح، وهذا يتناسبُ تماماً مع اسم السورة «المائدة»، وبعضها يتعلَّق بالنكاح والأسرة، وبعضُها يتَّصلُ بالعبادات كالصلاة والحج، وبعضها بالأَيْمان والكفَّارات، وبعضُها بالعقوبات كالقِصَاص والحدود، وبعضُها يتَّصل بموضوع الحُكْم والقضاءِ والشهاداتِ وإقامة العدل بين أفراد المجتمع من جهةٍ، وبين المجتمع الإسلامي والمجتمعات الإنسانية الأخرى من جهةٍ ثانية، كما تبيِّنُ كيف ينبغي أن تكون علاقة المسلمين بغيرهم من أصحاب الملل والنحل وخاصّةً اليهودَ والنصارى.

وتركِّزُ آياتُ سورة المائدة من خلال هذا الحشد الكبير من الأحكام على بيان أنّ الله تعالى هو وحده الإلـٰه المستحقُّ للعبادة والطاعة، فهو سبحانه وحدَه الخالقُ والمالِكُ والمدبِّر لأمورِ خلقِه، فالتشريعُ عموماً، والتحليل والتحريم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (المشهور بتفسير القرطبي): ٦/ ٢١.

خصوصاً، له سبحانه وحده، قال ﷻ في ختام الآية الأولى في سورة المائدة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

وبما أنّ المسلمينَ هم وحدَهم الملتزمون بتطبيق شرع الله تعالى، والوقوف عند حدود ما أحلَّ الله تعالى لهم، وما حرَّم عليهم، لأنّهم آمنوا بالله الواحد الأحد، وصدّقوا برسالاته، التي كلّفهم بها، اتجهت آياتُ سورة المائدة تناديهم بهذا النداء العُلْوي الكريم بكلِّ ما فيه من تكريم لهم وتشريف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

فلْنُلْقِ أسماعنا وأبصارنا لهذا النداء الإلٰهي الكريم، ولنفتحْ له قلوبنا وعقولنا حتَّى يفيضَ الله تبارك وتعالى علينا من أنوار التنزيل الحكيم، ويمنَّ علينا بفهم بعض معاني آياته، والوقوف على بعض ما فيها من حِكَم وأحكام. سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

وقد قسَّمت هذا البحث في تفسير هذه السورة إلى ستَّة عشر جزءاً، بعدد النداءات الستَّ عشرة التي وردت في السورة من الله تعالى للمؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، ورأيت أن هذه النداءات الإلٰهية للمؤمنين هي المحور الأساس لآيات السورة كلِّها. ولهذا جعلت بحثي في موضوع سورة المائدة تبعاً لهذه الآيات الكريمة.

وعَنْوَنْتُ هذه النداءات بالعناوين التالية:

١ ـ الأمر بالوفاء بالعقود.

٢ ـ الأمر بأكل الطيِّبات واجتناب الخبائث.

٣ ـ الأمر بالطهارة.

٤ ـ الأمر بالعدل.

٥ ـ التحذير من نقض الميثاق وذكر نعمة الله.

٦ ـ الأمر بالتقوى والتحذير من اتباع الهوى.

٧ ـ التحذير من اتخاذ اليهود والنصارى أولياء.

٨ ـ التحذير من الرِّدَّة وعاقبتها.

٩ ـ التحذير من قبائح أهل الكتاب والكفار.

١٠ ـ النهي عن تحريم الطيِّبات.

١١ ـ الأمر باجتناب الخمر والميسر نهائياً.

١٢ ـ الأمر بالانقياد لأمر الله في شرعه.

١٣ ـ التحذير من قتل الصيد عند الإحرام وفي الحرم.

١٤ ـ التحذير من كثرة السؤال.

١٥ ـ الأمر بإصلاح النفس والتحذير من المفسدين.

١٦ ـ الأمر بصيانة مال المسلم وتنفيذ وصيته.

فإن وفِّقت في توضيح موضوع السورة وتمكَّنت من إبراز الوحدة الموضوعية لها فبفضل من الله سبحانه ومعونته، فله الحمد أولاً وآخراً، وإن أخطأت فبسبب قصوري وضعفي، وأستغفر الله العظيم، وأسأله سبحانه أن يغفر لي ذنوبي ويستر عيوبي، ويقبل هذا الكتاب ويجعله نبراس خير ورشاد للمسلمين.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.



النداء الأول

الأمر بالوفاء بالعقود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾

افتتح الله تعالى سورة المائدةِ بهذه الآيةِ الكريمةِ، وذكرَ فيها الموضوعات الأساس التالية: **الوفاء بالعقود، تحليل بهيمة الأنعام، استثناء ما يحرمُ منها بسببِ بعضِ العوارضِ، إباحةُ الصيدِ لغيرِ المُحرمِ، وخارج أرضِ الحرمِ، التشريعُ والحاكميةُ لله سبحانه وحده.**

ولا يخفى على المتدبِّرِ ما في الآيةِ الكريمةِ من بلاغةٍ رفيعةٍ معجزةٍ، قال القرطبيُّ ﵀ في تفسيره: «هذه الآيةُ ممَّا تلوحُ فصاحتُها وكثرة معانيها على قِلَّةِ ألفاظها لكلِّ ذي بصيرةٍ بالكلام»[١].

وقال الشيخ الشوكاني ﵀: «فيها من البلاغةِ ما تتقاصَرُ عنه البشريةُ مع شمولها لأحكام عِدَّة»[٢].

ثم حكى الشوكانيُّ في تفسيره عن النَّقَّاش أنّ أصحاب الفيلسوف الكندي قالوا له: أيُّها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن؛ فقال: نعم أعملُ مثلَ بعضِه. فاحتجبَ أياماً كثيرة، ثم خرجَ فقال: واللهِ ما أقدرُ ولا يطيقُ هذا أحدٌ، إنّي

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٣١.

(٢) فتح القدير: ٢/ ٤.

فتحتُ المصحفَ فخرجت سورة المائدة، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء، ونهى عن النُّكْث، وحلَّل تحليلاً عامّاً، ثم استثنى بعد استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرينِ، ولا يَقدر أحدٌ أن يأتي بهذا[1].

- **الوفاء بالعقود:**

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١ ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ واحد العقود عَقْدٌ.

وأصل العقد في اللغة: الربطُ المُحْكَمُ، وهو يستعمل في الأجسام والمعاني، فيقال: عقدتُ الحبلَ والعهدَ.

والمرادُ من العقود: العقود التي عقدها الله على عباده، وألزمهم بها من الأحكام، والعقود التي يعقدونها فيما بينهم من عقود المعاملات، فالآية تشملُ الأمرين جميعاً[2].

وفي الكتاب الذي كتبه النبيُّ ﷺ **لعمرو بن حزم** حين بعثَهُ إلى نَجْران: هذا بيانٌ من الله ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾[3].

والوفاء: حفظ ما يقتضيه العقدُ، والقيامُ بموجبه[4].

والعقدُ الذي يجبُ الوفاءُ به ما وافقَ كتابَ الله تعالى، وسُنَّةَ رسولِ اللهِ ﷺ، فإن خالفهما فهو ردٌّ، لا يجبُ الوفاءُ به ولا يحلُّ[5]، لأنّه سبحانه وحدَه الذي يحكمُ ويشرِّعُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾، فكلُّ ما يخالِفُ حكمَ الله تعالى وشرعَه ردٌّ على صاحبه، كائناً مَنْ كان.

---

(١) فتح القدير: ٢/ ٤.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٥.

(٣) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣.

(٤) روح المعاني المشهور بتفسير الآلوسي: ٦/ ٤٨.

(٥) فتح القدير: ٢/ ٥.

وهذا يبيِّن لنا بطلانَ القولِ الذي يردِّده بعضُ الناس: العقدُ شريعةُ المتعاقِدَيْنِ، فالعقدُ الذي يكونُ شريعةَ المتعاقدين، هو الموافِقُ لشريعةِ الله تعالى، وإلا كان باطلاً وإثماً وضلالاً.

قال رسول الله ﷺ: **«ما بالُ رجالٍ يشترطونَ شروطاً ليستْ في كتابِ اللهِ، فأيّما شرط ليس في كتابِ اللهِ فهو باطلٌ، وإنْ كان مئةَ شَرْطٍ، فقضاءُ اللهِ أحقُّ، وشرطُ اللهِ أوثقُ»** [رواه البخاري (٢٥٦٣) ومسلم (١٥٠٤)].

- **الوفاء بالعقود وتحليل بهيمة الأنعام:**

شرع الله تعالى ببيان الأحكام التي أمرَ بالوفاءِ بها بمقتضى عَقْد الإيمان، فقال سبحانه:

﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ فبدأ بتشريع ما يتعلّقُ بضرورات حياة الإنسان، والطعامُ من أهمِّ هذه الضرورات، وهو ينسجِمُ مع اسم السورة «المائدة».

والمتدبِّرُ للآيةِ الكريمةِ يلاحِظُ أنَّ بيانَ حِلّ الانتفاع ببهيمة الأنعام، جاء بصيغة الإخبار: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ بعد ما سبقه من الأمر الملزم بالوفاءِ بالعقودِ، فكأنَّ إحلالَ بهيمة الأنعام يستدعي من المؤمنين الوفاء بالعقود، فإنَّ عدمَ الوفاء بالعقود ونقضِها يؤدِّي إلى تضييق دائرة الحلال، والتشديدِ في التشريع، كما حدث مع اليهود، فإنهم لما نقضوا الميثاقَ الذي أخذه الله تعالى عليهم، حرّمَ اللهُ سبحانه عليهم كثيراً من الطيبات، وشدَّد عليهم في شريعة التوراة التي كلَّفهم بها.

ذكر هذا الشيخُ البقاعيُّ رحمه الله في تفسيره المسمَّى: «نظم الدُّرَر في تناسُب الآيات والسُّوَر»، وقد أصاب رحمه الله وأفاد، فقد ذكر الله سبحانه هذا في آيات كثيرةٍ في سورة المائدة، تحدَّثت عن اليهودِ، ونقضِهم للميثاقِ، وما ترتب على ذلك. وسيأتي الحديث عنها في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله. وبهذا كشف الشيخ البقاعيُّ رحمه الله سرَّ ارتباطِ الآيات الكريمة التي تحدّثت عن كثيرٍ من أفعال بني إسرائيل وصفاتهم بموضوع سورة المائدة وما أحلَّ الله تعالى فيها وما حرَّم.

• **الانقياد لله تعالى والتشريع:**

إن ارتباط التشريع عامة، والتحليل والتحريم خاصة، بمدى انقياد الأمة، واستسلامها لله سبحانه، ووفائها بعهده وميثاقه، من الموضوعات الأساسية الكبيرة التي عالجها القرآن الكريم، وركَّز عليها في عدد من سُوره الكريمة كسور: البقرة والنساء والأنعام والمائدة.

ويكفينا في هذا أن نقرأ خواتيمَ سورة البقرة، ونقفَ على سبب نزولها، ونتدبَّرَ كلماتِ الحقِّ سبحانه، وهو يثني على أصحابِ رسول الله ﷺ، بسبب انقيادهم ﷺ لأمره جلّ وعلا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥]، مما أدَّى إلى أن يرفع الله تعالى الحرجَ عنهم، ويجعلَ التكليفَ منوطاً بالوُسْع، تيسيراً على هذه الأمَّة، ورحمةً بها، فأنزل قوله الكريم: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: لمَّا أنزلت على رسولِ اللهِ ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قال: اشتدَّ ذلك على أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، قال: فأتوا رسولَ اللهِ ﷺ، ثم برَكوْا على الرُّكَب، فقالوا: أي رسول الله! كُلِّفنا من الأعمالِ ما نُطِيقُ: الصلاةُ والصيامُ والجهادُ والصدقةُ، وقد أُنزلت عليكَ هذه الآيةُ ولا نطيقُها، قال رسول الله ﷺ: «**أتريدونَ أن تقولوا كما قالَ أهلُ الكتابَيْنِ من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سَمِعْنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير**» قالوا: سمعنا وأطعنا **غفرانك** ربنا وإليك المصير، فلمَّا اقترأها القوم، وذلَّت بها ألسنتُهم[١]، أنزل الله ﷻ في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن

(١) أي: بالاستسلام لذلك، أو تواضعت. (الناشر).

رُسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فلمّا فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ . . .﴾ الآية [البقرة: ٢٨٦]. [رواه مسلم (١٢٥) وأحمد (٢/ ٤١٢)][(١)].

وإنّ ما ذكره الله تعالى في قصة بني إسرائيل عندما أمرهم أن يذبحوا بقرةً، يبيِّن سبَب تشديد الله تعالى عليهم فيما كلَّفهم به، وما حرَّم عليهم من طيباتٍ كانت حلالاً لهم، قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

وحتى تعلمَ فضلَ الله سبحانه على الأمة المسلمة بما يسَّرَ لها في الشريعة الإسلامية السمحة، اقرأ قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام].

إنك تجدُ في الآية الأولى الرحمةَ والسماحةَ واللطفَ والتيسيرَ في كل كلمة من كلماتها، لأنّها تتحدّث عن الشريعة الإسلامية، بينما تستشعر التشديد والتهديد والتعنيف في الآية الثانية التي تتحدّثُ عن شريعة التوراة، فاعرف لأصحاب رسول الله ﷺ فضلهم عندما أعلنوا إذعانهم وانقيادهم لله سبحانه وقالوا: سمعنا وأطعنا، وتقبَّلْ مثلهم أحكامَ دين الله تعالى وشرعه بإذعان وانقياد واستسلام، وأنتَ تعلمُ أنه سبحانه يحكم ما يريد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾، يُحِلُّ ما يشاء ويحرِّم ما يشاء مطلقاً، أو في حال دون حال، وليس لأحد غير الله سبحانه أن يحلل أو يحرم، وما علينا إلا القبولُ والإذعانُ والرضا بكل ما شرعه

---

(١) انظر: تفسير سورة النمل (المعجزة والإعجاز في سورة النمل)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

الله تعالى لنا، وهو سبحانه العليم الحكيم والعزيز الرحيم، لا يُسأل عن تحريمٍ أو تحليلٍ أو تخصيصٍ أو تفضيلٍ ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

- **بهيمة الأنعام:**

البهيمة: اسمٌ لكل ذي أربع من دوابِّ البَرِّ والبحر، سمِّيت بذلك لإبهامها من جهة نقص نطقها وفهمها، وبعضهم رأى أن البهيمة كل مخلوق ذي روح لا عقل له مطلقاً(١).

والأنعام: اسم للإبل والبقر والغنم، سمِّيت بذلك لما في مشيها من اللين والنعومة، وهي الأزواج الثمانية المذكورة تفصيلاً في **سورة الأنعام**، في قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وذُكرت أيضاً إجمالاً في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦].

والزوج: الصنف الواحد سواء كان ذكراً أو أنثى.

والمراد من قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: أُحِلَّ لكم أَكْلُ بهيمة الأنعام وسائر وجوه الانتفاع الأخرى التي ذكرها الحق سبحانه في قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

وفي قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النّحل: ٨٠].

---

(١) انظر: روح المعاني: ٦/٤٩.

إن نعمة الله تعالى على الإنسان بالأنعامِ عظيمةٌ وجليلةٌ، تمتدُّ من طعامه وشرابه إلى ثيابه وملابسه، إلى الاستعانة بها في حمله مع أثقاله في أسفاره، وفوق كل ذلك استمتاعه بجمالها وهي تغدو وتروح، فلا عجبَ أن يتكرَّرَ في القرآن الكريم تذكير الإنسان بفضل الله تعالى عليه بخلق الأنعام وتسخيرها له: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [النّحل].

وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أبطل العادات والتقاليد الجاهلية التي كانت سائدةً بين العرب قبل الإسلام، والتي كانوا بسبب هذه العادات والتقاليد يحرِّمون على أنفسهم بعضَ الأنعام كالبَحِيْرَةِ والسائبة والوَصِيْلة والحام، وسيأتي الحديث عنها إن شاء الله تعالى في تفسيرنا لهذه السورة، لأنه سبحانه ذكرها فيها.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكانت للعرب سنن في الأنعام من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي ـ سيأتي بيانها ـ، فنزلت هذه الآية رافعةً لتلك الأوهام الخيالية والآراءِ الفاسدة الباطلة»[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٣٤. ولقد أثبتت الياء في كلمة الحامي في تفسير ابن كثير والقرطبي.

النداء الثاني

الأمر بأكل الطيبات واجتناب الخبائث

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ۖ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۖ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

شرع الله تعالى في آية النداء الثاني بتفصيل ما أجمله في الآية الأولى، وبدأ بالتحذير من فعل المحرّمات، إشارةً إلى أن الحاظر مقدَّمٌ على المبيح.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢)﴾.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ...﴾ أي: لا تحلّوا هذه الأمور، بأن يقعَ منكم الإخلالُ بشيءٍ منها، أو بأن تَحُوْلوا بينها وبين من أراد فِعْلَها[(١)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: **شعائر الله**: معالمُ دين الله تعالى، كالأوامر والنواهي، والواجبات والمستَحَبَّاتِ، وأماكن العبادات والطاعات.

﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي: الأشهر الأربعة الحُرُم، التي ذكرها الحق سبحانه في قوله الكريم: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

وبيَّنَ النبيُّ ﷺ هذه الأشهُرَ في خُطبة حجَّةِ الوداع فقال: «**ألا إنَّ الزمانَ قد استدارَ كهيئتهِ يومَ خلقَ اللهُ السماواتِ والأرضَ، السنةُ اثنا عشر شهراً، منها أربعةٌ حرُمٌ... ذو القعدةِ وذو الحجَّةِ والمحرَّمُ ورجب**» [رواه البخاري (٣١٩٧) ومسلم (١٦٧٩)].

وقوله تعالى في **سورة التوبة**: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [٣٦] يبيِّن المرادَ من النهي عن إحلال الشهر الحرام في آية المائدة، وظلم النفس ـ بحملها على المعاصي والآثام في الأشهر الحرم ـ أبلغُ في الإثم والقبح منه في غيرها، قال قتادةُ ﵀: إنَّ الظلمَ في الأشهر الحرم أعظمُ خطيئةً ووِزْراً من الظلم فيما

(١) انظر: فتح القدير: ٢/٦.

سواها، وإن كان الظلمُ على كلِّ حالٍ عظيماً، ولكنَّ الله يعظِّمُ من أمره ما يشاء[(١)].

﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾ وهو ما يُهدى إلى بيت الله الحرام ليُذْبحَ تقرُّباً إلى الله تعالى في أرض الحرم، ولا يكون إلا من الأنعامِ التي سبقَ ذكرها، فلا يجوزُ التعرُّضُ له بالغصب أو السرقةِ، أو منعه من الوصولِ إلى أرض الحرم.

﴿وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ جمع قلادة، وهي ما يقلَّدُ به الهديُ من قشر الشجرِ أو جلْدِ الحيوانِ أو غيرهما، ليعلمَ الناسُ أنّه هديٌ، فلا يتعرُّضُ له أحد.

وعطفُ **القلائد** على **الهدي** من قبيلِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ.

﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي: قاصدين بيتَ الله الحرام، فلا يجوز التعرُّض لهم، أو صدُّهم عن بيت الله الحرام، ما داموا:

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ وهذا يدلُّ على أنَّ الآية تعني المسلمين.

ثم رفع الله سبحانه حظر الصيد عن المحرم إذا تحلل من إحرامه فقال:

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ والأمرُ للإباحة، وقد عوَّدنا الله تعالى في القرآن الكريم على أنَّ كلَّ فعلِ أمرٍ يأتي بعدَ حظرٍ ومنعٍ ينصرفُ إلى الإباحةِ، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وقوله أيضاً: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

فإذا حلَّ المحرمُ من إحرامه حلَّ له الصيدُ خارجَ أرضِ الحرمِ لزوالِ المانعِ وهو الإحرامُ بالحج أو العمرة.

- **أخلاق ومبادئ:**

ثم ختم الله سبحانه الآيةَ الكريمةَ بتقرير المبادئ الإنسانية الرفيعة في تعامل المسلمين مع أعدائهم أو حتى فيما بينهم، فقال:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ أي: لا يحملنَّكم

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٥٥.

بُغْضُ قوم لصدهم إياكم عن المسجد الحرام على الاعتداءِ عليهم، وانتقامكم منهم للتشفِّي.

فعلى المسلمِ أن يعامِلَ مَنْ عصى الله فيه، بأن يطيعَ الله تعالى فيه، كما جاء في الحديث الشريف: «**أدِّ الأمانةَ إلى من ائتمنك، ولا تخُنْ من خانك**» [أخرجه أبو داود (٣٥٣٥) والترمذي (١٢٦٤)].

هذا الخلقُ الكريمُ ـ كما قال سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ ـ قمةٌ في ضبط النفس، وفي سماحة القلب، وهي القمةُ التي لا بدَّ أن ترقى إليها الأمةُ المكلَّفة من ربِّها أن تقومَ على البشرية لتَهديها، وترتفع بها إلى هذا الأفق الكريم الوضيء[1].

ومن هذه المبادئ والأخلاق الكريمة قوله تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ إنها دعوة ربانيّةٌ موجهة إلى جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ليتعاونوا فيما بينهم على القيام بكلِّ ما أمرَ الله سبحانه، واجتناب كلِّ ما نهى الله تعالى عنه، فيدخل في معنى البرِّ والتقوى جميعُ ما سبق ذكره في الآية الكريمة من المحافظة على محارم الله وشعائر دينه، كما يدخلُ في معنى الإثم كلُّ إخلالٍ بها، وانتهاكٍ لحرمتها، ويندرجُ في العدوان المنهيِّ عنه كلُّ أنواع الظلم والبغي والاعتداء، فالتعاونُ لمنعِ الظلم والبغي أمرٌ مطلوبٌ في الإسلام.

قال رسول الله ﷺ: «**انصر أخاكَ ظالماً أو مظلوماً**» قيل: يا رسولَ اللهِ أنصرُهُ إذا كان مظلوماً، أرأيتَ إن كان ظالماً؟ قال: «**تحجُزُه، أو تمنَعُهُ، من الظُّلمِ، فإن ذلك نَصْرُهُ**» [رواه البخاري (٢٤٤٤) ومسلم (٢٥٨٤)].

- **التعاون والتكافل:**

والتعاون في الإسلام يقومُ على أساس الأخوة الإسلامية، فلا يقفُ عند حدودِ تقديم المعونة المادية، بل يتعدَّى ذلك، ويتجاوزه إلى التكافل والتضامن في جميع جوانب الحياة الإنسانية حتى في المشاعر الوجدانية والعاطفية، كما

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ٨٣٩.

قال رسولُ اللهِ ﷺ: **«مثلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم مثلُ الجسدِ، إذا اشتكى منه عُضْوٌ، تداعى له سائِرُ الجَسَدِ بالسهر والْحُمَّى»** [رواه مسلم (٢٥٨٦)].

فكلُّ مسلمٍ في ظلِّ مبادئ التعاون الإسلامية مسؤولٌ عن رعاية مصلحته الخاصة ومصالحِ الآخرين العامة في حدود استطاعته، ولهذا شرع الإسلامُ مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فجعل من كلِّ فرد من أفراد المجتمع الإسلامي حارساً وراعياً للمصلحة العامة في المجتمع، كما جعل المجتمع مسؤولاً مسؤوليةً قائمةً على التكافل والتضامن عن حماية الضعفاء فيه، ورعاية مصالحهم، وتأمين كفايتهم للعيش حياةً كريمةً. ولهذا فرضَ الزكاةَ في أموال الأغنياء، وجعلها ركناً أساساً من أركان الإسلام الخمسة.

وإذا لم تكفِ الزكاةُ بسبب طوارئ ونكبات عامة أُخذَ من أموال القادرين مقدارُ ما يسدُّ حاجة المحتاجين، ففي الحديث الشريف: عن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه قال: بينما نحنُ في سفرٍ مع النبيِّ ﷺ، إذ جاءَ رجلٌ على راحلةٍ له، فجعل يصرفُ بصرَهُ يميناً وشِمالاً، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ كانَ معه فَضْلُ ظَهْرٍ** (زيادة في ما يركبُ على ظهرِهِ من الدوابِّ) **فَلْيَعُدْ به على مَنْ لا ظَهْرَ له، ومَنْ كان له فَضْلُ زادٍ فَلْيَعُدْ به على مَنْ لا زادَ له»** قال: فذكر من أصنافِ المالِ ما ذكرَ حتى رأينا أنَّه لا حقَّ لأحدٍ منا في فَضْل. [رواه مسلم (١٧٢٨)].

وهذا في وقت الحاجة والشدَّة حيثُ لا تكفي فريضةُ الزكاةِ والواجباتُ الإسلامية الأخرى في النفقات.

انظر كيف قرَّر رسولُ اللهِ ﷺ مسؤوليةَ التعاون والتكافل بين أفراد المجتمع المسلم بقوله عليه الصلاة والسلام: **«أيُّما أهلِ عَرْصَةٍ باتَ فيهم امرؤٌ جائعاً فقد بَرِئَتْ منهم ذِمَّةُ اللهِ تعالى»** [رواه أحمد في «مسنده» (٤٨٨٠) وإسناده صحيح].

- **التعاون والتأمين:**

فلا خوفَ ولا قلقَ في ظلِّ مبادئ التعاون والتكافل الإسلامية، ولا حاجةَ

في ظلِّ الإسلام إلى ما استحدثه الإنسانُ في العصور المتأخرة من نُظُم التأمين ضدّ الحوادث والأخطار، بسبب انتشار الخوف والقلق بين الناس، ولا حجّةَ للقائلين بجوازِ التأمين ضدَّ المخاطرِ والحوادِث بمفهوم التعاون في الإسلام، فالتعاونُ في الإسلام يختلفُ اختلافاً جذريّاً عن مفهوم التأمين، والتعاونُ في الإسلام تضحيةٌ وبذلٌ وعطاءٌ، فهو تبرُّعٌ محض كالصلة والصدقة والهدية، بينما القصد من عقد التأمين الذي تُبرمه الشركة المؤمِّنةُ مع المستأمِن الحصولُ على الكسب والربح، فهو عقدُ معاوضةٍ لا تبرُّع، تتعهد بموجب هذا العقد أن تدفعَ شركةُ التأمين للمستأمِن عند وقوع الخطر المؤمَّن منه مبلغاً معيناً من المال، في مقابلِ تعهُّدِ المستأمن أن يدفعَ لشركة التأمين مبلغاً من المال يقسَّط على دفعات يُتفق عليها. فإذا وقع الخطرُ تحقَّقَ الربح للمستأمِن والخسارةُ لشركة التأمين، وإذا لم يقع ربحت شركةُ التأمينِ كلَّ الأقساطِ الماليةِ التي دفعها المستأمن، فعقدُ التأمين إنْ حقق ربحاً للمستأمِن حقق خسارة للمؤمِّن والعكس بالعكس، فهو عقد معاوضة، لا دخل فيه للتعاون مطلقاً، فالتعاون وقصد التبرع لا وجودَ لهما في عقد التأمين مطلقاً من كلا الجانبين، وشركاتُ التأمين لا تعمل إلا لحساب نفسها ولمصلحتها التي تتعارض مع مصالح المستأمِن، فهي شركات مالية احتكارية، لها أضرارها على الحياة الاقتصادية والاجتماعية[1].

التأمينُ يصبح حلالاً جائزاً في الشريعة الإسلامية إذا كان تعاوناً محضاً، فإذا ما اتفق عددٌ من الأشخاص على التعاون فيما بينهم ضد الحوادث والأخطار بأن يدفع كل واحد منهم مبلغاً من المال إلى صندوقٍ يبقى مِلكاً لهم، يُعطى من هذا المال كلُّ من يصابُ منهم بمصيبة أو حادثة من حوادث الدهر خلال مدّةٍ محدودة يتفقون عليها، وما يبقى من هذا المال بعد انتهاء هذه المدة يوزَّعُ عليهم. صحَّ مثلُ هذا التعاون والتأمين وحلَّ، لقيامه على محض التبرع والتعاون، وتجرُّده عن قصد الربح المعلَّق على حدوث الخطر.

---

(١) انظر كتاب: التأمين في الشريعة والقانون، للدكتور شوكت عليّان، ط٢، دار الرشيد في الرياض.

إنّ عقود التأمينِ السائدة في العصر الحاضر تشبهُ القمار والميسر، لأنَّ غايتها تحقيقُ ربح معلَّق على خطرٍ يعتمد على مجرَّد المصادفة والحظ، ولهذا فهي غير جائزة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

- **الميتة والخنزير:**

وتفصيلاً للمحرَّمات التي أشار إليها بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١] قال تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣)﴾.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ **الميتة**: كلُّ حيوانٍ مات حَتْفَ أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد، وأمّا **الدم** فالمحرَّمُ منه المسفوحُ، الذي يخرُج من الجسم، أمَّا الدم الذي يَبقى في العروقِ أو في الكبدِ والطِّحال بعدَ ذبح الحيوان فمباحٌ، يجوز أكله تبعاً للَّحم، إذ يصعبُ فصله بعد الذبح عن اللحم، والدليلُ على ذلك تقييد الدم بالمسفوح في آية **سورة الأنعام** [١٤٥]: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾.

والمراد من قوله تعالى: ﴿وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ جميعُ أجزاء الخنزير.

وهنا ينبغي أن نتوقّفَ قليلاً عند قوله تعالى: ﴿وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ بسبب انتشارِ أكل لحم الخنزير عند كثيرٍ من الأمم الكافرة، بينما الإجماعُ منعقِدٌ بين

المسلمين على تحريم الخنزير بجميع أجزائه، وخصَّ الله تعالى ذكر لحم الخنزير للدلالة على تحريمِ عَيْنه، ذُبح أم لم يذبح، وليعمَّ التحريمُ جميعَ أجزائه[١].

فإذا كان اللحمُ ـ وهو أهمُّ ما يُقْصَدُ من الخنزير ـ محرَّماً، فغيرُ اللحم من الأجزاء الأخرى كالدُّهن والشحم أولى بالتحريم، وقد وصفه الله تعالى بصفة **الرِّجْسِ** ـ كما مرَّ معنا في آية الأنعام ـ وهو النجس والقذر.

ويكفي تحريم الله تعالى للخنزير، ووصفه بصفة الرجس: للدلالة على خبثه وضرره، وكلَّما تقدَّم الناسُ في العلوم يكتشفون ما يحمل الخنزير من آفات وأضرار لآكليه، ففي لحم الخنزير تكثرُ الديدان، وخاصةً الدودة الشريطية، التي يسبِّبُ وجودُها في أمعاء الإنسان أعراضاً كثيرة من مغصٍ، وإسهال، وقيء، وآلام في الرأس، ودُوار وإغماء، وقد تنتابه نوبات صرع، وتشنُّجات في بعض أعضائه، وتقاوم حويصلات هذه الدودةُ الحرارةَ ما دامت داخل لحم الخنزير، لأنه موصل رديء للحرارة، وإذا زيد في إنضاج لحمه للتأكد من قتلها أصبح هضمه عسيراً على الإنسان.

كما يوجَدُ في لحم الخنزير أيضاً الديدان التي تسبِّبُ مرض التريخينا، الذي يسبب آلاماً شديدة في العضلات بسبب انتفاخ النسيج العضلي وصلابته.

ويوجد في لحم الخنزير أيضاً بعض الجراثيم العفنة والباراتيوفيد التي تسبِّبُ التهابات في الجهاز الهضمي، قد تؤدي إلى الوفاة خلال بضع ساعات.

ومن المعلوم أن الخنزير يحب أكل القَاذورات والفضلات والفئران الميتة التي تحمل الدودة الحلزونية الشعرية، التي تتسلل إلى الإنسان، فتصيب عضلات جهاز التنفس والقلب، مما يتسبب بصعوبة التنفس المُفضي إلى الموت.

وفضلاً عن كلِّ ذلك فلحمُ الخنزير أعسر اللحوم هضماً باتفاق، لأن أليافه

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٢/ ٢٢٢.

العضلية محاطة بخلايا شحمية عديدة أكثر من لحوم الحيوانات الأخرى المباح أكلها[١].

ولا يقفُ الأمر عند هذا الحد، فقد يكتشِفُ الإنسان في المستقبل آفاتٍ أخرى في لحم الخنزير، فقد مرَّ على الناس زمنٌ طويل منذ أن أنزل الله تعالى في القرآن الكريمِ تحريم الخنزير قبل أن يكتشف الناس هذه الآفات، ولهذا علينا أن نترك أمرَ التحليل والتحريم إلى شريعة الله العليم الخبير، فالله يعلمُ وأنتم لا تعلمون، ورحم الله سيد قطب الذي قال: «أفلا تستحق هذه الشريعةُ التي سبقت العلمَ البشريَّ بعشرات القرون أن نثق بها، وندعَ كلمة الفصل لها، فنحرِّمُ ما حرَّمت، ونحلِّلُ ما حلّلتَ، وهي من لدن حكيم خبير»[٢].

- **تنبيه وتحذير:**

والجديرُ بالذكر هنا أنَّ الأممَ التي تأكُل لحم الخنزير، أدخلت دهنه وشحمه وبقية أجزاء جسمه في كثير من الأطعمة المصنَّعة، فكثيرٌ من المعلَّبات يضعون فيها شيئاً من دهن الخنزير، كما أنَّهم يمزجونه بالشطائر والحلويات، فعلى المسلمين واجبُ الحيطةِ والحذرِ من مثل هذه المعلبات والأطعمة المستوردة حتى يتأكدوا من خلوِّها من دهن الخنزير ولحمه.

وإنَّ مادة الجيلاتين التي شاع استعمالُها في كثير من صناعات الأطعمة والحلويات والمرطبات البوظة (الجيلاتي) تستخرج من جلود وأعصاب وأوتار عضلات الحيوانات وعظامها، وخاصّةً الخنزير، كما تستخرج من الكولاجن المستمد من الخنزير[٣].

ومن الثابتِ أنَّ أرخصَ الحيواناتِ في العالم أجمع هو الخنزير، ولهذا على المسلم أن يتوقَّع دائماً وجود مشتقات الخنزير في الأطعمة المصنَّعة في البلاد

(١) عن كتاب: أحكام الأطعمة في الشريعة الإسلامية، بتصرف قليل واختصار.
(٢) انظر: في ظلال القرآن: ١/ ٧٧.
(٣) انظر: أحكام الأطعمة، ص٣٠٩.

الكافرة، في الخبز والحلويات والكاتو والبسكويت والمعلبات واللحوم والحِساء والسلطة والجبن والجيلو وغير ذلك من الأطعمة، فعليك أيها المسلم أن تنتبه قبل كل شيء إلى الغلاف الخاص لهذه الأطعمة، وتتأكد من محتوياتها، فإذا وجدت بعض الكلمات الآتية فاعلم أن ضمن هذا الغلاف بعض مشتقات الخنزير:

(Pork, Ham, Bacon, Shorting, Lord, Galatin)[١].

﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي: ويحرمُ عليكم كلُّ حيوان ذُكرَ عليه عند ذبحه غير اسم الله تعالى، فقد أوجبَ الله تعالى أن تُذبح مخلوقاته على اسمه العظيم، ومتى عُدل عن ذلك، وذُكر عليها اسمُ غيره من صنم أو وثن أو طاغوتٍ أو غير ذلك من سائر المخلوقات، فهي حرامٌ بالإجماع[٢]؛ قال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١١٨].

وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ أي: ويحرمُ أيضاً أكلُ الحيوان الذي يموتُ بالخنق، إما قصداً بفعل فاعل، وإمَّا اتفاقاً بأن يلتفَّ وثاقُها حول عنقها فتموتُ به، وسواءٌ خُنِقَتْ بفعلِ مسلمٍ أو غيرِ مسلمٍ، قال **ابنُ عباس** رضي الله عنهما: كان أهل الجاهلية يخنقون البهيمة ويأكلونها، فحُرِّمَ ذلك على المؤمنين[٣].

﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ أي: وحرم عليكم أكل الموقوذةِ، وهي التي تموت بالضرب بعصا أو بحجر أو غير ذلك، وأصله: وقذه أي ضربه، والوقْذ: شدّةُ الضربِ.

- **حكم صيد البنادق:**

جاء في «الصحيحين»: من حديث **عدي بن حاتم** رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسولَ

---

(١) أحكام الأطعمة، ص ٣٠٩.
(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٨.
(٣) روح المعاني: ٦/ ٥٧.

اللهِ، إنِّي أرمي بالمعراضِ الصيدَ فأصيبُ، فقال: «**إذا رميتَ بالمعراضِ فخرقَ فكُلْه، وإن أصابَ بَعَرْضِهِ، فإنَّما هو وقيذٌ فلا تأكُلْهُ**» [رواه البخاري (١٧٥) ومسلم (١٩٢٩)]. **والمِعْرَاضَ**: السهمُ الذي لا ريشَ فيه، أو العصا التي رأسُها محدَّدٌ.

قال الشوكاني رحمه الله: «فالحقُّ أنه لا يحلُّ إلا ما خرق لا ما صدم، فلا بدَّ من التذكية (الذبح) قبل الموت، وإلا كان وقيذاً، وأمَّا البنادقُ المعروفةُ الآن، وهي بنادِقُ الحديدِ التي يُجْعَلُ فيها البارودُ والرصاصُ، ويُرمى بها، فلم يتكلّم عليها أهلُ العلمِ لتأخُّر حدوثها، فإنّها لم تصل إلى الديار اليمنية إلا في المئة العاشرة من الهجرة، وقد سألني جماعةٌ من أهل العلم عن الصيد إذا مات، ولم يتمكن الصائدُ من تذكيته حيّاً. والذي يظهرُ لي أنه حلالٌ، لأنها تخرِقُ، وتدخلُ في الغالبِ من جانبٍ، وتخرجُ من الجانب الآخر، وقد قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: «**إذا رميتَ بالمِعراضِ فخرقَ فكلْهُ**» فاعتبر الخرقُ في تحليلِ الصيدِ»[1].

لكنَّ المتأخرين من الفقهاء بحثوا في حكم صيد البنادق، ولم ينظروا كما فعل الشوكاني إلى تحقق الخرق فقط، فقد يحدثُ الخرق بالضرب أيضاً، ولهذا نظروا إلى سبب الخرق، فإنْ حدثَ الخرقُ في جسم الصيد بسبب حِدَّة آلة الصيد، ومات الصيدُ به كان حلالاً، أما إذا حدث الخرقُ بسبب ثقل آلة الصيد فلا يحلُّ أكلُه إلا إذا أدركه حيّاً وذبحه، إذ يكون في هذه الحالة وقيذاً مات بقوة وثقل الآلة التي ضُرب بها.

قال ابن كثير رحمه الله بعد ذكره حديث عدي بن حاتم السابق ذِكْرُه: «ففرَّق بين ما أصابه بالسهم أو بالمِزْراق ونحوه بحدِّه فأحله، وما أصابَ بعرضه فجعله وقيذاً لم يحلَّه، وهذا مجمع عليه عند الفقهاء»[2].

وقال الشيخ ابن عابدين رحمه الله، وهو أحد فقهاء المذهب الحنفي: «وفي

(١) فتح القدير: ٢/ ٩.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٨.

التبيين (اسم كتاب) الأصلُ أنَّ الموتَ إذا حصل بالجرح بيقين حل، وإنْ [حصل] بالثقل، أو شُكَّ فيه، فلا يحلُّ حتماً أو احتياطاً، ولا يخفى أنَّ الجَرْحَ بالرصاص إنّما هو بالإِحراقِ والثقل بواسطةِ اندفاعه العنيفِ، إذ ليس له حدٌّ فلا يحلُّ، وبه أفتى ابن نُجيم»[١].

وهذا رأي وجيه ونظر سديد، فلو نظرنا إلى ماسورة البندقية من الداخل لوجدناها لولبية الشكل لتجعل حركة الرصاصة المندفعة منها في الهواء لولبية، وهذا يسبِّبُ لها مزيداً من الاحتكاك بالهواء مما يؤدي إلى رفع حرارتها إلى درجة عالية، كما أنَّ شدة الاندفاع وقوته تعطيها ثقلاً كبيراً، فدخولها إلى الجسم يتم بحرارتها العالية وقوة الثقل التي فيها، لا بحدِّها إذ لا حدَّ لها.

• **التذكية المحِلَّةُ:**

﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ أي: وحرِّم عليكم أكل المتردية، وهي التي تقع من مكانٍ مرتفعٍ أو في بئر فتموت، ولا فرق بين أن تقع بنفسها أو تقع بفعل غيرها.

﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ أي: المنطوحة التي ينطحها غيرها فتموت.

﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ أي: ويحرم أكلُ ما افترسه أو أكلَ منه ذو ناب كالأسد والنمر والذئب، فماتَ بذلك، لا ما أُكلَ كلّه، لأن ما أُكل كلّه لا يتعلَّق به حكم، ولا يلحقه الاستثناء في قوله تعالى بعد ذلك:

﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ أي: إلا ما أدركتموه، وفيه بقيةُ حياةٍ، وذكَّيتموه أي ذبحتموه. فالاستثناءُ راجعٌ إلى جميع ما تقدّم ذكرُه من المحرَّمات سوى ما لا يقبل التذكية كالميتة والخنزير[٢].

وتذكيةُ الحيوان بذبحه تطييب له، لأنَّ **التذكيةَ في اللغة**: معناها التطييب، يقال: رائحة ذكية، أي: طيبة، فالحيوانُ إذا أُسيل دمُهُ بالذبح فقد طُيِّبَ، لأنَّ بقاءَ الدم فيه يجعل الفسادَ يتسارعُ إليه، فمن المعلوم أنَّ الدم يحمِلُ إلى الجسم

---

(١) حاشية ابن عابدين المسماة: رد المحتار على الدر المختار: ٥/ ٣٠٤.

(٢) انظر: روح المعاني: ٦/ ٥٨.

الغذاءَ، ويحمل منه أيضاً السموم والفضلات، فبقاء الدم في الجسم بعدَ موتِ الحيوان يعرِّضه لسرعة الفساد، ويعرّض آكل لحم هذا الحيوان لكثير من الأمراض والأخطار، ولعلَّ هذا من حِكَم تحريم الله تعالى أكل الميتة والدم، فذبح الحيوان تطهير وتطييب له وإباحة لأكله.

• **الأصل في أكل اللحوم الحظر:**

والآية تدلُّ على أنَّ الأصلَ في أكل اللحم الحظر والمنع، إلا ما قام الدليل على حلِّه، قال الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد رَحِمَهُ اللهُ: «الأصل في الأبضاع ـ وطء النساء ـ التحريم، فلا يحل البَضْعُ إلا بعقد صحيح مستجمع لأركانه وشروطه، كما لا يباحُ أكل لحوم الحيوانات إلا بعد تحقق تذكيتها من أهل التذكية، فإن الله ﷻ حرَّم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به، وحرّم المنخنقة والموقُوذة والمتردِّية والنطيحة وأكيلة السبع إلا ما ذُكِّي، فهذا يدل على أن الأصل في الحيوان التحريم إلا ما ذكَّاه المسلمون أو أهل الكتاب، بقطع الحلقوم، وهو مجرى النَّفَس، والمريء، وهو مجرى الطعام والماء، مع قطع الودجين في قول طائفة من أهل العلم»(١).

• **اللحوم المستوردة والمعلَّبة:**

واستناداً إلى هذه القاعدة ـ الأصل في اللحم الحظر ـ بيَّن رَحِمَهُ اللهُ الحكم الشرعي في اللحوم المعلبة والمستوردة فقال:

«فما يردُ من اللحوم المعلَّبة، إن كان استيرادها من بلاد إسلامية، أو من بلاد أهل الكتاب، أو معظمهم وأكثرهم أهل كتاب، وعادتهم يذبحون بالطريقة الشرعية، فلا شكَّ في حِلِّه.

وإن كانت تلك اللحومُ المستوردة تستورد من بلاد جرت عادتهم، أو

---

(١) مجلة البحوث الإسلامية، العدد السادس، ص١٣٠.

أكثرهم، أنهم يذبحون بالخنق، أو بضرب الرأس، أو بالصعق ونحو ذلك، فلا شكَّ في تحريمها.

وكذلك ما يذبحه غير المسلمين وغير أهل الكتاب من وثني أو مجوسي أو قادياني أو شيوعي ونحوهم، فلا يباحُ ما ذكَّوْه، لأن التذكية المبيحة لأكل ما ذُكّي لا بد أن تكون من مسلم أو كتابي عاقل له قصد وإرادة، وغير هؤلاء لا تباح تذكيتهم.

أما إذا جُهل الأمر في تلك اللحوم، ولم يعلم عن حال أهل البلد التي وردت منها تلك اللحوم، هل يذبحون بالطريقة الشرعية أم بغيرها؟ ولم يعلم حال المذكِّين وجهل الأمر، فلا شك في تحريم ما يرد من تلك البلاد المجهول أمر عادتهم في الذبح تغليباً لجانب الحظر، وهو أنه **إذا اجتمع مبيح وحاظر، فيغلب جانب الحظر**، سواء أكان في الذبائح أو الصيد، ومثله في النكاح، كما قرره أهل العلم، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية، والعلامة ابن القيم، والحافظ ابن رجب، وغيرهم من الحنابلة، وكذلك الحافظ ابن حجر العسقلاني، والإمام النووي، وغيرهم كثير، مستدلين بما في «الصحيحين» وغيرهما: أن النبيّ ﷺ قال: «**إذا أرسلتَ كلبَكَ المعلَّمَ وذكرتَ اسمَ الله عليه فَكُلْ، فإن وجدتَ معه كلباً آخر فلا تأكُلْ**» [رواه البخاري (٥٤٨٣) ومسلم (١٩٢٩)]»[1].

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ أي: وحُرِّمَ عليكم أكلُ الذبائح التي ذُبحت على النصب، وهي حجارةٌ كانت منصوبةً حول الكعبة، وكان العرب في الجاهليةِ يذبحون عندها، وينضحون بدماءِ تلك الذبائح البيتَ الحرام، ثم يشرِّحون اللحم، ويضعونه على هذه الحجارة المنصوبة، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرَّمَ عليهم أكلَ هذه الذبائح حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله تعالى، لأنَّ الذبحَ عند النُّصُب من الشرك، فهو داخل فيما أُهل به لغير الله،

---

(١) مجلة البحوث الإسلامية، العدد السادس، ص١٣١.

وخُصَّ بالذكر لتأكيد تحريمه، ولدفع ما كانوا يظنون أن ذلك لتشريف البيت الحرام وتعظيمه[١].

● **الذبح عند الأقدام:**

ويدخل في هذا القسم أيضاً الذبحُ عند أقدام القادمين، نبّه على هذا سيدي الشيخ محمد الحامد رَحِمَهُ اللهُ، فقال: الذبح تحت الأقدام يمحِّضُ الذبائح للحرام، ويوقع في الآثام، وذكْرُ اسم الله تعالى عليها لا يحلُّها ما دام القصدُ بذبحها تعظيم القادم لا إكرامه، وقد اختلف الفقهاء في كفر الذابح لهذا القدوم، ونحن نأخذُ بالقول بعدم تكفيره، لما في «**الدر المختار**» عن «**المنية**» ـ اسم كتاب ـ: إنّا لا نسيءُ الظنَّ بالمسلم أنه يتقرب إلى الآدمي بهذا النحر، وكتب عليها ابن عابدين: «أي على وجه العبادة، لأنه المكفّر، وهذا بعيدٌ عن حال المسلم، فالظاهر أنه قصد الدنيا، أو القبول عنده بإظهار المحبة، لكن لما كان في ذلك تعظيم له لم تكن التسمية مجرَّدة لله تعالى حكماً... حرمت، ولا ملازمة بين الحرمة والكفر»[٢].

● **الاستقسام بالأزلام:**

﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾ أي: وحُرِّمَ عليكم أن تستقسموا بالأزلام.

والاستسقامُ: طلبُ معرفةِ ما قُسِمَ لهم في المستقبل، **والأزلام**: ثلاثُ قطعٍ من الخشبِ، كُتِبَ على أحدها: **أمرني ربي**، وعلى الثاني: **نهاني ربي**، والثالث غفل لم يكتب عليه شيءٌ، فإذا قصدوا فعل شيءٍ أجالوا هذه الأزلام؛ فإن خرج الآمر مضوا في فعلهم، وإن خرج الناهي تجنبوا، وإن خرج الغُفْل أجالوها ثانياً.

● **سؤال الكهَّان والعرَّافين:**

وإنَّما حرَّم الله الاستقسام بالأزلام، لأنّه تعرُّضٌ لدعوة علم الغيب، ونوعٌ

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ١١؛ وفتح القدير: ٢/ ١٠.

(٢) من: ردود على أباطيل، تحت مقولة: بدع تُلابس قدوم الحجاج.

من الكهانة المحرَّمةِ في الإسلام، قال ﷺ: «**مَنْ أتى عرَّافاً أو كاهناً فصدَّقه بما يقولُ، فقد كفر بما أُنْزِلَ على محمّدٍ**» [رواه أبو داود (٣٩٠٤) والترمذي (١٣٥) والنَّسائي في الكبرى (٩٠١٧) وابن ماجه (٦٣٩)].

وقال المحقِّقُ ابن عابدين ﷬: «**والكاهِنُ** ـ كما في «مختصر النهاية» للسيوطي ـ من يتعاطى الخبرَ عن الكائنات في المستقبل، ويدَّعي معرفة الأسرار، **والعرَّاف**: المنجِّم الذي تعاطى معرفةَ مكان المسروقِ والضالّة (الضائعة)».

قال سيدي الشيخ محمد الحامد ﷬: «والحاصلُ أنَّ الكاهِنَ هو من يدّعي معرفةَ الغيب بأسباب، وهي مختلفةٌ، فلذا انقسم إلى أنواع متعددة، كالعرَّاف والرمَّال والمنجِّم، والذي يخبِرُ عن المستقبل بطلوع النجم وغروبه، والذي يضرب بالحصى، والذي يدّعي أنَّ صاحباً له من الجن يخبره عما سيكون، والكل مذموم شرعاً، محكوم عليهم وعلى من يصدّقهم بالكفر، وفي «الفتاوى البزازية» ـ اسم كتاب ـ: يَكْفُرُ بادّعاء علم الغيب، وبإتيان الكاهن وتصديقه، وفي «التترخانية» ـ اسم كتاب ـ يكفر بقوله: أنا أعلم المسروقات أو أنا أخبِرُ عن إخبارِ الجن إياي. . . قلتُ: وأمّا ما وقع لبعض الخواص كالأنبياء بالوحي، والأولياء بالإلهام، فهو بإعلام من الله تعالى فليس مما نحن فيه»[(١)].

● **علم الأرصاد الجوية:**

وقد استثنى العلامة الآلوسي ﷬ في تفسيره ما يقوله علماء الفلك عن أوقات حدوث الكسوف والخسوف، لأنهم يبنون أقوالهم على الحسابات لندرة خطئهم[(٢)].

كما يستثنى من ذلك تنبؤات علماء الأرصاد الجوية، لأنَّ أقوالهم مبنية على ما يشاهدونه بآلات الرصد والتصوير من اتجاهات الرياح والسحب، وقياس

(١) انظر: ردود على أباطيل: ١/ ٣٦٩؛ وحاشية ابن عابدين.

(٢) انظر: روح المعاني: ٦/ ٥٩.

سرعتها، ودرجات حرارتها وكثافتها، وقد أخبر الحق سبحانه في كتابه الكريم أنه يرسل الرياح تبشِّرُ بنزول المطر، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

• **قِداح الميسر:**

وللأزلام معنًى آخر، ذكره بعض علماء التفسير، وهو قِدَاحُ الميسر، وكانوا يلعبون بها مقامرةً ولهواً، يتعرَّفون بوساطتها على صاحب القسم والحظ الذي يكون المال له، قال القرطبي في تفسيره: «وهي قداحُ الميسر، وهي عشرةٌ، سبعةٌ منها فيها خطوط، وثلاثة أغفال، أي لا خطوط فيها، وكانوا يضربون بها مقامرةً ولهواً ولعباً، وكان عقلاؤهم يقصدون بها إطعام المساكين والمعدم زمنَ الشتاء، وقال مجاهد: الأزلام هي كِعاب فارس والروم التي يتقامرون بها»(١).

وعلى هذا المعنى للأزلام فالآيةُ تدلُّ أيضاً على تحريم القمار، وتدل على أنّ كسبه حرام مهما كانت صوره وأغراضه، فاليانصيبُ الذي يخصَّص ربحه لمساعدة الفقراء أو الأيتام أو المعوَّقين لا يجوزُ ولا يحلُّ.

ثم قال تعالى:

﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي: تعاطي الاستقسام بالأزلام فسق، وغي وضلالة وجهالة وشرك.

• **الاستخارة المشروعة:**

وقد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخيروه، بأن يعبدوه ثم يسألوه الخِيَرَة في الأمر الذي يريدونه، كما روي عن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ يعلِّمنا الاستخارةَ في الأمور كما يعلِّمنا السورةَ من القرآنِ ويقول: «**إذا همَّ أحدُكم بالأمرِ، فليركعْ ركعتينِ مِنْ غيرِ الفريضةِ، ثم ليقلْ: اللهمَّ إني أستخِيْرُكَ بعلمِكَ، وأستقدِرُكَ بقدرَتِكَ، وأسألُكَ مِنْ فضلِكَ العظيم، فإنَّكَ تَقْدِرُ ولا أقدِرُ، وتعلمُ ولا أعلَمُ، وأنتَ علَّامُ الغيوب، اللهمَّ إنْ كنت تعلمُ**

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٥٩.

أنَّ هذا الأمرَ ـ ويسمّيه باسمه ـ **خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبةِ أمري** ـ أو قال: **عاجلِ أمري وآجلِه ـ فاقْدُرْه لي، ويسِّرْه لي، ثم بارِكْ لي فيه، اللهمَّ وإنْ كنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمرَ شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبةِ أمري** ـ أو قال: **في عاجلِ أمري وآجلِه ـ فاصرفني عنه، واصرفه عنّي، واقدرْ ليَ الخيرَ حيث كانَ، ثم رضِّني به»** قال: ويسمّي حاجته. [رواه البخاري (٦٣٨٢)].

وقد يكون قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ يرجعُ إلى جميع ما ذكر من الاستحلال لجميع هذه المحرّمات، وكلُّ شيءٍ منها فسقٌ وخروجٌ من الحلال إلى الحرام، والانكفاف عن هذه المحرَّمات من الوفاء بالعقود، إذ قال: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

- **السِّمة المميِّزة للمسلم عن الكافر:**

﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾ أي: انقطعَ رجاءُ الكفَّارِ من إبطال دينكم ورجوعكم عنه باستحلالِ هذه الخبائث التي حرَّمها الله تعالى عليكم.

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فلا تخافوا من الكفار.

﴿وَاخْشَوْنِ﴾ أَنْ أُحِلَّ بكم عقابي إن خالفتم أمري وارتكبتم معصيتي[(١)].

وذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية معنًى آخر يتفق مع موضوع الآية أكثر مما تقدم، فقال: «ويُحْتَمَلُ أن يكونَ المرادُ أنَّ الكفار يئسوا من مشابهة المسلمين، لما تميَّزَ به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله، ولهذا قال الله تعالى آمراً لعباده المؤمنين أن يصبروا ويثبتوا في مخالفةِ الكفَّار، ولا يخافوا أحداً إلا الله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾»[(٢)].

إنَّ وقوفَ المسلم عند حدود ما شرع الله تعالى له في الحلال والحرام، أعظمُ ما يتميز به المسلم عن الكافر، فشأنُ الكافر الانسياقُ وراء أهواءِ نفسه وغرائزه، فلا يُحِلُّ حلالاً، ولا يحرِّمُ حراماً إلا ما أُشربَ من هواه، بينما يظلُّ

---

(١) روح المعاني: ٦/ ٦٠.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ١٢.

المسلمُ وقَّافاً عند حدود ما شرع الله تعالى له، فلا يستحلُّ إلا ما أحلَّ الله تعالى له، ولا يحرِّم إلا ما حرَّم الله عليه، ويظهر هذا الأمر جليّاً واضحاً في شأن المطاعم والمشارب.

ففي أي مكان وزمانٍ يمكن أن تُميِّز المسلم عن غيره من طعامه وشرابه، فالمسلمُ لا يأكل الميتةَ ولا لحمَ الخنزير ولا الدم ولا المنخنقة، ولا يشربُ الخمرَ، فإذا خالف المسلمُ أمر ربه، وخاف من الكفار، ولم يخف من الله تعالى، فقد طمسَ أعظم العلاماتِ التي تميِّزه عن الكفار. ولهذا لا يُعذَرُ المسلمُ في أي حالٍ من الأحوال، بتناول المحرمات من الطعام والشراب إلا في حالة واحدة فقط، هي حالةُ الاضطرار، التي بيَّنها الله سبحانه في ختام هذه الآية الكريمة بقوله:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

- **أهمية تشريع الحلال والحرام في الإسلام:**

أكملَ اللهُ سبحانه دينَ الإسلام يوم أَنزلَ هذه الآية على النبيِّ ﷺ، وهذا يدل دلالة قاطعة على أهمية تشريع الحلال والحرام في الشريعة الإسلامية، فلا يكونُ دينُ المسلم كاملاً إلا إذا ألزمَ نفسَه تشريع الحلال والحرام، فلا حلال إلا ما أحلَّه الله تعالى، ولا حرام إلا ما حرَّمه سبحانه، ولا دين إلا ما شرعه ﷻ.

وقد نزلت هذه الآية في عرفة يوم حَجَّة الوداع وكان يومَ جمعة أيضاً، قال عمر رضي الله عنه: واللهِ إنِّي لأعلمُ اليومَ الذي نزلت فيه على رسولِ اللهِ ﷺ والساعةَ التي نزلت فيها على رسولِ اللهِ ﷺ عشيةَ عرفةَ في يومِ جمعة. [رواه البخاري (٤٤٠٧) ومسلم (٣٠١٧)].

وختم الله سبحانه بهذه الآية تشريعَ الحلال والحرام، وماتَ رسول الله ﷺ بعد يوم عرفة بواحدٍ وثمانين يوماً(١).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢/ ١٣.

• **تمام النعمة:**

ولمّا أكملَ الله تعالى للأمة المسلمة دينها تمّت نعمتُه سبحانه عليها: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ فتمامُ نعمة الله تعالى على الإنسان بالإسلام، فمن هداه الله سبحانه للإسلام، وشرح صدره للإيمان، ووفقه إلى الالتزام بما شرعه الحق سبحانه من الحلال والحرام، فقد أتمَّ الله تعالى عليه النعمة، فكلُّ نعمةٍ من نعم الله تعالى من غيرِ الإسلام ناقصةٌ غيرُ تامَّةٍ، ولا تكون النعمة تامة إلا في ظل الإسلام، وهو الدين الذي رضيه الله تعالى لنا، فعلينا أن نرضاه لأنفسنا: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ فأي رعايةٍ أفضلُ من رعاية الله سبحانه لهذه الأمة؛ حتى اختار لها دينَها ورضيه لها، إنَّ ذلك يلقي على عاتق الأمة المسلمة مسؤوليةً ثقيلةً في مقابل هذه الرعاية، فما أحمقَ وما أكفرَ من يهمِلُ أو يرفُضُ ما رضيه الله له، فيختار غير ما رضيه الله تعالى له!.

• **الاضطرار:**

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذه حالة الاضطرار التي يُعذر المسلم فيها بتناول المحرمات من الطعام والشراب.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن احتاجَ إلى تناوُلِ شيءٍ من هذه المحرَّمات التي ذكرها الله تعالى، لضرورةٍ ألجأته إلى ذلك، فله تناوُله، والله غفور رحيم، لأنّه تعالى يعلمُ حاجةَ عبدِهِ المضطر، وافتقاره إلى ذلك، فيتجاوز عنه ويغفر له»[1].

والمخمصة: المجاعةُ التي تَخْمُصُ فيها البطون، أي: تضمر فيها البطون.

ويشترط لمن يضطر إلى تناول المحرمات أن يكون ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ﴾ أي: غيرَ مائلٍ ومنحرفٍ للإثم، ومختار له، ولهذا عليه ألا يأكل من الطعام المحرم إلا المقدار الذي يحفظ حياته.

قال الفقيه الحنبلي ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويُباحُ أكلُ ما يسدُّ الرمقَ، ويأمَنُ معه

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ١٤.

الموتَ بالإجماع، ويحرمُ ما زادَ على الشبع بالإجماع أيضاً، وفي الشبع روايتانِ، أظهرُهُما لا يباحُ، فإذا اندفعتِ الضرورةُ لم يحلَّ له الأكلُ كحالة الابتداء، ولأنَّه بعد سدِّ الرمق غير مضطر، فلم يحلَّ له الأكل للآية، والرواية الثانية: يباحُ له الشِّبَعُ، كما روى **جابرُ بنُ سَمُرة**: أنَّ رجلاً نزلَ الحَرّةَ ومعه أهله وولده، فنفقت عنده ناقةٌ، فقالت له امرأتُهُ: اسلخها حتى نقدِّدَ شحمَها ولحمَها ونأكلَه، فقال: حتّى أسألَ رسولَ اللهِ ﷺ، فسأله، فقال: «**هل عندكَ غنًى يغنيك؟**» قال: لا، قال: «**فَكُلُوْهَا**» [رواه أبو داود (٣٨١٦) وأحمد (٢٠٨٠٠)].

ولأن ما جاز سدُّ الرمق منه، جاز الشبع منه كالمباح، ويحتمل أن يفرِّقَ بين ما إذا كانت الضرورة مستمرة، وبين ما إذا كانت مرجوَّةَ الزوالِ، فما كانت مستمرة، كحالة الأعرابي الذي سأل رسولَ اللهِ ﷺ، جاز الشبعُ، لأنه إذا اقتصرَ على سد الرمق عادت الضرورةُ إليه عن قربٍ، ولا يتمكَّنُ من البعدِ عن الميتة مخافة الضرورةِ المستقبلة، ويُفضي إلى ضعف بدنه، وربما أدى ذلك إلى تلفه»[(١)].

وهذا تحقيق سديد ومفيد، فإذا كانت الضرورة مؤقتة ويرجو زوالها اقتصر على ما يسدُّ رمقه، ويحفظُ حياته، وأما إذا كانت الضرورة مستمرةً فله أن يأكلَ حتَّى يشبعَ. والله سبحانه أعلم.

وينبغي التنبيه إلى أنَّ مَنْ يستطيعُ تحصيلَ الطعام الحلال كالسمك، والطعام المصنوع من الخضار ولحم الدجاج المذبوح ذبحاً شرعيّاً، لا يُعَدُّ مضطرّاً إذا عافت نفسُه هذا الطعام، وتاقت إلى لحوم الأنعام من الإبل والغنم والبقر، فالضرورةُ تقدَّر بقدرها.

- **الطيِّبات:**

وبعد أن بيَّن الله سبحانه ما حرّمه علينا من لحم الحيوانات، شرع سبحانه في بيان ما أحلَّ لنا فقال:

---

(١) انظر: المغني: ٨/ ٥٩٥.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ﴾ وقد جاء هذا البيانُ جواباً لسؤال وُجّه للنبيِّ ﷺ، كما هو ظاهر.

والطيِّبات والطيِّب، ضد الخبائث والخبيث.

وقد وصف الله تعالى النبيَّ ﷺ بأنه: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فكل طيِّبٍ حلالٌ في شريعة الإسلام، وكلُّ خبيثٍ حرامٌ فيها أيضاً.

ومعنى **الطيِّب**: الذي يُستلذُّ ويُستطابُ لخلوِّه عن المكروه، طاب الشيء طيباً: لذَّ وزكى، فالأرضُ الطيبة التي تصلحُ للنبات، وريحٌ طيِّبة إذا كانت ليِّنة رخيّة، وطُعمةٌ طيبة إذا كانت حلالاً، وامرأة طيِّبةٌ إذا كانت حَصاناً عفيفة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور: ٢٦]، وكلمة طيِّبة إذا لم يكن فيها مكروه، ونكهة طيِّبة إذا لم يكن فيها نتن، وطعام طيِّب الذي يستلذ الآكل طعمه[١].

وأصل **الخُبْث** في كلام العرب: المكروه، فإن كان من الكلام فهو الشتم، وإن كان من المِلَل فهو الكفر، وإن كان من الطعام فهو الحرام، وإن كان من الشراب فهو الضارُّ، ومنه قيل لما يُرمى من منفيِّ الحديدِ: الخَبَثُ، وخَبَثُ الحديد والفضة ما لا خيرَ فيه، وقوله ﷺ: «**مَنْ أكلَ مِنْ هذهِ الشجرةِ الخبيثةِ شيئاً، فلا يَقْرَبَنَّا في المسْجِدِ**» [رواه البخاري (٨٥٣) ومسلم (٥٦٥)]، يريدُ الثومَ والبصلَ والكُرّاثَ، وخبثُها من جهة كراهة رائحتها[٢].

(١) انظر: لسان العرب: ١/ ٥٦٣.

(٢) لسان العرب: ٢/ ١٤٤.

فالطيِّب من الطعام ما خلا عن المكروه في البدن والدين، فلا ضرر منه على البدن ولا على الدين، ولهذا ذهب أكثر المفسرين إلى القول بأن الطيبات هي الحلال.

قال سعيد بن جبير: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ يعني الذبائح الحلال الطيبة لهم. وقال مقاتل: **الطيِّبات**: ما أحلَّ لهم من كل شيء أن يصيبوه وهو الحلال من الرزق(١).

- **صيد الجوارح:**

﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ أي: وأُحلَّ لكم صيدُ ما عَلَّمتم من الجوارح؛ مثل: الكلاب والفهود والصقور وأشباهها، سُميت جوارح من الجرح وهو الكسب، تقول العرب: فلان جرَح أهله خيراً، أي: كسبهم خيراً، ويقولون: فلان لا جارح له، أي: لا كاسب له، قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] أي: ما كسبتم من خير أو شر(٢).

ومعنى ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ أي: معلميها فنَّ الصيد، لهذا قال سبحانه بعدها: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

والصيد من أكبر مصادر الطعام للإنسان، أباحه الله تعالى خارج أرض الحرم وفي غير حال الإحرام، فللإنسانِ أن يصطادَ بوساطة آلاتِ الصيدِ الجارحةِ، أو بوساطة الحيوانِ الجارحِ المدرَّب على الصيد، دلَّ على ذلكَ قوله تعالى:

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فمتى كان الجارحُ معلَّماً، وأمسك على صاحبه، وكان صاحبُه قد ذكر اسم الله عند إرساله حلَّ الصيد، ولو قتله الجارحُ.

ويشترطُ في حالِ قتلِ الجارح الصيدَ أن يكونَ قتلُه حدثَ بسبب ما أحدثَ

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ١٥.

(٢) المرجع السابق نفسه.

فيه من جرْحٍ، أما إذا قتله خنقاً فلا يحلُّ أكلُه، لأنه أصبحَ من المنخنقة التي حرّمها الله تعالى، قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «لو ماتَ الصيدُ في أفواه الكلاب من غير بَضْعٍ ـ أي جَرْحٍ ـ لم يؤكل، لأنّه مات خنقاً»[١].

وهذا يدلُّ على أن الصيد بواسطة الشراك المفخَّخة إذا مات الحيوان فيها خنقاً، لا يحلُّ أكله أيضاً، أما إذا أدركه الصيّاد حيّاً فذبحه فيحلُّ حينئذٍ أكله.

وجاءت السُّنَّة الشريفة بمثل ما دلَّت عليه الآية الكريمة، ففي «الصحيحين»: عن **عدي بن حاتم** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ إنِّي أرسلُ الكلابَ المعلَّمةَ، وأذكرُ اسمَ الله عليها، فقال ﷺ: «**إذا أرسلتَ كلبَكَ فاذكر اسمَ اللهِ، فإنْ أمسكَ عليكَ فأدركتَهُ حيّاً فاذْبَحْهُ، وإن أدركتَه قد قُتِلَ، ولم يأكلْ منه فكُلْه، فإنَّ أخْذَ الكلبِ ذكاتُهُ**» [رواه البخاري (٥٤٨٣) ومسلم (١٩٢٩/ ٦)].

وفي روايةٍ لهما: «**فإنْ أكلَ فلا تأكلْ فإنِّي أخافُ أن يكونَ أمسكَ على نفسِهِ**» [البخاري (٥٤٨٧) ومسلم (١٩٢٩/ ٢)].

وليس قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ على إطلاقه، فهو مقيّدٌ بالصيدِ من الحيواناتِ التي أحلَّ الله تعالى أكلها كالأرانبِ والغزلانِ والبطِّ والحمامِ والعصافيرِ وغَيرها مما لم يرد فيها تحريمٌ.

أمّا الحيواناتُ التي ورد فيها تحريم فلا يحلُّ أكلها، يحلّ فقط الانتفاع بالأجزاء الطاهرة منها، كريشها وشعرها وعظامها وعاجها، كما يحلُّ الانتفاع بجلودِها إذا دُبغت، قال النبيُّ ﷺ: «**أيّما إهابٍ دُبغَ فقد طَهُرَ**» [رواه الترمذي (١٧٢٨) والنسائي (٤٢٤١)].

وقال أيضاً لما ماتت شاة لأم المؤمنين ميمونة: «**هلّا انتفعتم بجلدها**» قالوا: إنّها ميتةٌ، قال: «**إنّما حَرُمَ أكلُها**» [رواه البخاري (٥٥٣١) ومسلم (٣٦٣)].

فكل جلود الحيوانات تطهرُ بالدباغ إلا جلد الخنزير لأنّ عينه نجسة.

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٧١.

• ما يحرم أكله من الحيوانات:

والحيوانات التي يحرم أكلُها كلُّ حيوانٍ ذي ناب يصيدُ بنابه، أو ذي مِخْلَبٍ يصيدُ به، والمخلبُ الظفر، من السباع والطيور، ودليل تحريم أكلها أنّه ﷺ **نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير**. [رواه مسلم (١٩٣٢) وأبو داود (٣٨٠٢) ومالك في الموطأ (١٣) كتاب الصيد].

ولأن طبيعة هذه الحيوانات مذمومة شرعاً، فهي حيوانات جارحة قاتلة مؤذية، يُخشى أن يتولَّد من لحمها شيءٌ من طباعها، فيحرم أكلها إكراماً لبني آدم[1]، كما أنها تأكل الجيفَ، فقد تُسبِّبُ لآكلها كثيراً من الأمراض.

وكذلك يحرمُ أكل هوامّ الأرض والحشرات كالفأرة والوزغ ـ وهو سام أبرص ـ والقنفذ والحية والعقرب والضفدع والزنبور والبرغوث والقمل والذباب والبعوض والقراد[2]؛ لأنها من الخبائث، قال رسول الله ﷺ: «**خَمْسٌ من الدوابِّ كلهنَّ فاسقٌ يُقْتَلْنَ في الحَرَمِ: الغرابُ، والحدَأَةُ، والعقربُ، والفأرةُ، والكلبُ العقورُ**» [رواه البخاري (١٨٢٩)].

ويدلُّ حِلُّ قتْلها في الحرم على تحريم أكلها، لأنَّ المباح لا يقتل، بل يُصاد أو يُذبح[3].

ويحرم أيضاً أكلُ لحوم الحمر الأهلية، بخلاف الوحشية فإنّها ولبنها حلال، لما روي عن **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ **نهى عن متعةِ النساءِ يومَ خيبر وعن لحومِ الحُمُرِ الإنسية**. [رواه البخاري (٤٢١٦) ومسلم (١٤٠٧)]. **ومتعة النساء**: أي الزواج بهن بعقد لوقت معين.

وعن **جابر** رضي الله عنه قال: أكلنا زمنَ خيبرَ الخيلَ وحُمُرَ الوحش، ونهانا النبي ﷺ عن الحمار الأهلي. [رواه مسلم (١٩٤١)].

---

(١) انظر: حاشية ابن عابدين: ٥/ ١٩٣.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) انظر: أحكام الأطعمة، ص٢٥٩.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

- **حكم ذبائح اليهود والنصارى:**

وبعد أن ذكر تعالى ما حرَّم من الخبائث وما أحلَّ من الطيِّبات قال:

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٥﴾.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾، ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتاب فقال تعالى:

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس: يعني ذبائحهم، وهذا أمرٌ مجمَعُ عليه بين العلماء، أن ذبائحهم حلالٌ للمسلمين، لأنّهم يعتقدون تحريمَ الذبح لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزَّه عنه تعالى وتقدَّس[١].

وقال القرطبي رحمه الله: «لمّا كان القياسُ ألا تجوزَ ذبائِحُهم، كما نقول: إنّه لا صلاةَ لهم، ولا عبادةَ مقبولة، رخَّصَ الله تعالى في ذبائحهم على هذه الأمة، وأخرجها النصُّ عن القياس»[٢].

وقوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ يدلُّ على أنَّ ما كان محرَّماً عليهم في شرائعهم وأُحِلَّ في الشريعة الإسلامية أصبحَ حلالاً لهم، لأنَّ الشريعة الإسلامية نسخت العمل بالشرائع السابقة، فقد أصبح التحليل والتحريم مرتبطاً بشريعتنا الإسلامية فقط، ولذلك لو أطعمونا خنزيراً أو نحوه وقالوا: هو حلال في شريعتنا، وقد أباحَ الله لكم طعامنا، كذبناهم، وقلنا: إن الطعام الذي يحلُّ لكم في شريعتنا هو الذي

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ١٩.
(٢) تفسير القرطبي: ٦/ ٧٧.

يحل لنا لا غيره، فحاصل المعنى: طعامُهم حلٌّ لكم إذا كان من الطعام الذي أحللته لكم[١].

فقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ ليس على عمومه، بل هو مخصص بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ...﴾ الآية [المائدة: ٣]، فلو علمنا أنّ أهل الكتاب يذبحون ذبحاً يجعل البهيمة في حكم الميتةِ حرمت، كما لو فعل ذلك المسلم، لأنهم ليسوا أعلى من المسلمين، بل هم في هذا الباب كالمسلمين، فكلُّ ذبح من مسلم أو كتابي يجعل الذبيحةَ في حكمِ المنخنقة أو الموقوذة أو المتردية أو النطيحة، ذبحٌ يحرِّم أكلَ البهيمةِ، ويجعلُها في عداد الميتات لما مرّ معنا في الآية الكريمة التي يُخَصّ بها عموم قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ فالبهائمُ التي يذبحونها بوساطة الصعق الكهربائي أو الضرب على الرأس أو الخنق لا يحلُّ أكلها، لأنها في حكم الميتة والموقوذة والمنخنقة.

● **آراء شاذة:**

هذا هو الحق الذي درج عليه علماء المسلمين وعامتهم، ولا عبرة برأي من شذَّ عن الحق، وزعم أنه يتمسَّك بعموم قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾.

ذهب إلى هذا الرأي الشاذ الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه «الحلال والحرام في الإسلام»، وقد سبقه إليه محمد رشيد رضا وأستاذه محمد عبده، في الفتوى المشهورة عنه، والتي عُرفت بالفتوى الترنسفالية، لأنها صدرت ردّاً على سؤال جاء من بلاد الترنسفال في البلقان، كما ذهب إليه بعضُ المتأخرين من فقهاء المالكية.

ولا دليلَ لأصحاب هذا القول من علماء وفقهاء المذهب المالكي سوى جملةٍ ذكرت على لسان القاضي أبي بكر ابن العربي في كتابه «أحكام القرآن»، وهي: «ولقد سُئلتُ عن النصرانيِّ يَفْتِلُ عنقَ الدجاجةِ ثم يطبخُها، هل تؤكل معه

---

(١) انظر: روح المعاني: ٦/ ٦٥.

أو تؤخذ منه طعاماً؟ فقلتُ: تؤكل، لأنّها طعامه، وطعام أحباره ورهبانه، وإن لم تكن هذه ذكاة عندنا».

وليس في هذا ما يصلح دليلاً علميّاً، لأنَّه ذكر بعد ذلك في الكتاب نفسه وفي الصفحة نفسها ما يناقضه ويسقطه، ففي [صفحة ١/ ٢٢٩ الطبعة الأولى]: «**فإن قيل**: فما أكلوه على غيرِ وجه الذكاةِ كالخنقِ والحَطْمِ، **فالجواب**: إن هذا ميتة، وهي حرامٌ بالنص، وإن أكلوها فلا نأكلها نحن كالخنزير، فإنه حلال لهم ومن طعامهم، وهو حرامٌ علينا»[1].

• أهل الكتاب:

المراد بأهل الكتاب في القرآن الكريم **اليهود والنصارى**، وهو قول عامة المفسرين[2]، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آل عمران].

وسيأتي معنا قوله تعالى في **سورة المائدة**: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ . . .﴾ الآية.

ولا شك أنّ اليهود والنصارى هم الذين أنزل الله عليهم التوراة والإنجيل؛ قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما المجوس فالعلماءُ مجمعون، إلا من شذَّ منهم، على أنّ ذبائحهم لا تؤكل، ولا يُتزوَّجُ منهم، لأنهم ليسوا أهل كتاب»[3].

---

(١) انظر كتاب المؤلف: نظرات في كتاب «الحلال والحرام في الإسلام».

(٢) انظر: فتح القدير: ٢/ ١٤؛ وتفسير أبي السعود: ٢/ ١٠؛ و«نظرات في كتاب الحلال والحرام».

(٣) تفسير القرطبي: ٦/ ٧٧.

• **المحصنات الكتابيات:**

وكما أنّ في الطعام ما هو طيِّبٌ وخبيث، فإن في النساء أيضاً طيِّبات وخبيثات، والنساء الطيبات هنَّ النساء العفيفات، سواء كنَّ من المسلمات أو الكتابيات، قال تعالى:

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ قال ذلك في سياقِ العطف على الطيِّبات، أي: وأحلَّ لكم نكاح المحصناتِ من المؤمنات والمحصناتِ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، فدلتِ الآيةُ الكريمةُ على حلِّ الزواج من اليهوديات والنصرانيات.

وخصصت هذه الآية عمومَ قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وشرط الله تعالى أن يعامَلْنَ كما تعامَلُ النساء المسلمات من حيث تقديم المهر لهنَّ فقال:

﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

وكذلك شرط سبحانه العفَّة في الرجال كما شرطها في النساء فقال:

﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ أي: غير مجاهرين بالزنى، ولا متخذي عشيقات.

ثم ختم سبحانه الآية محذراً من الكفر بعد الإيمان، ومبيِّناً ما يترتب على ذلك من حبوط ثواب الأعمال الصالحة، وبطلانها في الدنيا، والخسارة الكبرى يوم القيامة، فقال:

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، وجاء هذا تذييلاً لقوله في صدرها: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ تعظيماً لشأنِ ما أحلَّه الله تعالى وما حرَّمه وتغليظاً على من خالف ذلك(١).

---

(١) انظر: روح المعاني: ٦/ ٦٧.

النداء الثالث

الأمر بالطهارة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

• **تمهيد:**

اعتنى القرآن الكريم بإظهار السِّمات والخصائص التي يتميز بها الإسلام عن غيره من الشرائع والأديان، ومن هذه الخصائص أنّه دين التوسط والاعتدال، ولهذا فإنَّ في الشريعة الإسلامية مختلف الأحكام التي تلبي كل حاجات الإنسان الجسدية والروحية، والعقلية والعاطفية، والدينية والدنيوية، وتراعي التوازن والتوسط فيما بينها بحيث تحقق للإنسان سعادته في الدنيا والآخرة.

هذا الاهتمام القرآني بخصائص الإسلام وميزاته، لا نراه في موضوعات الآيات والسور فحسب، إنما نراه أيضاً في ترتيب الآيات واتّساقها فيما بينها وفي موقع كل آية بالنسبة لسباقها وسياقها.

انظر على سبيل المثال إلى أسلوب القرآن الكريم في تهذيب النفوس،

وتربيتها في الترغيب تارةً والترهيب أخرى، وكيف قرن بين آيات الترغيب وآيات الترهيب بحيث يبقى الإِنسانُ بين الرغبة والرهبة، والرجاء والخوف.

وهكذا الحال في الموضوعات الأخرى، فثمة حِكَمٌ وأسرارٌ في مواقع الآيات من بعضها، وكذلك لموقع الكلمة القرآنية بين كلمات الآية الواحدة، وما أكثر ما استدل العلماءُ على المعنى المراد من الكلمة القرآنية من موقعها بين الكلمات المجاورة لها.

• **طيبات الروح:**

وقد جاء **النداء الثالث** يبين أحكاماً تتعلق بأهم العبادات، وهي عبادة الصلاة، بعد ما سبق بيانه من أحكام تتعلَّق بالطعام، وهو من مطالب الإنسان المادية الجسدية، للتوفيق والموازنة بين حاجات الإنسان الجسدية في الطعام والشراب، وتطلعاته الروحية إلى عبادة الله تعالى، ولعلّ العلَّامة الآلوسي رحمه الله قصدَ هذا المعنى عندما قال في بداية النداء الثالث: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ شروع في بيان الشرائع المتعلِّقة بدينهم بعد بيان ما يتعلَّق بدنياهم»[1].

وجاء بعده سيد قطب رحمه الله فقال: «إنها لفتة إلى لونٍ آخرَ من الطيبات، طيباتِ الروح الخالصة، إلى جانب طيباتِ الطعام والنساء، لونٍ يجدُ فيه قلبُ المؤمن ما لا يجده في سائر المتاع، إنّها لذة اللقاء مع الله عز وجل في جوٍّ من الطهر والخشوع، فلما فرغ من الحديث عن متاع الطعام والزواج، ارتقى إلى لذة الروح والقلب في الطهارة والصلاة، التي بها تتكامل حياة الإنسان»[2].

• **الوضوء والغسل والتيمم:**

ولما كانت الطهارةُ من الحَدَثين الأصغر والأكبر، بالوضوء والغسل أو بما

---

(١) روح المعاني: ٦/ ٦٨.

(٢) انظر: في ظلال القرآن: ٢/ ٨٤٩.

يقوم مقامهما من التيمم، شرطاً أساسيّاً لصحة الصلاة، بيّن الله سبحانه أحكام الطهارة بقوله الكريم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٦﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة.

﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ وهذه هي الفروض الأساسية للوضوء التي لا يصحُّ دونها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ بقراءة النصب، يدل على فرض غسل القدمين إلى الكعبين في الوضوء، وأما بقراءة الخفض فتدل على مشروعية المسح على الخفين، وأنَّ ذلك يقومُ مقام غسل القدمين بالشروط المذكورة في كتب الفقه، أو نقول: جاءت قراءة الخفض لتناسُب الكلام والمجاورة، وهذا ذائع وشائع في كلام العرب كقولهم: «جحرُ ضبٍّ خَربٍ»، وقوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ﴾ [الإنسان: ٢١] وعلى كل تقدير فالواجب غسل الرجلين فرضاً لا بدَّ منه(١).

ثم بيَّن الله تعالى وجوبَ الغسل من الحدث الأكبر، وهو الجنابة، بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢/٢٦.

ثم شرع سبحانه التيمم ليقوم مقام الوضوء والغسل عند فقد الماء، أو تعذُّرِ استعماله بسبب المرض، فقال:

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

وبيَّن سبحانه كيفية التيمم، وأنّه يكونُ بمسح الوجه واليدين بالصعيد الطاهر فقال:

﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾[1].

ثم ختم الله سبحانه الآية الكريمة، كما ختم آيةَ المحرّمات من الطعام، ببيان سماحة الشريعة الإسلامية ويُسْرِ أحكامها، فقال تعالى:

﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ وهذا من فضله سبحانه ومِنَّته العظمى على هذه الأمة المسلمة، فلا تتمُّ نعمةُ الله على الإنسان إلا إذا تعلَّم هذه الأحكام وعمل بها، فيكونُ حينئذٍ حقّاً من الشاكرين:

﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

- **التذكير بالميثاق:**

وناسب بعد بيان هذه النعم الجزئية، أن يذكِّرهم بنعمته الشاملة الكبرى، وهي نعمةُ الإسلام والإيمان:

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾.

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فالله سبحانه يطالِبُ المؤمنين بهذا التذكير أن يوفوا بعقدهم وميثاقهم معه سبحانه، ويحذّرهم عواقبَ نقض العهد والعقد معه كما فعل بنو إسرائيل من قبلهم، فالتذكير بالنعمة والميثاق يستدعي للوفاء به القيام بالتكاليف التي كلَّفنا الله بها.

---

(١) راجع تفسير الآية (٤٣) من سورة النساء في تفسيرنا هذا.

والمراد بالميثاق: عهدهم الذي عاهدوا رسول الله ﷺ عليه عند دخولهم في الإسلام، أو هو ميثاق الفطرة الأول الذي أخذه الله تعالى على بني آدم حين استخرجهم من صُلْب أبيهم آدم، وهم في عالم الذَّرِّ والنُّطَفِ، والذي أخبرنا الله سبحانه به في قوله الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ولا يؤدي حق هذا الميثاق ويفي به إلا من يتقي الله تعالى، ولهذا ختم الآية بقوله تعالى:

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.



النداء الرابع

الأمر بالعدل

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾

بيَّن الله تعالى للمؤمنين بهذا النداء الكيفية العملية للمحافظة على ميثاقهم مع الله تعالى، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

إنّ المحافظة على عهد الله وميثاقه تستدعي القيامَ بأربعةِ أمورٍ؛ هي:

١ ـ القيام لله.

٢ ـ الشهادة بالقسط.

٣ ـ التزام العدل في معاملة الآخرين ولو كانوا أعداءً لنا.

٤ ـ التزام التقوى.

ولا يقوم بهذه الأمور الأربعة إلّا مَنْ جاهدَ نفسَه، وقمع هواه، وقدَّم أمر الله وشرعه على أمر نفسه ومصلحته، فقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ أي: كونوا كثيري القيام بحقوق الله،

مداومين على ذلك، ونبه بلفظ ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ إلى أن القيام بأمر الله لا يكفي مرَّة أو مرَّتين، بل يجب أن يكون ذلك أمراً دائماً ولازماً ومستمرّاً.

﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ولا تكون الشهادة بالقسط، وهو العدلُ، حتى تخلو عن كل المؤثرات الخارجة عنها.

فكثيراً ما يخضعُ الشهودُ عند أداء الشهادة لضغوط مصالحهم الخاصة، أو لضغوط العلاقات الاجتماعية من قرابةٍ أو صداقةٍ أو جوارٍ، فإذا تمكَّن الشاهدُ من تجريد شهادته عن كل هذه المؤثرات، كان بحق شاهداً بالقسط، وكانت شهادته لله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النِّسَاء: ١٣٥].

فمن نجح في الوفاء بعهد الله وميثاقه فاز ونال ما وعد الله به في قوله الكريم:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾.

ومن نقض عهد الله وميثاقه فكذَّب وكفر، استحقَّ وعيدَ الله في قوله:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾.



النداء الخامس

التحذير من نقض الميثاق، وذكر نعمة الله

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ

وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾

وجاء **النداء الخامسُ** للمؤمنين يذكّرهم بنعمته سبحانه عليهم بكفّ شرّ الكفار عنهم، ويبيِّن لهم أنَّ التزام التقوى والتوكل على الله وحده أهمُّ أسباب الوقاية والحفظ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

والقوم الذين همُّوا بأن يبطشوا بالمؤمنين هم مشركو قريش، أو يهودُ المدينة المنورة، وكلاهما همَّ بذلك، إلا أنَّ سياق الآيات تتحدّثُ عن اليهود ونقضهم للعهد والميثاق ـ كما سيأتي ـ وهذا يرجِّحُ أنَّ اليهود هم الذين تعنيهم الآية الكريمة، وأنّ هذا النداءَ جاء توطئة للحديث عن أكثر الناس نقضاً لعهد الله وميثاقه.

- **الناقضون الميثاق:**

أخذ الله تعالى العهد والميثاق على بني إسرائيل، واختار من كل قبيلة من قبائلهم الاثنتي عشرة رجلاً من علمائهم وأشرافهم نقيباً عليهم، ومهمة هؤلاء النقباء أن يشرفوا على تنفيذ العهد ورعايته.

﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ﴾.

وأخبرهم سبحانه أنّه معهم يؤيدهم وينصرهم إذا أوفوا بالعهد، فأقاموا الصلاة، وأدَّوْا الزكاة، وآمنوا برسل الله تعالى، ودافعوا عنهم، وأنفقوا أموالهم في سبيل طاعة الله ومرضاته:

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

وأخبرهم أيضاً أنَّ لهم إن فعلوا هذا إلى جانب النصر والتأييد في الدنيا، أن يكفِّر اللهُ عنهم سيئاتهم يومَ القيامةِ، ويدخلهم الجنة:

﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ﴾.

ثم بيّن عاقبة الغَدْر والكفر فقال:

﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

ويلاحظ في الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني إسرائيل أنه تضمَّن وجوب الإيمان بجميع رسلِ الله تعالى، فلم يفعل اليهود ذلك، بل قالوا: نؤمن ببعضٍ ونكفرُ ببعضٍ، وكذلك أخذ الله عليهم العهدَ أن يدافعوا عن الرسل وينصروهم، ولكنَّ أيدي اليهود الآثمة امتدَّت إلى الرسل بالقتل، وهمُّوا أكثر من مرّةٍ بقتل سيد الرسل وخاتمهم محمد ﷺ، وقد سجّلَ الله سبحانه جرائمهم هذه في آيات كثيرة؛ منها قوله ﷻ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النِّسَاء: ١٥٥].

ونتيجة نقضهم للميثاق لعنهم الله سبحانه وأبعدهم عن رحمته:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾.

كما جعل قلوبهم غليظة يابسة لا تقبل الحق ولا تذعن له:

﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ﴾.

حتى تجرّؤوا على كتاب الله الذي أنزله عليهم فحرَّفوه وغيَّروه:

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦۙ﴾.

وتركوا قسماً كبيراً مما كُلِّفوا به:

﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾.

وأصبحت الخيانةُ لازمةً لهم:

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ كعبد الله بن سلام رضي الله عنه.

والتعبير القرآني الخاص عن واقع حال اليهود مع رسول الله ﷺ تعبيرٌ طريف: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ الفِعْلة الخائنة والنيّة الخائنة والكلمة الخائنة والنظرة الخائنة... يجملها النصُّ بحذف الموصوف وإثبات الصفة (خائنة) لتبقى الخيانة وحدها مجرَّدة، تملأ الجوَّ وتلقي ظلالها وحدها على القوم، فهذا هو جوهر موقفهم مع رسول الله ﷺ[1].

ومع ذلك أُمر رسول الله ﷺ أن يعفو عنهم ويصفح:

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ولعلَّ الأمر محمول على الندب والاستحباب، تأليفاً لهم، وصفحاً عن الإساءات التي صدرت منهم بحق رسول الله ﷺ.

- **نقض النصارى للميثاق:**

وكما نقض اليهود الميثاقَ نقض النصارى الميثاقَ أيضاً:

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ أي: قالوها دعوى دون أن يحقِّقوها في حياتهم، وذلك أنهم سمَّوا أنفسهم بهذا الاسم ادعاءً لنصرة الله تعالى[2].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٢/ ٨٥٩.

(٢) التفسير الكبير: ١١/ ١٨٨.

﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ وكان توحيدُ الله أساسَ الميثاق، ومنه كانت نقطة انحرافهم ونقضهم للميثاق.

﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ فتركوا قسماً كبيراً من دين الله وشرعه الذي كُلِّفوا به، وتفرَّقوا إلى فرقٍ وأحزابٍ متعادية ومتباغضة، فجعل الله سبحانه العداوة والبغضاء لازمةً لهم، ولاصقةً بهم إلى يوم القيامة:

﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ وصدق الله تعالى؛ فالخلافات والعداوات القائمة بين الأمم النصرانية كانت ولا تزالُ لازمةً لهم، ولاصقة بهم.

- **حاجة أهل الكتاب إلى رسالة الإسلام:**

أرسل الله تعالى رسوله محمداً ﷺ إلى أهل الأرض جميعهم؛ عربهم وعجمهم، أمِّيِّهم وكتابيِّهم، واتجهت الآيات الكريمة تخاطِبُ أهل الكتاب من اليهود والنصارى، لتؤكِّدَ عمومَ رسالة النبيِّ ﷺ، وأنّه أُرسل إليهم وإلى غيرهم، فكونهم أهلَ كتابٍ لا يعني أنَّهم غير مكلَّفين برسالة الإسلام، فهم في أشد الحاجة إلى رسالة الرسول ﷺ، رسالةِ الإسلامِ الناسخةِ لكلِّ الشرائع والملل السابقة:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ﴾. ومن خلال هذا الخطاب الموجَّه إلى اليهود والنصارى، بيَّن اللهُ شدّةَ حاجتهم إلى رسالة النبيِّ ﷺ، وضرورة الرسالة الإسلامية إليهم، التي جعلها الله رسالةَ التيسير والسماحة، ولهذا قال الله بعدها: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ﴾ لأنه ﷺ جاء بالتيسير، فأحلَّ لهم الطيِّبات، وحرّم عليهم الخبائث، ووضع عنهم التكاليف الشرعية الثقيلة التي كانوا مكلَّفين



بها، كما جاء في آية **سورة الأعراف** [١٥٧]: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾ وهو ﷺ نور الأنوار والنبي المختار، الذي نوّره الله تعالى ونوّر به العالمين فجعله سراجاً منيراً.

﴿وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ وهو القرآن الكريم والتنزيل الحكيم.

- **سبل السلام:**

﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦)﴾.

﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ طرق السلامة من كل مخافة، وما أكثرها فيهم! المخافة من الحروب والنزاعات القائمة بينهم، ومن القلق والاضطراب الذي يملأُ قلوبهم، ويسيطِرُ على نفوسهم، حتى شاعت فيهم الأمراضُ النفسية والجسدية.

أو: هي السبلُ التي توصلهم إلى الله، والسلام اسم من أسمائه الحسنى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

أو: السبل التي توصلهم إلى جنة الله تعالى ورضوانه، والجنة دار السلام: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥] فالجنة دار السلام، لأنها سالمة عن كل المنغِّصات، فلا همَّ فيها ولا حزن، ولا خوف ولا قلق.

﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ ظلمات الكفر والضلال، وظلمات المادية الملحدة الباغية، وظلمات الانحلال والشهوات الطاغية.

﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بتوفيقه وهدايته.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ دين الإسلام دين الإنسان والسلام.

- **من ضلالات أهل الكتاب:**

ومما يؤكِّد حاجةَ أهل الكتاب إلى رسالة الإسلام، الضلالات الكبرى في عقائدهم، والتي أصبحوا بها كافرين؛ قال تعالى:

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.

وردّ الله سبحانه عليهم بتبكيتهم، وبيان بطلان قولهم:

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

فعيسى عليه السلام شأنه شأنُ جميع المخلوقات داخل في ملكوته سبحانه وتحت قهره ومشيئته:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ومن ضلالات أهل الكتاب التي انتشرت وشاعت بين اليهود والنصارى، الدعوى الباطلة التي جعلتهم يرون لأنفسهم امتيازاً وتفوُّقاً على غيرهم من البشر:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ وهي أصلُ أفكار التمييز العنصري واللوني المنتشرة بينهم، والتي دفعتهم إلى استعمار الأمم والشعوب، وسرقة خيراتها، ونهب ثرواتها.

وبيَّنَ الله سبحانه بطلان هذه الضلالة الفاشية بينهم فقال:

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ﴾ بالبلايا والمحن والمصائب في الدنيا، وفي النار يوم القيامة.

﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ﴾ لا امتياز لكم عليهم.

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ وهم المؤمنون بالله تعالى وحده، وبرسله عليهم السلام دون تفريق بينهم.

﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ وهم الذين كفروا به سبحانه وبرسله عليهم السلام.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

- **جاء البشير النذير ﷺ:**

وكرّر الله تعالى النداء لأهل الكتاب ليؤكد أن سيدنا محمداً ﷺ أُرسل إليهم كما أُرسل إلى غيرهم، وأنه عليه الصلاة والسلام جاء مبشراً لمن آمن برسالته برحمة الله ورضوانه وجنته، ومنذراً من أعرض عن رسالته بغضب الله وسخطه وعذابه، وأنّ بعثته عليه الصلاة والسلام جاءت بعد انقطاع رسالات الله تعالى لفترة امتدت من عهد عيسى عليه السلام إلى عهده ﷺ على مدى ستة قرون متوالية تقريباً، وقد أصبح الناسُ عامةً، وأهلُ الكتابِ خاصةً، في أمسِّ الحاجة إلى رسالته عليه الصلاة والسلام، فلا حُجَّة لأحد بعد أن بُعث النبي البشير النذير

ﷺ، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يقول: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاء البشير النذير وأقام الله بذلك حجَّته الكبرى على خلقه:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾.

جاء في الحديث النبوي: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا أولى الناسِ بابنِ مريمَ، لأنّه ليسَ بيني وبينه نبيٌّ**» [رواه البخاري (٣٤٤٣)].

- **جحود وخذلان:**

بيّنت الآياتُ الكريمة التاليةُ مواقفَ بني إسرائيل من نبيِّ الله موسى عليه السلام توطئة وتمهيداً لبيان مواقفهم من سيدنا رسول الله ﷺ، فمن المعلومِ أنَّ اليهودَ كانوا يشكلون قسماً كبيراً من سكان المدينة المنورة عندما هاجرَ إليها رسولُ اللهِ ﷺ، وكانوا قبل بعثته عليه الصلاة والسلام يتوقعون بعثته، ويستفتحون به، أي يسألون الله النصرَ به عليه الصلاة والسلام لما يجدون في التوراةِ من نعوته وصفاته، فلمّا بُعِثَ ﷺ، وهاجرَ إلى المدينة، ورآه اليهود، وتأكدوا أنّه حقّاً النبيُّ المنتظر، كفروا به، وجحدوا نبوته، وأنكروا رسالته عليه الصلاة والسلام إلا قليلاً منهم، وسجّلَ الله موقفهم هذا بقوله الكريم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٨٩].

وأما مواقفهم من نبيِّ الله موسى عليه السلام الذي أرسله الله إليهم، وخلّصهم على يديه من ظلم فرعون وطغيانه، الذي كان يذبّحُ أبناءهم، ويستحيي نساءهم، وأنعم الله عليهم إكراماً لموسى عليه السلام نعماً جليلة كتظليل الغمام، ونبع الماء من الحجر، وإنزال المنِّ والسلوى، وفوق كل ذلك أنزل عليهم التوراة نوراً وهدايةً، ومع كلِّ هذه النِّعَم وقفوا من نبيِّ الله موسى موقفَ الجحود والخذلان،

عندما طلب منهم موسى أن يجاهدوا في سبيل الله، ويدخلوا الأرض المقدسة، وقبل أن يطلبَ منهم ذلك ذكَّرهم ببعض نعم الله عليهم:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ وهذا يدل على أنَّ وجودَ الأنبياءِ في أيِّ مجتمعٍ من المجتمعاتِ مِنْ أعظمِ وأجلِّ النِّعَم، فكلّما هلكَ نبيٌّ في بني إسرائيل قامَ فيهم غيرُه من لدن موسى إلى زمن عيسى عليه السلام.

﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أي: تعيشون عيش الملوك لكثرة ما أفاضَ الله تعالى عليكم من رزقه وفضله.

﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في ذلك الزمن[1]، وإلا فإنّ الأمة المسلمة أشرف منهم، وأفضل عند الله، وأكمل شريعةً، وأقومُ منهاجاً، وأكرم نبيّاً ﷺ، وأكثرُ أرزاقاً وأموالاً، وأوسع ملكاً، وأدومُ عزّاً[2].

﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ وهي أرضُ فلسطين من بلاد الشام.

والمقدَّسة: المطهرة، ولعلّ ذلك بسبب كثرة الأنبياء الذين عاشوا وماتوا فيها، أو لكون المسجد الأقصى فيها.

---

(١) ما ورد على لسان موسى عليه السلام من ذكر الأنبياء والملوك إنما هو نبوءةٌ منه عليه السلام لما سيظهر في هذه الأمة من ملوك وأنبياء (م).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٧.

﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: التي أمركم الله تعالى بدخولها، وفرضه عليكم، ولا يتمُّ هذا إلا بقتال أعدائكم وجهادهم.

فالكَتْبُ هنا معناه **الفرضُ**، كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وهو ما ذهب إليه السُّدِّي من علماء التفسير[1]. ويرجح هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ أي: لا تنكلوا عن الجهاد.

- **رجلان مؤمنان:**

ولكنّ قوم موسى نكلوا عن الجهادِ جبناً وخوفاً:

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ﴾ هكذا دونَ أن يصفوه بصفة النبوة أو الرسالة التي أكرمه الله تعالى بهما.

﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ وبهذا جمعوا إلى الجبنِ والخوفِ صفةَ العجزِ والكسل.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بصدقِ الإيمانِ والخوفِ من الله تعالى.

﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ أي: اهجموا على أعدائكم، واقصدوا الهدفَ الرئيس وهو بابُ مدينتهم، التي يتحصَّنون فيها.

---

(١) انظر: روح المعاني: ٦/١٠٦.

فإذا ظفرتم بهذا الهدفِ، وتمكَّنتم منه، انتصرتم على عدوِّكم:

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾.

وتوكلوا على الله مع بذل الجهد والتضحية إن كنتم حقّاً مؤمنين به سبحانه:

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

رجلان فقط من أمة اليهود أظهرا صدقَ الإيمان وعزمَ اليقينِ، فنصحا وأخلصا لله في نصحهما، ولكنَّ القلوبَ القاسيةَ الغليظةَ التي ران عليها الخوفُ والجبنُ والعجزُ لم تنتفع بهذا النُّصْح:

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾.

بل ضموا إلى كلِّ ذلك الوقاحةَ وسوءَ الأدب مع الله تعالى، ثم مع نبيِّ الله موسى عليه الصلاة والسلام:

﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ فما أقبح هذا الجواب!.

وما أجملَ ما أجابَ به الصحابةُ ﷺ رسولَ اللهِ ﷺ يومَ بدرٍ حين استشارهم في قتال المشركين، وقال لهم: «**أشيروا عليَّ أيها الناس**» فقال سعد بن معاذ ﷺ: والذي بعثك بالحقِّ لو استعرضتَ بنا هذا البحرَ فخضتَه لخضناه معك، ما تخلَّفَ منّا رجلٌ واحدٌ، وما نكره أن تلقى بنا عدوَّنا غداً، إنا لصُبرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، ولعلّ الله أن يريكَ منّا ما تقرُّ به عينُك، فسِرْ بنا على بركة الله.

وتكلم أيضاً المقداد بن عمرو الكندي ﷺ فقال: واللهِ يا رسولَ اللهِ لا نقولُ كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾،

ولكنّا نقاتِلُ عن يمينِكَ، وعن يسارِكَ، ومن بين يديك، ومن خلفك [رواه البخاري (٣٩٥٢)][(١)].

وتهلّل وجهُ رسولِ اللهِ ﷺ وأشرقَ، وسرَّه ذلك، وحُقَّ له عليه الصلاة والسلام أن يُسَرَّ، ولعَيْنه أن تقرَّ، بما أنعمَ الله تعالى عليه بأصحابه الأخيار الأطهار الصفوة الطيبة المختارة بعد الأنبياء[(٢)].

وحُقَّ لموسى عليه السلام أن يأسفَ ويحزنَ وهو يواجهُ من قومهِ كلَّ هذا الجحود والخذلان، مع الوقاحة وسوءِ الأدبِ، فلا يملكُ إلّا أنْ يتوجَّه إلى اللهِ بكلماتٍ تقطرُ حزناً وأسًى:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

وحَكَم الله تبارك وتعالى عليهم بالحرمان من خيرات الأرض المقدسة وبركاتها مدَّةَ أربعين سنة، حتى انقرضَ جيلُ هؤلاءِ المتخاذلين الجبناء:

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

- **عاقبة الحسد (جريمة القتل الأولى):**

وإذا كان الحرمان عاقبةَ الخذلان، تُرى ما عاقبة الحسد والبغي الذي جعل يهودَ المدينة المنورة يقفون من رسول الله ﷺ مواقفهم المشهورة التي أشرت إليها سابقاً؟ قال الله تعالى:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢/٣٩؛ وانظر: سيرة النبي ﷺ، للمؤلف، ص ٣٣٦.

(٢) انظر ما كتبته عن سورة النمل في هذا التفسير تحت عنوان: (المعجزة والإعجاز في سورة النمل).

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: اقرأ على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم[1].

﴿نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ أي: قَدّمَ كلٌّ واحدٍ منهما عبادةً يَتَقرَّب بها إلى الله.

﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ فقبل الله تعالى عبادة أحدهما.

﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾ وردَّ عبادة الآخر، فحسد المردودُ أخاه المقبولَ، وقال له:

﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾. فردَّ عليه أخوه مبيِّناً سبب قبول الله لعبادته:

﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فالتقوى سبب قبول العبادة.

ثم بيّن موقفه من أخيه الحاسد فقال:

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

إنَّ الخوفَ من الله سبحانه هو السببُ الذي حمله على أنْ يقفَ من أخيه هذا الموقف، ولهذا أردف قائلاً:

﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾ أي: إني أريدُ أن ترجعَ إلى الله يوم القيامة وأنتَ تحمل إثمَ قتلي وإثمَك الذي عليك قبل ذلك.

أو: إنِّي أريدُ أن تحملَ إثمي وإثمك في قتلك إياي، وهذا يتفقُ مع ما ورد

---

(١) هكذا ابتدأ ابن كثير رحمه الله تفسير هذه الآيات: ٢/ ٤١.

في بعض الأحاديث الشريفة الصحيحة بأنه يؤخذُ يومَ القيامة من حسنات القاتل فتعطَى للمقتول، فإذا فنيت حسنات القاتل، ولم يستوفِ المقتولُ حقَّه، أُخذ من خطايا المقتول فطُرحت على القاتل، ثم طُرح في النار، ولهذا ختم كلامه بقوله:

﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقصد بهذا الكلام أن يخوِّفه من عذاب الله يوم القيامة لعله يرتدع وينزجر.

ولكن النفس الحاقدة الحاسدة لم تنزجر ولم تتعظ بل زيّنت لصاحبها جريمة القتل وشجّعته عليها:

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

وهكذا أصبح القاتل من الخاسرين في الدنيا والآخرة، وتلك هي عاقبةُ البغي والحسد، فأيُّ خسارةٍ أعظمُ من هذه الخسارة؟!.

عن **عبد الله بن مسعود** ﵁ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا تُقْتَلُ نفسٌ ظلماً إلا كانَ على ابنِ آدمَ الأول كِفْلٌ مِنْ دَمِها، لأنّه كان أوّلَ مَنْ سَنَّ القتلَ**» [رواه البخاري (٣٣٣٥) ومسلم (١٦٧٧)].

ولم يَدْرِ القاتلُ ما يفعلُ بجسدِ أخيه المقتول حتى علّمه الله تعالى أن يدفنه بالتراب، بواسطة ما أراهُ من صنيع الحيوان:

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

فأصبح من النادمين لا على القتل، بل على كونه لم يعرِفْ في أول الأمر كيفَ يتصرَّفُ بجسدِ أخيه الميتِ، حتى تعلَّمَ ذلك من الغراب.

وهكذا فإنّ أولَ ميتٍ من بني آدم ماتَ بالقتل، وتتابعت بعد ذلك النكبات والمآسي وحمَّامات الدماء والمذابح البشرية الجماعية بسبب الحقد والحسد

والبغي، ولم تتوقّف حتى يومنا هذا، بل ازدادت في عصرنا الحاضر حِدّةً وشدةً وبربريةً وهمجيةً ووحشيةً، وكل يوم نسمعُ عن مذابح يصل ضحاياها إلى الآلاف، كما نسمعُ عن اكتشاف مقابر جماعية تضمُّ رفات المئات من بني البشر، دفنتهم الجرَّافات، ودفعتهم إلى باطن الأرض المجنزرات.

وعقّب الله تبارك وتعالى على هذه القصة بتهديدٍ شديدٍ لأولئك الذين يعتدون على حق الحياة للإنسان، وخصَّ بالذكر بني إسرائيل، لأنهم أكثر الناس جرأةً على القتلِ ومسبِّباته بإثارة الفتن والحروب بين الناس، ويكفي أنهم قتلوا كثيراً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وحاولوا أن يقتلوا خاتمهم وإمامهم سيدنا رسول الله ﷺ حسداً وحقداً، ولكنّ الله سبحانه عصمه من كيدهم ومكرهم كما سيأتي معنا في قوله الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ إنّ قتل الإنسانِ الواحدِ جريمةٌ كبرى، ومسؤولية عظمى، إنّه عدوان على حقِّ الحياة لجميع الناس.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ بإنقاذِها من أسبابِ الهلاكِ، أو منعَ القاتلَ من ارتكاب جريمته.

﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ﴾.

ورغم كلِّ هذا الوعيد الشديد وما فيه من بيانٍ واضحٍ لم يرتدع المجرمون عن جرائمهم:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ

لَمُسْرِفُونَ﴾ ومعنى **الإسراف في القتل**: قتلُ الإنسان البريء، الذي لا يستحقُّ القتلَ، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

إذاً لا بدّ من العقاب الرادع، والجزاء الزاجر للمجرمين، حتى يأمنَ الناسُ على أنفسهم وأموالهم، ولهذا شرع الله تعالى العليمُ بأحوال النفوس البشرية والحكيمُ بما يصلحهم، العقوباتِ الزاجرةَ التي تحمي المجتمع الإنساني من المجرمين، وتستأصلُ منه القتلة المفسدين.

- **العقوبات الزاجرة لقُطَّاع الطرق والمفسدين في الأرض:**

وعندما أشرقت شمسُ الإسلام على العالم من أرض العرب كانت الجزيرةُ العربيةُ مليئةً بقُطّاع الطرق والمجرمين، وما كان الإنسانُ آمناً على نفسه وماله وعرضه في أيِّ مكانٍ سوى مَنْ كان يعيشُ في أرض الحرم في مكة المكرمة، يؤكّد هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وكلمة (**يُتخطّف**) تذكِّرنا بالواقع الأليم الذي تردَّى إليه الناسُ في عصرنا الحاضر بعد أن ملأتْ جرائمُ الخطف والاعتداء على الإنسان جنبات الأرض، وأصبحَ الإنسانُ مهدَّداً بالخطفِ والقتلِ سواءٌ كان مقيماً أو مسافراً، طائراً في الجو، أو سائراً في البر والبحر.

والعجيبُ أنَّ نسبة الجرائم والمجرمين وعصابات القتل والخطف منتشرةٌ انتشاراً كبيراً في المجتمعات الغنية والمترفة والمتقدمة في مجال العلوم، وأصبحت مواجهةُ عصابات الإجرام وقمعها وحماية المجتمع منها من أكبر المشكلات التي تواجه حكومات الدول في العصر الحاضر.

لقد فَقَدَ الإنسانُ في ظلِّ الحضارة المادية الحديثة الشعور بالأمن والاطمئنان، وفشلت القوانين الوضعية في حماية الإنسان من خطر المجرمين، كما فشلت السجونُ الكثيرة التي كدّسوا فيها آلافَ المجرمين في معالجتهم،

وتقويم انحرافهم، ودفعهم إلى الحياة الكريمة المستقيمة، بل أصبحت السجونُ ملتقى المجرمين، يتعارفون فيها، ويتشاورون، ويتبادلون الخبرات، ويعقدون الاتفاقات، وقد ثبت أنَّ كثيراً من عصابات المجرمين نشأت من داخل السجون.

ولا خلاصَ للإنسانيةِ من خطر اتساع الجريمة والمجرمين، والقضاء على عصاباتهم، إلا بتطبيق ما شرعه الله تعالى في القرآن الكريم وسُنَّةِ نبيّه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

لقد نجح الإسلامُ نجاحاً كبيراً وباهراً في تأمين الناس ـ الذين كانوا قبل الإسلام يُتخطَّفون في أنحاء الجزيرة العربية المترامية الأطراف ـ خلال وقت قصير بالنسبة لأعمار الأمم والشعوب، وعالجَ الإسلامُ نزعةَ الإجرام في نفوس المجرمين، فقلعها من نفوسهم، وغرسَ في قلوبهم معاني الخير والصلاح، وحوَّل الأعرابَ الذين كان ينهبُ بعضُهم بعضاً، ويقتلُ بعضهم بعضاً، إلى مجاهدين وعلماء رفعوا لواء الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها.

• **وثيقة تاريخية:**

وفي «**صحيح البخاري**» ـ وهو أصحُّ وأوثق كتاب حفظ السُّنَّة النبوية ـ شهادةُ رجلٍ عاش في الجاهلية والإسلام، ورأى التحوُّلَ الكبير الذي أحدثه الإسلام في مجتمعات الجزيرة العربية، هذا الرجل هو **عَدِيُّ بن حاتم الطائي**، الذي كان في الجاهليةِ يتزعَّمُ عصابات الأعراب من قبيلة طيئ، ويأخذُ منهم ربعَ الأموال والأسلاب التي يحصلون عليها من القوافل المسافرة بين الشام والعراق والحجاز.

قال ﷺ: بينا أنا عند رسول الله ﷺ إذ أتاه رجلٌ فشكا إليه الفاقةَ، ثم أتاهُ آخرُ فشكا إليه قطعَ السبيلِ، فقال ﷺ: «**يا عديُّ هل رأيتَ الحِيرةَ؟**» قلتُ: لم أرها، وقد أُنبئتُ عنها، فقال: «**فإنْ طالتْ بكَ حياةٌ لَتَرَيَنَّ الظعينة** (المرأة المسافرة) **ترتحلُ من الحيرةِ حتى تطوفَ بالكعبةِ، لا تخافُ أحداً إلا الله**» قلتُ فيما بيني وبين نفسي: فأينَ دُعّارُ طيِّئ، الذين سعّروا البلاد؟! قال: «**ولئن طالتْ بك حياةٌ لتُفْتَحَنّ كنوزُ كسرى**» قلتُ: كسرى ابنُ هُرْمُز؟ قال: «**كسرى بن هرمز،**

ولئن طالتْ بكَ حياةٌ لَتَرَيَنَّ الرجلَ يُخْرِجُ ملءَ كفِّه من ذهبٍ أو فضةً يطلُبُ مَنْ يقبلُهُ، فلا يجدُ أحداً يَقْبَلُهُ مِنْهُ»، قال عديٌّ رضي الله عنه: فرأيتُ الظعينةَ ترتحِلُ من الحِيْرةِ حتى تطوفَ بالبيتِ لا تخافُ إلا الله، وكنتُ فيمن افتتحَ كنوزَ كسرى بن هرمز، ولئن طالتْ بكم حياةٌ لترونَّ ما قال أبو القاسم ﷺ: «**يُخرِجُ الرجلُ ملءَ كفِّه ذهباً أو فِضَّةً فلا يجدُ مَنْ يقبلُه مِنْهُ**» [رواه البخاري (٣٥٥٩)].

- **آية الحرابة:**

شرع الإسلامُ العقوباتِ الزاجرةَ لقمع المجرمين المعتدين على الأنفسِ والأموالِ في آيتينِ كريمتينِ من آياتِ سورة المائدة، وهما آيةُ الحرابةِ وآيةُ السرقةِ، جمع الله في هاتين الآيتين كلَّ ما تحتاجه المجتمعاتُ البشريةُ من العقوبات الرادعة والكفيلة بتأمين الناس وحمايتهم من عصابات المجرمين.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ **الحربُ** في الأصل: معناها السلبُ والأخذُ، والمراد من الذين يحاربون الله ورسوله في الآية **قُطّاعُ الطريق**، ومن يعتدي على الناس جهرةً، ولو في داخلِ المدنِ، وسمَّتْهم الآية محاربين للهِ ورسولِهِ استعظاماً لجرمهم وأذاهم. وقوله تعالى:

﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ يدل على أنّ إشاعة الخوفِ والذعرِ بين الناس، وتهديدهم من أكبرِ أسبابِ الفساد في المجتمع.

﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ إن قتلوا إنساناً معصومَ الدمِ.

﴿أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ أي: ترفعُ أجسادهم على خشبةٍ بعد قتلهم، ليراهم الناسُ زَجراً وردعاً لغيرهم عن مثل جريمتهم إذا أخذوا المال وقَتلوا.

﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي: تقطّعَ مختلفةً، بأن تقطّع

أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى إن اقتصروا في جريمتهم على أخذِ المالِ، ولم يقتلوا.

﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي يُبعدوا من الأرض بسجنهم مدةً يراها الحاكم كافيةً لتأديبهم، وهذا إذا لم يقتلوا أحداً، ولم يأخذوا مالاً، جزاءَ ترويعهم الناس، وقطعهم الطريق.

و(أو) للتنويع، وقال مالكٌ: بل هي للتخيير، فيتخيَّرُ الإمام في المحارب المسلم بين الأمور الثلاثة[1].

﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ وهذا الذي شرعه الله يجعل لهؤلاء المجرمين العار والذل والفضيحة في الدنيا، ولهذا قال فقهاؤنا: لا يُصلى على مَنْ قُتِلَ من قطَّاعِ الطريقِ أثناء قطعهم للطريق قبل إلقاءِ القبض عليهم، أما لو قُتلوا في غيرِ المحاربةِ أو ماتوا يُصَلَّى عليهم[2].

﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إذا لم يتوبوا عن جرائمهم حتى ماتوا فلهم في الآخرة عذاب عظيم[3].

• شريعة الرحمة والإحسان:

وإلى جانبِ هذه العقوبات الشديدة الزاجرة للذين يهدِّدون أمن المجتمعات البشرية، وينشرون فيها الخوفَ والفزَعَ، فتح الله الحكيم العليم باب التوبة والإنابة لأولئك المجرمين ليعودوا إلى الحياة المستقيمة الشريفة من جديد، فقال جلَّ وعلا بعدَ آيةِ الحرابة:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٤)﴾.

فمن تاب من هؤلاء المجرمين، وانتهى عن جرائمه قبل أن تصل إليه يد

---

(١) فتح الباري: ١٢/ ١١٠.

(٢) انظر: حاشية ابن عابدين: ١/ ٥٨٤.

(٣) وانظر: فتح الباري: ١٢/ ١١ ما روى عن سبب نزول الآية من حديث أنس رضي الله عنه.

وليِّ الأمر، ويقعَ في أيدي رجال الأمن، وأتى تائباً نادماً، عُفِيَ عنه، وقُبلت توبتُه، واستأنف حياته في المجتمع بأمنٍ واطمئنانٍ، وهذا يدلُّ على سموِّ التشريع الإسلامي، وملاءمته لجميع الناس، مهما اختلفت نزعاتهم، وتنوَّعت ظروفهم، فثمةَ مجرمون كثيرون سلكوا طريقَ الجريمةِ بسبب ظروفٍ صعبةٍ مرّت بهم، أو تورَّطوا في الجريمة بسبب طوارئ وأحداثٍ واجهتهم، فلا ينبغي لمثل هؤلاء أن يُجْبَرُوا على الاستمرار في طريق الجريمة، فمِنَ الحكمةِ أن ييسَّر لهم سبيلُ العودة إلى الحياة المستقيمة الشريفة، فمن تاب منهم، ورجع عن جرائمه، تاب الله عليه، وقبله المجتمع الإسلامي عضواً نافعاً فيه.

أما الذين يصرُّون على الجريمة، ويحترفون الإجرام، ويصمُّون آذانهم عن سماع داعي التوبةِ، ويستمرُّون في طريق الإجرام، وتخويف الناس، وزعزعة أمنهم، فلا سبيل إلى إصلاحهم إلا باستئصالهم، وبترهم من المجتمع، ولن ينفعَ مع هؤلاء علاجٌ إلا علاجُ المِبْضع والمِشْرَط، الذي يلجأ إليه الطبيبُ الجرَّاح عندما يضطرُ إلى بتر العضو الفاسد من جسم الإنسان حتى لا يسري فسادُه إلى بقية الجسم.

إنَّ التشريع الإسلامي قائم على الرحمة والإحسان والعفو والمغفرة، والدليل على ذلك أنَّ الله سبحانه فتحَ باب التوبة والإنابة لأكبر المجرمين إذا تابوا وجاؤوا مستسلمين: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾.

وفي هذا ردّ على أولئك المتخرِّصين الذين يتهمون التشريع الإسلامي بالقسوة والشدّة، وينتقدون تلك العقوبات التي شرعها الله العليم الحكيم والخبير الرحيم لحماية المجتمعات البشرية من الخوف والفزع وجرائم الخطف والقتل والغصب.

إنني على يقينٍ لو أنَّ هؤلاء المنتقدين للشريعة الإسلامية وقعوا يوماً ما ضحيةَ جريمةٍ من جرائم المفسدين في الأرض، وذاقوا مرارةَ الخوفِ والقلقِ،

وعاشوا ساعاتِ الاضطرابِ التي يعيشُها ضحايا هؤلاء المجرمين، لعرفوا حينئذٍ حكمة الله سبحانه في تشريع هذه العقوبات ورحمته بعباده.

• **أسلوب التربية في الإسلام:**

وتدل هذه الآية أيضاً على أنَّ الإسلامَ لا يعتمد في تربية النفوس البشرية وتهذيبها وإصلاحها على العقوبات الزاجرة فقط، فالعقابُ في الإسلام ليس هو الأسلوب الرئيس المعتمد في التربية والإصلاح، لقد شرع الله العقاب في الإسلام للشاذّين من البشر، الذين لا ينفعُ معهم إصلاحٌ ولا تهذيب، أمّا الأسلوب المعتمد في الإسلام لإصلاح النفوس وتهذيبها وتربيتها، فهو غرسُ الإيمانِ بالله تعالى فيها، وجعلها تستشعرُ خشية الله تعالى بعبادته وطاعته والجهاد في سبيله، ولهذا قال تعالى بعد آيةِ الحرابة وقبل آية السرقةِ وهو ينادي المؤمنين النداء السادس في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].



النداء السادس

الأمر بالتقوى والتحذير من اتباع الهوى

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ

وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

* * *

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

هذا هو الأسلوبُ المعتمدُ في الإسلام في تربية النفوس الإنسانية وإصلاحها، وهو يشمل بعد الإيمان بالله ثلاثة أمور:

أولها: تقوى الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله تعالى وقايةً، وذلك باتقاء المعاصي والآثام.

ولا يتمُّ هذا إلا بتربيةِ وجدانِ الإنسانِ وضميرِهِ، وتعويدِه على الشعور بالخوف من الله تعالى ومراقبته، وإنَّ أي إصلاحٍ لا يبدأُ من إصلاحِ وجدانِ الإنسانِ وضميرِهِ، إصلاحٌ فاشلٌ لن يؤديَ إلى فلاحٍ أو نجاحٍ.

ثانيها: التقرب إلى الله بالعمل الصالح:

﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي: اطلبوا وابحثوا عن كلِّ عمل صالح يقرّبكم إلى الله تعالى.

وثالثها: الجهاد:

﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: جاهدوا أنفسكم أولاً لإصلاحها وتصفيتها، ثم جاهدوا أعداءكم في سبيل مرضاةِ ربِّكم.

ثم بيَّن الله تعالى استحالة توسل الكفار يوم القيامة بما كانوا يرونه أقوى الأسباب والوسائل للنجاة من عذاب النار، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

لأنّه سبحانه كتبَ عليهم الخلودَ في النار، فلن يخرجوا منها أبداً:

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾

- **آية السرقة:**

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ شرع الله تعالى قطعَ يدِ السارق والسارقةِ حمايةً لأموال الناسِ.

والسرقةُ: أخذُ مالِ الغيرِ خُفْيةً، ويشترط لقطع يد السارق شروط:

١ ـ **أن يكون المسروق مالاً متقوّماً**: تبلغُ قيمتُه عشرةَ دراهمَ فأكثر.

٢ ـ **أن يأخذه السارق من حِرْزه**: كأن يخرِجَهُ من الدار أو الحانوت أو الخزانة. **فالحِرزُ**: كلُّ بقعةٍ معدّةٍ للإحراز، ممنوع الدخول إليها إلا بإذنٍ.

٣ ـ **أن لا يكون للسارق شبهة مِلك في المال**: كما لو سرق من دار أبيه، أو من مال زوجته.

٤ ـ **أن لا يكون السارقُ قد سرقَ عن ضرورةٍ**: ولهذا قال الفقهاء: لا قطعَ بسرقةِ طعامٍ مطلقاً، أي: ولو كان غير مهيّأ للأكلِ، لأنَّه عن ضرورةٍ ظاهراً، وهي ـ أي: الضرورةُ ـ تبيحُ التناولَ[1].

٥ ـ **أن لا يكونَ المسروقُ سريعَ الفسادِ**: كلبنٍ ولحمٍ غيرِ محفوظين بما يمنع تسارُعَ الفسادِ إليهما.

وقطع يد السارق والسارقة شرعه الله تعالى:

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾ أي: مجازاةً على صنيعهما السيئ في أخذهما أموالَ الناس بأيديهما.

﴿نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي: تنكيلاً من الله بهما على ارتكابِ ذلك، ليكونا عبرةً لغيرهما من الناس.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يشرع ما يشاء، فلا ينبغي لأحدٍ أن يعترضَ على شرعه.

﴿حَكِيمٞ﴾ في كلِّ ما يشرع.

وقد أثبتت الوقائعُ ـ كما سبق بيانه ـ نجاحَ الشريعة الإسلامية في نشر الأمن بين الناس، في حين فشلت القوانينُ الوضعيّةُ في حماية أموال الناس وأنفسهم فشلاً واضحاً.

ثم فتح الله تبارك وتعالى بابَ التوبةِ لمن ابتُليَ بالسرقة، لأن طريق الإصلاح وتهذيبَ النفوس في الإسلام ليس قاصراً على الجزاء والعقاب، كما سبق بيانه، فقال ﷻ:

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

---

(١) انظر: حاشية ابن عابدين: ٣/ ١٩٨؛ والفقه الحنفي في ثوبه الجديد، للمؤلف: ٣/ ٢٨٦.

• **المسارعون في الكفر:**

ثم شرعتِ الآياتُ الكريمةُ في بيان مواقف اليهود من سيدنا رسول الله ﷺ، وقدَّمت لذلك بتوجيه الخطاب للنبيِّ ﷺ:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بهذا الأسلوب الاستفهامي التقريري، وواضحٌ ما فيه من حزمٍ وجزمٍ، فهو ﷻ المالكُ يتصرّف في ملكه كما يشاء.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقدم سبحانه العذاب على المغفرة مع أنّ رحمته سبحانه سبقت غضبه، لأنّ سياق الآيات يتحدَّثُ عمَّن تعلَّقت إرادةُ الله تعالى بتعذيبهم بسبب حقدهم على رسول الله ﷺ وحسدهم له وإعراضهم عن دينه.

ثم وجّه الله ﷻ إلى رسوله ﷺ النداءَ يواسيه ويسلِّيه مما كان يلقاه من كيدِ ومكرِ المنافقين واليهود:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ هذه الكلمةُ تدلُّ على شدّةِ تهافتهم على الكفر، ورغبتهم فيه، والمسارعون في الكفر فريقان:

أولهما: المنافقون:

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾.

وثاني الفريقين: اليهود:

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾.

- **السمّاعون للكذب:**

ومن قبائحهم أنهم:

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ وجاءت هذه الصفة بصيغة المبالغة، لأنهم كانوا يسمعون الكذب، ويصدِّقون به، ويقبلونه، وإنّ أقبحَ ما يعيبُ الإنسانَ أن يعطِّلَ ما وهبه الله تعالى من عقل وتمييز، فيسمع كل ما يُلقى إليه من الأكاذيب دون أدنى تفكير، فيتخلّى بهذا عن كرامته الإنسانية، وينتكس إلى الحيوانية.

ثم ذكر اللهُ مرّةً ثانيةً هذه الصفة القبيحة مع الكشف عن مصادر الكذب الذي كانوا يسمعونه ويصدِّقونه فقال:

﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ وهم أحبارهم الذين كانوا لشدة بغضهم لسيدنا رسول الله ﷺ وفرط عداوتهم له لا يأتون إليه.

والذين حرَّفوا كلام الله تعالى في التوراة:

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ ويقولون لعامة اليهود السمَّاعين لهم: اذهبوا إلى محمد واسألوه عن حكم الله تعالى في هذه المسألة، ثم يوصونهم:

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا﴾ الموافق لافترائهم وكذبهم.

﴿فَخُذُوهُ﴾ فاقبلوه منه.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾ وإن ذكر لكم ما يخالِفُه.

﴿فَٱحْذَرُواْ﴾ أي: لا تقبلوه منه.

وقد ورد في الأحاديث الشريفة الصحيحة ما يبيِّنُ سبب نزول هذه الآيات، فعن **عبد الله بن عمر** رضي الله عنهما: أنّ اليهودَ جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أنَّ رجلاً منهم وامرأةً زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ما تجدونَ في التوراةِ في شأن**

الرجم؟» فقالوا: نفضحُهم ويُجْلَدون، فقال عبدُ الله بنُ سلامٍ: كذبتم، إنّ فيها الرجمَ، فأتَوْا بالتوراةِ فنشروها، فوضعَ أحدُهم يدَه على آيةِ الرجمِ، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبدُ الله بنُ سلام: ارفع يدك، فرفعَ يده، فإذا آيةُ الرجمِ، فقالوا: صدق يا محمَّدُ فيها آيةُ الرجم، فأمر بهما رسولُ اللهِ ﷺ فرُجما، فرأيتُ الرجلَ يحني على المرأةِ يقيها الحجارةَ. [رواه البخاري (٣٦٣٥) ومسلم (١٦٩٩)].

وعن **البراء** رضي الله عنه قال: مُرَّ على النبيِّ ﷺ بيهوديٍّ محمَّم (مسوَّد الوجه) مجلودٍ، فدعاهم فقال: «**هكذا تجدونَ حدَّ الزاني في كتابِكُم؟**» فقالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال: «**أنشدُكَ باللهِ الذي أنزلَ التوراةَ على موسى أهكذا تجدونَ حدَّ الزاني في كتابِكُم؟**» قال: لا، ولولا أنَّكَ نشدتني بهذا لم أخبِرْكَ، نجده الرجمَ، ولكنّه كثرَ في أشرافِنا، فكنّا إذا أخذنا الشريفَ تركناه، وإذا أخذنا الضعيفَ أقمنا عليه الحدَّ، فقلنا: تعالوا فلنجتمع على شيءٍ نقيمُه على الشريفِ والوضيعِ، فجعلنا التحميمَ والجلدَ مكانَ الرجمِ، فقال النبيُّ ﷺ: «**اللهمَّ إنِّي أوَّلُ من أحيا أمرَكَ إذ أماتوه**»، فأمر به فرُجِمَ، وأنزلَ الله تعالى هذه الآيات. [رواه مسلم (١٧٠٠)].

وهكذا فضح الله تعالى أحبار اليهود، وكشف كذبهم، وقال فيهم:

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾ خزيه وفضيحته.

﴿فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ فلن تستطيع دفع تلك الفتنة عنه، لأنّه سبحانه أراد ألا يطهِّر قلوبهم:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ من رجس الكفر، وخبثِ الضلال والكذب، بسبب سوء اختيارِهم، وقبح عزمهم وكسبهم.

﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾ ذلة ومهانة وفضيحة.

﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

- **الأكّالون للسُّحْتِ:**

ثم ذكر الله تعالى قبيحةً أخرى من قبائح اليهود الكبرى، وهي أكلهم للمال الحرامِ فقال:

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔاۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِۚ﴾ والمال كان ولا يزالُ معبودَهم من دون الله تعالى، يسعَوْن لجمعه بأيِّ وسيلةٍ كانت، ولقد ابتدعوا أقذرَ وأحطَّ أنواع التعامل والاحتيال كالربا والقمار وعقود التأمين والرشوة؛ من أجل جمع المال والسيطرة على الموارد الاقتصادية للأمَم والشعوب.

وخيَّر الله تعالى نبيَّه ﷺ إذا جاء إليه اليهود متحاكمين أن يحكم بينهم بما أنزل الله عليه في القرآن الكريم أو أن يُعرض عنهم:

﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْۖ﴾.

ثم بيّن له سبحانه أنه يحفظه من مكرهم وكيدهم:

﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔاۖ﴾.

وأوصاه أن يحكم بينهم بالعدل:

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

والعجيب من حالهم أنهم كانوا يأتون إلى النبيِّ ﷺ يحتكمون إليه، وهم لا يؤمنون به عليه الصلاة والسلام مع أنَّ عندهم التوراة التي يؤمنون بها.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾؟!.

ثم يعرضون عن حكم رسول الله ﷺ وعن حكم التوراة أيضاً:

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم أثنى الله تعالى على التوراة التي أنزلها على نبيه موسى عليه السلام فقال:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ وكان أنبياء بني إسرائيل وعلماؤهم وعُبّادهم جميعاً يحكمون بها:

﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾.

وهي أعظمُ الأماناتِ التي استودعها الله أحبارهم، وجعلهم شهداء عليها:

﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ فأمانةُ حفظ التوراة موكولةٌ إليهم، بينما تكفّل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ولهذا حدث في التوراة ما حدث من تغيير وتبديل، وحُفظ القرآن الكريم بحفظ الله من أيِّ تغيير أو تبديل.

وختمت الآية الكريمة بتوجيه الخطاب إليهم:

﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ فلا تخافوا من الناس فتغيِّروا وتبدِّلوا كلام الله من أجلهم، بل عليكم أن تخافوا من الله تعالى، فتحفظوا أمانته التي ائتمنكم عليها.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فإنَّ الدنيا بما فيها قليل وحقير وزائل.

ثم قرر الله تبارك وتعالى هذا الحكمَ الرهيبَ المخيفَ على المُعْرضين عن تحكيم دينه وشرعه فقال ﷻ:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

- **الأحكام الثلاثة:**

هذا هو الحكم الأول الصادر على المعرضين عن تحكيم شرع الله تبارك وتعالى، والحكم الثاني جاء أيضاً في ختام الآية الكريمة التي أخبر الله تعالى

بها أنّه شرعَ لليهود حكمَ القصاص في جرائم القتل العَمْد، والجَرْح العَمْد، وقد أنزله الله تعالى في القرآن الكريم تقريراً له:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وجاء الحكم الثالث بعد الثناء على الإنجيل الذي أنزله الله تعالى على عيسى ابن مريم عليه السلام، وبعد أمْرِهِ جلّ وعلا أتباع عيسى عليه السلام أن يحكّموا الإنجيل، وينفِّذوا ما أمرهم الله فيه، وفيه بشارة عيسى ببعثة محمد ﷺ والأمر باتباعه وتصديقه عليه الصلاة والسلام:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

هذه هي الأحكام الثلاثة التي حكم الله بها على المعرضين عن تحكيم شرعه ودينه، وهي: **الكفر، والظلم، والفسق**.

ولا شكَّ أنّ كلَّ من يحكم بشرعٍ يخالِفُ شرعَ الله تبارك وتعالى يكون ظالماً، فلا عدلَ إلا في ظلِّ شريعة الله تبارك وتعالى، فهو وحده الحكم العدل، كما يكونُ فاسقاً خارجاً عن حكم الله وشرعه، ويكون أيضاً كافراً إذا فضَّلَ على شريعةِ الله شريعةً أخرى، أو رأى أن ما يبتدعه الناس من شرائع وقوانين تناسِبُ العصر أكثر من شريعةِ الله تبارك وتعالى.

فالحذرَ الحذرَ من الوقوع في مثل هذه الأفكار، والأدبَ الأدبَ مع ما شرعه لنا العليم الحكيم، فالأمر جِدٌّ خطير.

• **القرآن الكريم والكتب السماوية:**

ومما يؤكد على خطورة هذا الأمر توجيهُ الخطاب بعد ذلك لسيدنا رسول الله ﷺ:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهو القرآن الكريم.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ فإنَّ اسمَ **المهيمن** يتضمَّنُ معنى الأمين والشاهد والحاكم على كلِّ كتابٍ قبله، وهذا يدلُّ على أنَّ شريعة الإسلام ناسخةٌ لكلِّ الشرائع الإلٰهية التي أنزلها الله تبارك وتعالى.

قال ابن كثير رحمه الله: «جعلَ اللهُ هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخرَ الكتب وخاتمَها وأشملَها وأعظمَها وأكملَها، حيث جمعَ فيه محاسنَ ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيرِه، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها»(١).

وأمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يحكُمَ بين الناس بما في القرآن الكريم:

﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لا تتبع آراءهم الفاسدة، وتترك من أجلها ما أنزل الله عليك من الحق.

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ وهذا يدُلُّ على اختلاف الشرائع التي أنزلها الله على رسله الكرام ببعض الأحكام، مع اتفاقها على عبادة الله الواحد الأحد، قال ﷺ: «**نحنُ معاشرَ الأنبياءِ إخوةٌ لِعَلَّاتٍ دينُنا واحدٌ**» [رواه البخاري (٣٤٤٢)].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٦٥.

فشأنُهم شأنُ الإخوةِ أبناءِ الأب الواحد، وإن اختلفتْ أمهاتُهم، فالتوحيدُ أساسُ دعوةِ جميعِ الأنبياءِ والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

ثم قال تعالى مبيّناً كمال قدرته وتمام حكمته:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فهو سبحانه قادِرٌ على أن يجعلَ جميعَ الأمم على شريعة واحدة في جميع الأزمان.

ولكنّه تعالى جعلَ لكلِّ أمةٍ شريعةً ليختبِرَ عبادَه فيما شرع لهم:

﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

ثم حضّهم سبحانه على فعل الخيرات، والمبادرة إلى الطاعات فقال:

﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

فالتنافسُ في العبادات والطاعات محمودٌ ومطلوبٌ، بينما التنافس والتسابق في شؤون الدنيا مذمومٌ ومكروهٌ، لأنَّ المرجعَ والمصيرَ إلى الله تعالى:

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

- **التحذير من اتباع الأهواء:**

ثم أكّد الله تعالى على الأمر بتحكيم شرعه، وحذّر من اتباع الأهواء فقال:

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ وهذا يعني أنَّ أي انحرافٍ عن شريعة الله تعالى معناه اتباع الأهواء، فالإنسانُ مهما كان عالماً وحكيماً وملتزماً بالمثل العليا والفضائل، لا ينفكّ عن التأثر بأهوائه ونزواته، فهو معرَّض لضغوط شديدة من أهوائه ومصالحه، مع ضعفه ومحدوديته وقصوره، وكل هذا يؤدي إلى النقص والخلل في كل ما يضعُ لنفسِه من قوانين ويشرِّع من شرائع.

وللهوى تأثيرٌ كبيرٌ على الإنسان، ولهذا حذَّرَ الله ﷻ النبيَّ ﷺ من خداع الكافرين واحتيالهم، فينصرِف عن شيءٍ ممّا شرعه الله تعالى له فيما أنزله عليه:

﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ ولا شك أنَّ النبيَّ ﷺ محفوظٌ ومعصومٌ بحفظ الله وعصمته ـ كما سيأتي معنا في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] ـ فالخطابُ وإنْ كان للنبيِّ ﷺ فالمراد منه أمّته عليه الصلاة والسلام، فالتحذيرُ لنا معشرَ المسلمين حتى لا يتمكن أعداؤنا من فتنتنا عن ديننا وصرفنا عن شريعة ربنا، لنحكِّم قوانينهم وشرائعهم.

وقد نجحوا بهذا مع الأسف الشديد، وفُتنَ كثيرٌ من المسلمين بقوانين أعدائهم وشرائعهم، واتَّبعوا أهواءهم، وانصرفوا عن شريعة الإسلام إلى القوانين والشرائع المستوردة من أعدائهم، وهو السببُ الرئيس لتفرُّقهم وتخاذلهم وذلتهم.

وشريعة الله تبارك وتعالى لا تتجزَّأُ، فلا ينبغي التهاونُ بشيء منها، ولهذا جاء التحذيرُ بهذه الصيغة: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ والبعضُ يطلَقُ على الجزء الصغير والكبير.

ولنا أن نقول أيضاً: إنّ التحذير للنبيِّ ﷺ يدلُّ دلالةً واضحةً على خطورة خداع واحتيال أعداء المسلمين، فالقوم قد أتقنوا صناعة الكذب والتزوير، وأدمنوا مهنة الاحتيال والخداع، فالحذرَ الحذرَ من الوقوعِ في شَرَكِ خداعهم واحتيالهم، فالشريعةُ الإسلامية هدفُهم ومقصِدُهم.

وإنَّ أيَّ انحرافٍ عن دين الله وشريعته يعودُ شؤمُه وجزاؤه على المسلمين في الدنيا قبلَ عذابِ الآخرة:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ وهو ذَنبُ التولِّي والإعراض عن قبول شرع الله وحكمه.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾.

ثم وبَّختِ الآياتُ الكريمةُ أولئك الفاسقين المعرضين عن شريعة الله سبحانه، وأنكرت عليهم ذلك مع التعجُّب من حالهم، وهم يريدون الاحتكام إلى الشرائع الجاهلية، ومن المعلومِ أنَّ كلَّ شريعةٍ خالفت شريعة الله تعالى هي

شريعة جاهلية، وكل قانون أو نظامٍ خالفَ شرعَ الله تعالى وحكمَه هو قانونٌ ونظامٌ جاهليٌّ، فالجاهليةُ ليست فترةً تاريخيةً، إنما هي حالةٌ توجَدُ عندما ينصرِفُ الناسُ عن شريعة الله ودينه إلى اتّباع أهوائهم:

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾.

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ﴾، ثم تساءلت:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فلا أحد حكمُه أحسنُ من حكم الله تعالى أو مساوٍ له، لأنَّ حكمَ الله تعالى هو حكمُ العليم الحكيم.



النداء السابع

التحذير من اتخاذ اليهود والنصارى أولياء

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣﴾.

حرّم الله تعالى في هذا النداء موالاةَ اليهود والنصارى، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي: أنصاراً وأصحاباً وأحباباً.

ثم بيَّن السببَ فقال:

﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ فولاية اليهودِ لبعضهم، ولا تكونُ لغيرهم، وكذلك النصارى ولايتُهم ونصرتُهم لبعضهم، ولا تكون لغيرهم.

وقد يكون المعنى المرادُ بيانَ أنَّ اليهودَ يوالون النصارى على عداوة المسلمين، وكذلك النصارى يوالون اليهودَ على عداوة المسلمين، رغم ما بين اليهود والنصارى من خلافٍ وشقاقٍ، **فالكفر ملةٌ واحدةٌ**، والكفّار يجتمعون على عداوةِ المسلمين ومحاربتهم، ويؤيّدُ هذا المعنى الواقعُ المشاهَد من وقوف الأمم

الكافرة عامةً والنصرانيةِ خاصةً إلى جانب اليهود الصهاينة ومساعدتهم في اغتصاب فلسطين وعدوانهم على العرب والمسلمين.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ وهو وعيدٌ شديد يدل على شناعة وقبح موالاتهم، فإنّ المعصيةَ الموجبة لكفر فاعلها هي التي بلغت غايةَ القبحِ والشناعةِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بتعريضها لغضب الله وسخطه.

ومع هذا التحريم لموالاةِ اليهود والنصارى كان المنافقون في المدينة المنوَّرة يسرعون إلى موالاةِ اليهودِ ومناصرتهم، فأنزل الله تعالى فيهم:

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي: مسارعين في موالاة اليهود.

﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ من دوائر الدهر، ودَولةٍ من دُوَله، بأن ينتصرَ الكفّار على المسلمين، فالمنافقون لا يتوكَّلون على الله سبحانه، ولا يثقون بتأييده ونصره، ولهذا ردَّ الله ﷻ عليهم بقوله:

﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾ وهو نصر المسلمين، وإعزازُ دينهم، وظهورُهم على أعدائهم.

﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ وهو إجلاءُ اليهود عن المدينة المنورة أو قتلُهم.

﴿فَيُصْبِحُوا۟﴾ أي: المنافقون.

﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾.

وأعزّ الله تعالى دينَه، ونصرَ نبيَّه ﷺ، فأجلى يهودَ بني النضير وقَيْنُقَاع عن المدينة، وقتل يهودَ بني قريظة، وغنمَ المسلمون أموالهم ومزارعهم وحصونهم، وأظهر سبحانه أيضاً نفاقَ أولئك الذين كانوا يوالونهم، ويُقْسِمُونَ الأَيْمان المغلَّظة للمؤمنين ليستروا نفاقهم:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ۝٥٣﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ﴾ أي: يا معشر يهود.

﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

فهو كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝١١ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر].



النداء الثامن

التحذير من الردة وعاقبتها

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)﴾.

ولمّا كانت موالاةُ اليهود والنصارى تستدعي الارتداد عن الدين، فقد وجَّه الله تعالى النداءَ الثامنَ إلى المؤمنين، محذِّراً لهم من الارتدادِ عن دين الإسلام، ومبيِّناً قدرته سبحانه على نصرِ دينه، وإعلاءِ كلمته، فإنَّ مَنْ يتولَّى عن نصرةِ دينِ اللهِ وإقامةِ شريعته، فإنّ الله سيستبدلُهُ بمَنْ هو خيرٌ منه، وأشدُّ قوةً، وأكثرُ نصراً لدين الله تعالى، وقياماً على شريعته:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: متواضعين فيما بينهم.

﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: متعزِّزين على أعدائهم من الكفار، وهذا كقول الله تعالى فيهم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ﴾ لا يردُّهم عن نصر دين الله تعالى رادٌّ، ولا يصدّهم عنه صادٌّ.

وهذه الصفاتُ التي اتصفوا بها من فضل الله تعالى عليهم وتوفيقه:

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

ولا شكّ أنّ هذه الآية الكريمة دلت على فضل خليفة رسول الله ﷺ الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفضلِ الصفوةِ الممتازةِ من الصحابة رضي الله عنهم الذين واجهوا فتنة الرِّدةِ بعدَ وفاةِ الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم، فنصرَ الله تعالى بهم دينه، وأقام بهم معالم شريعته قويةً خفّاقةً في جنبات الأرض.

فولايةُ المؤمنين ومحبتُهم ونصرتُهم لا ينبغي أن تكونَ إلا لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، ولهذا قال سبحانه على سبيل الحصر:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: منقادون وخاضعون لحكم الله وشريعته.

ونتيجة موالاة الله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنين، هي العزة والنصر والغلبة:

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» وابنُ عساكر: عن ابن عبادة بن الصامت قال: لمّا حاربت بنو قينقاع رسولَ الله ﷺ تشبَّثَ بأمرِهم عبدُ اللهِ بنُ أبيٍّ ابنُ سلولٍ، وقام دونَهم، ومشى عبادةُ بنُ الصامتِ إلى رسول اللهِ ﷺ، وتبرّأ إلى اللهِ وإلى رسولِهِ من حلفهم، وقال: أتبرّأ إلى الله وإلى رسوله من حِلْفِ هؤلاء الكفار وولايتهم.

وفيه وفي عبد الله بن أبيٍّ نزلت هذه الآيات[1].

---

(١) انظر: سيرة النبي ﷺ، للمؤلف، ص ٢٨٨.

وما أخرجه الطبرانيُّ في «الأوسط»: أنّها نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأنّه تصدّق بخاتمه وهو راكعٌ. **في سندِه مجاهيلُ**[1].

ولو كان هذا كذلك لكانَ دفعُ الزكاةِ في حالِ الركوعِ أفضلُ من غيرِهِ، لأنّه ممدوحٌ، وليس الأمرُ كذلك عندَ أحدٍ منَ العلماء[2].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: فتح القدير: ٢/ ٥٣.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٥٢٨.

النداء التاسع

التحذير من قبائح أهل الكتاب والكفار

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدۡ

أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ۞ .

وحرّم الله تعالى على المؤمنين في **النداء التاسع** موالاة جميع الكفار: اليهود والنصارى وغيرهم من أصحاب الملل والنِّحَل، ففي هذا النداء تعميم بعد تخصيص، كما أن فيه بيان سبب الحكم، وهو أن الكفار ينظرون إلى شريعة الإسلام المطهَّرة المُحْكمة نظرة المستهزئ بها فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء إن كنتم حقّاً مؤمنين بشرع الله ودينه.

ثم ذكر سبحانه مثالاً يدل على استهزائهم بدين الله تعالى، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ﴾ والصلاة أعظم العبادات في الإسلام، والنداء إليها ـ وهو الأذان ـ من شعائر الإسلام الكبرى التي أمر الله تعالى المؤمنين بتعظيمها واحترامها ـ كما مرَّ معنا في أول سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾.

والذي يحملهم على هذا أنهم لا يعقلون معاني الصلاة ولا يدركون ما فيها من حِكمٍ وأسرار:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

• **قبائح وفضائح:**

ثم أمرتِ الآياتُ الكريمة النبيَّ ﷺ أن يواجه أهلَ الكتاب ببعض قبائحهم وفضائحهم بأسلوب التحدِّي لهم:

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ أي: هل تنكرون وتعيبون وتكرهون منا.

﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد المنزَّه عن الشريك والصاحبة والولد.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي: وآمنا بالقرآن الكريم الذي أُنزل إلينا.

﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل نزول القرآن الكريم كالتوراة والإنجيل.

﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ أي: وآمنا بأنّ أكثركم فاسقون، خارجون عن طاعة الله تعالى وعن دائرة الإيمان الصحيح.

فأهل الكتاب من اليهود والنصارى يعادون المسلمين لأنَّهم مسلمون مستسلمون لله الواحد الأحد، ومؤمنون بكلِّ الرسالات التي أنزلها سبحانه على الناس: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

إنهم يحاربون المسلمين هذه الحربَ الشعواء، التي لم تضع أوزارها قط منذ فجر الإسلام حتى العصر الحاضر، ليردُّوا المسلمين عن دينهم، فيصبحوا مثلهم فاسقين، وكما قرَّر الله تعالى هذه الحقيقة في هذا الموضع من سورة المائدة قرَّره أيضاً في **سورة البقرة** وهو يخاطِبُ نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البَقَرَة: ١٢٠].

وهذه الحقيقة يريدُ أهلُ الكتاب في العصر الحاضر طمسَها وتمييعها ـ كما يقول سيد قطب رحمه الله ـ فلم يكن لهم بدٌّ بعد فشلهم في الحروب الصليبية السافرة، وفي حرب التبشير السافرة أيضاً، أن يسلكوا طريق الخداع والتزوير، فيتظاهروا ويُشيعوا بين المسلمين أنَّ قضية الدين والحرب الدينية قد انتهت، وأنَّها كانت مجردَ فترة تاريخيةٍ مظلمةٍ عاشتها الأمم جميعاً، ثم تنوّر العالم وتقدَّم، فلم يعد من الجائز ولا اللائق ولا المستساغ أن يقوم الصراع على أساس العقيدة. . . إنّما الصراع اليوم على المادة وعلى الموارد والأسواق

والاستغلالات فحسب، فلا ينبغي التفكير في الدين اليوم وفي الصراع من أجل الدين[١].

لكنّ الواقع المشاهد يكذّب دعواهم، ويظهر مدى تأثير الدوافع الدينية على سياستهم ومواقفهم السياسية، وخاصة في القارة الإفريقية وأمريكة الجنوبية، وأخيراً مواقفهم من مسلمي البوسنة والهرسك.

كما أمر ﷺ أن يقول لهم تبكيتاً وتعريضاً بقبائحهم وما أنزل الله عليهم من العقوبات:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: جزاءً ثابتاً لهم عنده تعالى.

﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ أي: ومسخ بعضهم قردةً، ومسخ بعضهم خنازير، وهم أصحاب السبت الذين ذكرهم الله تعالى في قوله الكريم: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أي: ومنهم أيضاً من عبد الطاغوت، وهو إما العجل الذهبي الذي عبده اليهود، وإمّا الشيطان الذي أطاعوه، وإما الكهنة والأحبار الذين أطاعوهم بعد أن غيّروا كلامَ اللهِ تعالى في التوراة والإنجيل.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات القبيحة.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٢/ ٩٦٤. **قلت**: لكن بعد أحداث (١١ أيلول ٢٠٠١م) عادت الحرب الصليبية سافرة شرسة، لا تُبقي ولا تذر، نسأل الله أن يرد كيد أعدائه في نحورهم، ويحفظ المسلمين من شرورهم.

﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: أكثر ضلالاً وبُعداً عن طريق الحق المستقيم.

وكان بعضُ اليهودِ يأتون إلى رسولِ اللهِ ﷺ، ويعلنون الإيمان بألسنتهم:

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ (٦١)﴾.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ﴾ أي: دخلوا كافرين، وخرجوا كما دخلوا كافرين.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٦٢)﴾.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ﴾ أي: يبادرون إلى تعاطي المآثم والمحارم والاعتداء على الناس، وأكل المال الحرام.

ولهذا ذمَّهم، وذمَّ أعمالهم تلك فقال:

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

وكان الواجب على علمائهم وعُبَّادهم أن ينهوهم عن تعاطي هذه المحرَّمات، فلم يفعلوا ذلك، بل شاركوهم في فعل هذه المحارم والآثام بعد أن جالسوهم وآكلوهم:

﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ (٦٣)﴾

- **جُرأتهم على الله تعالى:**

ومن قبائح اليهود الكبرى جُرأَتُهم على الله ﷻ، ووصفهم له جلّ وعلا بأوصافٍ لا تليقُ بجلاله وكماله، وهو سبحانه المنزه عن كل نقص، والمتصف بكل صفات الكمال والجلال:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ﴾ أي: بخيلة.

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ۘ﴾ ولهذا ترى فيهم البخلَ والحسدَ، والجبنَ والذلة.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ﴾ فهو سبحانه الجواد الكريم، ينفق كما يشاء، لا كما نشاء، وهو واسعُ الجود والعطاء، الذي عنده خزائنُ كلِّ شيءٍ، والذي خلق لنا كل شيء نحتاجه، وصدق رسول الله ﷺ القائل: «**إنَّ يمينَ اللهِ مَلأى لا يغيضُها** (أي: لا ينقصها) **نفقةٌ، سَحَّاءُ الليل والنهار، أرأيتُم ما أنفقَ منذُ خلقَ السمواتِ والأرضُ فإنَّه لم يُغضْ ما في يمينِه**» [رواه البخاري (٤٦٨٤) ومسلم (٩٩٣)].

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًاۚ﴾ فإنَّ ما أنزل الله تعالى على محمّدٍ ﷺ سيكونُ نقمة على أعدائه من اليهود وأشباههم، فكما يزداد المؤمنون به إيماناً سيزداد الحاقدون الحاسدون له طغياناً وكفراً.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِۚ﴾ فلا تجتمع قلوبهم، ولا تتفق كلمتهم، ولا يغرَّنك اجتماعُهم في فلسطين، وظهورهم فيها على العرب المسلمين، فهي فترةٌ وجيزةٌ من تاريخ تمزُّقِهم واختلافهم وتشتُّتهم الطويل، وأعمار الأمم والشعوب لا تقاسُ بأعمارِ الأفرادِ.

﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ كلَّما كادوا الرسول ﷺ وكادوا أمته كيداً أبطله الله تعالى، وردَّ كيدهم عليهم، وحاق مكرهم السيِّئ بهم.

﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ﴾ وهذا من قبائحهم الملازمة لهم أنهم يجتهدون في الكيد والمكر وإثارة الشرور والفتن بين الناس في الأرض:

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

• **سبيل السعادة:**

وبعد أن بيَّنتِ الآياتُ الكريمة ما بيَّنت من فضائحهم وقبائحهم فتحت لهم بابَ التوبةِ والإنابةِ والرجوع إلى الله تعالى، كما تعوَّدنا من أساليب القرآن الكريم التربوية، التي سبق الحديثُ عنها، فبيَّنت لهم سبيل السعادة في الدنيا والآخرة، فأطمعَتْهم بفضل الله ورحمته وبرغد العيش، وسعة الرزق، وكثرة المال في الدنيا، وبجنَّاتِ النعيم في الآخرة:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟﴾ برسالة نبيِّنا محمد ﷺ.

﴿وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: في القرآن الكريم.

﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ لكثرةِ ما ينزل عليهم من السماء من فضل الله ورحمته، وما ينبتُ لهم من الأرض.

فلا سعادةَ للناس ولا خلاصَ لهم من مشاكلهم الاقتصادية والاجتماعية إلا في ظلال شرائع الله تعالى، ولكنّهم مع الأسف بعيدون عن شرائع الله تعالى إلا قلة قليلة.

﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ معتدلة متوسطة.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

• **تبليغ الرسالة:**

ولا يعود الناسُ إلى دين الله تعالى وشريعته إلا إذا بلَّغناهم دعوة الله سبحانه، وبيَّنَّا لهم مزاياها ومحاسنها، ولهذا جاء التعقيبُ على الآيات الكريمة

السابقة بخطابِ اللهِ تعالى الموجَّه إلى نبيه ﷺ، آمراً له أن يبلِّغ رسالة الله سبحانه، ومحمِّلاً له عليه الصلاة والسلام مسؤوليةَ التبليغ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ وقد امتثل عليه الصلاة والسلام هذا الأمر، وقام به خير قيام، حتى توفاه الله تعالى.

قال **الإمام البخاري** رحمه الله: قال الزهري: مِنَ اللهِ الرسالةُ، وعلى الرسولِ البلاغُ، وعلينا التسليمُ.

وقد شهدت له أمته بإبلاغِ الرسالةِ، وأداءِ الأمانةِ، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل في خطبته يوم حجّة الوداع، وقد كان هناك من أصحابه نحوٌ من أربعين ألفاً، كما ثبت عن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذٍ: «**أيها الناسُ إنّكم مسؤولونَ عنّي فما أنتم قائلونَ؟**» قالوا: نشهدُ أنّكَ قد بلّغتَ وأدّيتَ ونصحتَ، فجعلَ يرفعُ إصبعَه إلى السماءِ وينكتها إليهم، ويقول: «**اللهمَّ هل بلّغتُ؟**» [رواه مسلم (١٢١٨)][(١)].

وقد مرّ معنا أن الله تعالى أنزل على النبي ﷺ في هذا الموقف العظيم قوله الكريم: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وتكفل الله ﷻ بعصمة نبيه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم من الناس فقال سبحانه له:

﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ووجوهُ عصمةِ الله تعالى للنبي ﷺ كثيرةٌ، وقد ذكرتُ بعضَها في هذا الكتاب.

فلم يتمكن أصحابُ المكر والخداع من أحبار اليهود ومن المنافقين أن يجعلوا رسول الله ﷺ ينصرف عن شيءٍ قليلٍ من شرع الله تعالى.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢/ ٧٧.

كما أنَّ الله ﷻ حفظ النبيَّ ﷺ من عدوان المشركين وبَغْي اليهود ومكرهم ومؤامراتهم، وكان الصحابةُ ﷺ يعلمون شدَّة المخاطر التي تهدّد النبي ﷺ فيقومون على حراسته، حتى أنزلَ الله تعالى هذه الآية، قالت السيدة **عائشة** ﷺ: كان النبيُّ ﷺ يُحرس حتى نزلتْ هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾، فأخرجَ النبيُّ ﷺ رأسَهُ من القُبّة فقال لهم: «**يا أيُّها الناسُ انصرفوا فقد عصمَني اللهُ ﷻ**» [رواه الترمذي (٣٠٤٦)].

وإن قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ يدل على أنّ الإسلام كلٌّ لا يتجزأ، وأنَّ بعضه ليس أولى بالأداء والتبليغ من بعض، فإذا أغفلتَ جزءاً من دين الله، فكأنك أغفلته كلَّه.

كما تدلُّ الآية الكريمة على أنَّه عليه الصلاة والسلام لم يكتمْ شيئاً مِنْ وحي اللهِ تعالى؛ فتبليغُ الرسالةِ منوطٌ به عليه الصلاة والسلام، أمَّا الهدايةُ فلله سبحانه وحده:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

- **ضرورة التبليغ في العصر الحاضر:**

إنّ تبليغَ رسالة الإسلام للناس في العصر الحاضر أوجبُ الواجبات علينا معشرَ المسلمين، فالناسُ في أمسِّ الحاجةِ إلى دين الله تعالى وشريعته، فقد فشلت القوانينُ الوضعيةُ التي ابتدعها الطواغيت، ويجب على المسلمين أن يبلّغوا الناسَ دعوةَ الله تعالى، ويبيِّنوا لهم محاسِنَها ومزاياها، إنّ التبليغ مهمة النبيِّ ﷺ، ومهمةُ من سار على طريقه، وتمسك بسنَّته عليه الصلاة والسلام.

وتأكيداً لأهمية التبليغ في حياة الناس قال تعالى:

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٨﴾.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ أي: على شرع ودين يُعتدُّ به لظهور بطلان

وفساد ما أنتم عليه.

﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في القرآن الكريم، وهو المقصود من هذه الدعوة، فالإيمان برسالة القرآن الكريم وتطبيق شريعته المطلب الأساس من هذا الخطاب لأهل الكتاب، وما ذكر الله سبحانه التوراة والإنجيل إلا تأليفاً وتهدئةً لخواطرهم، وتقريباً لهم من القرآن الكريم، ففي التوراة والإنجيل ما يلزِمُهم بالقرآن الكريم وتطبيق شريعته.

وبقي أكثر القوم على عنادهم ومكابرتهم وغلوّهم رغم كل هذه النداءات الموجهة من الله تعالى إليهم، بل ازدادوا بما أنزل الله سبحانه على رسول الله ﷺ طغياناً وكفراً:

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ فلا تأسف ولا تحزن عليهم بسببِ زيادةِ طغيانهم وكفرِهم، والزمْ طريقَ التبليغ، وأقمْ عليهم الحُجَّةَ، ولا تيئسَ من إيمانهم وإصلاحهم فبابُ الهدايةِ مفتوحٌ للجميع.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي: دخلوا في اليهودية.

﴿وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ﴾ وهم الذين لم تبلغهم دعوةُ نبيٍّ، وظلوا على أصل الفطرة، فلا دينَ لهم يتبعونه، ولهذا كان المشركون من قريشٍ يصفون مَنْ أسلمَ بالصابئ، لأنه في نظرهم خرجَ على سائر الأديان.

﴿وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ أي: فكلُّ مَنْ آمنَ مِنْ هؤلاءِ بالله الواحد الأحد، وآمن باليوم الآخر، وعمل العمل الصالح الموافق لشريعة الله سبحانه.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لأنّهم يومَ القيامةِ من الناجين، الذين لا يخافون ولا يحزنون.

- **عبَّاد الهوى والشهوة:**

وبيّن الله تعالى السببَ الرئيسَ الذي جعل بني إسرائيل ينقضون الميثاق الذي أخذه الله عليهم، ويكذِّبون الرسلَ، ويقتلون بعضهم، فقال تعالى:

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

فالسبب الرئيس لكل هذه الجرائم هو اتباعُهم لأهواء أنفسِهم، وضعفهم أمام شهواتهم، فهم عُبَّاد الهوى والشهوة.

وظنَّ القوم بسبب غرورهم وإعجابهم بأنفسهم، وشعورهم بامتيازهم على الناس، وأنهم أبناء الله وأحِبَّاؤه، أنّ الله ﷻ لن يعذِّبهم، ولن يبتلِيَهم:

﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾ عن استماع الحق الذي أُنزل عليهم في التوراة.

﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ حين تابوا، ورجعوا إلى تطبيق دين الله وشرعه.

﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾ عن دين الله وشرعه، الذي أنزله عليهم في الإنجيل.

﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ لأنّ بعضَهم ظلَّ متمسكاً بالحق والعقيدة الصحيحة.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

- **بطلان عقائد النصارى:**

ولا بدّ للآياتِ الكريمةِ أن تقفَ مع النصارى، وهم السواد الأعظم في أهل الكتاب، لتبيِّن بطلان عقائدهم وفسادها.

لقد كفر فريقٌ منهم، لأنّهم رفعوا عيسى ابن مريم عليه السلام من مقام عبوديته لله إلى مرتبة الألوهية:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢)﴾.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

وردَّ الله سبحانه عليهم بلسان عيسى عليه السلام الذي قال لهم:

﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ في عبادته أو في ما يختص من صفاته سبحانه وأفعاله.

﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ لأنها دار الموحِّدين.

﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ فإنها دار المشركين.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

ومن النصارى طائفةٌ كفرتْ لأنَّها قالتْ بعقيدةِ التثليثِ:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)﴾.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ فالإلـٰهية بزعمهم مشتَركَةٌ بين ثَلاثةٍ: الباري عز اسمه، وعيسى، وأمّه عليهما السلام.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ والحالُ أنَّه ليس في الموجوداتِ مستحِقٌّ للعبادةِ إلا إلٰهٌ واحدٌ، منزَّهٌ عن الصاحبة والولد بأيِّ وجهٍ من الوجوه.

﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من هذه العقائد الباطلة والأقوال الفاسدة.

﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم حضَّتهم الآيات وحثَّتهم على التوبة والإنابة، والعودة إلى عقيدة التوحيد، كما عوّدتنا بأسلوبها التربوي:

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾.

- **حقيقة عيسى عليه السلام في القرآن الكريم:**

ثم بيَّنت الآياتُ الكريمةُ بصراحةٍ تامةٍ حقيقةَ المسيح عيسى عليه السلام وحقيقة أمّه بقوله عز وجل:

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ فهو عبدٌ لله، شأنه في هذا كشأن جميع الرسل الذين سبقوه.

﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ فهي امرأةٌ كسائرِ النساءِ، إلا أنَّها بالغَتْ بالصدق والتصديق بالكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله، ولهذا قال سبحانه في شأنها: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

وتأكيداً لعبودية عيسى وأمِّه لله تعالى وصفهما الحق جلّ شأنه بقوله:

﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ فهما يحتاجان إلى الطعام، ويأكلانه، كما يحتاجان إلى طرح فضلاته، وهذا يتنافى تماماً مع كمال الألوهية، وعزّتها وغناها.

وبهذا تظهرُ حقيقةُ عيسى ابن مريم، وحقيقةُ أمّه واضحةً جليةً، لا لَبْس فيها ولا غموض، والذين يقولون: إنّ حقيقةَ عيسى في القرآن الكريم غامضةٌ جاهلون بالقرآن الكريم، لم يقرؤوا آياته، ولم يتدبَّروا كلماته، كأنهم لم يقرؤوا هذه الآية الكريمة في سورة المائدة، ولم يقرؤوا معها أيضاً قوله عز وجل: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ

أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

وسيأتي معنا إن شاء الله في آخر سورة المائدة من الآيات الكريمة ما يؤكِّد عبودية عيسى عليه السلام لله تعالى.

ومع كل هذا البيان والوضوح تراهم ينصرفون عن الحق:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

أليس عجيباً أن يعبدَ الإنسانُ ما لا يستطيعُ منع ضرر عنه، أو إيصال نفع إليه، وينصرفُ عن عبادة الله الواحد الأحد السميع العليم:

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾

• **الغلوّ في الدين:**

وكشفت الآياتُ الكريمةُ سببَ تمسُّكهم بهذه العقائد الباطلة رغم ظهور بطلانها، وبروز فسادها:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ إنَّ الغلوَّ في الدين هو الذي جعلهم يرفعون عيسى ابن مريم من مقام العبودية لله تعالى إلى مقامِ الألوهيةِ.

والغلوُّ: مجاوزةُ حَدِّ الاعتدال، بحيث يؤدي إلى الخروج عن الدين، ودينُ اللهِ بينَ الغلو والتقصير، وغلوُّ النصارى في محبَّة عيسى وتقديسه أوصلهم إلى ما مرَّ معنا من العقائد الباطلة الفاسدة، وكذلك غلوُّ بعض الفرق في محبَّة علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه ومحبة أهل البيت أوصلهم إلى الزيغ عن الإيمان والوقوع في الخسران.

وقد حذَّرَ النبيُّ ﷺ من الوقوع فيما وقع به النصارى فقال: «**لا تُطْروني كما**

أَطْرَتِ النصارى عيسى ابنَ مريمَ، فإنَّما أنا عَبْدٌ، فقولوا: عَبْدُ اللهِ ورسولُه» [رواه البخاري (٣٤٤٥)].

وكان ﷺ يحبُّ أن يُدعى بصفة العبودية لله، ولهذا لما سمع رجلاً يقول له: يا سيِّدَنا وابنَ سيدنا، وخيرَنا وابنَ خَيْرِنا، قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس قولوا بقولِكُم، ولا يستهوِيَنَّكُمُ الشيطانُ، أنا مُحَمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ، ورسولُ اللهِ، والله ما أحبُّ أن ترفعوني فوقَ ما رفعني الله ﷻ**» [رواه أحمد في مسنده (١٣٥٢٩) عن أنس].

وغالَى النصارى أيضاً في أتباع عيسى عليه السلام وعلماءِ دينهم من الأحبار والرهبان، فزعموا لهم صفةَ العصمةِ، وهي لا تكونُ إلا للأنبياء عليهم السلام، واتّبعوهم في كلِّ ما قالوه، فاستحلُّوا ما أحلُّوه لهم، وحرَّموا على أنفسهم ما حرَّموه عليهم، ولهذا قال الله تعالى فيهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

ولهذا حذَّرهم الله تعالى من تقليد أحبارهم ورهبانهم تقليداً أعمى، واتباعهم في ضلالاتهم، ممَّا أدى إلى انتشار الضلال في أجيالهم المتعاقبة:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فاستحقوا بذلك لعنة الله تعالى على لسان أنبيائه:

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

أي: يتجاوزون حدودَ ما شرع الله تعالى لهم.

- **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

ومبدأ ضلالهم نشأ عندما تركوا الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكرِ، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٧٩﴾.

قال رسول الله ﷺ: «**لما وقعتْ بنو إسرائيلَ في المعاصي، نَهَتْهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسُوهم في مجالسِهم، وواكلوهم وشارِبُوْهم، فضربَ الله قلوبَ بعضِهم ببعضٍ، ولعنهم على لسانِ داودَ وعيسى ابن مريم** ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾»، وكان رسولُ اللهِ ﷺ متكئاً فجلسَ فقال: «**لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحقِّ أطراً**» [رواه أحمد (١/ ٣٩١) وأبو داود (٤٣٣٦) والترمذي (٣٠٤٧) وابن ماجه (٤٠٠٦)].

وأدَّى بهم الإدمان على المعاصي إلى موالاة الكافرين فكفروا مثلهم، ولهذا قال ﷻ:

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ۝٨٠ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨١﴾.

فلا يجتمعُ في قلبِ امرئٍ إيمانٌ باللهِ تعالى وموالاةٌ للكافرين.

- **تحديد المواقف:**

ختم الله تبارك وتعالى هذه الجولَة التي بيَّن فيها فضائحَ وقبائحَ أهل الكتابِ وبطلانَ عقائدهم وفسادَها بآياتٍ تحدِّدُ مواقفهم من المسلمين فقال تعالى:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢﴾.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ فعداوةُ اليهودِ

والمشركين على العموم واضحةٌ للمؤمنين بسبب شدَّتهم بالكفر، واجترائهم على الأنبياء عليهم السلام بالتكذيب والقتل، وإفسادهم في الأرض، ونشر الفتن بين الناس.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ﴾ ولا يعني هذا أنَّ النصارى لا يُعادون المسلمين، إنَّما عداوة النصارى للمسلمين أقل من عداوة اليهود والمشركين للمسلمين، وسبب تبايُنِ عداوة اليهود والنصارى للمسلمين مع أنهم جميعاً متصفون بصفة الكفر ـ كما مرَّ معنا ـ بيَّنه الله تعالى بقوله:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾ وهم علماء النصارى ورؤساء دينهم.

﴿وَرُهْبَانًا﴾ جمع راهب من الترهُّب، وهو التعبُّد بالتخلِّي عن أشغال الدنيا، واعتزال أهلها، والانقطاع إلى العبادة، وتعمّد مشاقها، حتى إنَّ منهم من كان يخصي نفسه، ويضع السلسلة في عنقه وغير ذلك من أنواع تعذيب النفس.

﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن اتباع الحق والانقياد له إذا فهموه، أو أنهم يتواضعون ولا يتكبرون.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ وظاهر الآية العموم، ويتعيَّن إرادة البعض، وهم الذين جاؤوا إلى رسول الله ﷺ من الحبشةِ ومن بلادِ الشامِ، وآمنوا به عليه الصلاة والسلام، لأنّ النصارى ليسوا جميعاً كذلك.

﴿مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الذي عندهم من البشارةِ ببعثةِ سيدنا محمد ﷺ.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ أي: مع محمد ﷺ وأمّته، وهم الشاهدون لأنهم يشهدون يوم القيامة على الأمم، وأنّ الرسل قد بلّغتهم دعوة الله تعالى.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

وهذا دليلٌ يدلُّ على أنَّ الآياتِ أرادتْ الذين أسلموا من النصارى، واستجابوا لدعوة النبي ﷺ.

ولهذا قال تعالى مبيِّناً حسن ثوابهم يوم القيامة:

﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

أما الذين ظلُّوا متمسِّكين بالكفر من عامَّة النصارى، ولم يؤمنوا برسالة الإسلام، وكذّبوا بآيات القرآن الكريم، فجزاؤهم بيَّنه الله تعالى بقوله:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.



النداء العاشر

النهي عن تحريم الطيبات

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

خصَّص الله ﷻ **النداء العاشر** لبيان رحمته تعالى بالأمةِ المسلمة بما أحلّ لهم من الطيبات، وحرّم عليهم من الخبائث، وجعل شريعةَ الإسلام سمحةً سهلةً قائمةً على التوسُّط والاعتدال، فلا غلوَّ فيها ولا تفريط.

وجاء هذا النداءُ بعدما سبقه من ذكر الرهبان ليبيِّن أَنْ لا رهبانيةَ في الإسلام كما هو الشأن عند النصارى، فقد يكونُ ذكرُ الرهبان على سبيل المدح كما مرَّ معنا، داعياً إلى الترهُّب والتشدُّد في الدين وزيادةِ الاجتهاد في العبادات والإعراض عن كثير من المباحات، ولهذا جاء التعقيبُ على ذلك بالنهي عن تحريم الطيِّبات التي أحلَّها الله تعالى، فالإسلامُ دينٌ قائمٌ على التوسُّط والاعتدال رحمةً بالمسلمين ولطفاً بهم[١].

قال تعالى:

---

(١) انظر: الدرر في تناسب الآيات والسور.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قال **ابن عباس** رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في رهطٍ من أصحاب النبي ﷺ قالوا: نقطعُ مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسيحُ في الأرض، كما يَفْعَلُ الرهبان، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فأرسلَ إليهم، فذكر لهم ذلك، فقالوا: نعم، فقال النبي ﷺ: «**لكنِّي أصومُ وأُفطِرُ، وأصلِّي وأنامُ، وأنكحُ النساءَ، فَمَنْ أخذَ بِسُنَّتي فهو منِّي، ومن لم يأخذْ بِسُنَّتي فليسَ مني**» [رواه ابن أبي حاتم].

وفي «**الصحيحين**»: عن **أنس** رضي الله عنه: أنَّ ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواجَ النبيِّ ﷺ عن عملِهِ في السرِّ، فقال بعضُهم: لا آكلُ اللحمَ، وقال بعضُهم: لا أتزوَّجُ النساءَ، وقال بعضهم: لا أنامُ على فراشٍ، فبلغَ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «**ما بالُ أقوامٍ يقولُ أحدُهم كذا وكذا! لكنِّي أصومُ وأفطرُ، وأنامُ وأقومُ، وآكلُ اللحمَ، وأتزوَّج النساءَ، فمن رغبَ عن سنّتي فليسَ مني**» [البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١)][1].

وقوله تعالى:

﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ معناه: كما أنّ عليكم أن لا تحرِّموا الحلال، فلا تعتدوا في تناوله، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم، وهو كقوله تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

ثم قال تعالى:

﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ أي: بشرط أن يكونَ المأكولُ حلالاً طيِّباً.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٨٧.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بفعلِ ما أحلَّ لكم، وتركِ ما حرَّمَ عليكم.

﴿الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

• **أحكام الأيمان:**

ولمّا كان تحريم الحلال يُعَدُّ في الشريعة الإسلامية يميناً، بيَّن الله تعالى أحكام الأَيْمان[1] وكفارتها فقال ﷻ:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ **واليمين اللغو**: هو أن يحلف على أمر في الماضي أو الحال وهو يظن نفسه صادقاً، ثم يتبيَّن له أن الأمر على خلاف ما كان يظن، ولا مؤاخذة على هذا اليمين، على العكس من اليمين الغموس، الذي سُمِّي بهذا الاسم لأنه يغمس صاحبَه في جهنم، فهو من كبائر الذنوب لما فيه من تعمُّد الكذب.

فاليمين الغموس: هو الحلف بالله تعالى وهو يعلم أنه كاذب، وقد عدَّه النبي ﷺ من كبائر الذنوب، فعن **عبد الله بن عمرو** ﷺ قال: جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسولَ اللهِ ما الكبائرُ؟ قال: «**الإشراكُ باللهِ**» قال: ثم ماذا؟ قال: «**عقوقُ الوالدينِ**» قال: ثم ماذا؟ قال: «**اليمينُ الغموسُ**» قلت: وما اليمينُ الغموسُ؟ قالَ: «**التي يُقْتَطَعُ بها مالُ امرئٍ مسلمٍ هو فيها كاذبٌ**» [رواه البخاري (٦٩٢٠)].

---

(١) انظر: أحكام الأيمان في كتابنا: الفقه الحنفي في ثوبه الجديد: ٢/ ٢٩٩ ـ ٣٤٢، ط. دار القلم بدمشق.

وعن **أبي أمامة**: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**مَنِ اقتطعَ حَقَّ امرئٍ مسلم بيمينِهِ فقد أوجبَ اللهُ له النَّارَ، وحرَّمَ عليه الجنةَ**» فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ فقال: «**وإنْ كان قضيباً من أَرَاكٍ**» [رواه مسلم (١٣٧)].

وذكروا معنًى آخر لليمين اللغو، فقد ذهب بعضهم إلى أنَّ اليمين اللغو هو ما يجري على اللسان بلا قصد، مثل: لا والله، وبلى والله.

ثم ذكر الله النوعَ الثالثَ من أنواع اليمين فقال:

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ وهي **اليمين المنعقدة**، التي يُحْلفُ بها على أمرٍ مستقبل، وفي هذه اليمين الكفارة إن حنِثَ الحالفُ فلم يبرَّ بيمينه.

وبيّن الله تعالى مقدار الكفارة فقال:

﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ والمرادُ بتحرير الرقبةِ إعتاق العبد.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ شيئاً من هذه الأمور المذكورة كأنْ كانَ الحالِفُ فقيراً.

﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ فعليه ليكفِّرَ عن يمينه أن يصومَ ثلاثة أيام، وشرط بعضهم أن تكون ثلاثةَ أيام متتابعة.

﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أي: إذا لم تَبَرُّوا بها.

﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ بعدم المسارعة إليها أو إلى الحنث فيها، أو لا تتركوا أيمانكم بغير تكفير.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

النداء الحادي عشر

الأمر باجتناب الخمر والميسر نهائيّاً

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

وجاء **النداء الحادي عشر** يبيِّنُ بعضَ الخبائث التي حرمها الله تبارك وتعالى في الشريعة الإسلامية، فلا تُعَدُّ من الطيبات التي أحلَّتها الآيات السابقة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ﴾ **الخمرُ**: كلُّ مسكرٍ يخامِرُ العقلَ، ويغطِّيه من الأشربة.

﴿وَالْمَيْسِرُ﴾ هو القمار، ويلحقُ به كل ما يشبهه من الكسبِ الذي يُعتمد فيه على مجرد الحظ والمصادفة.

﴿وَالْأَنصَابُ﴾ هي الأصنام المنصوبة للعبادة.

﴿وَالْأَزْلَامُ﴾ هي التي كانوا يستقسمون بها كما مرَّ معنا في أول السورة [الآية: ٣].

﴿رِجْسٌ﴾ أي: قذر تعاف منه العقول.

﴿مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي: من تزيينه وتسويله.

﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ أي: اجتنبوا تعاطي جميع ما ذكر، وهذا يقتضي الاجتنابَ المطلق، الذي لا يُنتفع معه بشيءٍ من الوجوه، لا بشربٍ ولا بيعٍ ولا تخليلٍ ولا مداواةٍ ولا غير ذلك.

وعلى هذا تدلُّ الأحاديثُ الواردةُ في الباب:

فعن **ابن عباس** ﵄: أنّ رجلاً أهدى لرسول الله ﷺ راويةَ خمرٍ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**هل علمتَ أنَّ اللهَ حرَّمَها؟**» قال: لا، قال: فسارَّ رجلاً (أي: حَدَّثه سِرّاً) فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**بِمَ سارَرْتَهُ؟**» قال: أمرتُهُ ببيعها، فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الذي حَرَّمَ شُرْبَهَا حَرَّمَ بَيْعَهَا**» قال: ففتَح المزادةَ حتى ذهبَ ما فيها. [رواه مسلم (١٥٧٩)][(١)].

واستثنى بعضُ العلماء تخليلَ الخمر، قال في «**الدر المختار**»: «وحرم الانتفاع بها، ولو لسقي دوابٍّ أو لطينٍ أو نظرٍ للتلهي أو في دواءٍ أو دُهْنٍ أو طعامٍ إلا لتخليلٍ»[(٢)].

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي: لكي تفلحوا بهذا الاجتناب.

وهذا يدلُّ على أنَّ فعلَ مثل هذه الأمور الخبيثةِ كشرب الخمر أو تعاطي القمار خيبةٌ وخسرانٌ لما فيها من المفاسد في الدين والدنيا.

وقد بيَّن الله سبحانه هذه المفاسد بقوله:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ وما أكثر الخلافاتِ والخصوماتِ التي تحدثُ بين الناس بسببِ الخمرِ والميسر!.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٦/ ٢٨٩.

(٢) انظر: حاشية ابن عابدين: ٥/ ٢٨٩.

﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ مما يؤدي إلى فساد دينكم أيضاً.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟.. وهذا يدلُّ على أنَّ تحريمَ هذه الخبائث قد بلغَ الغايةَ، فقد انقطعتِ الأعذارُ بالكليّةِ، وعليكم أن تنتهوا وتتركوا هذه الخبائث.

- **نجاح الإسلام في محاربة الخمر والميسر:**

لقد نجحَ الإسلامُ نجاحاً كبيراً في قلع هذه الآفات التي كانت راسخة في جسم المجتمع العربي الجاهلي، وقد حفظت لنا كتبُ السُّنَّة النبوية الشريفة وثائقَ تاريخيةً هامةً، تبيِّن مدى نجاح الإسلام في محاربة هذه الآفات والقضاء عليها، منها:

ما روي عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: كنتُ ساقي القومِ يومَ حُرِّمتِ الخمرُ في بيتِ أبي طلحةَ، وما شرابُهُم إلا الفضيخُ ـ البُسْر والتَّمر ـ فإذا منادٍ ينادي، فقال: اخرجْ فانظرْ، فخرجتُ فإذا منادٍ ينادي: إنَّ الخمرَ قَدْ حُرِّمَتْ، قال: فَجَرَتْ في سِكَكِ المدينةِ، فقال أبو طلحة: اخرجْ فأهرِقها، فهرقْتُها. [رواه البخاري (٢٤٦٤) ومسلم (١٩٨٠)].

وفي رواية: فسمعتُ منادياً ينادي: ألا إنَّ الخمرَ قد حُرِّمتْ، قال: فما دخلَ علينا داخلٌ، ولا خرجَ منَّا خارجٌ حتى أهرقنا الشرابَ، وكسرنا القلال، وتوضّأَ بعضُنا واغتسلَ بعضنا، وأصبنا من طيبِ أُمِّ سُلَيْم، ثم خرجنا إلى المسجدِ، فإذا رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ﴾ الآية.

وهكذا جعل الإسلامُ الخمرَ تجري في سكك المدينة، وتُكسر آنيتها بأيدي سقاتها وعُشَّاقها، مما يدلُّ على نجاح الإسلام، بينما فشلت أمريكة بكل ما عندها من الوسائل الحضارية الحديثة في محاربةِ الخمر، ففي عام **(١٩١٩م)** منعت حكومةُ الولايات المتحدة الأمريكية الخمرَ، وأصرَّت على المنع أربعة عشر عاماً، وحدث خلال هذه السنوات شيءٌ عجيب، صدرت بليون نشرة لبيان أضرار الخمر، وشرّعت عقوبات كثيرة للمخالفين حتى بلغ عدد الذين أُعدموا **(٣٠٠)** شخص، والذين سجنوا **(٥٣٣٣٥)** شخصاً، ومقدار الغرامات النقدية

(١٦) مليون دولار، وقيمة المصادرات (٤٠٤) مليون دولار، ورغم كل هذه الإجراءات زاد عدد مصانع الخمر إلى عشرة أضعاف، ولكن بشكل سري، وفشل المنعُ، واضطرتِ الحكومةُ إلى رفع الحظر[1].

فلماذا نجح الإسلام ولم يبين للناس أضرار الخمر الصحية، ولم يعرض عليهم بالكتب والنشرات والصور والمحاضرات ما يترتب على شرب الخمر من أضرار في الدم والكبد والمعدة... إلخ، بينما فشلت في العصر الحاضر كلُّ هذه الجهود المبذولة لصرف الناس عن شرب الخمر؟!.

وسرُّ نجاح الإسلام يكمن في آية تحريم الخمر التي صُدِّرت بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خاطبهم بصفةِ الإيمان بعد أن عمل على ترسيخه في قلوبهم ونفوسهم، ولذلك لم يحرّمِ الإسلامُ الخمرَ في أول الأمر، إنّما عمل أولاً على تنفيرهم منهما بقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ثم قلل من فتراتِ تناولها عندما أنزل الله قوله الكريم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، ثم أنزل تحريمها القطعي في سورة المائدة بعد أن رسخَ الإيمانُ في قلوبهم.

الإنسان فكرةٌ وعقيدةٌ قبل أن يكون جسداً، وإصلاحُ الإنسان لا يكون إلا بإصلاح فكرته وعقيدته، ورحم الله سيد قطب عندما قال: «لقد كانت الخمر والميسر والأنصاب والأزلام من معالم الحياة الجاهلية، ومن التقاليد المتغلغلة في المجتمع الجاهلي... ولم يبدأ المنهجُ الإسلاميُّ في علاج هذه التقاليد في أول الأمر، لأنَّها تقومُ على جذورٍ اعتقاديةٍ فاسدة، فعلاجُها من السطح قبل علاج جذورها جهدٌ ضائع، إنَّما بدأ من العقيدةِ، بدأ من شهادةِ أن لا إلـٰه إلا الله، وطالت فترةُ إنشاء (لا إلـٰه إلا الله) في الزمن، حتى بلغت نحواً من ثلاثة عشر عاماً، حتّى خلصت نفوسُهم لله، وأصبحوا لا يجدون لأنفسهم خِيرةً إلا ما يختاره الله، عندئذٍ بدأت عملية تنقية رواسب الجاهلية الاجتماعية

---

(١) انظر كتاب: حياتنا والموعد المجهول، للمؤلف.

والاقتصادية والنفسية والأخلاقية، بدأت في الوقتِ الذي يأمرُ الله فيطيعُ العبادُ بلا خلافٍ، انحلت العقدة الكبرى عقدة الكفر والشرك، فانحلت العقد كلها، نزل تحريم الخمر والكؤوس المتدفقة على راحاتهم، فحال أمر الله بينها وبين الشفاه المتلمِّظة، والأكباد المتقدة، وكُسرت دنان الخمر فسارت في سكك المدينة»[١].

• **حكم اللعب بالنرد والشطرنج والكرة:**

ويدل قوله تعالى في الخمر والميسر: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ على تحريم كثير من أنواع اللعب واللهو كاللعب بالنرد (الزهر أو الطاولة) والورق والشطرنج، بسبب ما فيها من الأسباب التي حرم الله الخمر والميسر من أجلها.

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره:

«فكلُّ لهوٍ دعا قليلُه إلى كثيرِهِ، وأوقعَ العداوةَ والبغضاءَ بين العاكفين عليه، وصدَّ عن ذكر الله وعن الصلاة، فهو كشرب الخمر، وأوجبَ أن يكونَ حراماً مثلَه.

فإن قيل: إنّ شربَ الخمر يورثُ السُّكْرَ، فلا يقدِرُ معه على الصلاة، وليس في اللعب بالنرد والشطرنج هذا المعنى؟!.

قيل له: قد جمع الله تعالى بين الخمر والميسر في التحريم، ووصفهما جميعاً بأنهما يوقعان العداوةَ والبغضاءَ بين الناس، ويصدّان عن ذكر الله وعن الصلاة، ومعلومٌ أنَّ الخمرَ إذا أسكرت فالميسر لا يسكِرُ، وأيضاً فإنَّ قليلَ الخمر لا يُسْكِرُ، كما أنَّ اللعبَ بالنرد والشطرنج لا يسكر، ثم كان حراماً مثل الكثير، وأيضاً فإنَّ ابتداء اللعب يورث الغفلة، فتقوم تلك الغفلةُ المستولية على القلب مكان السكر»[٢].

وقد جاء في الأحاديث النبوية الشريفة ما يؤكِّدُ تحريمَ اللعب بالنرد، وهو

---

(١) من كتاب: في ظلال القرآن: ٢/ ٩٧٤ بتصرف.

(٢) تفسير القرطبي: ٦/ ٢٩١ باختصار.

ما يسمَّى عند العوام (بالزهر والطاولة)؛ فعن **بُرَيْدة** رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ لَعِبَ بالنَّرْدَشِيرِ فكأنَّما صبَغَ يَدَهُ في لَحْمِ خِنْزِيْرٍ وَدَمِهِ**» [أخرجه مسلم (٢٢٦٠) وأبو داود (٤٩٣٩)].

قال العلامة ابن عابدين: «النردُ اسمٌ معرَّبٌ، ويقال له: النردشير، وهو حرامٌ مسقِطٌ للعدالة بالإِجماع» وقال في الشطرنج: «هو حرامٌ وكبيرةٌ عندنا، وفي إباحته إعانةُ الشيطانِ على الإِسلامِ والمسلمينَ، واستثنى بعضُ الفقهاء اللعبَ بالشطرنج؛ فقالوا بجوازه إذا لم يصاحِبْهُ قمارٌ، ولم يداوم عليه، ولم يخِلّ بواجب، وإلا فحرامٌ بالإِجماع»(١).

وروى **أبو موسى الأشعري** رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ لعبَ بالنَّرْدِ فَقَدْ عصى اللهَ ورسوله**» [رواه مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٥٨) والبخاري في «الأدب المفرد» (ص٣٦٨) وأبو داود (٤٩٣٨) وابن ماجه (٣٧٦٢) والحاكم (١/ ٥٠) وأحمد في المسند (١٩٤١٤)].

وعنه أيضاً: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ ضرب بالكعابِ فقد عصى الله ورسولَه**» [رواه أحمد في «المسند» (١٩٣٩٣) وعبد الرزاق في «المصنف» (١٩٧٣٠) قال الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله محقق المسند: وإسناده ضعيف، وقد رواه الحاكم موصولاً وصححه ووافقه الذهبي] **والكعابُ**: فصوصُ النردِ.

وهذه الأحاديثُ صريحةٌ عامّةٌ في كلِّ لاعبٍ قَامَرَ أو لم يقامر، والجدير بالذكر أنَّ الشيخَ أبا بكر محمد بن الحسين الآجُرِّي المتوفى سنة (**٣٦٠هـ**) قد ألَّفَ كتاباً سماه «كتاب تحريم النرد والشطرنج والملاهي»، ذكر فيه أدلة كثيرة تدلُّ على تحريم النرد والشطرنج(٢).

وابتلي الناسُ في العصر الحاضر بحمَّى اللعب بالكرة، فضيَّعوا من أجلها الصلوات، وقامت بينهم بسببها الخصومات، حتى وصل الأمرُ إلى حدِّ الاقتتالِ

---

(١) انظر: حاشية ابن عابدين: ٥/ ٢٥٣.

(٢) حققه وخرَّج أحاديثه: عمر غرامة العمروي، ونشر في الرياض.

وسفكِ الدماءِ وإزهاقِ الأرواحِ كما حدث في بعض ملاعب الكرة في أوروبة، فقد قتل في حادث واحد سبعةَ عشرَ إنساناً بسبب خصومةٍ وقعت بين المتعصبين للفريقين المتبارِيَيْن، فلا يبعدُ أن ينسحب عليها حكم الخمر والميسر، لأنها كما هو الواقع المشاهد تصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وتوقعُ العداوةَ والبغضاءَ حتى بين الأهل والأقارب والأصحاب، فضلاً عن الخسائر المادية الفادحة التي تنفق على بناء الملاعب الكبيرة وتدريب اللاعبين، والعجيب أن بعض المجتمعات الفقيرة تنفق النفقات الكثيرة على الكرة، بينما يتضوَّر كثير من أبنائها جوعاً وحرماناً يصل بهم في بعض الأحيان إلى حدّ الموت.

ثم أمرهم الله جلّ وعلا بطاعته سبحانه وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام، فقال:

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ في جميع الأوامر والنواهي، ويدخل في ذلك النهيُ عن الخمر والميسر.

ثم حذّرهم من المخالفة والعصيان فقال:

﴿وَٱحْذَرُواْۚ﴾، وختم الله الآية بتحذير المعرضين عن طاعة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام فقال:

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

ولم يألُ النبيُّ ﷺ جهداً في تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، فقامت على الناسِ الحجةُ، وانتهتِ الأعذارُ، وانقطعتِ العللُ، ففي الآية من التهديد وشدَّة الوعيد ما لا يخفى.

- **التقوى والإحسان:**

وتساءل الناس بعد نزول التحريم القطعي للخمر عن حال الصحابة الذين ماتوا والخمرُ في بطونهم قبلَ نزولِ تحريمها، وبعضهم قتلوا شهداء في غزوة

أُحد، وسأل بعضهم رسول الله ﷺ قائلين: قُتل فلان وفلان وهي في بطونهم؟ فأنزل الله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

وقال رسول الله ﷺ: «**لو حُرِّم عليهم لتركوه كما تركتم**» [رواه أحمد (١/ ٢٩٥)].

وقوله سبحانه:

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ﴾ أي: إثم وحرج.

﴿فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ أي: تناولوه من المأكول والمشروب كائناً ما كان.

﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إذا اتقوا أنْ يكونَ فيه شيءٌ من المحرم، واستمروا على الإيمان والعمل الصالح، ولهذا قال بعدها:

﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟﴾ أي: اتقوا ما حرَّمَ الله عليهم بعد ذلك مع كونه مباحاً فيما سبق، فإذا اتقوا المحرمات، واستمرُّوا على ما هم عليه من الإيمان والأعمال الصالحة، وكانوا في طاعة الله تعالى بحيثُ كلّما حَرَّمَ عليهم شيئاً من المباحات أطاعوا واتقوا، ثم، وثم، فلا جناحَ عليهم فيما طعموه في كلِّ مرّةٍ من المآكل والمشارب، إذ ليس فيها شيءٌ محرَّم عند تناوله[1].

والآية تدلُّ على أنَّ التحليل والتحريم في المآكل والمشارب يدورُ مع النصوص، فالمهم الثبات على الإيمان مع التقوى والعمل الصالح حتى يصلَ المؤمنُ إلى مرتبة الاستقامة الكاملة والإحسان، وينال محبَّة الله تعالى، ولهذا ختم الآيةَ بقوله تعالى:

﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

---

(١) انظر: روح المعاني: ٧/ ١٨.

ومرتبةُ الإحسان هي التي قال عنها رسول الله ﷺ عندما سُئِلَ عن الإحسان: «**أنْ تعبدَ اللهَ كأنّكَ تراهُ، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّه يراكَ**» [رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].



النداء الثاني عشر

الأمر بالانقياد لأمر الله في شرعه

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٩٤﴾

وعادت بنا آيةُ **النداء الثاني عشر** إلى الآية الأولى في السورة التي جعلها الله الموضوع الأساسَ الأوّلَ للسورة كلها، وفيها ذكر الله تحريم الصيد في الحَرَم وحال الإِحرام فقال: ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾ [المائدة: ١].

وحتى يظهرَ لنا موقع النداء الثاني عشر وما بعده من آيات السورة وموضوعها علينا أن نتذكّر النقاط الثلاث التالية التي سبق تقريرها؛ وهي:

١ ـ التحليل والتحريم لله سبحانه وحده.

٢ ـ الأصل في اللحم الحظر والتحريم، حتى يقوم الدليل على حِلِّه.

٣ ـ التشريع عامةً والتحليل والتحريم خاصةً منوطٌ بمدى استسلام الأمة وإذعانها لله تعالى.

ومن المعلوم أنّ الصيد كان ولا يزالُ مصدراً رئيساً من مصادر الطعام للناس، وقد ازداد أهميةً في العصر الحاضر كثيراً، حتى أصبحت الدول تتنافس على الصيد، وتتقاتل أحياناً على موارده، كما تحشد الجيوش والأساطيل لحماية موارد الصيد والسيطرة عليها.

وقد أحلّ الله تعالى صيد البحر مطلقاً، كما أحلَّ صيد البر إلا في أرض الحرم، أو في حال الإحرام.

وحتى يبيّنُ اللهُ سبحانه ارتباطَ تحليل الصيد بمدى استسلام الأمة وإذعانها

لأوامره تعالى، قدَّم له بقوله الكريم مخاطباً الصحابة الذين عاشوا عصر التنزيل والتشريع في الإسلام، والذين كان لخضوعهم واستسلامهم لأوامر الله تعالى تأثير كبير في يسر الشريعة الإسلامية وسماحة أحكامها، فقال ﷻ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٩٤﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ﴾ اختبر الله تعالى أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ كما اختبر بني إسرائيل من قبلُ عندما حرم الله على بني إسرائيل العملَ والصيدَ يومَ السبتِ، وساق لهم سبحانه بحكمته وقدرته السمكَ الكثيرَ يوم السبت، فكانت تأتيهم أسرابُ السمك واضحةً قريبةً في يوم السبت، بينما تختفي وتبتعدُ في أعماق البحار بعد ذلك، قصَّ الله علينا خبرهم في قوله الكريم: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

فخالف أكثرُهم أمرَ ربهم، وسقطوا في الاختبار، وأنزل الله عليهم العذاب: ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦].

واختبر الله سبحانه أيضاً أصحاب رسول الله ﷺ وابتلاهم كما مرّ معنا بالصيدِ وهم محرِمون، قال الشوكاني ؒ: «كان الصيدُ أحدَ معايش العرب، فابتلاهم الله بتحريمه مع الإحرام وفي الحرم، كما ابتلى بني إسرائيل ألا يعتدوا في السبت»(١).

وقال مقاتل بن حَيَّان: أُنزلت هذه الآيةُ في عمرة الحديبية، فكانت الوحشُ

---

(١) فتح القدير: ٢/ ٧٧.

والطيرُ والصيدُ تغشاهم في رحالهم لم يروا مثله قط فيما خلا، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون[١].

وبيّن سبحانه الحكمة من هذا الاختبار فقال:

﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: لتظهر طاعة من يطيع الله منهم في سرِّه وغيبته عن الناس.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد هذا الإعلام والبيان.

﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لمخالفته أمر الله وشرعه.

ونجح الصحابة ﷺ في الاختبار، وامتثلوا أمر الله تعالى وشرعه، فلم تمتدَّ أيديهم إلى ما حرَّم الله تعالى عليهم، ونتيجة لهذا أحلَّ الله تعالى لهذه الأمة صيدَ البحر مطلقاً، وأحلَّ صيدَ البر أيضاً، إلا في حال الإحرام، أو داخلَ أرض الحرم، كما شرع الله الجزاء والعقاب لمن يصطاد وهو محرم أو في أرض الحرم في النداء الثالث عشر.



النداء الثالث عشر

التحذير من قتل الصيد عندَ الإحرَام وَفي الحَرم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ۗ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦) ۞ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٨) مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩) قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠)﴾

قال جلّ وعلا في النداء الثالث عشر:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ۗ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٩٥)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ وهذا تأكيدٌ لما سبق، وتمهيدٌ لما يترتب عليه من أحكام.

﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ أي: فعلى قاتل الصيد أن يذبَح من النَّعَم ـ وهي الإبل والبقر والغنم ـ ما يساوي الصيدَ ويماثله.

﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ يحكم ببيان مقدارِ الجزاءِ حَكَمانِ عدلانِ مُسلمانِ.

﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾أي: يجعل هذا الجزاء هدياً يُهدى في أرض الحرم.

﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ أو يعطي بقيمة الهدي طعاماً للفقراء لكل مسكين مقدارَ ما يجبُ في زكاة الفطر.

﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ أو عليه أن يصومَ أياماً بعدد المساكين.

وهذا الجزاءُ شرعه الله تعالى ليذوقَ المخالِفُ جزاء مخالفته، ولهذا قال:

﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ﴾ قبل نزول هذه الآيات.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ فقَتَل الصيدَ وهو محرم.

﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

ثم قال تعالى في شأن الصيد:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ أي: ما صِيْدَ من سمك البحر أو من حيوان البحر.

﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ أي: وأحل لكم ما قذفه البحر ميتاً، إذا لم يكن مُنْتِناً.

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ﴾ يتمتع به ويستفيد منه المقيمون والمسافرون.

﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ﴾ أي: محرمين أو في أرض الحرم.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

والجدير بالذكر أن حيوان البحر يحلُّ أكله من غير ذبح، لما روي عن **ابن عمر** رضي الله عنهما قال: أُحِلَّتْ لنا ميتتانِ ودمانِ، فأما الميتتانِ فالحوتُ والجرادُ، وأما الدمانِ فالكبدُ والطِّحالُ. [رواه ابن ماجه (٣٣١٤) وأحمد (٥٦٩٠) والدارقطني (٤/ ٢٧٢) والبيهقي (١١٢٨)].

وقال ﷺ في البحر: «**هو الطَّهُورُ ماؤه، الحِلُّ ميتتُه**» [رواه أبو داود (٨٣) والنسائي (١/ ٥٠) والترمذي (٦٩) وابن ماجه (٣٨٦)].

وعلى هذا فدَمُ السمك وما في جوفه طاهر حيّاً كان أو ميتاً، إلا إذا حصل تغيُّرٌ في رائحته، وفساد في لحمه، فلا يحلُّ أكله لما يترتب عليه من الضرر.

والحكمة من تحريم الصيد في أرض الحرم تعظيمُ بيتِ اللهِ الحرام وتكريمه، ولهذا قال الله ﷻ:

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ أي: سبباً لإصلاح أمور الناس في معاشهم ومعادهم، يلوذ به الخائف، ويأمن فيه الضعيف، ويجتمع فيه التجَّار، ويتوجه إليه الحجاج والعمار.

﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ وقد سبق الكلام عن ذلك في أول السورة [الآية: ٢].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: شرع ذلك.

﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فهو سبحانه العليم بكل ما يحتاجُ إليه الناسُ في مصالحهم، ولهذا شرع لهم هذه الشرائع، فأحلَّ لهم ما أحلَّ، وحرم عليهم ما حرَّم، من أجل سعادتهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

فعليكم أيها الناس أن تنقادوا لشرع الله وأحكام دينه، وتطبقوها على أنفسكم:

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾.

واعلموا أيضاً أن رسول الله ﷺ أدى ما كلَّفه الله تعالى به، فبلغكم رسالته، وأقام عليكم حجته، فلا عذرَ لكم بعدَ اليوم:

﴿مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

فما أحلّ الله تعالى لكم إلا كلَّ طيب نافع، وما حرَّمَ عليكم إلا كلَّ خبيثٍ ضار بدينكم أو ببدنكم، فلا تغتروا بكثرة الخبيث، فالقليلُ الطيِّبُ أفضلُ من الخبيث الكثير:

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ﴾ فلا تنظروا إلى الكم، بل انظروا إلى الكيف، إلى المفيد النافع مما أحلَّ الله تعالى لكم.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يا أصحاب العقول في البحث عن الطيب النافع بين ركام الخبائث الضارة.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وفي العصر الحاضر أصبحت التنميةُ الهدف الأساس للإنسان في ظل الحضارة المادية التي يعيشُها، وهي لا تعني سوى الزيادة في كمية الإنتاج بأيِّ وسيلةٍ من الوسائل، حتى أصبحت تنميةً انتحاريةً، يمكن أن تمحو وتدمر كل آثار الحياة، فما أحوجَ المتنافسين في مضمار التنمية والراكضين وراء زيادة الإنتاج إلى محطة استراحة، يريحون فيها أجسامهم وأعصابهم في ظلال هذه الآية الكريمة، فيفصلون بين الوسائل والأهداف، ويضعون جهدهم وتعبهم في مكانه الصحيح من الحياة، ليعرفوا معنى الحياة الإنسانية الحقَّة، ويميزوا بين الخبيث ولو كان كثيراً، وبين النافع الطيب ولو كان قليلاً، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

النداء الرابع عشر

التحذير من كثرة السؤال

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤)﴾.

اقبلوا شرع الله تعالى فيما أحلَّ لكم وحرَّم عليكم، وأذعنوا له منقادين مستسلمين، وإيَّاكم أن تسألوا عنه معترضين، وهذا التحذيرُ هو ما تضمَّنه **النداء الرابع عشر**:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ فالمبادرةُ إلى تنفيذِ أمرِ الله تعالى دونَ أيِّ اعتراضٍ أو سؤالٍ يخلّصكم من المشقة والعَنَتِ الذي أصابَ مَنْ قبلكم من الأمم.

انظروا مثلاً إلى ما أصاب بني إسرائيل بسبب كثرة أسئلتهم واعتراضهم على أوامر ربهم سبحانه في قصة البقرة، لم يبادروا إلى تنفيذِ أمرِ الله تعالى، فسألوا نبيَّهم موسى عليه السلام معترضين على أمر الله سبحانه، فشدَّدَ الله عليهم.

وما أكثر ما حذّر رسولُ اللهِ ﷺ أمته أن يفعلوا مثل ما فعل بنو إسرائيل، فقد روى **أبو هريرة** رضي الله عنه قال: خطبنا رسولُ اللهِ ﷺ فقال: «**أيُّها الناسُ! قد فرضَ الله عليكم الحجَّ فحُجُّوا**» فقال رجلٌ: أكلَّ عامٍ يا رسولَ اللهِ؟ فسكتَ عليه الصلاةُ والسلامُ حتى قالها ثلاثاً، فقال ﷺ: «**لو قلتُ: نَعَمْ؛ لوجبتْ وَلَمَا استطعتم**» ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**ذَرُوْني ما تركتُكم، فإنَّما هلكَ مَنْ كانَ قبلَكم بكثرةِ سؤالِهم واختلافِهم على أنبيائهم، فإذا أمرتُكم بشيءٍ فأْتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتُكم عن شيءٍ فدعوه**» [رواه مسلم (١٣٣٧)].

﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ أي: تظهر لكم بما يجيبُ عليكم به النبيُّ ﷺ أو ينزل به الوحي، فيكونُ ذلك سبباً للتكاليفِ الشاقّةِ، وإيجابِ ما لم يكن واجباً، وتحريمِ ما لم يكن محرماً، بخلاف السؤال عنها بعد انقطاع الوحي بموتِ رسولِ اللهِ ﷺ؛ فإنَّه لا إيجابَ ولا تحريمَ يتسبَّبُ عن السؤال(١).

وقد ورد في الحديث الشريف: «**أعظمُ المسلمينَ جُرْماً مَنْ سألَ عَنْ شيءٍ لَمْ يُحَرَّم، فحُرِّمَ مِنْ أجلِ مسألتِهِ**» [رواه البخاري (٧٢٨٩) ومسلم (٢٣٥٨)].

ولهذا قال تعالى بعدها:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: تركها الله تعالى ولم يذكرها في القرآن الكريم كما جاء في **الحديث الصحيح**: «**إنَّ الله فرضَ فرائضَ فلا تضيِّعوها، وحَدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرَّمَ أشياءَ فلا تَنْتَهِكُوْهَا، وسكتَ عن أشياءَ رحمةً بِكُمْ غيرَ نسيانٍ، فلا تَسْأَلوا عنها**» [أخرجه الحاكم (٢/ ٣٧٥) وصححه، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٥٨٩) والبيهقي (١٠/ ١٢) من حديث **أبي ثعلبة الخشني** رضي الله عنه].

ولا بدّ من تقييدِ النهي عن السؤال في هذه الآية بما لا تدعو إليه الحاجةُ، أما ما تدعو إليه الحاجة في أمور الدين والدنيا، فقد أذنَ اللهُ تعالى بالسؤال عنه فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

---

(١) انظر: فتح القدير: ٢/ ٨١.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ أي: سألوا مثل هذه المسائل.

﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ أي: تاركينَ العملَ بها، فإنَّ بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم في أشياء فإذا أُمروا بها تركوها[١].

ثم بيَّنَ سبحانه أنَّ ما ابتدعه أهلُ الجاهليةِ في تحريم بعضِ أنعامهم باطلٌ، لأنّ التحريمَ والتحليلَ لله سبحانه وحده، فقال:

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾:

والبحيرة: هي الحلوبةُ من الأنعام، لا يسمحون لأحدٍ أن يحلبها، ويزعمون أنهم يتركون لبنها لأصنامهم.

والسائبة: كانوا يسيِّبونها لآلهتهم المزعومة، ولا يحملون عليها شيئاً.

والوصيلة: الناقة التي تبكّر بولادة أنثى، ثم تلد بعدها أنثى أخرى، ويسمُّونها وصيلة، لأنها وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكرٌ، فلا يذبحونها.

والحامي: فحلُ الإبلِ إذا تمكَّنَ من تلقيحِ عددٍ معيّنٍ من الإبل تركوه بعد ذلك لآلهتهم، ولم يحملوا عليه شيئاً.

ثم بيَّن سبحانه كذبهم وافتراءهم في هذه الأمور فقال:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وإذا لم يشرع الله تعالى هذه الأمور فمن الذي شرعها لهم؟! إنّ تقليدَهم

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٢/ ٩٧.

لآبائهم هو الذي شرعها لهم، ولهذا ذمَّ الله تعالى تقليدَهم الأعمى لآبائهم الذي جعلهم ينصرفون عن دين الله وشرعه وسُنَّة رسوله ﷺ فقال:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

وهذا يدلُّ على أنَّ الاقتداءَ والتقليدَ يجبُ أن يكون للعالم المهتدي الذي يبني قوله على الحجَّة والبرهان، فلا خيرَ في علمٍ لا هدايةَ معه، ولا تكونُ الهدايةُ من دون نظرٍ وتفكرٍ واستبصارٍ.



النداء الخامس عشر

الأمر بإصلاح النفس والتحذير من المفسدين

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾.

حذّر الله تعالى المؤمنين في **النداء الخامس عشر** من التأثُّرِ بالمفسدين الخارجينَ على دين الله وشرعه مهما كثروا، وعمَّ فسادهم، وانتشر فسقهم، فقال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ وهذا كما جاء في الحديث الشريف: «**لا تكونوا إمَّعةً تقولون: إنْ أحسنَ الناسُ أحسنّا، وإنْ أساؤوا ظَلَمْنا، ولكنْ وطِّنُوْا أنفسَكُم إنْ أحسنَ الناسُ أن تُحسِنُوا، وإنْ أساؤوا فلا تَظْلِمُوا**» [رواه الترمذي (٢٠٠٧) من حديث حذيفة رضي الله عنه].

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى آمراً عبادَه المؤمنين أن يصلحوا أنفسَهم، ويفعلوا الخيرَ بجهدهم وطاقتهم، ومخبراً لهم أنّه من أصلحَ أمره لا يضرُّه فسادُ من فسدَ من الناس، سواء كان قريباً منه أو بعيداً.

قال العَوْفي عن **ابن عباس** رضي الله عنهما **في** تفسير هذه الآية: يقول تعالى: إذا

ما العبدُ أطاعني فيما أمرتُهُ به من الحلالِ، ونهيتُه عنه من الحرامِ، فلا يضرُّه مَنْ ضَلَّ بَعْدَهُ إذا عملَ بما أمرتُه به»(١).

فالآيةُ تحضُّ المسلمين على التمسك بدينهم ومبادئ شريعتهم، مهما كثر الفساد والمفسدون، فالحرامُ إذا شاع وانتشر لا يحلُّ، والحلال إذا ترك الناس العمل به لا يَحْرُمُ، ولهذا قال تعالى:

﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أي: لا يضركم ضلالُ من ضلَّ من الناسِ إذا اهتديتم أنتم إلى الحق وتمسكتم به.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر.

وليس في الآية دليلٌ على جواز ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان فِعْلُه ممكناً، قال العلامة أبو السعود: «أي: لا يضرُّكُم ضلالُ من ضَلَّ إذا كنتم مهتدين، ولا يُتَوَهَّمَنَّ أنَّ فيه رخصةٌ في تركِ الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر مع استطاعتهما»(٢).

وروي: أنّ **أبا بكر الصديق** ﷺ حَمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال: أيُّها الناسُ إنَّكُم تقرؤون هذه الآيةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قال: وإنكم تضعُونها على غير موضعها، وإنّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**إنَّ الناسَ إذا رأوا الظالمَ فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمَّهم الله بعقابٍ من عنده**» [رواه أحمد (٣٠) وأبو داود (٤٣٣٨) والترمذي (٣٠٥٧) وابن ماجه (٤٠٠٥)].

ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وذهب بعضُهم إلى أنَّ العملَ بهذه الآية يكونُ عند غلبةِ المفسدين وأهل

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/١٠٩.

(٢) تفسير أبي السعود: ٢/٩٨.

الشرِّ، بحيث لا يستطيعُ المسلمُ أن يأمرَ بالمعروف، وينهى عن المنكر، فحينئذٍ عليه أن يهتمَّ بإصلاح نفسه فقط.

واحتجوا بما رُوي عن أبي أمية الشعباني قال: أتيتُ **أبا ثعلبةَ الخُشني** فقلتُ له: كيف تصنعُ في هذه الآيةِ؟ قال: أيَّةُ آيةٍ؟ قلتُ: قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ قال: أما والله لقد سألتَ عنها خبيراً، سألت عنها رسولَ اللهِ ﷺ فقال: «**بل ائتمروا بالمعروفِ، وتناهَوْا عَنِ المُنْكَرِ، حتى إذا رأيتَ شُحّاً مُطاعاً، وهوًى متبعاً، ودنيا مُؤْثَرة، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيه، فعليكَ بخاصَّةِ نفسِكَ ودَعِ العوامَّ، فإنَّ مِنْ ورائِكُم أياماً الصابرُ فيهنَّ مثلُ القابِضِ على الجَمْرِ، للعاملِ فيهنَّ أجرُ خمسينَ رجلاً يعملونَ كعملِكُم**» وفي روايةٍ: قيل: يا رسولَ الله! أجر خمسين رجلاً منا أو منهم؟ قال: «**بل أجرُ خمسينَ منكم**» [رواه أبو داود (٤٣٤١) والترمذي (٣٠٥٨) وابن ماجه (٤٠١٤)].

قال العلامة القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الأمرُ بالمعروف والنهيُّ عن المنكر متعيِّن متى رُجيَ القبول أو رُجيَ ردُّ الظالم ولو بعنف، ما لم يخف ضرراً يلحقه في خاصَّته، أو فتنة يدخلها على المسلمين، إما بشقّ عصا، وإما بضرر يلحق طائفةً من الناس، فإذا خِيْفَ هذا فعليكم أنفسكم**»[1].

وهذا كلام سديدٌ ومفيدٌ، يتفق تماماً مع القواعد الفقهية في الشريعة الإسلامية، **فلا يُزالُ ضررٌ بمثلِهِ، ويُتحمَّل أخف الضررين لدفع أكبرهما.**



(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٣٤٥.

النداء السادس عشر

الأمر بصيانة مال المسلم وتنفيذ وصيته

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

وجاء **النداء السادس عشر** ـ وهو النداءُ الأخير في سورة المائدة ـ يبيّن بعضَ أحكام المعاملات المالية في المجتمع الإسلامي، فالمال أحد الضرورات الخمس، التي قرَّرها الإسلام للإنسان، وشرع ما يؤمِّنها، وهي: **الدين، والنفس، والعقل، والعِرض، والمال**.

ولم يقتصر الإسلامُ على تشريع العقوبات لحماية هذه الضرورات، بل شرع للناس الشرائع المختلفة التي تنظِّم العلاقاتِ المالية والاجتماعية فيما بينهم، وتكفل صيانة هذه الضرورات لكل فرد في المجتمع.

شرع الله تبارك وتعالى في **النداء السادس عشر** الضماناتِ التي تصون مال الإنسان عندما يكون مسافراً بعيداً عن أهله، وينزل به نازلُ الموتِ، فحتى تُنفَّذ وصيتُه بإيصالِ المالِ إلى ورثته قال تعالى:



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ أي: من أهل دينكم.

﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أو شهادة آخرَيْن من غير أهل دينكم إذا كنتم على سفرٍ، ولم يكن ثمة شاهدان من أهل دينكم.

فعلى هذا تكونُ شهادةُ غيرِ المسلمين على المسلمين جائزةً في هذه الحالة، وهي حالة الوصيةِ في السفر، إذا لم يوجد شاهدان من المسلمين، وهذا ما ذهبَ إليه بعضُ المفسرين، إلا أنَّ جمهور الفقهاء قالوا: لا تجوز شهادة الكافر على المسلم، وتأوَّلوا قوله تعالى: ﴿ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ أي: من عشيرتكم وقرابتكم ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ أي: من غير القرابة والعشيرة، والله سبحانه أعلم.

﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ وهذا يدل على أنَّ الإشهادَ على وصية الإنسان قبل الموت.

ثم بيَّن سبحانه كيفية أداءِ الشاهدين للشهادة فقال:

﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: صلاة العصر.

﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ وهو شرط لتحليفِ الشاهدينِ، فإذا لم تقع ريبةٌ ولا اختلافٌ فلا حاجةَ إلى تحليفهما.

﴿لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ أي: لا نشتري بقَسَمنا عوضاً نأخذه ولا ندفعه إلى أحدٍ، ولو كان قريباً لنا.

﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: الشهادة التي أعلمنا الله تعالى بها عندما تحمَّلناها.

﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْأَثِمِينَ﴾ إذا غيَّرنا شهادة الله أو أخذنا لأنفسنا أو لأحدٍ من أقاربنا شيئاً من مال الموصي.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ أي: فإن ظهرَ وتحقّقَ أن الشاهدينِ ارتكبا خيانةً في الشهادة، واستحقا بذلك إثماً.

﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ أي: فليقم اثنان من الورثة المستحقين للمال.

﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا﴾ أي: أحق وأصحُّ وأثبتُ من شهادة الشاهدين السابقين.

﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ فيما قلنا في الشاهدينِ من الخيانة.

﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ إن كنا قد كذبنا عليهما.

ويرجع بعد هذا إلى قول الورثة، ولا تقبل شهادة الشاهدين اللذَيْن استشهدهما الموصي قبل موته:

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ أي: على الوجه المرضيِّ.

﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ أي: يكون الحاملُ لهما على الإتيان بالشهادة على وجهها الصحيح هو تعظيمُ الله سبحانه والخوف من الفضيحة بين الناس في حال عدم قبول شهادتهما، وردّ اليمين على الورثة، فيحلفون ويستحقُّون ما يدَّعون.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟﴾ أي: وأطيعوا.
﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: تفسير القرطبي، وتفسير وابن كثير.

خاتمة السورة

المشهد العظيم

﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (١٠٩) إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (١١٤) قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (١١٥) وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ (١٢٠) ﴾.

عوَّدنا الله تعالى في القرآن الكريم أن يختمَ آياتِ التشريع والأحكام بذكر بعض المشاهد المخيفة من يوم القيامة، فيؤكد بذلك أهميةَ هذه الأحكام الشرعية، وعمقَ وشدَّةَ المسؤولية عنها، فلا يكونُ تفريطٌ وتقصيرٌ فيها.

قال الإمام الفخر الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أنَّ عادةَ الله تعالى جاريةٌ في هذا الكتاب الكريم أنّه إذا ذكَرَ أنواعاً كثيرةً من الشرائع والتكاليف والأحكام أتبعها إمّا بالإلٰهيات، وإما بشرح أحوال الأنبياء، أو بشرح أحوال القيامة، ليصيرَ ذلك مؤكِّداً لما تقدَّم ذكره من التكاليف والشرائع»(١).

وبدأ سبحانه عرضَ بعضِ المشاهد من يوم القيامة بهذا المشهد العظيم فقال جلّ وعلا:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ فاسمعوا خبرَ هذا اليوم وما فيه من الأحوالِ والأهوالِ. وخصَّ سبحانه الرسلَ بالذكر لإظهار شرفهم ورفعة مكانتهم، وإلا فيومُ القيامةِ يومٌ مجموعٌ له الناسُ، وهو يومٌ مشهودٌ.

كما خَصَّ الرسلَ بالسؤال في هذا المشهد تقريعاً ولوماً للمكلفين الذين أُرسل الرسلُ إليهم، فأعرضوا عن رسالتهم، ولم يستجيبوا لدعوتهم، وهو كسؤال الموءودةِ في يومِ القيامة تقريعاً وتبكيتاً لوائدِها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التّكوير] وإلا فالسؤال يومَ القيامة عامٌّ وشاملٌ للرسل والمرسل إليهم، قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ أي: ما الذي أجابتكم به أممكم حين دعوتموهم إلى توحيدي وعبادتي وطاعتي.

---

(١) التفسير الكبير: ١٢/١٢١.

﴿قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ وإنما قالوا ذلك مِنْ هولِ يومِ القيامة، ومن شدّةِ الخوفِ والفزعِ فِي ذلك الموقف.

ولا يُعْتَرَضُ على هذا القول بأنَّ الرسلَ عليهم الصلاة والسلام من الذين لا خَوْفٌ عليهم ولا هُمْ يحزنون في يوم القيامة، فهذا حالُهم وشأنُهم في أكثر مواطن يوم القيامة، وقد جاء عَنْ بعضِ مواقف يوم القيامة في الحديث الشريف: «**إنَّ جهنَّم إذا جِيْءَ بها زفرتْ زفرةً، فلا يبقى نبيٌّ ولا صِدّيقٌ إلا جثا لركبتيه**» [رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٤١٢٨)][١] وذلك من شدة الهول الذي يصيبهم.

أو قال الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ من باب الأدبِ مع الله سبحانه، أي: لا علمَ لنا إلا علمٌ أنتَ أعلمُ به منا، أو لا علمَ لنا بالنسبةِ إلى علمك المحيط بكل شيء، أو لا علمَ لنا إلا بالظواهرِ، أمّا ما غابَ عنا من البواطنِ فلا علمَ لنا به، ولهذا ختموا كلامهم بقولهم:

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

- **التذكير بالنعم:**

ثم وجَّه الله تعالى الخطاب إلى عيسى ابن مريم عليه السلام على الخصوص توبيخاً للنصارى، الذين فُتنوا بعيسى عليه السلام، وتجرؤوا على الله سبحانه وتعالى، فوصفوه باتخاذ الصاحبة والولد، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، فلا يليقُ بعاقلٍ أن يصفَ الله تعالى بهذه الصفة، وهو الواحد الأحدُ والفردُ الصمدُ، المنزَّه عن الصاحبة والولد، قال الحقُّ جل جلاله يبيِّن قُبْحَ هذه المقولة وغلظتها وشدة شناعتها: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ [مريم] أي: عظيماً، ثم بيَّن خطورته فقال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٦/ ٣٦١.

فلا جَرَم أن يخصَّ الحقُّ سبحانه عيسى عليه السلام بهذا الخطاب بحضرة جميع الرسل في هذا الموقف العصيب من مواقف يوم القيامة، فيعدِّدُ أنواع النعم التي أنعمَ بها عليه وعلى والدته بقصد توبيخ النصارى، وتقريعهم على سوء مقالتهم وشناعةِ فريتهم، فكلُّ نعمةٍ من هذه النعم التي أنعم الله تعالى بها على عيسى عليه السلام وعلى أُمّه تدلُّ على أنَّه عبدٌ لله تعالى، كما تدلُّ على وحدانيةِ الحقّ سبحانه، وتفرُّده بالغنى الكامل، والقدرة التامة، وتنزهه عن الصاحبة والشريك والولد.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل عليه السلام.

﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ قبلَ موعدِ الكلام.

﴿وَكَهْلًا ۖ﴾ أي: وتكلِّمُهم في سِنِّ الكهولة، وأنت تدعوهم إلى عبادةِ الله الواحدِ الأحدِ.

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: الكتاب والخط وحُسْن تصريفِ الأمور.

﴿وَالتَّوْرَاةَ﴾ أي: وعلَّمتك التوراةَ التي أُنزلت على موسى قبلَه.

﴿وَالْإِنجِيلَ ۖ﴾ الذي أنزله الله تعالى عليك.

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ أي: تصوِّرُ.

﴿مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي: مثل هيئة الطير.

﴿بِإِذْنِي﴾ أي بقدرتي ومشيئتي.

﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ وكرره تأكيداً لكون ذلك وقعَ بقدرة الله تعالى ومشيئته، لا بقدرةِ عيسى ومشيئته.

﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ وهو من وُلد أعمى.

﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ وهو المصابُ بمرض البرص.

﴿بِإِذْنِي﴾ بإذنِ اللهِ من غير استعانة بدواء أو طبيب.

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ أي: تخرج الموتى من قبورهم أحياءً بقدرة الله تعالى ومشيئته، وذكَرَ الإذنَ مع كل هذه الأفعال ليؤكِّدَ أنها أفعالُ الله تعالى على الحقيقة، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥] أي: إلا بخلق الله الموت فيها(١).

ومن نعم الله تعالى على عبده ونبيه عيسى ابن مريم أيضاً أنّه حفظه وحماه من مكر بني إسرائيل وكيدهم وشرهم، ولهذا قال في معرض التذكير بالنعم:

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

ومن فضله سبحانه على عبده ونبيه عيسى عليه السلام أنه ألهم الحواريين وهداهم للإيمان بالله وحده استجابة لدعوة عيسى عليه السلام:

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

- **مائدة من السماء:**

كان الحواريون خيرةَ مَنْ آمنَ بعيسى عليه السلام واستجابَ لدعوته، فقد كانوا أنصاره وخلصاءه، هكذا وصفهم الله تعالى في قوله الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

---

(١) انظر: التفسير الكبير: ١٢/١٢٧.

ورغم كل المعجزات التي أعطاها الله تعالى لعيسى عليه السلام، وأجراها على يديه، والتي سبق ذكرُ بعضها في الآيات السابقة، طلب الحواريون من عيسى عليه السلام معجزةً أخرى، وهي أنْ يسألَ الله تعالى أن ينزِّلَ عليهم مائدة من السماء.

إنَّ طلبَ الحواريين هذه المعجزة يذكّرنا بما سبق الحديث عنه في أول السورة عندما تحدِّثنا عن ارتباط التشريع بالانقياد لله سبحانه والتسليم له(١).

كما يذكّرنا بفضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم الذين لم يسألوا رسول الله ﷺ أيةَ معجزةٍ بعد أَنْ أسلموا، وخالطت بشاشةُ الإيمانِ قلوبَهم، وامتزجت بأرواحهم(٢)، إنّ ذلك يدلُّ على الفرق الكبير بين حواريّي عيسى عليه السلام وبين حواريّي محمد ﷺ وأصحابه.

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وقولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ ليس بشكٍّ في الاستطاعة، إنَّما هو تلطُّف في السؤال، وأدبٌ مع الله تعالى، وهو كقولك للرجل: هل يستطيعُ فلان أن يأتيَ، وقد علمتَ أنه يستطيعُ، فالمعنى: هل يفعل ذلك؟(٣).

أو: هل يرضى ربك ويقبل دعاءك؟.

﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: اتقوا معصية الله بكثرة السؤال، فإنّكم

---

(١) فارجع إليه في الصفحات الأولى من تفسير هذه السورة، لتقف على سر ارتباط هذه الآيات بموضوع سورة المائدة.

(٢) انظر تفصيل هذا الموضوع في تفسير سورة النمل (المعجزة والإعجاز في سورة النمل) وهو جزء من هذا التفسير.

(٣) تفسير القرطبي: ٦/ ٣٦٥.

لا تدرون ما يحل بكم عند طلب الآيات والمعجزات، فقد جاءكم منها ما يكفي ويغني عن غيرها.

ولكنَّ الحواريين أصرُّوا على طلبهم رغم موعظة عيسى عليه السلام لهم، وما في هذه الموعظةِ من عتابٍ لهم، وأكدوا طلبهم للمائدة ببيان حاجتهم لها، وأنَّ لهم فيها منافعُ دنيوية ودينية:

﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ قدَّموا ذكرَ المنفعة الدنيوية وهي منفعةُ الأكل منها.

﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ فنزداد إيماناً بصحّةِ رسالتك، وصدقِ نبوتك، ونجمعُ بين الخبر والنظر.

وهذا كما قال إبراهيم عليه السلام عندما سأل اللهَ تعالى أن يريه كيف يُحيي الموتى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٠]، فيجتمع له الإيمانُ القائم على الخبر بقدرة الله تعالى على إحياء الموتى، مع الإيمان القائم على المعاينة والنظر.

ولهذا قال الحواريون بعد ذلك:

﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي: نعلم علماً قائماً على المشاهدة والمعاينة أنك صادق فيما دعوتنا إليه.

﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: نشهد عليها عند الذين لم يحضروها.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ أي: نفرحُ ونسرُّ بها لأنها من الله تعالى، فنجعل وقت نزولها عيداً للفرح والسرور بفضل الله ونعمته، فهو فرحٌ بالمنعِم لا بالنعمةِ.

﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ أي: وتكونُ دليلاً وبرهاناً من الله سبحانه على كمال قدرته ووحدانيته وصدق عيسى عليه السلام في نبوّته ورسالته.

﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

واستجابَ الله تعالى دعاءَ عيسى عليه السلام، وأوحى إليه أنه سبحانه مُنْزِلُ المائدةِ عليهم، وأخبره سبحانه أيضاً بما يترتَّب على اقتراح الآيات والمعجزات من مسؤولية خطيرة وجسيمة:

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

ونظراً لشدّةِ هذا التهديد والوعيد ذهب بعضُ المفسرين إلى أنَّ الحواريين لما سمعوه استغفروا الله تعالى وقالوا: لا نريدُها، فلم تنزل المائدة عليهم.

إلا أنَّ جمهور المفسرين قالوا: إنّها نزلت، لأن الله سبحانه قال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ والله سبحانه أعلم.

- **المواجهة الكبرى:**

ثم ختم الله تبارك وتعالى عرضَ مشاهد من يوم القيامة بمشهدِ المواجهةِ الكبرى، مواجهةِ عيسى ابن مريم عليه السلام وجهاً لوجهٍ مع الذين غلَوْا فيه، فعبدوه من دون الله تعالى، ورفعوه بزعمهم الباطل عن مقامِ عبوديته لله سبحانه إلى مقام الألوهية واستحقاق العبادةِ، تعالى الله عمَّا قالوا علوّاً كبيراً:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾.

وتبدأُ المواجهةُ باستجوابِ الله تبارك وتعالى عيسى عليه السلام:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

وبادر عيسى عليه السلام في جوابه إلى تنزيه الحق سبحانه، وإلى إعلان براءته المطلقة من هذا القول، لأنّه ليس من شأنه أصلاً، فكيفَ يكونُ العبد إلٰهاً؟!:

﴿قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾.

ثم استشهدَ عيسى عليه السلام اللهَ العليمَ الخبيرَ على براءته، مع إظهار التذلل والخضوعِ لجلاله وعظمته:

﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

ثم بيَّن أنه كان يدعوهم إلى الدعوة التي كلّفه الله تعالى بها، وهي عبادةُ الله تعالى، مع إقراره الصريح بعبوديته وعبوديتهم جميعاً لله الواحد الأحد:

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

وأنه يشهدُ على ذلك مدةَ وجودِه بينهم:

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾.

ولمّا رفعه الله تعالى من بينهم إلى السماء أصبحَ الله وحدَه شاهداً عليهم:

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ لا يعني أمتّني، فعيسى عليه السلام لم يمُتْ بعدُ، وهو لا يزال حيّاً يعيشُ في السماءِ التي رفعه الله تعالى إليها كما أخبرنا بذلك الحق سبحانه وتعالى في قوله الكريم في معرض الرد على اليهود الذين زعموا أنّهم قتلوا عيسى عليه السلام: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء].

ومعنى قوله تعالى: ﴿تَوَفَّيْتَنِي﴾ رفعتني إلى السماء، فإنّ التوفّي أخذ الشيء

وافياً، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قيلَ: هذا يدلُّ على أنَّ الله ﷻ توفَّاه قبل أن يرفعه، وليس بشيءٍ، لأن الأخبار تظاهرت برفعه، وأنّه في السماءِ حيٌّ، وأنه ينزلُ ويقتل الدجال، وإنّما المعنى: فلما رفعتني إلى السماء»[1].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وقال الأكثرون: المرادُ بالوفاة هاهنا النَّوْم كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم: «**الحَمْدُ للهِ الذي أحيانا بَعْدَما أماتنا**»[2].

وقد بَلَغَتِ الأحاديثُ النبوية الشريفة، التي أخبرتْ عن نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر الزمان إلى الأرض، وقتله المسيح الدجال والخنزير، وكسره الصليب، **مبلغَ التواترِ**، الذي يفيدُ العلمَ القطعيَّ، بأنّ ذلك سيحدثُ، وهو مِنْ علاماتِ الساعة الكبرى، التي يجبُ الإيمانُ بها، ولا يجوزُ جحودُها وإنكارُها.

عن **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**والذي نفسِي بيدِهِ ليوشِكَنَّ أنْ يَنْزِل فيكم ابنُ مريمَ حَكَماً مُقْسِطاً، فيكسِرُ الصليبَ، ويقتُلُ الخنزيرَ، ويضعُ الجزية**» الحديث. [رواه البخاري (٣٤٤٨) ومسلم (١٥٥)][3].

ولم يوفَّقْ سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ في محاولته التوفيقَ بين قوله بموت عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والقولِ الصحيح المؤيَّدِ بالأحاديث الشريفة القطعية بأنه لا يزالُ حيّاً لم ينته أجلُه بعدُ ولم يمت، فقال: «وظاهِرُ النصوص القرآنية يفيدُ أنّ الله سبحانه قد توفَّى

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٣٧٧.

(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٣٦٦.

(٣) وقد جمعها المحدِّث الهندي المشهور محمد أنور الكشميري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب مستقل فزادت على خمسين حديثاً، وسبعين أثراً عن الصحابة، وسمى الكتاب: «التصريح بما تواتر في نزول المسيح».

عيسى ابن مريم، ثم رفعه إليه، وبعضُ الآثارِ تفيدُ أنّه حي عند الله، وليس هنالك فيما أرى أيَّ تعارُض يثيرُ أيَّ استشكالٍ بين أن يكون الله قد توفاه من حياة الأرض، وأن يكونَ حيّاً عنده، فالشهداءُ كذلك يموتون في الأرض، وهم أحياءٌ عند الله، أما صورة حياتهم عنده فنحن لا ندري لها كيفاً، وكذلك صورة حياة عيسى عليه السلام»[١].

لكنَّ التوفي الذي أفاده ظاهِرُ الآيات بالنسبة لعيسى عليه السلام لا يعني الموتَ كما قدمنا، فلا حاجةَ إلى القول بأنّ حياته في السماء كحياة الشهداء، الذين أثبت الله لهم حياة برزخية خاصة بهم بعد موتهم، أما عيسى عليه السلام فقد أثبتتِ الأحاديثُ النبوية الشريفةُ المتواترةُ نزوله قبل قيام الساعة إلى الأرض ليعيشَ بقية حياته الدنيا التي قدَّرها الله تعالى له في الأجل الذي قدَّره الله تعالى له تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

ولقد رفع الله عيسى بجسده وروحه إلى السماء، بينما الشهداء ترتفع أرواحهم فقط بعد أن تنفصل بالموت عن أجسادهم التي تبقى في الأرض فلا يصحُّ القياسُ عليهم.

- **براءة وتفويض:**

ثم يرد عيسى عليه السلام أمرَ الذين اتخذوه وأمه إلٰهين من دون الله تعالى إلى الله الواحد الأحَد العزيز الحكيم فيقول:

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ فعذابُهم عدلٌ من الله سبحانه، لأنّهم عبدوا غَيرَه، ووصفوه بصفات لا تليقُ بكماله ووحدانيته.

﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: القوي الذي لا يُغْلَبُ، والحكيمُ الذي لا يريدُ ولا يفعلُ إلا ما فيه حكمةٌ، فعذابه عدل، ومغفرته فضل، إلا أنه

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/١٠٠١.

سبحانه لا يغفِرُ للكافرين والمشركين لمقتضى الوعيد الذي تعلَّقت به مشيئته وحكمته.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا الكلامُ يتضمّنُ ردَّ المشيئةِ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فإنَّه الفعَّال لما يشاء، الذي لا يُسْأَلُ عما يفعلُ وهم يسألون، ويتضمَّنُ التبرِّي من النصارى، الذين كذبوا على الله وعلى رسوله، وجعلوا لله نِدّاً وصاحبةً وولداً، تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً، وهذه الآيةُ لها شأنٌ عظيمٌ، ونبأ عجيبٌ، وقد ورد في **الحديث**: أنّ النبيَّ ﷺ قام بها ليلةً حتى الصباح يردِّدها، فعن **أبي ذر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صلى النبيُّ ﷺ ذاتَ ليلةٍ فقرأ بآية حتى أصبحَ يركعُ بها، ويسجدُ بها ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، فلمّا أصبحَ قلتُ: يا رسولَ اللهِ ما زلتَ تقرأ هذه الآية حتَّى أصبحتَ تركعُ بها وتسجدُ بها؟ قال: «**سألتُ ربِّي عَزَّ وَجَلَّ الشفاعةَ لأمتي فأعطانيها، وهي نائلةٌ إن شاء الله لِمَنْ لا يشرِكُ بالله شيئاً**» [**رواه أحمد** (٥/ ١٤٩)]»[(١)].

﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أي: يقولُ الله تعالى ذلك مجيباً عبدَه ورسولَه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، واليوم هو يومُ القيامةِ.

والمعنى: إنّ صِدْقَ الصادقين في الدنيا ينفعُهم الله تعالى به يوم القيامة، وتوحيدُ الله تعالى وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد أعظمُ الحقائق صدقاً،

---

(١) راجع تفسير ابن كثير: ٢/ ١٢١، والحديث رواه أحمد في مسنده برقم (٢١٢٢٥) قال الشيخ أحمد محمد شاكر محقق المسند: إسناده حسن.

قلت: وقد روى النسائي الحديث برقم (١٠١١)، وابن ماجه برقم (١٣٥٠)، كلاهما بهذا اللفظ: قام النبي ﷺ حتى أصبح بآية يرددها، والآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. الناشر.

ولهذا ذهب بعض المفسرين إلى أنَّ معنى قوله تعالى: ﴿يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾ ينفع الموحِّدين توحيدُهم، وهي روايةٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما[١].

ثم بيّن الله تعالى ذلك النفع فقال:

﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ فلا أعظمَ من هذا الفوز.

أسأل الله العزيزَ الرحيم أن يثبِّتنا على دين التوحيد، وأن يجعلنا من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه بمنه وفضله وكرمه.

● **الخاتمة:**

وتأتي أخيراً آيةُ الختامِ لسورة المائدة بتقرير الحقيقة الكبرى:

﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾﴾.

فالله ﷻ هو خالِقُ كل الأشياء ومالِكُها والمتصرِّفُ فيها، فله وحدَه سبحانه أن يشرّعَ فيها ما يشاءُ، فيحلُّ ما يشاء، ويحرِّم ما يشاء، لا معقِّبَ لحكمه، ولا رادَّ لمشيئته.

وبهذا يظهرُ لك اتساقُ واتفاقُ خاتمةِ السورة مع موضوعها الأساس الأول المقرر في أول آياتها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

والحمد لله أولاً وآخراً.



---

(١) المرجع السابق نفسه.



٦

تفسير سورة الأنعام

بَصَائِرُ الحقِّ في سُورَةِ الأنعَامِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضلُ الصَّلاةِ وأتمُّ التسليم على سيدِنا محمدٍ، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والتابعينَ لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيتميز العصر الحاضر بكثرة الاتصالات بين الناس وسهولتها، وقد قرّبت وسائلُ الاتصالِ والنقل الحديثة الناسَ بعضهم من بعض، وأصبح العالمُ بسببها صغيراً، واختلطَ الناسُ بعضهم ببعض رغم اختلاف أفكارهم وثقافاتهم، وتعددِ مِلَلهم ونِحَلهم، وتولَّد من ذلك احتكاكٌ بين الأفكار المتباينة والعقائد المختلفة، أدَّى إلى قيام حوار وخصام ومناظرات ومجادلات.

ولا بدَّ في النهاية أن تصلَ هذه المناظرات والمواجهاتُ إلى ظهور الحق وثباته، بسبب قوة براهينه ودلائله، وإلى اضمحلال الباطل وهزيمته، بسبب ضعفه وتهافته وتناقضه: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

والعقيدةُ الإسلامية أقوى العقائد وأثبتها، ولا زالتْ في الساحة شامخةً ثابتةً تتحدَّى المخالفين، وتجادلهم، وتناظرهم، وتبدِّد أوهامهم، وتحقق الفَلَجَ

عليهم، فهي أقربُ العقائد إلى قلبِ الإنسان وعقله وفطرته، وتقومُ على أساسٍ متين، تسنده أقوى الأدلة وأوضح البراهين.

ولا يحتاج الإنسان المسلم لإثبات قوة عقيدته إلا أن يتزود بزاد القرآن الكريم، ويتسلَّح بأدلته القاطعة، وبراهينه الواضحة، وحججه البالغة.

وقد خصَّص الله تعالى سورة الأنعام لتكونَ زاداً للمؤمن، الذي يبني إيمانه على بصيرةٍ، ويدعو إلى الله تعالى على بصيرةٍ، فهي بحق سورة بصائر الحق.

وقد رأيتُ أن أبرزَ موضوعها هذا في هذا التفسير، الذي نتحدَّث فيه عن الموضوعات الأساس الكبرى لسور القرآن العظيم؛ لأنَّ كل مسلم في هذا العصر في أشدِّ الحاجة إلى معاني هذه السورة وموضوعها وأسلوبها في التعامل مع المخالفين له والمعارضين لدعوته.

وقد جاء هذا التفسير في أربعة فصول:

الفصل الأول: الحمد لله: ركزت الآياتُ فيه على إبراز اتصاف الله تعالى بصفات الكمال والغنى والوحدانية، ولهذا فهو وحده المستحق للحمد بذاته، وأبرزت الآياتُ في الوقتِ نفسه ضعفَ الإنسان وفقرَه وشدّةَ حاجته لله تعالى.

وأما **الفصل الثاني: إرشاد وتوجيه**: فقد غلب على آياته أسلوب التوجيه والإرشاد، إذ اتّجه الخطابُ في أكثر آياته للمؤمنين.

وأما **الفصل الثالث: مناظرة وردود**: ففيه عرضت الآياتُ مناظرةَ إبراهيم عليه السلام لقومه، وفيه أيضاً ردودٌ على كثير من أصحاب الملل الفاسدة والنِّحَل الباطلة، قديمها وحديثها.

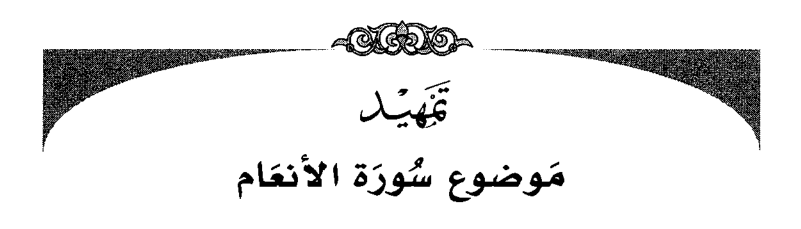
وأما **الفصل الرابع: سَفَهٌ وضلال**: فقد ذكر الله تعالى فيه كثيراً من المفاسد والضلالات التي كانت فاشيةً في المجتمع العربي الجاهلي، وبعد أن بيَّن سبحانه فسادها وتناقضها ختم آيات السورة الكريمة بدعوة الناس إلى الوصايا العشر الخالدة.

ولا بدَّ أن يستشعرَ القارئُ الاتّساقَ والاتفاقَ بين آيات السورة، وهو الهدف الأساس لهذا التفسير.

أسأل اللهَ تعالى أن يوفقنا ويسدِّدَ خطانا، وأن يبصِّرَنا ببصائر الحق، ويثبِّتَنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.





مَوضوع سُورَة الأنعَام

البصائرُ لعقل الإنسان وقلبه كالإبصار لعينه، فهي تجلو الحقائقَ، وتظهرها كما يجلو النورُ المحسوساتِ ويظهِرُها، والإسلامُ دينُ العقلِ والقلبِ والفطرةِ، وأكثر ما يخاطِبُ عقلَ الإنسان وفكرَه، يدعوه إلى الإيمان والإسلام عن طريق عقله وتفكيره؛ ولهذا نرى القرآنَ الكريمَ يثني كثيراً على الإنسان الذي يُعْمِلُ عقله وتفكيره، ليتعرَّفَ على الحقيقة، ويميزها عن ركام الباطل والضلال، فلأصحاب العقول أولي الألباب والنُّهى والبصائر مكانةٌ كبيرةٌ، ومنزلةٌ رفيعةٌ في القرآن الكريم.

وخُصِّصت سورةُ الأنعامِ ـ التي نزلت في مكَّةَ ـ لمحاورةِ جميع المعرضين عن الإسلام والمعاندين لدعوته من أصحاب المِلَلِ والنِّحل المختلفة، فلم تترك أصحابَ ملَّة ضالَّة وعقيدةٍ فاسدة قديمةٍ أو حديثةٍ إلا وحاورتهم في آياتها وجادلتهم، وبيَّنت فسادَ ملَّتهم، وضلالَ نِحْلتهم، كما سيظهرُ لنا من خلالِ تأمُّلنا، وتدبُّرنا لآياتها.

فهي بحقٍّ سورةُ الحِجَاج والبراهين، تميَّزت عن أخواتها من طِوال السور بخلوِّها عن القَصَص القرآني، سوى بضعِ آيات تحدَّثت فيها عن مناظرةِ إبراهيمَ عليه السلام لقومه، وهذه المناظرةُ من صميمِ الموضوع الأساسِ للسورة الكريمة.

وقد برز موضوعُ السورةِ في أول آياتها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾.

هكذا بدأت السورةُ بهذا الهجوم الكاسح على المخالفين والمعاندين، كأنها تدعوهم إلى ساحةِ الجدالِ والمناظرةِ لِتكشفَ زيْفَهم، وتظهِرَ ضعفَهم.

ثم بعد ذلك شرعت في إيراد الأدلّة وحشد البراهين حتى وصلت إلى قوله



تعالى في تقرير الحق: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وإلى قوله أيضاً: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

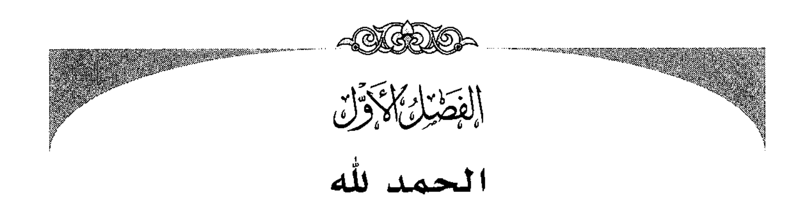
ولا عجبَ إذاً أن تنزل سورةُ الأنعام بآياتها التي بلغت مئةً وأربعاً وستين آية على النبيِّ ﷺ دفعةً واحدةً، ومعها موكبٌ كبيرٌ من الملائكة لهم زَجَل[1] بالتسبيح والتقديس والتحميد، كما دلَّ على ذلك عدد من الآثار.

قال القرطبي رحمه الله: «هذه السورةُ أصلٌ في محاجَّةِ المشركين وغيرهم من المبتدعين، ومن كذَّب بالبعث والنشور، وهذا يقتضي إنزالها جملةً واحدة لأنها في معنى واحد من الحجة، وإن تصرَّف ذلك بوجوه كثيرة، وعليها بنى المتكلِّمون أصول الدين»[2].



(١) أي: صوت رفيع عال. كما في: النهاية، لابن الأثير: ٢/ ٢٩٧.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ٧/ ٩٧.



الحمد لله

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ (٦) وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ (١١) قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ (١٦) وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (١٨) قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ

لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾
ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ
لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا
مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ
وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ
يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن
يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا
وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ
لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ
أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ
ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ
لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن
تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا
تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾
وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ
مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ
يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ
ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ

وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

بدأ الله تعالى سورةَ الأنعام بالثناء على ذاته المقدَّسة، فقال ﷻ:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يدل قوله سبحانه: **(الحمد لله)** على وجوب اتصافه تعالى بجميع صفات الكمالِ والجلالِ والجمالِ، فهو المستحقُّ للحمدِ بذاته؛ لأنَّه سبحانه وحده المتصف بجميع صفات الكمال، وهو ثابت له سبحانه بطريق البرهان والاستدلال، كما سيظهرُ معنا في آيات سورة الأنعام.

وبعضُهم فسَّر الحمدَ بالإحاطةِ بأوصاف الكمالِ[1]، ولمَّا كانتْ كمالاتُه سبحانه غيرَ متناهيةٍ، ولا يحيطُ بها أحدٌ من المخلوقات، حَمَدَ اللهُ تعالى نفسَه بنفسِه فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

---

(١) نظم الدرر: ٢/ ٧.

وقد وردَ في بعضِ أدعيةِ النبي ﷺ: «**اللهمَّ إنِّي أعوذُ برضاكَ مِنْ سخطكَ، وبمعافاتِكَ مِنْ عقوبَتِكَ، وأعوذُ بِكَ مِنْكَ لا أحصي ثناءً عليكَ أنتَ كما أثنيتَ على نفسِكَ**» [رواه مسلم (٤٨٦)].

ولما سُئِلَ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه عن معنى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قال: الحمدُ للهِ، كلمةٌ رضيها لنفسِهِ[1].

فما عَرَفَ اللهَ حقَّ المعرفةِ أحدٌ، وما أحاطَ بكمالاته غيره تعالى، تقدَّست ذاته، وتباركت أسماؤه، وتسامت صفاته، وسيأتي معنا قوله ﷻ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

واستحقاقُه سبحانه للحمدِ ثابتٌ دائمٌ قبل إيجاده للخلق وبعدَه، وسواء حمده العبادُ أو كَفَرُوْهُ؛ لأنَّ صفاتِ كماله وجماله وجلاله أزليةٌ أبدية غيرُ حادثةٍ، ولا يطرأُ عليها تغييرٌ أو تبديلٌ، فهو سبحانه خالقٌ قبل أن يَخلُقَ، لأنَّه قادِرٌ على الخلق أزلاً، ورازقٌ قبل أن يَرزُقَ، لأنه قادِرٌ عليه أزلاً.

والألف واللام في ﴿ٱلْحَـمْدُ﴾ لاستغراق جميع المحامد، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «**اللهمَّ لكَ الحمدُ كلُّه، ولكَ الملكُ كلُّه، ولكَ الخَلْقُ كلُّه، وإليكَ يَرْجِعُ الأمرُ كلُّه، أسأَلُكَ مِنَ الخيرِ كلِّه، وأعوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كلِّه**» [رواه البيهقي (١/ ٥) برقم (٩)].

وأمر الله عبادَه أن يثنوا عليه به في ضمن هذا الثناء الذي أثنى به على نفسه، فعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ ليرضى عن العبدِ يأكلُ الأكلةَ فيحمدُه عليها، ويشربُ الشربةَ فيحمدُهُ عليها**» [رواه مسلم (٢٧٣٤)].

قال ابن كثير رحمه الله: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثناءٌ أثنى به على نفسِه، وفي ضمنه أَمَرَ عبادَه أن يثنوا عليه، فكأنَّه قال: قولوا: الحمدُ لله . . . وهو ثناءٌ على المحمود

---

(١) فتح القدير، للشوكاني: ١/ ٢٠.

بصفاته اللازمة والمتعدِّية، والشكرُ لا يكونُ إلا على المتعدِّية، وهو نقيضُ الذَّمِّ، وأعمُّ من الشكرِ، والشكر الثناءُ على المحسِن بما أولاه من المعروف»[(١)].

ثم بيَّن سبحانه موجب **استحقاقه للحمد** بقوله تعالى:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فإيجادُه تعالى للموجوداتِ كافٍ في استحقاقه للحمد، فكيف بما يتفرَّعُ عليها من فنون النِّعَم المنوط بها مصالح العباد في المعاش والمعاد؟![(٢)]، فهو كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

فهو سبحانه **يستحقُّ الحمدَ** لأنّه خالق السماوات والأرض، ويستحقه أيضاً لأنه مالكٌ للسماوات والأرض ومدبِّر ما فيهما من الأمر، ولهذا قال جلَّ وعلا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

ويستحقُّ سبحانه الحمدَ أيضاً على إرساله الرسل لهداية عباده، وإنزاله الكتب كما قال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [الكهف: ١].

والحمد لا يكونُ إلا للفاعل المختار، فخلقه سبحانه للسماوات والأرض كان بمحض مشيئته وإرادته، فكأنَّ قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تصريحٌ بأنَّ المؤثِّر في وجود العالم فاعلٌ مختار، خلقه بالقدرة والمشيئة[(٣)].

ومعنى **الخلق**: الإيجادُ والإنشاءُ والصنعُ والاختراعُ، فالله سبحانه خلق السماواتِ والأرضِ، أي: أوجدهما وأنشأهما.

ويأتي الخلق أيضاً بمعنى التقدير والقياس، يقال: خلَقَ الثوبَ، أي: قدره

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٠.
(٢) انظر: تفسير أبي السعود: ٢/ ١٠٤.
(٣) انظر: التفسير الكبير: ١٢/ ١٤٣.

وقاسه على ما يريد قبل العمل، ولا شكَّ أنه سبحانه أنشأ السماوات والأرض وقدَّرهما، وقدَّر كلَّ ما فيهما، فله سبحانه الخلقُ والتقدير لكل المخلوقات؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقال جَلَّ جَلَالُهُ أيضاً: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى].

• **الظلمات والنور:**

﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ وهذا أيضاً من موجبات استحقاقه تعالى للحمد، فكما أنَّ خلق السماوات والأرض من نِعَم الله تعالى الجليلة، كذلك جَعْلُ الظلمات والنور من نعمه العظيمة.

والجَعْلُ: هو الإنشاءُ والإبداعُ كالخلق، إلا أنَّ الجعلَ أعمُّ من الخلق، فهو يشمَلُ الإنشاءَ والإبداعَ والاختراع، كقوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤].

ويشمل أيضاً الوضعَ والتشريع[(١)]، كقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

ولهذا رأى بعضُهم أنَّ جعل الظلمات والنور هنا حكمٌ جرى به قضاؤه، أو أنَّه سبحانه جعل الظلماتِ آثار المعاصي، والنورَ آثار الإيمان به سبحانه وطاعته، وبهذا يظهر لنا أنَّ المراد من الظلمات والنور، كلُّ ما يطلق عليه اسم الظلمة واسم النور حِسّاً ومعنى، فيدخل تحته ظلمات الكفر، ونور الإيمان، وسيأتي معنا في السورة استعمال الظلمات والنور بهذا المعنى في قوله الكريم: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

كما سيأتي استعمال النور والظلمات بمعناهما الحسِّي في قوله تعالى:

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٢/ ١٠٤.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وأورد الله تعالى كلمةَ الظلماتِ بصيغة الجمع لكثرةِ أسبابها وطرقِها، فللشرِّ والكفرِ أسبابٌ كثيرة، أو لكثرة ملل الكفر والضلال.

وفي الآية ردٌّ على **الثَّنَوِيَّة من المجوس**، القائلين بأنَّ النورَ والظُّلمة يقومان بذاتهما(١)، ولذلك فهم يؤلِّهون النورَ والظلمةَ، وينسبون إليهما ما يقع من الحوادث.

كما أنّ الآيةَ تردُّ على **الفلاسفة القائلين بقدم العالم**، والقائلين بقدم الأنواع، والقائلين بقدم المادة من ملاحدة هذا العصر، فكلُّ ما سوى الله تعالى مخلوقٌ محدَث مسبوق بالعدم، والله سبحانه هو القديمُ الأوّلُ الخالقُ المبدع ﷻ.

﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يجعلون له سبحانه نظيراً في العبادة، كقوله تعالى عن الكفار الذين عدلوا به غيره: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء].

وأشار سبحانه في آياتٍ كثيرة إلى أنَّ الكفارَ ساووا بين المخلوق والخالق كقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦](٢).

و ﴿ثُمَّ﴾ في الآيةِ لاستبعادِ ما صنعه الكفار من كونهم بربهم يعدلون، فهو سبحانه المتفرّدُ بصفات الكمال، والخالقُ للسماوات والأرض والظلمات والنور وحده، لم يشارِكْه في ذلك أحدٌ كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

وهكذا تضمَّنت هذه الآيةُ الكريمة الأصلَ الكبير الذي يقومُ عليه اعتقادُ

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٢/ ٣٨١.

(٢) انظر: أضواء البيان: ٢/ ١٨١.

المسلم المُوَحِّد، وهو التمييز بين صفات الخالق وصفات المخلوق، كما تضمَّنت الردَّ على جميع الملل والنحل الضالة التي كان منشؤها عدم تمييز أصحابها بين صفات الخالق جلَّ وعلا وصفات المخلوق، وهو ما تتجه إليه معظمُ آياتِ السورة، كما سيأتي معنا إن شاء الله.

• **بين أجلين:**

ثم توجهت الآياتُ الكريمةُ بالخطاب إلى الإنسان، لتبيِّنَ موقعَه في هذا الكون، والحكمةَ من وجودِهِ، وتميُّزَه عن غيره بالمسؤولية أمام الله تعالى بعد هذه الحياة، وبدأت تذكِّرُ الإنسان ببدايته:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ أي: الله تعالى الذي ابتدأ خلقكم من طين بخلق أبيكم آدم منه، أو ابتدأ خلق كل واحد منكم من نطفة مستَخْلَصةٍ من طين الأرض، كما قال جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون].

﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ أي: قدَّر وكتبَ أجلاً لموتِ كلِّ واحد منكم، فبدايتك أيها الإنسان بمشيئة الله تعالى وقدرته، ونهاية حياتك على هذه الأرض بمشيئته سبحانه أيضاً وقدرته.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ أي: وهناك أجل معيَّن مثبت عنده جلَّ وعلا، ولا يعلمه غيره، لبعثكم جميعاً يوم القيامة، وحسابكم على ما أسلفتم في حياتكم الدنيا.

وجاء الإخبارُ عن الأجل الثاني بالجملة الاسمية تفخيماً لشأنه، وتعظيماً لحاله، ولكونه ممَّا استأثر الله تعالى بعلمه، فلا يعلمه أحدٌ سواه، بخلاف أجل الموت، فقد يُعْلَمُ على وجه الإجمال والتقريب، على ما هو المعتاد من أعمار الناس، أو لظهور أماراته من الضعفِ والمرض والشيخوخة.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ الله تعالى قَضَى لكلِّ أحدٍ أجلين: أجلاً من مولده إلى موته، وأجلاً من موته إلى مبعثه(١).

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي: ثم مع كل هذا تشكُّون في قدرة الله تعالى على بعثكم يوم القيامة، فمن أفاضَ الحياةَ وما فيها من العلم والقدرة وسائر الكمالات البشرية على مادة غير مستعدَّة لها أصلاً، وهي الطين، كان أقدرَ على إفاضتها عليها مرةً ثانية بعد أن استعدَّت لها وقارنتها مدّةً من الزمن(٢).

وهكذا جعل الله تعالى لحياة الإنسان في الدنيا أجلاً تنتهي به، ولحياته في الآخرة أجلاً بمشيئته تعالى تبدأ به ولا تنتهي، والأجل الأول للابتلاء، وأما الثاني فللجزاء.

- **خالق كل شيء:**

ثم بيّن سبحانه كمالَ علمه وإحاطتِه بجميعِ أحوال الإنسان فقال:

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾.

أي: وهو الإلٰهُ المعبودُ في السماواتِ وفي الأرض، فلا معبودَ بحقٍّ سواه جلَّ وعلا، وقد أحاطَ علماً بسائر مخلوقاته، فهو كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

ويمكِنُ أن يكونَ المعنى أيضاً: وهو الله الذي يعلم ما في السماوات وما في الأرض من سرٍّ وجهر، ويشهد له قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦].

وليس في الآيةِ أيُّ دليلٍ لبعض الفرق الضالة كالجَهْمية القائلين بأنه سبحانه في كلِّ مكان، لأنَّ جميع الأمكنة الموجودة أحقرُ وأصغرُ من أن يحلَّ في شيءٍ منها رب السماوات والأرض، الذي هو أعظمُ من كلِّ شيء، وأعلى من كلِّ

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٢١/١٠٧.

(٢) المرجع السابق نفسه.

شيء، ومحيطٌ بكلِّ شيء، ولا يحيط به شيء[(١)]، وهو سبحانه الموجود قبل كلِّ سماء وفضاء، وظلام وضياء، وشمس وقمر، وعين وأثر، والباقي أزلاً بعد فناءِ كُلِّ المخلوقات: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن].

يتنزَّه سبحانه أن يحويه مكان، وهو خالقُ المكانِ والزمانِ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

وقد جاء في بعض الأدعية المأثورة عن سيدنا رسول الله ﷺ: «**اللهمَّ ربَّ السماواتِ السبعِ، وربَّ العرشِ العظيم، ربَّنا وربَّ كلِّ شيءٍ، منزلَ التوراةِ والإنجيلِ والفرقانِ، فالقَ الحبِّ والنَّوى، لا إلٰهَ إلا أنتَ، أعوذُ بكَ مِنْ شَرِّ كَلِّ شيءٍ أنتَ آخذٌ بناصيتِهِ، أنتَ الأوَّلُ فليسَ قبلَك شيءٌ، وأنتَ الآخِرُ فليسَ بعدَك شيءٌ، وأنتَ الظاهِرُ فليسَ فوقَك شَيْءٌ، وأنتَ الباطِنُ فليسَ دونكَ شَيْءٌ، اقضِ عنَا الدَّيْنَ، وأغنِنِا مِنَ الفَقْرِ**» [رواه أحمد (٨٩٤٧) ومسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

- **سُنَّة الله في المكذِّبين:**

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ التي أنزلها على رسوله ﷺ، أو التي بثَّها في المخلوقات، وأظهرها في الموجودات.

﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ تاركينَ لها، وغيرَ منتفعين بها.

والسببُ مسارعتهم إلى ردِّها وتكذيبها:

﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ﴾ وهو القرآن الكريم.

---

(١) أضواء البيان: ٢/ ١٨٢.

﴿لَمَّا جَآءَهُمْۚ﴾ من غير تدبُّرٍ لمعانيه، ووقوفهم على ما فيه من الدلائل والبراهين التي تدلُّ على صدقه.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهذا وعيدٌ شديد لهم بسبب إعراضهم عن الحقِّ، واستهزائهم به، فعن قريب سيذوقون وبال أمرهم وعاقبة جحودهم واستهزائهم.

وتأكيداً لهذا الوعيد طلبت الآياتُ منهم أن ينظروا نظرَ الاعتبار في مصير الأمم قبلهم، ليعرفوا سنَّة الله تعالى في الانتقام من المكذِّبين المعاندين:

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من أهلِ كلِّ عصرٍ، سمُّوا بذلك لاقترانهم.

﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ أي: جعلنا لهم قوةً وسلطاناً في الأرض أكثر ممّا جعلنا لكم، وأعطيناهم مع القوّة والسلطان، الغنى والسعة في العيش والرزق.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ أي: أنزلنا عليهم من السماء المطر الغزير المتتابعَ الذي يؤدِّي إلى كثرة الخيرات والأنهار الجارية.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾.

ومع كلِّ هذا التمكين والغنى الذي أنعم الله به عليهم كذّبوا رسله، وخالفوا نهجه وشرعه، فانتقم الله تعالى منهم.

﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾، ولم تغنِ عنهم أموالهم شيئاً.

﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم، وأن ينزلَ بكم مثل ما نزلَ بهم، فما أنتم بأعزَّ على الله منهم، والرسولُ الذي كذبتموه أكرمُ

على اللهِ من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلةِ العقوبة منهم لولا لطفه وإحسانه(١).

لقد بلغ القوم الغايةَ في العناد والمكابرة، حتّى طلبَ بعضُهم من النبي ﷺ أن ينزِّل الله تعالى عليه القرآن مكتوباً في أوراق، كما نزَّل التوراة على موسى في ألواح، وأن ينزِّل الله تعالى عليه مَلَكاً يرَوْنه بأعينهم، ليشهدَ أنّ هذا الكتابَ من عند الله تعالى، فردَّ سبحانه عليهم بقوله:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ بعدما شاهدوه بأعينهم، بحيث لم يبقَ لهم أي اشتباه.

﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ما هذا إلا سحر ظاهر واضح، وهذا شأن المُفْحَم المحجوج، ودَيْدَنُ المكابِرِ اللجوج(٢).

- **الباحثون عن حتفهم:**

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨﴾.

ثم بعد أن حكى الله اقتراحهم إنزال المَلَك:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ بيَّن ما فيه من خطرٍ عليهم:

﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: لانتهى الأمر بهلاكهم، لأنَّ قواهم البشرية لا تتحمَّل رؤيةَ الملك.

ولهذا كان الملائكةُ ينزلون على الأنبياءِ عليهم السلام في صورٍ بشريةٍ، مع أنَّ الأنبياءَ مؤيَّدون بإمداد الله تعالى وتثبيته، ولم يرَ نبيُّنا ﷺ جبريلَ عليه السلام بهيئته الملائكية إلّا مرتين: **أولاهما**: في الأرض عند غار حراء، **وثانيتهما**: عندَ

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/٥٦٩.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: ٢/١١٢.

سِدْرة المنتهى في السماء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم].

أو: لو أنزلنا الملائكة عليهم لأنزلناهم بالعذاب والهلاك، كما قال الله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨].

ويؤيِّد هذا المعنى قوله هنا:

﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يُمْهلون ولا يؤخَّرون بل يعاجَلون بالعذاب والهلاك، فحالهم في هذا الاقتراحِ كحالِ الباحث عن حتفه بظلفه.

ومن رحمته سبحانه وحكمته أن يرسل الرسول إلى الناس من جنسهم ليمكنهم مخاطبته والتلقي منه، ولو أرسلَ إليهم مَلَكاً لأرسله على هيئة الرجل ليتمكَّنوا من رؤيته، ولهذا قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾.

أي: ولو كان كذلك لالتبسَ عليهم الأمرُ، كما هم يلبِّسون على أنفسهم في قبول رسالة الرسول البشري، كقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥](١).

وتجاه هذه المكابرة والعنادِ الشديدِ، لا بدَّ من تأنيس قلب النبي ﷺ، وتسليته عمَّا يلقاه منهم، وتثبيتِه في مواجهتهم، ولهذا قال الله تعالى مخاطباً النبي ﷺ:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ﴾ أي: أحاط أو نزل أو حلَّ.

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٥٦٩.

﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: نزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به عندما كانت الرسل تتوعدهم به.

ولا تزال في الأرض آثارُ عذابهم باقيةً، فسيروا إليها، وانظروا فيها نظرَ المعتبر والمتَّعِظ:

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى بلادِ صالح في الحِجْر، وإلى بحيرةِ لوط، الذين تمرُّون عليهم في أسفاركم إلى بلاد الشام.

﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾ نظرَ الاستبصار والاعتبار.

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: للأنبياء والمرسلين.

● **الرحمة أولاً:**

ولما كانت سورةُ الأنعام سورةَ البراهين القاطعةِ والملزمةِ، نجدُ فيها كثيراً من الآياتِ التي تأمرُ النبيَّ ﷺ أن يواجه أهل الكفر والعناد بما فيها من الأسئلة التقريرية الملزمة والمفحمة، ومنها:

﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً ومُلْكاً وتدبيراً؟.

ولمّا كانَ القومُ في غاية العناد أُمر ﷺ أن يتولى الإجابةَ عنهم:

﴿قُل لِّلَّهِ﴾ فهو الجوابُ المتعيِّنُ بالاتفاق، ولا يستطيع أحد أن يجيب بغيره.

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أي: إنه تعالى قضاها وأوجبها على ذاته المقدَّسة تفضُّلاً وإحساناً.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**لمَّا خلقَ**

اللهُ الخلقَ كتبَ في كتابٍ فهو عِنْدَهُ فوقَ العرشِ: إنَّ رحمتي تغلبُ غضبي» وفي روايةٍ: «**سبقت رحمتي غضبي**» [رواه البخاري (٧٤٠٤) ومسلم (٢٧٥١)].

ومعنى سَبْق الرحمة وغلبتها: أنها أقدمُ تعلّقاً بالخلق، وأكثرُ وصولاً إليهم[1].

فرحمته سبحانه أولاً لخلقه، وآثارُ إحسانه وفضله الواصلة إلى خلقه جلَّ وعلا أكثرُ من آثارِ غضبه، ويتمتَّع الخلقُ بآثار الرحمة قبل أن تصيبهم آثارُ الغضب بسبب تماديهم في الكفر والعناد، كما هو مشاهَدُ من أحوال العباد، وصدق الحقُّ تعالى بقوله: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

فالله ﷻ رحيمٌ بعباده، وما خلقهم ليعذبهم، ومن رحمته سبحانه أنه لا يعاجل المعاندين والعصاة من عباده بالعقوبة، بل يمهلهم، ويقبَلُ توبةَ التائب منهم، مهما كانت ذنوبه كبيرةً وكثيرةً، وما سبق ذكره في الآيات من الإخبار عن هلاك الأمم المكذِّبة لرسلها ليس من مقتضيات ذاته المقدَّسة، بل من جهةِ الخلقِ بسبب تكذيبهم وعنادهم، وإصرارهم على كفرهم، كيف لا ومن رحمتِهِ أنه خلقهم على الفطرة السليمة، وهداهم إلى معرفته بما أرسل إليهم من رسلٍ، وأنزل عليهم من كتبٍ، وكلَّفهم بالسيرِ على نهجه وشريعته، ليسعدوا به في الدنيا والآخرة.

- **الحياة والمسؤولية:**

وهذه أسباب التكليف والمسؤولية، ولهذا أخبر الله عن يوم القيامة في الآية الكريمة بعدما أخبر عن رحمته والتزامه لها بفضله وإحسانه فقال:

﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ﴾ أي: والله ليجمعنكم إلى يوم القيامة الذي لا شكَّ فيه، فيومُ القيامةِ رحمةٌ كبيرةٌ من الله تعالى لعباده، ولا يدرك

---

(١) تفسير أبي السعود: ٢/ ١١٥.

الإِنسانُ قيمةَ حياته في الدنيا إذا لم يستشعر مسؤوليته عنها أمامَ اللهِ تعالى يوم القيامة.

إنَّ الإيمانَ بيوم القيامة يعطي حياتنا في الدنيا معناها، ويعرّفنا على جوهرها وحقيقتها، ومن دونه تصبح حياتنا لهواً وعبثاً، لا طعم لها ولا قيمة، بل تصبح فارغة تافهة مسئمة.

إن الذين يعانون مشكلة الفراغ في حياتهم لا يستشعرون مدى مسؤولياتهم عن هذه الحياة، ولو علموا مدى هذه المسؤولية وشمولها؛ لَمَا وجدوا في حياتهم وقتاً فارغاً يسعون جاهدين لشغله بشتى وسائل التسلية واللهو، وإنَّ ملءَ الوقت الفارغِ في حياة الإنسان المعاصر أصبحَ مشكلةً كبيرةً، ونظرةٌ واحدةٌ إلى الألاهي والملاهي المطروحة بين أيدي الناس تبيِّنُ لنا مدى الجهد الكبير الذي يُبْذَلُ لإنتاج هذه الوسائل التي لا تعود على الإنسان بأيٍّ فائدة حقيقية، ومع ذلك لم يستطع كل هذا أن يمتصَّ الفراغ الذي يعاني منه الكثيرون، حتى لجأ بعضهم ليطرد السآمة والملل من حياته إلى سلوك طريق المغامرة والجريمة، لا حُبّاً بالجريمة، وإنما حُبّاً بالمغامرةِ لتغيير سَيْرِ حياته التي ملَّها وسئمها، والوقتُ إن لم تملأه بالخير امتلأ بالشر[1].

وهذا يبيِّن لنا فضله سبحانه علينا، ورحمته بنا، عندما شرَّفنا بالتكليف والمسؤولية، ففضلاً عن أنَّ التكليفَ ينظِّم حياتنا، ويهذِّب سلوكَنا، ويقوِّمُ المعْوَجَّ من أخلاقنا، فإنّه أيضاً يجعلُنا نتذوَّقُ طعمَ الحياة الحقيقي، ونعرف قيمتها وجوهرها.

وتتجلَّى يومَ القيامة رحمته سبحانه بعباده أكثر مما هي عليه في الدنيا، ولقد بيَّن رسول الله ﷺ هذا المعنى في قوله: «**إنَّ للهِ مئةَ رحمةٍ، أنزلَ منها رحمةً واحدةً بين الجنِ والإنس والبهائمِ والهوامِ، فبها يتعاطفونَ، وبها يتراحمونَ،**

---

(١) انظر: حياتنا والموعد المجهول، للمؤلف.

وبها تعطِفُ الوحشُ على ولدها، وأخَّرَ اللهُ تسعاً وتسعين رحمةً يرحَمُ بها عبادَهُ يوم القيامة» [رواه البخاري (٦٠٠٠) ومسلم (٢٧٥٢)].

وهذه الرحماتُ الكثيرةُ الكبيرةُ التي أخَّرها سبحانه ليوم القيامة خاصة بالمؤمنين وخالصة لهم، إذ الكافرون يوم القيامة محجوبون عن ربهم وعن رحمته كما قال تعالى فيهم: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب]، فما أعظمَ خسارتهم، وما أشدَّ حسرتَهم:

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾!.

وكما دلَّ قوله سبحانه السابق: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢] على شمول ملكه سبحانه لكلِّ مكان، دلَّ قوله اللاحقُ بعد ذلك على شمول ملكه لكلِّ زمان:

﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ﴾ والمراد ما سَكن فيهما أو تحرَّك، فاكتفى بأحدِ الضدين عن الآخر(١)، فهو كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: والبرد، ولا تنفك المخلوقات عن إحدى هاتين الصفتين، السكون أو الحركة، وهما من لوازم الحدوث.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ السميع لكلِّ الأصوات، والعليم بكلِّ المخلوقات، في أيِّ مكان وزمان.

- **كمال العبودية:**

وبعد أن بيَّنت الآيات الكريمة السابقة أنَّه تعالى متفرِّد وحدَه بصفات الكمال، وأنه تعالى وحده الخالِقُ والمالِكُ لجميع المكوَّنات، أمرت النبيَّ ﷺ

---

(١) تفسير أبي السعود: ٢/١١٦.

أن يبيِّن للناس شدةَ احتياجهم وافتقارهم إليه سبحانه، فلا ينبغي لهم التذلل والخضوعُ إلا له تعالى، وعليهم الاستسلام والانقياد لأمره جلَّ وعلا.

ولمّا كان كمالُ العبد في كمال خضوعه واستسلامه لربِّه ﷻ، وكان النبيُّ ﷺ أكملَ الناس؛ لأنّه أكثرهم خضوعاً واستسلاماً لله تعالى، أبرزت الآيات هذا المعنى وهي تخاطب النبي ﷺ بقوله تعالى:

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ **والولي في اللغة**: المُعِين والناصرُ والصاحِبُ، ومن يتولّى الأمرَ أي: يقوم به، والمعنى: لا أتخذُ وليّاً غيرَ الله سبحانه.

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق(١).

فهو تعالى الغنيُّ الذي لا يحتاج إلى أحد، والكلُّ محتاجون إليه.

﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي: هو الذي يرزق، ولا يحتاج إلى رزق أحد، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات].

وهو سبحانه لا يحتاجُ إلى ما يحتاج إليه المخلوق من طعام وغذاء، وبهذا ردَّ جلَّ وعلا على الذين وصفوا عيسى عليه السلام وأمَّه بصفة الألوهية، ببيان حاجتهما إلى الطعام فقال: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

فكيف يتولّى المخلوقُ غير خالقه ورازقه؟! وكيف يقابِلُ فضلَه عليه وإحسانه فيتولَّى غيره؟! وهو جلّ وعلا غنيٌّ عن ولايته وطاعته وعبادته.

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٥٧٠.

- **المسلم الأول:**

المسلم الأول هو نبيُّنا محمد ﷺ، أولُ هذه الأمة إسلاماً، وهو أيضاً أوّلُ الناس إسلاماً، لأنّه أعظمهم خضوعاً لله تعالى واستسلاماً لأمره ومشيئته، وقد أُمِرَ ﷺ أن يعلنَ هذه الحقيقة للناس، وهو يدعوهم إلى الإيمان بالله، والاستسلام له وحده، ليكون قدوتَهم وإمامهم.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ فهو أولُ مَنْ أسلم لله تعالى على الإطلاق في الرتبة، وأول من أسلمَ في الزمان بالنسبة إلى أمته عليه الصلاة والسلام[١].

وكما أُمِرَ ﷺ أن يكون القدوةَ الكاملةَ في الخضوع والاستسلام لله تعالى، نُهي عليه الصلاة والسلام في الوقت نفسه عن كلِّ مظهرٍ من مظاهر الشرك، ليكونَ أيضاً في التنزُّه عن الشرك قدوةً وأسوةً لكلِّ الموحِّدين:

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

ثم أُمِرَ عليه الصلاة والسلام أيضاً أن يبيِّن للناسِ شدَّةَ خشيته لله تعالى، وعظيمَ خوفه منه، ومن المعلومِ أنَّه كلَّما ازدادَ الإنسانُ قرباً من الله تعالى بطاعته وعبادته، ازداد تعظيمه لله تعالى، وخوفه منه؛ ولهذا كان ﷺ يقول: «**أما واللهِ إنِّي لأخشاكُم للهِ، وأتقاكُم له**» وفي روايةٍ: «**فو اللهِ إنِّي لأعلمُهُم باللهِ وأشدُّهم له خشيةً**» [رواه مسلم (١١٠٨)].

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾.

وإذا كان هذا حاله ﷺ مع ربِّه ﷻ، فكيف ينبغي أن يكونَ حالُنا معه جلَّ وعلا؟!.

فما أحوج المؤمن أن يتذكّر دائماً هذا المعنى، وأن يواجه نفسَه بهذه

---

(١) انظر: نظم الدرر: ٧/ ٣٧.

الحقيقة كلّما غفلتْ عن الله تعالى، وشردتْ عن باب فضله ورحمته، أو همَّت بمعصيته، ففي الآية تحذيرٌ شديد من مقاربة المعاصي ومقارفتها، «**ومَنْ حَامَ حول الحِمَى يوشِكُ أن يرتع فيه**» كما جاء في الحديث الشريف. [رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩)].

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: من يُصْرَفْ عنه العذابُ يومَ القيامة.

﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ فلا نجاةَ لأحدٍ من عذاب الله تعالى إلا برحمته سبحانه وفضله، كما قال ﷺ: «**قارِبُوا، وسدِّدُوا، واعلموا أنّه لَنْ ينجوَ أحدٌ مِنْكُم بِعَمَلِهِ**» قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**ولا أنا، إلَّا أن يتغمَّدني اللهُ برحمةٍ منه وفَضْلٍ**» [رواه مسلم (٢٨١٦)].

والمقاربة: القصد الذي لا غلوَّ فيه ولا تقصير. **والسداد**: الاستقامة والإصابة.

﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ يعني أنّ صرفَ العذاب وحصولَ الرحمةِ هو النجاةُ والفلاح المبين.

- **مالك النفع والضر:**

وتابعت الآيات الكريمة بيانَ شدَّةِ افتقار الإنسان إلى خالقه جلَّ وعلا، فبيَّنت أنه تعالى بيده النفعُ والضرُّ، فهو المتصرِّفُ في خلقه كما يشاء، لا معقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه، وسَلَكت الآياتُ أسلوبَ التقرير، الذي يتناسب تماماً مع ما سبقه من إعلان الإذعان والاستسلام لله تعالى مع الاستمرار بتوجيه الخطاب للنبي ﷺ:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ فلا يزيله عنك إلا هو سبحانه،

فالْجأ إليه إذا أصابك شيءٌ من الضر، وأنت تعتقد أنه وحده الذي يكشفه عنك، وعليك أن تأخذ بالأسبابِ التي توصلك بتقديره سبحانه ورحمته إلى السلامة والنجاة[1].

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هكذا على الإطلاق، فقدرته سبحانه طليقة وسعت كل شيء، ولا يقدِرُ أحدٌ أن يردَّ فضله سبحانه، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

وكيف يستطيع أحدٌ أن يردَّ فضله جلَّ وعلا؟!:

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ أي: هو الذي خضعت له الرقابُ، وذلَّت له الجبابرةُ، وعَنَت له الوجوه، وَقَهَرَ كلَّ شيء، ودانت له الخلائقُ، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه[2].

والقهر: الغلبة، **والقاهر**: الغالب، ومعنى ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾: فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم، لا فوقية المكان، كما نقول: السلطان فوق رعيته؛ أي: بالمنزلة والرفعة[3].

ويمكن أن نقول: المراد **فوقية تليقُ بجلاله وكمال صفاته**.

والقاهر الذي يعملُ مراده كلّه، ويمنع غيره مراده إن شاء؛ ولما كان في القهر ما يكونُ مذموماً نفاه سبحانه بقوله:

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ فلا يوصِلُ أثرَ القهرِ بإيقاع المكروه إلا لمستحقه.

---

(١) انظر تفصيل الموضوع في: تفسير سورة يونس (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس)، وهو قسم من هذا التفسير.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٥٧١.

(٣) فتح القدير: ٢/ ١٠٤.

﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بمن يستحق كلّ شيء[(١)]، فهو سبحانه حكيمٌ في جميع أفعاله، وخبيرٌ بمواضع الأشياء، فلا يعطي ولا يمنع إلا بمشيئته وحكمته جَلَّ جَلَالُهُ.

• أعظم شاهد وأكبر شهادة:

ولا بدَّ لدعوةِ النبيِّ ﷺ من شهادةٍ تؤيِّدُها، فأكرمه الله تعالى بأعظم شاهدٍ وأكرمِ شهادةٍ، قال ﷻ:

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾؟ بدأت الآية بهذا الاستفهام لتنبيه الأسماع والقلوب لما يأتي.

﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فشهادته سبحانه أكبرُ شهادة وأكرمها، لأنّه العليم الخبير، وهي شهادة باقيةٌ خالدة، لا تنتهي بموت النبيِّ ﷺ، بل تستمرُّ على مرِّ الزمان، وكرِّ الأعوام؛ لبقاءِ الشاهدِ ودوامه جلَّ وعلا، وهي في التنزيل الحكيم، الذي أوحاه إلى نبيِّه الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي: لأنذركم به يا أهل مكةَ، وسائرَ من بلغه من الأسود والأحمر، أو من الثقلين الإنس والجن.

أو: لأنذركم به أيها الموجودون ومن سيوجد إلى يوم القيامة[(٢)].

وهذا يدلُّ على عموم رسالةِ الإسلام، وشمول دعوةِ القرآنِ للإنسِ والجن في كلِّ زمانٍ ومكانٍ إلى قيام الساعة، وأنَّ على المسلمينَ أن يعملوا على نشر القرآن الكريم بين الناس، وإيصال معانيه إليهم بلغاتهم.

---

(١) انظر: نظم الدرر: ٧/ ٣٩.

(٢) تفسير أبي السعود: ٢/ ١١٨.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: من بلغه القرآنُ فكأنَّما رأى محمداً ﷺ[١]. فالقرآنُ هو حجّته سبحانه على عباده بعد موت نبيِّه خاتم النبيين ﷺ الذي لا نبيَّ بعدَه.

ثم بيّنت الآيات بطلانَ ما هم عليه من الشِّرك والكفر بأسلوب التقرير والتحدي:

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ فما قيمة شهادتكم بجانب شهادة الله تعالى؟! فشهادتكم ظاهرة البطلان والفساد، لا يليق بأحدٍ أن يشهدَ عليها.

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ على ذلك أشهد.

﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

- **الكاذبون والمكذِّبون:**

وهناك شهود من البشر يعرفون صدقَ النبيِّ ﷺ وصحة دعوته ورسالته، ولكنَّهم كتموا الشهادة بغياً وحَسَداً، وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ أي: يعرفونَ رسول الله ﷺ بِحِلْيته ونعوته المذكورة في كتبهم معرفةً تامةً لا شك فيها، ومع ذلك كَفَر أكثرُهم به عليه الصلاة والسلام، وخانوا الأمانةَ التي اؤتُمنوا عليها، وكانت النتيجة:

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ لأن كفرهم وجحودهم عائد على أنفسهم.

﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) روح المعاني: ٧/ ١١٩.

فلا ظلم أشدُّ من هذا الظلم، ظلمِ الشهودِ الذين اؤتُمنوا على الشهادة فكتموها، ثم شهدوا بما يخالفها:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ كهؤلاء الذين حرَّفوا كتابهم، وغيَّروا وبدَّلوا كلام الله تعالى فيه.

﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ أي: كذَّب بالدلائل والبراهين المؤيِّدة للنبي ﷺ كما فعل مشركو مكة.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ من الكاذبين والمكذِّبين.

- **أين شركاؤكم؟:**

وعقَّبت الآيات على تكذيبهم وشركهم بعرض موقف لهم يوم القيامة:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: أين الشركاء الذين كنتم تدَّعون أنهم شركاء الله تعالى في استحقاق العبادة، وكنتم تتوجّهون إليهم بالعبادة والطاعة؟! ولا يخفى ما في هذا السؤال من تهكُّم مُرٍّ بهم، واستخفاف بهؤلاء الشركاء.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: لم يكن لهم حجَّةٌ يحتجُّون بها، أو لم يكن لهم عذرٌ يقدِّمونه.

﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وهذا يدلُّ على شدَّةِ عنادِهم وكثرة كذبهم، فهم يكذبون في الدنيا وفي الآخرة.

ولهذا قال تعالى يُعَجِّبُ القارئ والسامع من شدَّةِ كذبهم:

﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ مع علمهم أنه لا ينفعهم.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: غاب عنهم كذبهم الذي كانوا عليه في الدنيا عندما عبدوا الأصنام، وقالوا عنهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

ودلَّ قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ على أنَّ القومَ لمَّا عاينوا هول الموقف دُهشوا وتحيَّروا حتى إنّهم كذبوا، ولو لم يكونوا حيارى مدهوشين لما قالوا ما قالوه من الكذب؛ لأنَّ جميع الحقائق تنكشف يوم القيامة[١]، فلا تزوير ولا كذب ولا تدليس في هذا اليوم.

- **المهلكون لأنفسهم:**

وتتابعتِ الآياتُ بهذا الأسلوب، وهو عرضُ موقفٍ من مواقف المعرضين عن الحقِّ في الدنيا، ثم التعقيبُ عليه بموقفٍ من مواقفهم يوم القيامة، فعادت بنا الآياتُ إلى الدنيا مرةً ثانيةً؛ لنشهدَ موقفاً من مواقف الإعراض والعناد، إعراضهم عن آيات القرآن الكريم، وهم يسمعونها من النبي ﷺ مباشرة:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ولكنَّهم لا يسمعون سماعَ إجابة، فلا ينتفعون بما سمعوا، لأن قلوبهم وأسماعهم محجوبةٌ عن أنوار الهداية.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: جعلنا على قلوبهم أغطيةً وحجباً تحجبهم عن فهم كلام الله تعالى وتعقُّله، بسبب عنادهم وفجورهم، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: وجعلنا في آذانهم صمماً عن السماع النافع لهم.

---

(١) روح المعاني: ٧/ ١٢٤.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ فقد بلغ القومُ الغايةَ في العناد والإعراض، فمهما رأوا من الآياتِ والدلالاتِ والحُجج والبيِّنات والبراهين لا يؤمنوا بها، فلا فهم عندهم ولا إنصاف(١).

ومع كلِّ هذا يأتون إلى النبيِّ ﷺ بكلِّ وقاحة وتبجح مجادلين:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ولا يقولون مثل هذا القول الواضح الفساد والبطلان إلا تخديراً لمشاعرهم وأحاسيسهم وليبعدوا الناس عن الاستماع للقرآن الكريم.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: ينهون الناس عن اتباع الحق وتصديق الرسول ﷺ.

﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ أي: يبتعدون عنه، فلا هم ينتفعون به، ولا يدعون غيرهم ينتفع به.

﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يهلكون إلا أنفسهم بموقفهم هذا من القرآن الكريم، ودعوةِ الرسول ﷺ؛ لأنَّ وباله يعود عليهم؛ وهم لا يشعرون.

- **وقفة على النار:**

وجاء تعقيب الآيات الكريمة على هذا الموقف للمشركين في الدنيا بعرض موقفٍ لهم يوم القيامة:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ وشاهدوا بأمِّ أعينهم ما فيها من الأهوال والأنكال، فحينئذٍ يكون حالُهم حسرةً وندامةً على ما فرطوا في الدنيا.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٥٧٢.

﴿فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا.

﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾ أي: ظهر لهم عذابُ جهنم الذي كانوا ينكرون تحقُّقه ويكذبون به في الدنيا، أو ظهرت لهم القبائح والفضائح التي كانوا يسترونها عن الناس في الدنيا[1].

ويحتمل أنّه ظهر لهم ما كانوا يعلمونه في قرارة أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا كما قال تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤][2].

وحاصل هذه الأقوال: أنّهم عندما يقفون على جهنم، ويرون ما فيها من أنواع النكال والعذاب تتكشَّف لهم الحقائق، وتظهر الخفايا والسرائر، كما قال تعالى عن يوم القيامة: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩].

ولهذا ينكشف يوم القيامة أهل الرياء والنفاق، وأهل الزور والخداع، يظهرون جميعاً على حقيقتهم التي كانوا يتسترون عليها في الدنيا.

لقد أحاط الله تعالى علماً بكلِّ أحوالهم، ما أظهروه وما أسروه، بل إنّه سبحانه علم من أحوالهم التي لن تكونَ أنها لو كانت كيف تكون؛ ولهذا قال:

﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ أي: لو ردَّهم الله تعالى إلى الدنيا، وحقَّق لهم أمانيهم بالعودة إليها ليستأنفوا حياتهم فيها من جديد، وليعملوا فيها العمل الصالح، لعادوا إلى كفرهم وجحودهم وفسادهم وإفسادهم.

﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ في تمنيهم الرجعة إلى الدنيا رغبةً بالإيمان والعمل الصالح.

---

(١) انظر: روح المعاني: ٧/ ١٢٩.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٥٧٣.

- **وقفة بين يدي الله تعالى:**

وتعود بنا الآيات مرةً ثالثةً إلى الدنيا، لتعرض لنا موقفاً آخر من مواقف الكفار:

﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

لقد رأى أكثر المفسِّرين أنَّ هذه الآية معطوفة على ما سبقها من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ٢٨].

ولكني أرى أنَّ الواو في أول هذه الآية للاستئناف، وأنَّ الآية تحكي موقفاً جديداً لنوعٍ من أنواع الكفار، وهم الكفار الدَّهريون، المنكرون لوجود الخالق ﷻ، ويستتبع إنكارهم وجودَ الله تعالى إنكار يوم القيامة أيضاً، وقد ذكرهم الله تعالى في قوله الكريم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وهذا الذي أراه يتفق مع ما سبق تقريره في موضوع السورة من أنها جاءت تردُّ أقوال الكفار، وتدحضُ مزاعمَهم في شتَّى ألوان كفرهم، ويتفقُ أيضاً مع قوله تعالى بعد ذلك في سياق الآيات:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ﴾ أي: وقف هؤلاء المنكرون لوجود الصانع بين يدي ربهم.

وتأمَّل الفرق بين قوله تعالى السابق: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وبين قوله اللاحق: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ﴾؛ فالقول السابق في الكافرين المشركين الذين يقرُّون بوجود الخالق جلَّ وعلا، ولكنهم يعبدون غيره، ويشركون به سبحانه، ويكذِّبون رسله، وينكرون يوم القيامة، وعذاب النار، وهو

العذاب الذي هدَّدهم به الرسل عليهم الصلاة والسلام، فناسبهم أن يقول تعالى عنهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [المائدة: ٢٧].

والقول الثاني اللاحق: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ في المنكرين لوجود ربهم الذي خلقهم وربَّاهم، وأمدَّهم بكلِّ أسباب الحياة، فناسبهم أن يقول فيهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فالآيةُ الثانيةُ تحكي إذاً موقفاً آخرَ مغايراً للأول لنوع آخر من الكفار، وليست تكراراً وتأكيداً للموقف السابق كما رأى كثير من المفسِّرين، **فالقول بالتأسيس أولى من القول بالتأكيد؛** لأنه يتفق أكثرَ مع بلاغة القرآن الكريم وفصاحته.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ تمثيل لحبسهم للسؤال والتوبيخ، أو بمعنى الاطّلاع، أي: عرفوه ﷻ حقَّ التعريف[1]، فأيقنوا بوجوده وكماله ووحدانيته جلَّ وعلا.

﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ الثابت.

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ اعترفوا بالحقِّ، وأكدوا اعترافهم بالقسم به سبحانه.

﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: فذوقوا العذاب بسبب كفركم وجحودكم.

- **حَمَلَةُ الأوزار:**

ثم بيَّن سبحانه الخسارة الكبيرة التي تحلّ بالمنكرين ليوم القيامة عندما يأتيهم هذا اليوم فجأةً على غير انتظار واستعداد:

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ خسروا حياتهم، وضيَّعوا أعمارهم دون فائدةٍ

---

(١) روح المعاني: ٧/ ١٣١.

تُرجى؛ بسبب إنكارهم ليوم القيامة، فلا قيمة للحياة الدنيا ولا معنى لها من دون الحياة الثانية، فهي كما سبق بيانه تعطي الحياةَ الدنيا قيمتها، وتبيِّن حقيقتها وحكمها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾ أي: جاءتهم فجأة عندئذٍ تغشاهم الحسرات، وتملأ نفوسهم الزفرات.

﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ أي: على عدم استعدادنا لها، وتقصيرنا في العمل من أجلها، ومع الحسرة التي تذيبُ قلوبهم، وتحرقُ نفوسهم، يحاسَبون على أعمالهم التي عملوها، فيحشرون يوم القيامة وهم يحملونها على ظهورهم:

﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ﴾ **والأوزار**: الذنوب والمعاصي، وأصل الوِزْر الحمل الثقيل، سُمِّي به الإِثمُ والذنبُ لثقله الشديد، ويُجَسِّدُ الله تعالى بقدرته الأوزار ليحملها أصحابها على ظهورهم مجسَّدةً؛ زيادةً في عذابهم ومعاناتِهم يوم القيامة.

ورأى بعضُ المفسِّرين أنَّ قوله تعالى: ﴿يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ﴾ تمثيلٌ لحملهم مسؤوليةَ معاصيهم وخطاياهم، وبيان سوء حالهم، وشدَّة ما يجدون من المشقة والعقوبة، وذكر الظهور في الآية كذكر الأيدي في قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠][(١)].

أو يكون المراد تحقيرهم وتشبيههم بالدوابِّ المسخرة لحمل أثقال الإنسان في الدنيا. قال سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم مشهدهم كالدّواب الموقرة بالأحمال ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ﴾ بل الدوابّ أحسن حالاً، فهي تحمل أوزاراً من الأثقال، ولكنّ هؤلاء يحملون أوزاراً من الآثام، والدواب تُحَطُّ عنها أوزارها فتذهب لتستريح، وهؤلاء يذهبون بأوزارهم إلى الجحيم، مشيَّعينَ بالتأثيم»[(٢)].

والأولى أن نحمل الحمل على الحقيقة، فالله ﷻ قادرٌ على تجسيد

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٢/ ١٢٤.

(٢) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٧٢.

الأعراض والمعاني، وقد وردت عِدّةُ آثار تدلُّ على ذلك، منها ما ورد في تجسيد ثواب قراءة سورتي البقرة وآل عمران يوم القيامة، فعن **أبي أمامة** رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**اقرؤوا القرآنَ، فإنّه يأتي يومَ القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين ـ البقرة وآل عمران ـ فإنَّهما يأتيانِ يومَ القيامةِ كأنَّهما غمامتان أو كأنّهما غيايتان، أو كأنّهما فِرْقان من طيرٍ صوافٍّ تحاجَّان عن أصحابهما يوم القيامة**» [رواه مسلم (٨٠٤)].

والغياية: ما أظلك من فوقك. **والفِرْقُ**: القطعة من الشيء.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: ما يحملون.

- **الحياة الدنيا والآخرة:**

وماذا يبقى من الدنيا إذا انسلخت عن الآخرة؟ إنها تصبح تافهةً لا قيمة لها، لا يبقى فيها إلا العبثُ واللعبُ واللهو، ولهذا وصفها الله تبارك وتعالى بهذه الصفات فقال:

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لأنها دون الشعور بالمسؤولية عنها أمام الله تعالى تصبحُ حياةَ الفارغين والفارغات، والتافهين والتافهات، الذين قَصَروا كلَّ همِّهم فيها على اللعب واللهو والعبث، والذين سبق حكاية قولهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المائدة: ٢٩].

وجلَّت حكمته تعالى أن يخلقهم للعبث واللهو: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون].

فلا بدّ إذاً بعد هذه الحياة الدنيا من حياة ثانية، وهي خير لأهل الإيمان والتقوى، الذين يستشعرون مسؤوليتهم أمام الله تعالى، فيملؤونها بطاعته ويعمرونها بعبادته:

﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتَّقون الله تعالى ويخافون من حسابه وعذابه يوم القيامة.

وقد أفادهم هذا التقويمُ الرَّباني للحياة الدنيا والآخرة أنهم لم يصبحوا عبيداً للدنيا، لقد ركبوها ولم تركبهم، وعبَّدوها، فذللوها لله ولسلطانه، ولم تستعبدهم، وهم يبتغون وجه الله، ويرجون الآخرة، فسبقوا أهل الدنيا في الدنيا، ثم سبقوهم كذلك في الآخرة[1].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هذه الحقيقة، وتدركون الحكمة من وجودكم في هذه الحياة الدنيا، وتشعرون بمسؤوليتكم عن أعمالكم أمام خالقكم سبحانه.

- **حقيقتان هامّتان:**

وتعود الآيات مرةً ثانية إلى مواساة النبيِّ ﷺ عمّا يجده من حُزنٍ ومعاناة بسبب ما يلقى من جحودهم وعنادهم، وتبرز في عودتها إلى مواساته حقيقتان هامَّتان:

أولاهما: مكانته عليه الصلاة والسلام الكبيرة عند ربه ﷻ، التي دلَّت عليها كثرة اهتمام الآيات بمشاعره عليه الصلاة والسلام، وحرصها على مواساته المرَّة تلوَ المرَّة، كلّما عرضت موقفاً جديداً من مواقف العناد والاستكبار عند المشركين.

وثانيتهما: شدّةُ عنادهم وجحودهم، وكثرة الأذى الذي كانوا يوجِّهونه إلى النبي ﷺ، حتى قال تعالى مواسياً له عليه الصلاة والسلام:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ عندما كانوا يكذّبونه عليه الصلاة والسلام، ويصفونه بأوصافٍ لا تليقُ به عليه الصلاة والسلام.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٧٢.

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي: إنّهم في الحقيقة لا يكذّبونك، إذ كنتَ ولا تزال فيهم الصادق الأمين، فما أصابك منهم ما أصابك إلا من أجلنا وبسببنا.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: ولكنّهم بآيات الله تعالى يكذّبون.

فما أعظم مكانته عليه الصلاة والسلام عند ربه ﷻ! فقد جعل سبحانه ما فعله المشركون به عليه الصلاة والسلام من التكذيب راجعاً إليه تعالى، فبلغ عليه الصلاة والسلام في هذا الغاية في جلالة القدر، ورِفْعَة المحل، والزلفى من الله ﷻ، إلى حيث لا غايةَ وراءه، حيث لم يقتصر على جعل تكذيبهم إياه عليه الصلاة والسلام تكذيباً لآياته سبحانه على طريقة قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

بل نفى تكذيبهم له ﷺ، وأثبته لآياته تعالى على طريقة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

- **النصر القريب:**

وتابعت الآياتُ تسليةَ النبي ﷺ وتثبيتَه، وهي تحمِلُ له البشارةَ بالنصر والظفر:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ فغاية الصبرِ النصرُ، وانتظارُ الفرج من الله تعالى عبادةٌ، وموعدك مع نصر الله تعالى قريبٌ، وهو النصر الذي يأتي إليك من الله تعالى، كما أتى مَنْ قبلك من الرسل.

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي كتبها سبحانه بالنصر والظفر لرسله، كما في قوله عز شأنه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات].

وكما قال أيضاً: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

وهذا يبيِّن لنا بعضَ الحِكَمِ والعبرِ من قصص الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم، وهي ما أشار إليها سبحانه بقوله:

﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فلك فيهم أسوة وقدوة.

وكان رسول الله ﷺ شديدَ الحرصِ على إيمان المشركين، ومع ذلك فلا حيلةَ له معهم إلا الصبر، ولهذا قال سبحانه له:

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: عَظُمَ عليك إعراضهم عما يأتيهم من الآيات كما مرَّ معنا في قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤].

﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا﴾ منفذاً.

﴿فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ أي: بمعجزةٍ من المعجزاتِ التي اقترحوها، وطلبوها منك، فافعل لتشاهد أنهم لا يزدادونَ عند إتيانك بها إلا إعراضاً وعناداً.

فالمرادُ بيانُ شدَّةِ حرصه عليه الصلاة والسلام على هدايتهم، بأنه لو قدر أنْ يتكلَّفَ النزول إلى أعماق الأرض، أو الصعود فوق السماء، لفعله عليه الصلاة والسلام من أجل هدايتهم وإيمانهم، وبيان شدَّةِ عنادهم وإعراضهم.

ثم بيَّن تعالى قدرته على هدايتهم رغم شدة عنادهم، فقال:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ولكنه سبحانه شاء أن يجعل لهم إرادةً وكسباً واختياراً، فإعراضُهم عن الإيمان بسبب كسبهم واختيارهم، والإيمانُ

لا يكون بالإجبار والإكراه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩][1].

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الذين يظنُّون أنَّ هدايتهم متوقفةٌ على جلب آية مقترحة لهم، إنّه الجد الصارم والحسمُ الجازم، كما قال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إلى جانب التطمينِ والتسريةِ والمواساةِ والتسليةِ[2]، وإنه أيضاً يدلُّ على أنَّ هذا الكلامَ الذي يظهرُ فيه عزُّ الربوبية، كلام الله تعالى، أنزله على نبيه محمد ﷺ.

ثم أكَّد سبحانه كمال قدرته، وأنه قادرٌ على جمعهم على الهدى، فقال:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: الذين فيهم قابليةُ السمع؛ لأنَّ عقولهم وقلوبهم منفتحة على الخير، متوجهة له، فيتدبَّرون ما يُلقى إليهم من آيات الله تعالى، وينتفعون بدلائلها وبراهينها.

وأمّا هؤلاء المعاندون فهم كالأموات في عدم قابليتهم لسماع الخير وفي تبلُّد مشاعرهم عن إدراك أنوار الهداية، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ﴾ [الأنعام: ٢٥].

ولهذا شبههم الله تعالى بالأموات الذين لا حسَّ فيهم ولا حياة، ومع ذلك فإنه سبحانه قادر على هدايتهم، كما هو قادر على بعث الأموات من قبورهم، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

وهو سبحانه قادر أيضاً على كلِّ الآيات والمعجزات التي اقترحوها:

---

(١) انظر: تفسير سورة يونس (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس)، في تفسيرنا هذا.

(٢) في ظلال القرآن: ٢/١٠٧٨.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: لا يعلمون أنَّ عدمَ تنزيل الآياتِ المقترحةِ رحمةٌ من الله تعالى بهم، فلو أنزل الله تعالى آيةً مقترَحةً، وأعرضوا عنها، ولم يؤمنوا بها، لأهلكهم سبحانه، واستأصلهم بالعذاب، كما أهلك المكذِّبين من الأمم قبلهم[1].

• لسنا وحدنا في الكون:

والمخلوقات كلُّها محتاجةٌ إلى الخالق العظيم سبحانه، شأنها في هذا شأن الإنسان، وهي تستوي معه في صفة الحدوث والاحتياج والافتقار:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تدبُّ على الأرض وتنتقل فيها.

﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أي: ولا طائر يطير ويتحرّكُ مستعملاً جناحيه.

ولم يكتشف الإنسان حتى الآن طائراً من المخلوقات الأرضية يطير بأكثر من جناحين.

﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ﴾ لأنّ الله تعالى خلقهم كما خلقكم، وقدَّر لكل جنسٍ ونوعٍ وفردٍ منهم رزقه وأجله كما قدَّر لكم، وكل ذلك معلوم لله تعالى ومكتوب في لوح القدر.

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍۚ﴾ فجميع المخلوقات متساوون ومتماثلون في حاجتهم إلى الخالق البارئ، في حال الحدوث والابتداء، وفي حال الدوام

---

(١) انظر تفصيل الموضوع في تفسير سورة الإسراء (المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء)، وهو جزء من هذا التفسير.

والبقاء، ويمتازُ الإنسانُ عنهم جميعاً بالتكريمِ والتكليفِ والمسؤوليةِ؛ لأن الله تعالى زوَّده بأهلية التكليف والمسؤولية.

وتدلُّ كثرة أنواع المخلوقات وأجناسها على وحدانية خالقها سبحانه، كما أنها تشهد على عظيم قدرته وكمال مشيئته وحكمته وسعة علمه ﷻ.

وكأنَّ وصف المخلوقات في هذه الآية بالحركة من دبيب وطيران، جاء يقابل ما سبق تقريره في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١٣].

وسبق القولُ ثمةَ أنَّ المخلوقاتِ كلها لا تنفك عن إحدى هاتين الصفتين: السكون والحركة، وهما دليلٌ على حدوثها وخلقها، وكما صرَّح تعالى هناك بشمول ملكه للساكنات، صرَّح هنا ﷻ بشمول ملكه وقهره للمتحركات، فلا يسكن ساكن، ولا يتحرك متحرِّك إلا بمشيئته سبحانه وعلمه وقدرته.

ثم ماذا بعد خلقهم وإمدادهم بأسباب الحياة والبقاء، مع كثرة أجناسهم وأنواعهم وكثرة أشكالهم وصفاتهم وخصائصهم؟! ماذا بعد كلّ هذا الخلق المحكم المتكامل؟!.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ فالبداية منه سبحانه، والنهاية إليه ﷻ، ليقضي بينهم بعدله، قال عليه الصلاة والسلام: «**لتؤدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلِها يومَ القيامةِ حتى يقادَ للشاةِ الجَلْحاءِ** (التي لا قرن لها) **من الشاةِ القرْناءِ**» [رواه مسلم (٢٥٨٢)].

فخلقُهم وإيجادُهم لم يكن عبثاً ولا لعباً، والناسُ ليسوا وحدَهم في هذا الكون حتى يكون وجودُهم مصادفةً، وحتى تكونَ حياتُهم سدًى، إنَّ حولهم أحياء أخرى، كلها ذاتُ أمرٍ منتظم يوحي بالتدبير والحكمة، ويوحي ذلك بوحدة الخالق، ووحدة التدبير، الذي يأخذ خلقه كله[1].

ووحدة التدبير تظهرُ في التسخير، فلقد سخّر الله تعالى هذه المخلوقات بعضها لبعض، وسخرها كلَّها للإنسان وفائدته وحياته تكريماً له وتشريفاً، كما

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٨٠.

قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية].

- **في الظلمات:**

إنَّ حال هؤلاء المكذِّبين المعرضين عن كلِّ هذه الدلائل والبراهين، كما وصفهم الله تعالى في قوله الكريم:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ۗ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ فلا يسمعون الآيات سماعاً تتأثَّر به نفوسهم، وتتقبله عقولهم، ولا ينطقون بالحق المجَلْجِلِ من حولهم، لأنهم غارقون في الظلمات.

﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمات العناد والاستكبار، وظلماتِ الأهواء والشهوات، وظلماتِ الجهل والتقليد الأعمى، ظلمات متراكبة بعضُها فوق بعض، غشيتهم من كلِّ مكان، واشتدت عليهم مع مرور الأزمان، ولا سبيلَ لهم إلى الخلاص منها إلا بنور الهداية والإيمان، كما قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فإرادته سبحانه لا تُعارَض، ومشيئته نافذةٌ لا تُغالَب:

﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ومع اتصافه جلَّ وعلا بكمال المشيئة فهو متصف أيضاً بكمال العلم

والحكمة، يدبِّر سبحانه أمرَ مخلوقاته بمشيئته وعلمه وحكمته، يهدي مَنْ يشاءُ، ويضلُّ من يشاءُ، ويجعلُ الظلماتِ والنورَ.

إذاً علينا أن نلجأً إلى الله تعالى ليكشفَ عنَّا الظلماتِ، وينيرَ لنا الطريقَ، علينا أن نتعرَّفَ عليه سبحانه في الرخاء بعبادته وحده وطاعته، ليستجيبَ دعاءنا في المحن والبلاء، فالإنسان مفتقرٌ إلى فضل ربِّه وإحسانه ورحمته في جميع أحواله وأوقاته.

• **الإنسان والدعاء:**

الافتقار والاحتياج يلابسُ الإنسان دائماً، لأنّه جزءٌ من خلقه وتكوينه، فحاجته إلى الطعام والشراب متولِّدة من تركيبه العضوي وبنيته المادية المخلوقة من الطين، وحاجتُه إلى المعرفة والعلم نابعةٌ من تكوينه العقلي، وحاجتُه إلى الجنس والتكاثر والتوالد، أساسها حياتُه المحدودة الفانية...

وكثيراً ما ينسى الإنسانُ حقيقةَ ضعفهِ وفقرهِ، ويظنُّ نفسَه قويّاً غنيّاً، فيتكبر ويتجبر، ويعرض عن الحق معانداً جاحداً، ولهذا أمر الله سبحانه النبي ﷺ أن يذكِّر المُعْرضين المعاندين بحقيقة ضعفهم وافتقارهم إلى رحمة ربهم وفضله، فقال:

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ أي: أخبروني.

﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ كما أتى الأمم من قبلكم.

﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: أهوال يوم القيامة.

﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ أي: هل تدعون غيرَ الله وتلجؤون إلى سواه؟.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: إن كنتم حقّاً صادقين في اعتقادكم أنَّ هذه الأصنام التي تعبدونها نافعةٌ لكم، ودافعةٌ عنكم الضرر والخطر.

ولما كان معنى هذا الاستفهام النفيَ، أي: لا تدعون في حالِ الخطر غير الله تعالى، استغنى بهِ عن جوابِ الشرطِ المتقدِّمِ، ثم أكده سبحانه وأثبته بقوله:

﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ۝٤١﴾.

﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ﴾ وقدَّم المفعول على الفعل ليفيدَ الحصرَ والتخصيص، أي: بل تدعونه وحده، ولا تدعون غيره، فهو كقوله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، لأنكم في قرارة قلوبكم وفي أصل الفطرة التي فُطرتم عليها، تعلمون أنَّه هو وحدَه الذي يكشف عنكم الضرر، ويخلِّصكم من الخطر.

﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ﴾ كشفه عنكم، فاستجابته سبحانه للدعاء منوطةٌ بمشيئته وحده، فهو الفعال لما يريد، إن شاء أزال العُسرَ، وأتاح اليُسرَ، وإن شاء ترك الحال على ما قبل السؤالِ والابتهالِ لحكمةٍ يعلمها سبحانه.

فهذه الآية تُقيِّد الإطلاق في مثل قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]، وقوله أيضاً: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فثمَّةَ موانع تمنع الإجابةَ أو تؤخِّرُها قائمةٌ في الداعي نفسه، يعلمها سبحانه؛ فهو الذي يعلم السرَّ وأخفى، فقد لا يكون الداعي مخلصاً في دعائه، وقد يستبطئ الإجابة، ويسيءُ الظنَّ بالله تعالى، كما قال ﷺ: «**يُسْتَجَابُ لأحدِكُم ما لم يَعْجَلْ، فيقول: قد دعوتُ ربِّي فلم يَسْتَجِبْ لي**» [رواه مسلم (٢٧٣٥)].

﴿وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾ أي: تتركون ما تشركون به سبحانه من عبادة الأصنام والأوثان.

وقد يكونُ النسيانُ على حقيقته، نظراً لشدة الهول والخطر، إذ ينسى الإنسان في مثل هذه الأحوال كل ما سواه سبحانه، ويرجع إلى أصل فطرته الأولى التي فطره الله تعالى عليها، وهذا يكون في حال مواجهة الإنسان لأخطار كبيرة محدقة به لا سبيلَ له إلى النجاة منها، كعذاب الاستئصال، الذي أنزله الله تعالى بالأمم المكذِّبة للرسل، أو أهوال الساعة التي يستيقنُ الإنسان عجزه عن دفعها، ويصل إلى حدِّ اليأس من النجاة منها، ويكون دعاؤه ربَّه سبحانه يشبه

إيمان اليأس الذي يصدر عنه في مثل هذه الأحوال كإيمان فرعون عندما أدركه الغرق، ويئسَ من النجاة، وأيقن بالهلاك: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩](١).

- **قسوة القلب:**

فعلى الإنسانِ أن يلجأَ إلى الله تعالى في كلِّ أحواله، لأنَّ احتياجه وافتقاره إلى الله تعالى صفةٌ لازمةٌ له، لا تنفكُّ عنه أبداً، فهو مخلوقٌ من خلقه سبحانه، ومملوكٌ له ﷻ، وعبدٌ من عبيده، وفي قبضة قدرته ومشيئته.

ومن رحمته سبحانه بعباده أنه أرسل إليهم الرسل ليذكِّروا الناسَ بحقيقة فقرهم، واحتياجهم إليه ﷻ، فيقبلوا عليه داعين مطيعين، فهو سبحانه الرحيم الكريم، يحب أن يرى عباده على أبواب رحمته وكرمه، وفي ساحات جوده وعطائه. ولكنَّ أكثر الناسَ يعرضون عن دعوة الرسل مكذّبين معاندين، فيسلِّط الله تعالى عليهم البلايا والمحن لعلَّها تخفف من عنادهم، وتكسر شوكة تكبرهم، فتلين قلوبهم، وتخشع نفُوسهم، ويقبلوا على ربهم سائلين ضارعين:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: بالشدائد والمصائب في أموالهم وأنفسهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: يتذللون إليه تعالى، ويقبلون عليه ضارعين، ولكنّهم بسبب قسوة قلوبهم يصرُّون على عنادهم، ويبالغون في استكبارهم.

---

(١) انظر: تفسير سورة يونس (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس)، وهو جزء من هذا التفسير.

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وقسوة القلب من أخطر أمراضِ النفس البشرية وأعصاها على كلِّ دواء، وموالاتهم للشيطان تزيد من قسوة قلوبهم وعنادهم.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من المعاصي والكفر، والقلب الذي لا تردُّه الشدَّة إلى الله قلبٌ متحجِّرٌ لا خير فيه.

- **الاستدراج:**

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: تركوا دعوةَ الرسل عليهم الصلاة والسلام وأعرضوا عنها، ولم يتعظوا بها، أو أنهم انهمكوا في معاصيهم، ولم يتعظوا بما نالهم من البأساء والضراء، استدرجهم الله تعالى بالرخاء.

﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأرزاق والخيرات وأسباب الملذَّات المادية، استدراجاً لهم ومكراً بهم، ومدَّ الله تعالى لهم في زمنِ العطاء.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ أي: حتى إذا اعتادوا على رَغَدِ العيش، واطمأنوا إليه، واغتروا به، وانشغلوا بالنعمة عن المنعم، فلم يذكروه، ولم يشكروه، بل استغرقوا في المتاع، واستسلموا للشهوات، فأدّى ذلك إلى فسادِ النُّظُمِ والأوضاع، بعدَ فسادِ القلوبِ والأخلاقِ، وأدَّى هذا وذلك إلى نتائجه الطبيعية من فساد الحياة كلِّها، عندئذٍ جاء موعد السُّنَّةِ الإلٰهية التي لا تتبدَّل:

﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ أي: فجأةً على غير توقع منهم وانتظار.

﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون قانطون.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: مُكِرَ بالقوم وربِّ الكعبةِ، أُعْطُوا حاجتهم، ثمَّ أُخِذوا.

وقال قتادة: ما أخذَ اللهُ قوماً قط إلا عند سكرتهم وغِرَّتهم ونعمتهم، فلا تغتروا باللهِ، فإنّه لا يغترُّ باللهِ إلا القوم الفاسقون[١].

وفي الحديث الشريف: عن **عقبة بن عامر** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيتَ اللهَ يعطي العبدَ من الدُّنيا على معاصيه ما يحبُّ، فإنَّما هو استدراجٌ**» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾. [رواه أحمد (١٧٢٤٤)].

هذه سُنَّة الله تعالى التي لا تتبدل في استدراج الأمم الكافرة المعاندة، فلا ينبغي لنا أن نغترَّ بما عندهم من متاع الدنيا وزخارفها، وبما لديهم من أسباب الرخاء، فهو والله عينُ البلاءِ.

ولو تدبَّر المسلمون هذه الآيات الكريمة، وتأمَّلوا معانيها لما وُجِدَ فيهم مَنْ ينظر إلى حضارة الغرب المادية نظرةَ الانبهارِ والإعجابِ، فتراهم يندفعون إلى تقليد الغربيين تقليداً أعمى، منسلخين عن مبادئ دينهم، ومنهج كتابهم، وسُنَّة نبيهم ﷺ، وهم يظنون أنهم إذا لحقوا بهم وصلوا إلى مراتب الكمال، وحققوا لأنفسهم السعادة، مع أنّهم لو تأملوا حقيقةَ حياتهم لوجدوهم أشقياء بما هم فيه لا سُعداء، إنَّ العذابَ النفسيَّ والشقاء الروحي والشذوذ الجنسي والانحلال الخلقي التي تقاسي منه هذه الأمم، ليكادُ يغطي على الإنتاج والرخاء والمتاع، وليكاد يصبغُ الحياة كلَّها بالنكد والقلق والشقاء[٢].

وإنّ انتشارَ الآفات الاجتماعية كالخمور والمخدرات وعصابات المجرمين، وانتشار الأمراض الجنسية والشذوذ كالعقم وضعف المناعة، وانتشار التلقيح

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٥٧٨.

(٢) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٩١.

الصناعي الذي نقل عن الحيوان إلى الإنسان، ومخازن النطف البشرية والمتاجرةِ بها، كل ذلك مؤشراتٌ على العواقب الوخيمة لهذه المجتمعات.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: آخرهم، فلم يبقَ منهم أحد؛ لأنه سبحانه استأصلهم عن آخرهم.

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي طهر الأرض من ظلمهم وفسادهم وإفسادهم، فهو من النعم الجليلة التي يُحْمَدُ عليها، والكمال له سبحانه في كلِّ الأحوال، لا يزيده وجودُ موجودٍ، كما مرَّ في أول السورة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، ولا ينقصه فقد مفقود كما قال هنا: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[(١)].

- **ما أضعف الإنسان!:**

وتابعت الآياتُ كشفَ الحقيقةِ للإنسان، الحقيقة الماثلةِ في ذاته، والقائمةِ في نفسه، فهي تعرِّف الإنسانَ بالإنسانِ، تبيّنُ له حقيقةَ ضعفه، وشدّةَ حاجته وفقره، حتى لا يغترَّ ولا يتكبر، ولا يعرضَ عن دعوة الحقِّ ولا يتجبَّر:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ فلا سلطان لكم حتى على أجزائكم وحواسكم؛ لأنكم لستم أصحابها الحقيقيين، فمالكها الحقيقي بارئها وخالقها الذي قال: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

(١) انظر: نظم الدرر: ٧/ ١١٧.

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ بأن غطَّى عليها، وحجبها عن الإدراك والتعقُّل.

والقلوب بيد الله سبحانه يقلِّبها كيف يشاء، ولا سلطان لأصحابها عليها كما قال سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فما أضعفَ الإنسانَ الذي لا سلطانَ له حتى على قلبه، ولا يملكُ سمعه وبصره! وهي أهم وسائل التمكين التي تمكِّنه من الاتصال بالعالم المحيط به، وإدراك الأشياء من حوله، كما لا يستطيعُ أن يضمن بقاءها له لحظة واحدة.

﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ أي: مَنْ غير الله يردُّ عليكم ما أخذه الله تعالى منكم.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: انظر نظر المتعجِّب كيف يبيِّن الله تعالى لهم حقيقة ضعفهم وعجزهم وافتقارهم إلى رحمة ربهم، ومع كلِّ هذا البيان والتبيين:

﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي: يعرضون عن كلِّ ذلك.

وتأمَّل وحدة الأسلوب في السورة الكريمة، بين قوله هنا: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾، وبين قوله في أول السورة: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾.

فما أظلمهم لأنفسهم! وما أشقاهم بعنادهم وإعراضهم!.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً﴾ كما أتى الأمم من قبلكم فجأة.

﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ بعد ظهور أماراته وعلاماته[1].

فقد يرسل الله تعالى بين يدي العذاب أماراتٍ وعلاماتٍ تدلُّ على اقترابه، كما فعل سبحانه عندما عذَّب عاداً قومَ هود، بأن أرسل إليهم عارضاً في جوٍّ

---

(١) تفسير أبي السعود: ٢/ ١٣٥.

السماء كمقدمةٍ لعذابهم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: لا يُهلك بهذا العذاب إلا المشركون الكافرون، والمعاندون المعرضون؛ لأنه سبحانه ينجِّي عباده المؤمنين الصالحين، كما أخبر في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

هكذا قدَّر الله تعالى بمشيئته وحكمته أن يكون الإنذار والتخويف للمعرضين المكذِّبين، وأن تكون البشارةُ للمؤمنين الصالحين:

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

هذه بشارة عظيمة من الله تعالى للمؤمنين الصالحين.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي: بسببِ فسقِهم وخروجِهم عن طاعة ربِّهم سبحانه.

- **لا يستوي الأعمى والبصير:**

والرسالة التي أكرم الله تعالى بها الرسل لم ترفعهم فوق مقام عبوديتهم له سبحانه، ولهذا أُمِرَ النبيُّ ﷺ ـ وهو أشرف المرسلين، وخاتم النبيين ـ أن يقول للناس:

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي: لا أقدر على ما يقدر عليه الله، فكأنَّ

مقدوراتِه مخزونة حاضرة عنده[1] لكمال قدرته جلَّ وعلا.

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ أي: ولا أقول لكم: إنّي أعلمُ الغيب، فلا يعلم النبيُّ ﷺ من الغيب إلا ما أعلمه الله تعالى به، فعلمُ الغيبِ مما استأثر الله تعالى به: ﴿عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن].

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾ أي: ولا أدَّعي أني مَلك، إنَّما أنا بشرٌ مثلكم، شرَّفني الله تعالى بالوحي، وأنعم علي به.

﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ أي: ما أتبع إلا ما يوحى إلي، فأنا عبدٌ لله، لا أتخطّى حظي، ولا أتعدَّى حدِّي، ولا أثبِتُ من ذات نفسي شيئاً، وقد أوحيَ إليَّ هذا القرآن لأنذركم به خصوصاً، وأنذر به كلَّ من بلغه عموماً.

والقرآن الكريم واضحُ الدلائل، قاطعُ البراهين، ثابتُ الحججِ، فلا يُعْرِضُ عنه إلا مَنْ كان أعمى البصيرة، ولا يُقْبِلُ عليه إلا من نوَّر الله تعالى قلبه وبصيرته.

﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فكما لا يستوي الأعمى والبصير، لا يستوي الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والنور والظلمات، وعلى العاقل أن يميِّز بين الحق والباطل، والهدى والضلال، فالتفكّر مطلوب، والحضُّ عليه منهج قرآني مضبوط بضوابط الوحي المنزَّل.

❁ ❁ ❁

---

(١) روح المعاني: ٧/ ١٢٥.

الفَصْلُ الثَّانِي

تَوْجِيهٌ وَإِرْشَاد

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ

أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

- **تَمْهيد:**

لما وصلت الآيات الكريمة في سورة الأنعام إلى القول الفصل المميِّز بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والإيمان والكفر، والنور والظلمات، وطوّقت الكافرين بالبراهين القاطعة، والحجج البالغة، وكَشَفت لهم حقيقَتَهم، وبيَّنت لهم حدَّهم، وعرَّفتهم قدْرهم، وقرَّبت إليهم بصائرَ الحقِّ، بصيرةً بعد بصيرةٍ، أمرتِ النبيَّ ﷺ أن يلتفتَ إلى الجانب الآخر، إلى المؤمنين الذين نوَّر الله تعالى قلوبَهم وأحيَى نفوسَهم، فقبلوا دعوته، وصدَّقوا برسالته، فلهم حقوق المسلمين، ورَحِمُ المؤمنين، وهم محتاجون إلى هَدْي النبيِّ ﷺ وتوجيهه وإرشاده.

وبهذا تبدأ الآيات الكريمة في السورة فصلاً جديداً، تبثُّ فيه الخطاب للمؤمنين: ترشدهم، وتبشِّرُهم، وتؤدِّبُهم، وتبيِّن مكَانتَهم عند الله تعالى، وعند رسوله ﷺ.

- **كرامة المؤمنين:**

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ بالقرآن الكريم.

﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لأنهم مؤمنون بالله تعالى وبيوم القيامة، فالمؤمنُ محتاجٌ إلى القرآن الكريم تلاوةً أو استماعاً يتدبَّر آياته، فيزدادُ خشيةً لله تعالى، وتعظيماً له ﷻ؛ ولهذا كان النبيُّ ﷺ يحثُّ المؤمنين على تلاوة القرآن الكريم، وحضور مجالسه، كقوله عليه الصلاة والسلام: «**خيركُم مَنْ تعلَّم القرآنَ وعلَّمَهُ**» [رواه البخاري (٥٠٢٧)].

وقوله ﷺ أيضاً: «**ما اجتمعَ قومٌ في بيتٍ من بيوتِ اللهِ يَتْلونَ كتابَ اللهِ، ويتدارسونَهُ فيما بَيْنَهُم، إلا نَزَلَتْ عليهم السكينةُ، وغشيتْهم الرحمةُ، وحفَّتْهُمُ الملائكةُ، وذَكَرهم اللهُ في مَنْ عِنْدَهُ**» [رواه مسلم (٢٦٩٩)].

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: ليس لهم غير الله تعالى ناصراً ينصرهم، ولا شفيعاً يشفع لهم، حتى يأذنَ الله تعالى بالشفاعة لمن يشاء من عباده ويرضَى، فهو القائلُ ﷻ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتَّقون الله تعالى بتعظيم أمره، واجتناب محارمِه.

فللقرآن الكريم سلطانٌ كبيرٌ على قلوب المؤمنين وأرواحهم، يصفِّي أرواحَهم، ويهذِّبُ قلوبَهم، ويصقِلُ نفوسَهم، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. فالقرآنُ الكريم يزوِّدُ المؤمنين بالخشيةِ التي تحجزُهم عن المعاصي، وتدفعُهم إلى الاستزادة من الطاعات والقربات.

ثمَّ تابعتِ الآياتُ خطابَ النبيِّ ﷺ، تأمره أن يهتمَّ بالمؤمنين، ويُقْبِل

عليهم، فلا ينبغي أن ينشغلَ بدعوة المشركين عنهم، فللمؤمنين كرامة عالية عند الله تعالى، وينبغي أن يُقدَّموا في مجالس النبيِّ ﷺ.

ولمّا طلبَ بعضُ المشركين من رسولِ اللهِ ﷺ أن يخصِّصَ لهم مجلساً خاصّاً لايشاركهم فيه أحدٌ من ضعفاء المؤمنين وفقرائهم، كبلال وعمار وابن مسعود رضي الله تعالى عنهم، وأن يطردهم من مجلسه عندما يأتي إليه المشركون، أنزل الله تعالى ردّاً على طلبهم هذا قوله الكريم:

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ أي: لا تُبْعِدِ المؤمنين الذين يواظبون على عبادة ربِّهم من أول النهار إلى آخره.

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: مخلصين في عبادتهم، لا يريدون غيرَ رضوان الله وثوابه، واجعلهم جلساءك وأخِصَّاءَك، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ شهادةٌ رفيعةٌ من الله لهؤلاء الضعفاء من أصحاب النبيِّ ﷺ، ردَّ الله تعالى بها على المستكبرين من المشركين الذين اتهموا المسلمين بأنَّهم لم يسلموا إلا بسببِ حاجتهم وفقرهم.

ثم أكَّد الله ردَّه على المشركين بقوله:

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: إنْ كان لهم قصدٌ غير الإيمان والإسلام فأنت لا تحاسَبُ عنهم، كما أنَّهم لا يحاسبون عنك، فكلُّ إنسانٍ مسؤول عن عمله، والله سبحانه هو الذي يسألهم ويحاسبهم.

﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: فتكون بسبب طردهم من الظالمين الذين يضعون الأمور في غير مواضعها، وحاشاه ﷺ أن يكون كذلك، وإنما

نزلت الآيات بهذا النهي الصريح الجازم ردّاً على اقتراح المشركين الفاسد، والاتهام الظالم لضعفاء المؤمنين، فتولَّى سبحانه بنفسه الدفاعَ عنهم؛ إظهاراً لشرفهم وكرامتهم عنده سبحانه، فللمؤمن كرامتُه وفضلُه عند الله تعالى.

وفي «**صحيح مسلم**»: عن سعدٍ: فيَّ نزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم...﴾ نزلت في ستةٍ: أنا وابن مسعودٍ منهم، وكان المشركون قالوا له: تُدْني هؤلاء. وزاد في روايةٍ ثانيةٍ: اطردْ هؤلاءِ لا يجترئون علينا. [رواه مسلم (٢٤١٣)].

• التفضيل بالإيمان والتقوى:

ثم بيَّن سبحانه أنّه جعل التفاوتَ في العطاء والرزق سبباً من أسباب الابتلاء والاختبار في الحياة الدنيا، ولا علاقةَ له بالفضل والكرامة، فهما منوطان بالإيمان والتقوى، كما هو مقرر في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

فالتكريمُ والتفضيلُ من القِيَم المرتبطة بالإيمان والتقوى، لا بمتاع الدنيا وزخرفها الزائل الحائل، والرزق والغنى متاحٌ في الدنيا لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم، تقيِّهم وفاجرهم، كما قال الله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: جعلنا التفاوتَ بين الناس بالرزق والعطاء اختباراً وامتحاناً، فاختبر الله تعالى بحكمته الأغنياء بالفقراء، والفقراء بالأغنياء، فسقط المستكبرون من أغنياء المشركين في الاختبار، وكان برهان سقوطهم قولهم:

﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ أي: أنعمَ الله عليهم بالإيمان، ونحن المقدَّمون والرؤساء، وهم الفقراء؟! ففي قولهم إنكار لأن يكون أمثال هؤلاء الضعفاء ممنوناً عليهم من بينهم[1]، كما حكى الله عنهم في آية أخرى قولهم عن المؤمنين: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ الآية [الأحقاف: ١١].

وردَّ سبحانه على إنكارهم هذا واعتراضهم على ما منَّ به من هداية الضعفاء الفقراء بقوله:

﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فهو سبحانه عليمٌ بأحوال عباده، حكيمٌ في أفعالِه، يجعلُ هدايتَه وتوفيقَه لمن علمَ أنَّهم أهلٌ لها، وأنّهم يشكرونه على نعمتِهِ وفضلِهِ، ولا يجحدونها.

• رحمته سبحانه بالمؤمنين:

ثم أمر الله تعالى النبيَّ ﷺ أن يكرم المؤمنين كلّما جاؤوا إليه، فهم أهلُ التقوى والكرامة:

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ أي: ابدأهم بالسلام تَكْرِمَةً لهم، أو بلِّغهم سلام الله عليهم، وبشِّرهم برحمته تعالى لهم.

﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ﴾ أي: أوجبَ ربُّكم على نفسِهِ الرحمة فضلاً منه وكرماً؛ لأنّه أكرمُ الأكرمين وأرحم الراحمين[2].

وهي المرة الثانية في سورة الأنعام التي أخبر بها سبحانه أنه كتب على نفسه الرحمة، والظاهر من سِباق الآية وسياقها أنَّ هذه الرحمة التي أوجبها الله

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٤٦٤.

(٢) تفسير الخازن: ٢/ ٤١٥.

ﷺ على نفسه في هذه المرة خاصةً بالمؤمنين؛ تكريماً لهم وتشريفاً، وإظهاراً لعنايته سبحانه بهم وفضله عليهم.

ومن آثار رحمته سبحانه بالمؤمنين ما بيَّنَهُ في قوله الكريم:

﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي: وهو في حال فعله للمعصية ومقارفته للسيئة متلبِّس بصفة الجهالة، وهي السَّفَه والطيْشُ وسوء التدبير، وعدمُ النظر في العواقب، فآثرَ المعصيةَ على الطاعة، وجَهِل ما يترتَّبُ على فعله من المضارِّ والمفاسد.

﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد ارتكابه للسوء، برجوعه عنه.

﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله بعد توبته، وندمه على معصيته.

﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر ذنوب عباده المؤمنين ويرحمهم، فما أعظم فضله سبحانه عليهم!.

وهكذا أظهرت لنا الآياتُ الكريمةُ طريقَ الإيمان، وميَّزته عن طريق الكفر بحيث لا يكونُ بينهما التباسٌ واشتباهٌ أبداً:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ لبيان صفات المؤمنين وصفات الكافرين.

﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ولتستوضح يا محمد ﷺ سبيلَهم، فتعاملَهم بما يجب أن يُعاملوا به[١]. وهذا المعنى على قراءة (**سبيلَ**) بالنصب.

وأما على القراءة بالرفع فالمعنى: لتتضحَ سبيلُ المجرمين، وإذا استبان سبيلُ المجرمين فقد استبان سبيلُ المؤمنين[٢].

---

(١) انظر: تفسير النسفي وتفسير البيضاوي: ٢/٤١٦.

(٢) فتح القدير: ٢/١٢٠.

• **عِزَّةُ الإيمان:**

وبعد أن بيَّنت الآياتُ كيف ينبغي أن يعامِلَ النبيُّ ﷺ المؤمنين، بيَّنت له بالمقابل كيف ينبغي له أن يعامِلَ الكافرين المعاندين:

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كائناً ما كان، لأنَّ عبادتكم لغير الله تعالى قائمة على اتباع الأهواء، ومجرَّدةٌ عن أيِّ دليل وبرهان.

﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ التي هي سبب ضلالكم، فما أنتم عليه هوًى لا هدًى، أربأ بنفسي عنه.

﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ إن اتَّبعتُ أهواءكم؛ لأنَّ الهدى والضلال نقيضان لا يلتقيان.

ولا بدَّ لكلِّ من يقرأ هذه الآيات الكريمة ويتدبرها أن يستشعرَ عِزَّة الإيمان، والثقة الكبيرة التي تملأ قلبَ المؤمن، وعلينا أن نتذكّرَ أنَّ النبيَّ ﷺ أُمِرَ أن يواجه المشركين بكلِّ هذه العزة والثقة وهو في مكة المكرمة، حيث المشركون لا يزالون في قوتهم وَمَنَعَتِهم، وكأنَّ الله تعالى أرادَ أن يبيِّن لهؤلاء المشركين المستكبرين المتعالينَ على فقراء المسلمين وضعفائهم، عزَّةَ الإيمانِ وقوتَه في قلوب المؤمنين، وضعفَ الشِّرك والكفر وتخلْخُلَه في قلوب الكافرين، الذين غلبت عليهم أهواؤهم وأعْمَتْهم شهواتهم.

ثم بيَّنت الآيات بعد ذلك مصدر هذه العزة ومنبع هذه الثقة بقوله تعالى:

﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ وهو القرآن الكريم، الذي أنزله الله تعالى عليَّ.

﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ والذي أعرضتم عنه مكذِّبين، فهو مصدر عِزَّتي، ومنبع ثقتي، ومؤيِّد دعوتي، هو معجزتي الكبرى التي أتحداكم بها.

﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: ما عندي غير القرآن الكريم من المعجزات التي تستعجلون إنزالها، أو: ما عندي من العذاب الذي تستعجلون إنزاله، أو الساعة التي تستعجلون قيامها تكذيباً بها واستبعاداً لها.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فهو وحده الحاكم سبحانه الذي يقضي بيني وبينكم.

﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يقضي القضاء الحقّ.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ بين الحق والباطل.

- **آية وحديث:**

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: لانْقَطعَ وانتهى ما بيني وبينكم بإنزال العذاب عليكم، لكنَّ الأمرَ بيد الله تعالى الرحيم الحليم، والعليم الحكيم.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المصرِّين على الكفر والشرك.

والجدير بالذكر هنا أنه عليه الصلاة والسلام لم يغلبْ عليه ضعفُ البشر وتسرُّعهم، الذي جُبِلَ عليه عامّةُ البشر، وذلك عندما جعل الله تعالى بيده عليه الصلاة والسلام أمرَ هلاكهم واستئصالهم، وبشريتُه عليه الصلاة والسلام حقيقةٌ لا شكَّ فيها، وقد أُمِرَ أن يواجِه المشركين بها في آيات كثيرة، منها هذه الآيات التي نحن بصددها، ولكنه عليه الصلاة والسلام ارتفع عن مقام بشريته، واستعلى على طبيعة البشر، عندما حكَّمه الله تعالى بهم، فحَكم عليهم ورحمهم، في الوقت الذي كان يعاني من شدّة أذاهم وكيدهم.

ففي «**الصحيحين**»: عن **عائشة** رضي الله عنها أنّها قالت: يا رسولَ الله هل أتى عليكَ يومٌ كان أشدَّ مِنْ أُحُدٍ؟ فقال: «**لقد لقيتُ مْن قومِكِ، وكانَ أشدُّ ما لقيتُ منهم**

يومَ العَقَبةِ، إذْ عرضتُ نفسي على ابنِ عَبْدِ ياليل بنِ عبدِ كلال[١]، فلم يجبني إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي، فلمْ أستَفِقْ إلا بقَرْن الثعالبِ، فرفعتُ رأسِي فإذا أنا بسحابةٍ قد ظلَّلتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريلُ عليه السلام، فناداني فقال: إنَّ اللهَ قد سمعَ قولَ قومِكَ لكَ، وما ردُّوا عليكَ، وقد بعثَ إليك مَلَكَ الجبالِ لتأمرَهُ بما شئتَ فيهم، قال: فناداني مَلَكُ الجبالِ، وسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمَّدُ إنَّ اللهَ قد سمعَ قولَ قومِكَ لك، وأنا مَلَكُ الجبالِ، وقد بعثني ربُّك إليك لتأمُرَني بأمرِكَ، فما شئتَ؟ إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشبينِ[٢]»، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ مَنْ أصلابهم من يعبدُ اللهَ لا يشرِكُ به شيئاً**» [رواه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥)].

فلا معارضةَ بين الحديث الشريف وبين ما ورد في الآية الكريمة، ففي الآية إقرار بحقيقة بشريته عليه الصلاة والسلام، وأمّا فعله عليه الصلاة والسلام الذي دلَّ عليه الحديث الشريف فهو ارتفاعٌ وسموٌّ فوق مستوى بشريته عليه الصلاة والسلام، بسبب الأخلاق الكريمة الرحيمة التي أدَّبه الله تعالى بها، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقد ذهب ابن كثير في تفسيره للتوفيق بين الآية والحديث مذهباً آخر فقال: إنَّ هذه الآية دلَّت على أنه لو كان إليه وقوعُ العذابِ الذي يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم، وأمَّا الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوعَ العذاب بهم، بل عرض عليه **ملك** الجبال أنّه إن شاءَ أطبق عليهم الأخشبين، وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوباً وشمالاً، فلهذا استأنى بهم، وسأل الرفق لهم[٣].

---

(١) من رؤوس الشرك في ثقيف.

(٢) **والأخشبان**: الجبلان، وهما: جبل أبي قُبَيس، وجبل قُعَيْقعان، وهما من جبال مكة.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٥٨٣.

• **مفاتح الغيب:**

وبعد هذا شَرَعتِ الآياتُ الكريمةُ تؤكِّدُ اتصافه جلَّ وعلا بصفات الكمال والغنى، وتذكرُ بعضَ المظاهر التي تدل على كمال علمه وقدرته ﷻ:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ **ومفاتح**: جمع مِفْتَح، ويقال: مفتاح، والمفتح: عبارة عن كلّ ما يحلُّ غلقاً محسوساً، كالقفل على البيت، أو معقولاً كالنظر، وهو في الآية استعارة عن التوصل إلى الغيوب، كما يتوصل في الشاهد بالمفتاح إلى المغيَّب عن الإنسان.

فالله تعالى عنده علم الغيب، وبيده الطرق الموصلة إليه، لا يملكها إلا هو، فمن شاء إطْلاعه عليها أطلعه، ومن شاء حَجْبه عنها حجبه[1].

ويمكن أن يكون معنى ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ خزائنه، جمع مفتح وهو المخزن، ويكون المعنى: وعنده خزائن الغيب، والمراد منه: القدرة الكاملة على كلِّ الممكنات[2].

وفي الحديث الشريف: عن **عبد الله بن عمر** رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مفاتِحُ الغيبِ خمسٌ لا يعلمهنَّ إلا الله تعالى**» ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤]. [رواه البخاري (١٠٣٩)].

ولا شك أنَّ هذه الخمس هي الأصولُ الكبرى التي تتفرّع عنها أكثر المغيَّبات:

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٧/ ٢.

(٢) انظر: تفسير الخازن وتفسير البيضاوي: ٢/ ٤١٨.

١ ـ **فعلمُ الساعة** معناه: الإحاطةُ بعمر الدنيا وزمانها من بدايتها إلى نهايتها.

٢ ـ **وتنزيل الغيث** يعني: الإحاطةَ التامَّةَ بأرزاق المخلوقات ومقاديرها وكيفية توزيعها.

٣ ـ **وعلمُ ما في الأرحام** يعني: الإحاطة بكلِّ المخلوقات حالاً ومآلاً، ما هو كائن منها وما سيكون وكيف يكون، وما يتصل بكلِّ فردٍ منها من خصائص وأطوار وميِّزات، مما يجعل الفكر البشري عاجزاً عن تصوره. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد].

أضف إلى ذلك ما قررته العلومُ الحديثةُ بأنّ كلَّ مخلوق يحمل معه خصائص وموروثات كلِّ المخلوقات التي تتفرَّع عنه وتتناسل منه، فعلمُ ما في الأرحام علمٌ يمتدُّ عبر الزمان، مع تسلْسُلِ المخلوقات وتوالدها إلى نهاية عمر الدنيا، حيث يتوقف التوالد والتكاثر.

وتمكُّن الإنسان المعاصر من معرفة جنس الجنين وكونه ذكراً أو أنثى بواسطة التحاليل المخبرية وآلات التصوير، معرفة جزئية صغيرة جدّاً بالنسبة لما في الأرحام من أسرار وعلوم غيبية لا يحيطُ بها إلا خالقها وبارئها سبحانه.

٤ ـ ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ﴾ أنه سبحانه وحدَه الذي أحاط علماً بأعمال وأقوال وحركات كلِّ نفس حية على الإطلاق من بداية وجودها إلى نهايته.

٥ ـ كما أن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ يدل على إحاطة علمه تعالى بالوقت المقدَّر لموت كل نفس ومكانه.

ومع ذلك فهذه الخمسُ مفاتحُ خزائنِ الغيب المغيَّب عنَّا، والذي هو معلوم لله تعالى أزلاً وأبداً، وليستْ كُلَّ الغيبِ، فعلم الله تعالى لا يحدُّهُ حدٌّ، ولا يحصره عدٌّ، وما في الحديث الشريف يُحْمَلُ على بيانِ بعضِ المهم لا على

دعوى الحصر. قال العلّامة المفسِّر الآلوسي رحمه الله: «ولا شبهة في أنَّ ما عدا الخمس من المغيَّبات لا يعلمه أيضاً إلا الله تعالى»(١).

ويؤكد ما ذهب إليه الآلوسي قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ هكذا على الإطلاق يتَّسع علم الله تعالى ويمتدُّ لكلِّ ما في البرِّ والبحر.

ولا يقتصر علمه تعالى على ذوات المخلوقات، بل هو محيطٌ بكلِّ أحوالها وحركاتها، دلَّ على ذلك قوله:

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ فإحاطة علمه تعالى بحركة الورقة الساقطة أنموذج لأحوال سائرها؛ لأنَّ الذي لا يغفل عن الورقة الميتة الساقطةِ لا شك أنَّ علمه محيطٌ بغيرها من الأحوال والحركات.

ويمتدُّ علمه جلّ جلاله من حركة الورقةِ الميتة الساقطةِ إلى حركة البزوغ والنماء لكلِّ حبة في بطن الأرض:

﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي: إلا يعلمها سبحانه، سواءٌ أريد بالكتاب المبين علمُه سبحانه أو اللوح المحفوظ، فمعناهما واحد في المآل(٢).

إنَّ في هذه الآية الكريمة جولةً تدير الرؤوسَ، وتذهِلُ العقولَ، كما قال سيد قطب رحمه الله، جولةً في آمادٍ من الزمان، وآفاقٍ من المكان، وأغوارٍ من المنظور والمحجوب... ألا إنه الإعجاز الناطق بمصدر هذا القرآن(٣).

- **النوم والموت:**

ومن العلم الكامل وشموله، إلى القدرة الكاملة وإحاطتها بكلِّ الموجودات والمخلوقات، وخصَّت الآياتُ الإنسانَ بالذكر على سبيل التحدِّي للمعاندين

---

(١) روح المعاني: ٢/ ١٧١.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ١٧٢.

(٣) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠١٢.

والجاحدين، ولبيان شدةِ افتقار الإنسان وحاجته إلى خالقه، وهو ما لمسنا تركيز السورة عليه في كثير من آياتها، فوجود الإنسان وبقاؤه وسائر أحواله وأطواره وتقلباته كلها منوطة بمشيئته تعالى وعلمه وقدرته.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٦٠﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ أي: ينيمكم بالليل، استعير التوفي من الموت إلى النوم لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز، فإنَّ أصل التوفي قبض الشيء بتمامه(١).

وهو في النوم قبض جزئي في وقت قصير محدد، وأما في الموت فقبض كلي يمتدُّ إلى البعث من القبور يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِى لَمۡ تَمُتۡ فِى مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

فالنوم هو الوفاة الصغرى، بينما الموت الوفاة الكبرى.

فلا سلطانَ للإنسان على نفسه عند النوم، لا جَلباً ولا دَفعاً، إذ لا قدرة له على استجلابه، وكم من الناس من ينأى عنه النوم، وهو يسعى إليه ويطلبه، حتى إن بعضهم يطلبه بواسطة العقاقير والمخدِّرات، وكم فيهم من يحاول دفعه عنه فلا يستطيع رغمَ ما يتناوله من المنبِّهات والمنشِّطات، فللنوم سلطانٌ قاهر على الإنسان، لأنه ليس من تدبيره وصنعه، وتأمَّل الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ فهو وحده سبحانه الذي يدبِّر ذلك ويقدِّره.

ومع أنَّ النومَ من الظواهر التي تحدث في كيان الإنسان بشكل متجدِّد ومستمر، ويحدث فيه تغيراً كبيراً وعميقاً يمتدُّ إلى كلِّ أجزائه المادية والنفسية؛ فهو غَيْب عن الإنسان، ولا يدري كيف يحدث، يتجرَّد الإنسانُ عندما يأتيه النوم

(١) تفسير البيضاوي: ٢/ ٤٢٠.

من كلِّ حَوْل وطَوْل، حتى من الوعي والإدراك، مع استمرار أسباب الحياة وظواهرها فيه بشكلها المعتاد، تبقى أنفاسُه تتردد في صدره، وتستمرُّ ضربات قلبه، ودماؤه تجري في عروقه، وتتجدد ملايين الخلايا في جسده. . . فمن يدبر كلَّ هذا للإنسان في خلال نومه؟ وفي يقظته أيضاً، فهي عمليات تجري في داخل الإنسان في صحوه ونومه، ولا تخضع لإرادته، فما أضعف الإنسان! ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: ما عملتم وكسبتم في النهار، وأسندتِ الآيةُ العملَ والكسبَ للإنسان، لأنَّ له إرادةً وكسباً فيه، مع أنَّ الله تعالى أحاط علماً ومشيئةً وقدرةً بكلِّ ما يصدر عن الإنسان.

﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي: ثم يوقظكم في النهار، فكما أنَّ النوم بمشيئته سبحانه وقدرته، فالانتباهُ واليقظةُ كذلك بمشيئته سبحانه وقدرته، ولا كسبَ للإنسان فيه ولا قدرةَ له عليه.

وخصَّ سبحانه الليلَ بالنوم، والنهارَ بالكسب، جرياً على النواميس الكونية المعتادة التي تعلَّقت بها مشيئته وحكمته سبحانه، وليس معناه أنه سبحانه لا يعلم ما جرحنا بالليل، وأنه لا يتوفَّانا بالنهار، فتخصيص الشيء بالذكر لا ينفي ما عداه[1].

وهكذا يُنيمُنا سبحانه ويوقظنا بقدرته ومشيئته حتى تنتهي أعمارنا وتحين آجالنا التي قدَّرها لنا بسابق علمه وإرادته:

﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ﴾ في الدنيا.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا ويحاسبكم عليه.

- **الطريق المرسوم:**

فمن يستطيع الإفلات والتملُّص من هذا التقدير الإلٰهي والقهر الرباني؟!.

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٢/ ٤٢٠.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ ومع القهر الربَّاني:

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ من الملائكة، تحفظ وتكتب أعمالكم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار].

ولعلَّ الحكمةَ من توكيل الملائكة الحَفَظَةِ بالإنسان، إشعاره بوجود الرقباء عليه، وأن أعماله تكتب عليه، وستعرض يوم القيامة على رؤوس الأشهاد.

وينتهي عمل الحفظة بانتهاء حياة الإنسان:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي: باشر مَلَك الموت وأعوانُه المرسلون لهذه المهمة قبضَ روح المتوفَّى.

﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي: لا يجاوزون الموعدَ المحدَّد لموته بزيادة أو نقصان.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى حكمه وجزائه يوم القيامة.

وتحوَّلت الآية من صيغة الإفراد إلى الجمع لوقوع التوفي على الانفراد، فلكلِّ مخلوقٍ حيٍّ أجله الخاص به، بينما البعث والحشر يوم القيامة على الاجتماع.

﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ مالكهم الذي يتولَّى تدبير أمورهم.

﴿ٱلْحَقِّ ۚ﴾ الذي لا يقضي إلا بالعدل، أو الذي يتولَّى تدبير أمورهم في الحقيقة، فهو المولى الحقيقي لهم، ولا مولى لهم غيره.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ لا لغيره.

﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ لا يشغله حساب عن حساب، ولا شأن عن شأن(١).

---

(١) تفسير أبي السعود: ٢/ ١٤٥.

إنّه طريقٌ مرسومٌ لكم، ممتد من الدنيا إلى الآخرة، لا بدَّ أن تسيروا فيه وتقطعوا مراحله دون توقف ولا تردد.

• **ظلمات البر والبحر:**

وفي الطريق عقبات وشدائد، لا نجاة لكم منها إلا بالله تعالى:

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: من شدائد البر والبحر.

استعيرت الظلمة للشدة لاشتراكهما في الهَوْل وعدم الإبصار، فيقال لليوم الشديد: يوم مظلم[1].

﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: تدعونه متذلّلين، تخفون في أنفسكم مثل ما تظهرون.

فالآية تشهد لهم بالإخلاص في دعائهم، بسبب مواجهتهم للشدائد والمخاطر، كما تصوِّر الحالة النفسية المضطربة التي يمرُّ بها الإنسان عند مواجهته للشدائد والمخاطر، مما يدل على شدة ضعفهم وافتقارهم.

تقولون في دعائكم:

﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الشدَّة والظلمة.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ المعترفين بفضلك ونعمتك، فهو كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

إنَّ تذكير الإنسان بحقيقة نفسه، وتعريفَه بحقيقة ضعفه، من القضايا الهامّة

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢/ ٤٢١.

التي ذكرها الله تعالى في آيات كثيرة، فعندما يعرف الإنسان نفسه يعرف ربه، ولهذا أبرزت آيات سورة الأنعام هذا المعنى، وركَّزت عليه، وهي تجادل المعرضين وتتصدَّى للمعاندين:

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ فلا نجاةَ لكم إلا بالله تعالى، هو الذي ينجيكم من هذه الشدّة والمحنة، ومن كلِّ شدّة ومحنة.

فالآيةُ تشيرُ إلى كثرةِ الشدائدِ والعقبات التي تعترض طريق حياة الإنسان، ولا غنى له عن معونة الله تعالى للنجاة منها.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ثم أنتم بعد كلِّ هذه النعم تعودون إلى الشرك في عبادته سبحانه، ولا توفون بما صدر عنكم من عهود ومواثيق في أثناء الشدَّة والمحنة.

وأذكِّر القارئ الكريم بوحدة أسلوب التعبير في آيات السورة الذي برز في أول آياتها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وما أجمله سبحانه هنا في قوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ فصَّله في تعقيبه على نجاتهم من الريح العاصف والبحر الهائج: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٣](١).

- **التحذير من الفرقة والاختلاف:**

فما الذي جعلكم تتغيَّرون، وعن باب فضله ورحمته تبتعدون؟ إنَّ نجاتكم من هذه الشدّة والمحنة لا تعني انفلاتكم من قبضة قدرته وقهره ﷻ، فأنتم تحت قهره ومشيئته في حال الرخاء كما كنتم في حال المحنة والشدة:

---

(١) انظر: تفسير سورة يونس (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس)، في مكانه من هذا التفسير.

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ من جهة السماء.

﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كالزلازل والخسوف.

فهو كقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك].

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ أي: يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط اتفاق، فيجعلكم فرقاً مختلفين يقاتل بعضكم بعضاً، وهو معنى قوله:
﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾(١).

والآيةُ وإن كانت تخاطِبُ المعرضين المعاندين من الكفار والمشركين، إلا أنَّ فيها تحذيراً للمسلمين.

ويبدو لنا أنّ الله تعالى قدَّر أن يكون بلاء الأمة المسلمة بهذا النوع الأخير من العذاب، بلاء الاختلاف والاقتتال والانقسام إلى فرق وشيع وأحزاب.

ففي الحديث النبوي: عن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما، قال: لما نزلت: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «**أعوذُ باللهِ مِنْ ذلك**» ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «**أعوذُ باللهِ من ذلك**»، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ قال: «**هذا أيسرُ**» [رواه البخاري (٤٦٢٨)].

وما أراد ﷺ تهوين أمر الاختلاف والاقتتال في الأمة، فأمره شديدٌ وخطير وعواقبه وخيمة، إنّما أرادَ أنه أهونُ وأيسر من عذاب يستأصل الأمةَ المسلمة ويُفنيها فلا يبقى منها أحد، كما حدث للأمم الكافرة قبلها.

وقد سأل رسول الله ﷺ ربَّه أن يجنِّبَ أمتَه هذا البلاء، ويعافيها من داء الفِرقة والاختلاف، لكن قَدَر الله تعالى هو الغالب، فعن **سعد بن أبي وقاص**

---

(١) تفسير الخازن: ٢/ ٤٢٣.

ﷺ قال: أقبلنا مع رسولِ اللهِ ﷺ حتى مررنا على مسجدِ بني معاويةَ، فدخلَ فصلّى ركعتينِ فصلينا معه، فناجى ربَّه ﷻ طويلاً، ثم قال: «**سألتُ ربِّي ثلاثاً: سألته ألَّا يُهْلِكَ أمتي بالغَرَقِ فأعطانيها، وسألتُهُ ألَّا يُهْلِكَ أُمّتي بالسَّنَةِ** (القحط والجَدْب) **فأعطانِيْهَا، وسألتُه ألَّا يَجْعَلَ بأسَهُم بينَهم فمنعنيها**» [رواه مسلم (٢٨٩٠)].

فالفرقة والاختلاف والاقتتال من أنواع العذاب يبتلي الله تعالى به الأمة بسبب إعراضها عن طاعته.

وتركها لشريعته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وقال أيضاً: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: انظر نظر المتأمِّل المتفكِّر كيف نوضِّح الآيات ونفسِّرها بذكرها مرّة بعد مرّة بأساليب متنوعة.

﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي: لعلَّهم يفهمون حجَجَ الله تعالى وبصائرَه، فيتَّعظون بها وينتفعون.

ومع كلِّ هذه البصائر والحجج والتنوع في أساليب عرضها، أعرضوا وكذَّبوا وكان قوم النبي ﷺ أولَ المعرضين وأشدَّ المعاندين:

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ الذين تربطك بهم آصرة النسب.

﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّۚ﴾ مع أن القرآن هو الحق الثابت المؤيَّد بالحجج والبراهين.

وتكذيبُ قريش للنبيِّ ﷺ، وهم قومه، يبرِّئ الدعوة الإسلامية عن أي شبهة يمكن أن يتعلَّق بها أعداءُ الإسلام، فقد نزَّه الله الدعوة الإسلامية عن العصبية القومية والعِرْقيَّة، فهي دعوةٌ إنسانيةٌ شاملة في نشأتها وفي أهدافها.

وفي مقابل المعارضة الصادرة من قومه أُمر عليه الصلاة والسلام أن يعلن براءَته منهم، وأنّه ليس موكَّلاً بهدايتهم، فمهمته قاصرة على تبليغهم دعوةَ ربِّهم سبحانه:

﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي: لكلِّ خبرٍ في القرآن الكريم حقيقة يؤول إليها، ومنتهًى ينتهي إليه، إما في الدنيا، وإما في الآخرة.

﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ صحة هذا الخبر وتحققه.

- **الابتعاد عن مجالس الكفر والفجور:**

وعادت الآيات إلى توجيه المؤمنين وإرشادهم بمخاطبة النبي ﷺ لأنَّه قدوتُهم وأسوتُهم:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ بالتكذيب والاستهزاء بها بغير تأمُّل ولا بصيرة، بل طوع الهوى؛ كما يفعل خائض الماء في وضع رجله داخل الماء على غير بصيرة[1].

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فلا تجالسهم وانصرف عنهم.

وقد جاء هذا التوجيه والإرشاد على عكس ما أُمر به ﷺ في شأن المؤمنين ومجالستهم فيما مرَّ معنا من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].

---

(١) نظم الدرر: ٧/١٤٦.

ولا تدلُّ الآية الكريمة على المقاطعة الكاملة للكافرين والمشركين، فلا بدَّ من مخالطتهم، والاتصال بهم لتبليغهم دعوةَ الله تعالى، فهي مقاطعةٌ مؤقتة ما داموا يستهزئون بآيات الله سبحانه؛ ولهذا قال تعالى:

﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ أي: غير حديثهم عن القرآن الكريم، وحينئذٍ يحلُّ لك أن تجالسهم.

وفي هذا دليل على تحريم الجلوس في أماكن المنكرات والمعاصي، وتحريم تلبية دعوة وليمة تشتمل على المنكرات والآثام، إلا إذا كنت قادراً على منعها.

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بأن يشغلك بوساوسه، ويجعلك تنسى الأمر بالإعراض عنهم، وترك مجلسهم.

وهذا على سبيل الافتراض، إذ لا سبيل للشيطان إلى إشغال رسول الله ﷺ، ولذا عبَّر بـ ﴿إِن﴾ الشرطية المزيدة ﴿مَا﴾ بعدها[1]، فمراد الآية بيان الحكم في هذه الحالة بالنسبة لعامة المؤمنين.

﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: بعد التذكّر.

﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: ما على الذين يتجنبون مجالسةَ الظالمين من حسابهم من شيء، فهم غير مسؤولين عمَّا يجري في هذه المجالس معرضين عنها، والإعراضُ عنها تذكيرٌ لأهلها لعلهم يتَّعظون.

﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: لعل تلك الذكرى تمنعهم من الخوض والاستهزاء.

إنّ مشاركة الظالمين في مجالس ظلمهم وفجورهم تشجيع لهم على الظلم

(١) روح المعاني: ٧/ ١٨٢.

والفجور، ومن لا قدرةَ له على منع المنكر ودفع الظلم، فلا يحضر مجالسهم، وإلَّا كان مثلهم في الإثم والمسؤولية، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤].

● **الاستمرار في التبليغ:**

ولا ينبغي التوقف عن تبليغ الدعوة مهما كانت العقبات والمعوِّقات، كما لا ينبغي اليأسُ من هداية الكافرين، مهما اشتدُّوا في كفرهم، ولجُّوا في عنادهم. والانصرافُ عن مجالسهم أثناء استهزائهم بالله تعالى لا يعني ترك تبليغهم وإنذارهم، فهو مقاطعة مؤقتة بحالة معيَّنة:

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ أي: اترك الذين اتخذوا دين الإسلام الذي أُمروا به ودُعوا إليه لعباً ولهواً[1].

فالإسلام دينهم شاؤوا أو أبوا، آمنوا به أو كذبوا، فهو الدين الحق الذي لا دين سواه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ [آل عمران: ١٩].

وما أعرضوا عن الإسلام إلا بسبب اغترارهم بالدنيا:

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ أي: خدعتهم بزينتها وزخرفها، أو فُتنوا باستمرارها ودوامها.

﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ أي: ذكِّر بالقرآن الكريم ولا تترك وعظهم به.

---

(١) تفسير الخازن: ٢/٤٢٦.

﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ مخافة أن تُسلم إلى الهلاك، وتُرهن بسوء عملها، وأصل **الإبسال والبَسْل** في اللغة: المنع، ومنه أسدٌ باسل، لأن فريسته لا تفلت منه[1].

فكأنّ ترك تذكيرهم ووعظهم يؤدِّي إلى إسلامهم لأعمالهم السيئة التي يُحْبَسون في العذاب بسببها، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، فتبليغُ الدعوة للناس، وتذكيرهم بها إنقاذٌ لهم من شر أعمالهم، فما أعظم رحمة الله بعباده، بإرساله الرسل لينقذوا الناس من شرور أعمالهم وتبعات كفرهم وفجورهم.

وهذا يبيِّن لنا أهميةَ تبليغ الدعوة للناس وأهمية وعظهم بآيات القرآن الكريم، إنها عملية إنقاذ للنفوس البشرية من أشراكٍ نصبوها لأنفسهم بسبب سوء كسبهم واختيارهم، فلا غنى للناس عن دعوة الأنبياء ووحي الله تعالى؛ لأنهم بحاجة إلى من يحميهم من شرور أنفسهم، ومن سيئات أعمالهم، إنّهم بحاجةٍ إلى منقذٍ ينقذهم من ظلمات كفرهم وفجورهم.

وإن مسؤولية الإنقاذ واقعة على كاهل المسلمين؛ لأنّهم وحدهم الذين يملكون وسائل الإنقاذ، وعندهم وحدهم أسبابُ السلامةِ والنجاةِ للبشرية، فالقرآن الكريم لا يزالُ في أيديهم غضّاً طريّاً كما أُنزل، حفظه الله تعالى لهم لينقذوا الناس به، ليذكّروهم به، ويعظوهم به، فذكِّروا الناس بالقرآن، ولا تسلموهم إلى شرورهم ومعاصيهم، بلِّغوهم القرآن، وعظوهم به، وأنقذوهم به من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: ليس لها من يتولَّى دفع العذاب عنها يوم القيامة، أو يشفع ليخلصها من العذاب.

﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ فلا نجاةَ لها من العذابِ مهما حاولت أن تفدي نفسها بأيِّ فدية.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢/ ٤٢٦.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ﴾ أي: أولئك الذين أُسلموا إلى العذاب بسبب كفرهم وفجورهم.

﴿لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾.

وكأنَّ الآية الكريمة بذكرها لبعض أنواع العذاب في جهنم تستثير هِمَمَ المسلمين ليقوموا بتبليغِ الناس دعوةَ القرآن الكريم، لعلّ رحمةَ الله تعالى تدرك بعضَهم قبل أن يُسْلَموا إلى العذاب ويَشربوا من الحميم، ويعانوا من العذاب الأليم.

• **حَيْـرَةٌ وَقَلَق:**

وإنَّ في ابتعاد المؤمنين عن مجالس الكفر والفجور تحصيناً لهم ووقاية من أن يفتنوا عن دينهم، ويرتدُّوا عن إسلامهم، فالمعاصي والآثام سريعة الانتشار، تسري إلى النفوس بوسائل شيطانية كثيرة، وهي بريدُ الكفر، وانطلاقاً من هذه النقطة قرَّر الفقهاء القاعدة الشرعية الهامّة: **دفعُ المفسدة مقدَّم على جلب المصلحة.** ولعلّ مراد الآية الكريمة التالية توضيح هذه الحقيقة:

﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾ أي: أبَعْدَ أن اتَّضحت لنا الأدلَّة والبراهين وجاءتنا البصائر، وعرفنا أن النفعَ والضر بيد الله تعالى المتصف بكمال العلم والقدرة، أبَعْدَ كلِّ هذا نرجع إلى ظلمات الكفر والجهل؟!.

﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ الذي وفقنا إلى الإيمان، وشَرَح صدورنا بالإسلام، ونوَّر قلوبنا ببصائر الحقِّ، فنكون:

﴿كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الْأَرْضِ﴾ أي: كالذي استغوته الشياطين وزيَّنت له هواه ودعته إليه.

وقوله تعالى: ﴿فِى الْأَرْضِ﴾ تصوير لحال النزول والهبوط في الأرض، فكأنَّ الإنسان عندما يستجيب لتزيينات الشياطين ويخضع لهواه، ينزل من سماء الإيمان إلى حضيض الكفر، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

وقوله تعالى بعد ذلك:

﴿حَيْرَانَ﴾ تصوير للقلق والاضطراب النفسي الذي يصاب به المرتدُّ عن الإيمان، فقد ذاق مرارة الكفر بعد أن عرف حلاوة الإيمان.

إنه تصويرٌ لحالة الإنسان المادي المعاصر الذي غَمَسَ نفسه في شهوات الأرض المادية ولذائذها الجسدية؛ ليستعيض بها عمَّا فقده من لذَّة الإيمان وسكينته وبَرْده وطمأنينته، ولكن هيهات، فلو اجتمعت متعُ الأرض كلُّها ولذائذها في يد إنسان واحد لن تعوضه عن لحظةٍ واحدة من لحظات السكينة والطمأنينة التي يتذوقها قلب الإنسان المؤمن بالله تعالى.

إنَّ انتشارَ المخدِّرات والمُسْكِرات والمفتِّرات بين الناس في العصر الحاضر، مع شيوع اللامبالاة، والشعور بعدم الانتماء، والانسلاخ عن أيِّ قيمة خلقية وبشرية واجتماعية، كلُّ ذلك يدلُّ دلالةً واضحةً على شدّة المعاناة والحَيْرة والقلق التي يعاني منها الإنسان المعاصر، لقد أصبحَ الإنسانُ في ظلِّ هذه الحضارة المادية البعيدة عن دين الله وشرعه مخلوقاً تعيساً معرَّضاً لضغوط نفسيةٍ كبيرة، ولا سبيل له للخلاص من تعاسته وشقائه وحيرته وقلقه إلا أن يستجيبَ لدعاة الهدى والإيمان:

﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾ تعالَ إلينا، هلمَّ إلى السكينة والطمأنينة في ظلِّ الإيمان بالله تعالى.

● **العلاج:**

فلا علاج للاضطراب النفسي والحيرة والقلق إلا بالإيمان بالله تعالى، والإكثار من ذكره سبحانه، ففيه السكينة والطمأنينة للقلوب الحائرة والنفوس المضطربة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد].

هذا علاج للحيرة والقلق، ولا علاج سواه، ولقد أخطأ سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ خطأً كبيراً عندما تمنّى للحائرين أن يسلكوا طريقاً واحداً، ولو كان طريق الضلال ليتخلصوا من حيرتهم، فقال: «إنّه مشهدُ ذلك المخلوق التعيس الذي استهوته الشياطين في الأرض، ولفظ الاستهواء لفظ مصوِّر بذاته لمدلوله، ويا ليته يتبع هذا الاستهواء في اتجاهه، فيكون له اتجاه صاحب القصد الموحَّد ولو في طريق الضلال»[1].

وأقول: ليته رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: يا ليته يرجع عن طريق الضلال، فالضلال لا خير فيه، وهو سبب حيرتهم ومصدرُ اضطرابهم وقلقهم، ولا يجوز لنا أن نتمنَّاه لأحد أبداً.

وقد بيَّن لنا سبحانه بعد ذلك في الآية علاج الحيرة والقلق فقال:

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ﴾ فلا نجاة إلّا في هدى الله، في الإيمان به، والإكثار من ذكره.

﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وبالاستسلام لأمره سبحانه ومشيئته.

وخير ما نحصِّن به قلوبنا من نزغات الشياطين وأسباب الحيرة والقلق أن نقيمَ الصلاة ونلتزمَ التقوى:

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١١٣١.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ﴾ أي: اتقوا الله بطاعته واجتناب محارمه، وتذكّروا مسؤوليتكم يوم القيامة:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

ثم جاءت الآية التالية في ختام هذا الفصل تلخِّص كلَّ ما أثبتته آيات السورة الماضية لله تعالى من صفات الكمال والجلال:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ﴾ فهو ﷻ الخالق وحده للخلق بالحقِّ، فلا عبثَ ولا تعبَ في خلقه ﷻ:

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ﴾ فله ﷻ كمالُ القدرة في الدنيا ويوم القيامة، فلا يمتنع شيء على قدرته سبحانه، ولا يحتاجُ إلى شيءٍ من الأسباب والآلات، فهو قادر على كلِّ شيء من دون شيء.

﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ﴾ الثابت الذي يطابق الحقيقة ولا يخالفها أبداً.

﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ﴾ فهو سبحانه المالك يوم القيامة، ولا ملك لأحد سواه في هذا اليوم.

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ﴾ وله كمالُ العلمِ جلّ وعلا، ومع كمال العلم والقدرة:

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ إذاً فهو وحده المستحق للحمد، كما جاء في أول آيات السورة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

❁ ❁ ❁

الفصل الثالث

مناظرة وردود

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ

ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ
تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ
﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِٱلْأٓخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ
إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ
عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد
تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ
ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا
وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا
فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ
فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا
بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ
دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ
عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن
لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ
كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ
ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ
فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ
شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ

يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۢ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍۢ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍۢ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍۢ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

- **إبراهيم** عليه السلام:

ولما كان نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام عَلَماً من أكبر أعلام التوحيد ودعاته، وخير من دافع وجادل من أجل تقريره، حتى تمكَّن بفضل الله تعالى من إفحام خصومه، والفَلَجِ عليهم، ذكرت السورةُ صوراً من جداله ومناظراته مع خصومه، ليكون الأسوةَ الطيبةَ والمثالَ الرفيعَ لكلِّ المجادلين عن دين الله تعالى، والداعين إلى سبيله على بصيرة.

ومن المعلوم أنَّ خصومَ إبراهيم عليه السلام كانوا يعبدونَ الأصنام، ويعظِّمون النجوم، وكانوا على درجة عالية من التحضُّر والتمدُّن، فحضارة ما بين النهرين وبلاد الرافدين من أقدم الحضارات البشرية وأشهرها.

وبدأ إبراهيم عليه السلام بدعوة أبيه إلى عقيدة التوحيد وعبادة الله وحده:

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾؟ وهو استفهام تعجُّبٍ واستنكار، وكلمة ﴿أَتَتَّخِذُ﴾ تدلُّ على أنَّ أباه كان يصنع الأصنام بيده، وقد جاء في الأخبار أنه كان صانع أصنام.

وقد تلطَّف إبراهيم كثيراً في دعوته لأبيه، مع أنه لقيَ منه جفوةً وغِلظةً وعناداً، ظهر ذلك فيما ذكره الله عنه مفصَّلاً في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم].

ويبدو أنّ إبراهيم عليه السلام أغلظ الخطابَ لوالده بعدما رأى إصراره على الكفر وشدّة عناده فقال:

﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في حَيْرة وجهل ظاهر.

وتعكسُ لنا كلمة إبراهيم عليه السلام هذه قوةَ ثقته بنفسه، واعتزازه بعقيدته، مع أنه انفرد بهذه العقيدة دون أهله وقومه، فهو يرى أنَّ أباه وقومه في ضلال ظاهر واضح.

● ملكوت السمواتِ والأرض:

ومردُّ هذه الثقة والاعتزاز أنّ الله تعالى زوَّد إبراهيم بكثير من الأدلَّة القطعية والبراهين اليقينية، فكانت بصائرُ الحقِّ قويةً واضحةً في قلبه وعلى لسانه، دلَّ على ذلك قوله ﷻ:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: نبيِّن لإبراهيم وجه

الدلالةِ في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله ﷻ في ملكه وخلقه، وأنه لا إلٰه غيره ولا ربّ سواه[١].

والملكوتُ أبلغُ من المُلك، وزيدت الواو والتاء للمبالغة، فزيادة المبنى تدل على زيادة في المعنى، فكأنَّ الله ﷻ هَدى إبراهيم ﵇ إلى مشاهدة النواميس الدقيقة المبثوثة في الكون، التي تدلُّ على وحدة خالقها ومبدعها ﷻ، فهي رؤيةٌ بالبصر والبصيرة، يستطيعُ الإنسان أن يحقق مثلها إذا أحسنَ استعمال عقله وسمعه وبصره، ولهذا أمرنا الله تعالى بها في عدّة آيات كريمة، منها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

فرؤية الملكوت للاستدلال بما فيه من حِكَم ونواميس وبصائر على وحدانية الخالق سبحانه، ليست خاصة بإبراهيم ﵇.

وليس صحيحاً ما ذكر كثير من المفسِّرين من أنَّها رؤيةُ بصرٍ خاصة به ﵇ رآها بعينه عندما وقف على صخرة، فكشف الله له عن السماوات والأرض، ورأى ما فيهما من عجائب المخلوقات، ورأى أيضاً العرشَ والجنَّةَ والنارَ، ومكانه في الجنة، كلّ ذلك لا دليل عليه.

نعم، نستطيع أن نؤكد أنَّ رؤية إبراهيم ﵇ لملكوت السموات والأرض أكمل من رؤية غيره بسبب المواهب الفكرية العالية التي أكرمه الله تعالى بها، فالأنبياءُ ﵈ أكملُ الناس عقولاً، وأصحُّهم أجساماً، فما بالك بإبراهيم ﵇ خليل ربِّ العالمين، وإمامِ الموحِّدين، وأفضلِ المرسلين بعد نبينا صلوات الله عليهم أجمعين، وقد أخبرنا ﷻ أنه أكمل له عقله، وآتاه رشدَه منذ نعومة أظفاره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

ويؤكِّد ما ذهبنا إليه قوله تعالى في ختام الآية:

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٥٩١.

﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ أي: ليستدلَّ به وليكون من الموقنين، واليقينُ عبارةٌ عن علم يحصل بسبب التأمُّل بعد زوال الشبهة[١].

• **المناظرة:**

ثم بيَّنت الآيات كيف ناظر إبراهيم عليه السلام قومَه وجادلهم، ليبيِّن لهم بطلان ما كانوا عليه من تقديسٍ للنجوم وعبادةٍ لها؛ بسبب اعتقادهم أنها آلهة تؤثر في الحوادث الحادثة في الأرض، وعُرف عن إبراهيم عليه السلام أنّه كان في أثناء مناظرته لخصومه ومجادلته معهم يلجأ إلى الأسلوب الواقعي العملي؛ ليشدَّ أنظارهم إلى الحقيقة، ويجعلها قريبة محسوسةً منهم؛ ولهذا قام عليه السلام بتكسير الأصنام عندما أراد أن يبيِّن لقومه عجزَها وضعفَها، وعدَمَ استحقاقها للعبادة، وأنها لا تضرُّ ولا تنفع.

وقد قصَّ الله علينا ما فعله بالأصنام في قوله الكريم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء].

وهاهو عليه السلام عندما أراد أن يبيِّن لقومه عجز النجوم وضعفها، وأنها مخلوقةٌ

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢/ ٤٣٢.

كسائر المخلوقات لا تستحقُّ أن تعظَّم وتعبد، انتظر حتى أقبلَ الليلُ، وظهرت النجوم تلمع في ظلامه كما قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أي: ستره بظلامه.

﴿رَءَا كَوْكَبًاۖ﴾ نجماً.

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ أي: قال لقومه: هذا ربي، وهو قول مَنْ يُنْصِفُ خصمه مع علمه أنه مبطل، فيحكي قوله كما هو، غير متعصِّب لمذهبه؛ لأنّه أدعى إلى الحقِّ، وأنجى من الشَّغَب، ثم يكرُّ عليه بعد حكايته فيبطله بالحجّة[1].

وبذا علَّمنا عليه السلام الطريقة المُثلى التي ينبغي اتباعها في مناظرة الخصوم ومجادلتهم، ولا شك أنه بهذا استحوذ على انتباه قومه، وتمكَّن من جلب أفكارهم وأنظارهم إلى ما سيقوله بعد ذلك ويقرره.

وانتظر عليه السلام حتى غابَ النجمُ متَّبعاً الأسلوب العلمي، كما سبق بيانه:

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي: غاب واحتجب عن الأنظار المشدودةِ إليه.

فوجئ القوم بصوتِ إبراهيم عليه السلام يدوِّي في قلوبهم ويملأ أسماعهم:

﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾. ولم يشأ عليه السلام أن يصدمهم بالحقيقة دفعةً واحدة، بل تدرَّج معهم تألفاً لهم فقال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ ولم يقل لهم: لا أعبد الآفلين، فكلمة ﴿لَآ أُحِبُّ﴾ تتضمَّن معنى: لا أعبد، وتزيد عليها بالمعنى.

فعلى مَنْ يجادِلُ المخالفين له في شأن العقيدة أن يحسنَ اختيار الألفاظ ذات المعنى الدقيق المناسب، والتي يتوصَّل بها إلى إفحام خصمه وإلزامه بما يريد.

وكلمة ﴿ٱلْأَفِلِينَ﴾ لها دلالتها الكبيرة في موضوع المناظرة، فالأفولُ حركةٌ، وهي من لوازم الحدوث، والأفولُ تغيُّرٌ، والإلٰه لا يتغير، والأفول غيابٌ وضعفٌ، والإلٰه حاضر أبداً لا يغيب، قوي لا يعتريه ضعف، والأفول

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٤٣٢.

في وقت معيَّن ومكان معيَّن يدلُّ على أن النجم محكوم بنظام ثابت لا يستطيع الانفكاك منه، والمحكوم لا يكون حاكماً ولا إلـٰهاً.

وبعضهم رأى أنَّ إبراهيم عليه السلام كان في موقفه هذا في مجال النظر لنفسه، لا المناظرة، وقولهم هذا لا يتفقُ مع عصمةِ الأنبياء عليهم السلام وتنزههم عن الكفر والشرك منذ بداية حياتهم، ومع قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

وقد احتجَّ أصحابُ هذا القول فقالوا: كيف انتظرَ قومُه معه حتى غاب النجم؟.

ويسقط احتجاجهم هذا إذا علمنا أنَّ القوم كانوا يعظِّمون النجوم ويعبدونها، والمعروف أنَّ عبَّاد النجوم ينتظرون ظهورها ليقوموا بمراسم عبادتها، ويمارسوا طقوس تعظيمها، فالقومُ كانوا مستغرقين في عبادة النجم، مشدودين إليه.

ثم انتقل عليه السلام بمناظرته مع قومه إلى ما يرونه أكبر وأعظم من الكوكب، إلى القمر:

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ يشقُّ بنوره الظلمةَ في أول طلوعه.

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ كرَّرَ الأسلوبَ نفسه مع المناظرة في الكوكب.

وانتظر أيضاً حتى غاب القمر.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وبدأ عليه السلام في هذه المرَّة يصارحهم بالحقيقة، ويواجههم بها، فأظهر لهم عجزه عن إدراك الحقيقة منفرداً دون معونة من ربِّه سبحانه وتوفيقه، فالإنسانُ محتاجٌ إلى هداية ربِّه بالبيان أولاً، وهي مهمّة المرسلين عليهم السلام، وبالمعونة

والتوفيق ثانياً، وهي هدايةُ الله تعالى لمن يشاء من عباده، وتبقى الإنسانيةُ تائهةً ضالةً دون معونة رب العالمين وبيان المرسلين.

• **براءة وتفويض:**

وكرَّر إبراهيم عليه السلام الأسلوبَ نفسه للمرَّة الثالثة مع الشمس، فلمَّا أشرقت الشمس قال لقومه الذين يعبدونها عند الشروق كما قال في الكوكب والقمر:

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ أي: هذا الطالع ربي، أو هذا الجِرْم ربي، واستعمل الإشارةَ بالمذكر صيانةً للربِّ تعالى عن شبهة التأنيث، ولهذا قالوا في صفاته تعالى: علّام، ولم يقولوا: علّامة؛ تفادياً من علامة التأنيث(١).

﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ من الكوكب والقمر، كما يظهر في النظر، قال ذلك كما مرَّ معنا إنصافاً لخصومه.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾؛ واجههم بالحقيقة كاملةً:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

وقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ يؤكِّد أنه عليه السلام كان مناظراً لقومه لا ناظراً لنفسه.

ولم يكتفِ عليه السلام بإعلان براءته من كلِّ مظاهر الكفر والشرك التي كان قومه عليها، بل أخذ يعرِّفهم بالإلٰه الحق، الذي يجب أن يتوجهوا إليه وحده بالعبادة والطاعة، واستعمل عليه السلام أسلوبَ الإخبار عن نفسه، ليكونَ لهم قدوة ومثلاً، فقال بصيغة الخبر المؤكّد:

﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ﴾ أي: وجهت عبادتي وطاعتي، لأنَّ من كان مطيعاً لغيره

---

(١) انظر: تفسير النسفي: ٢/ ٤٣٥.

منقاداً إليه فإنه يتوجه بوجهه إليه، فتوجيه الوجه كناية عن الطاعة[1].

﴿لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: أبدع خلقَ السمواتِ والأرض وخلقهنَّ على غير مثالٍ سبق.

﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن كلِّ المِلَل والعقائد المخالفة للتوحيد.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في عبادته أحداً من خلقه.

وقابل قومُ إبراهيم عليه السلام موقفَه هذا بمخاصمته ومجادلته وتهديده بآلهتهم أن تصيبه بمكروه:

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾. فردَّ عليه السلام عليهم مستنكراً جدالهم:

﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ أي: أتجادلونني في وحدانية الله تعالى وهو الذي دلَّني على وحدانيته بالبصائر التي بصَّرني بها، والدلائل التي أرشدني إليها. ولعله عليه السلام أراد ما مرّ معنا من قوله جلَّ وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

ثم ردَّ على تخويفهم له من آلهتهم فقال:

﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: لا أخافُ من هذه الآلهة التي تعبدونها؛ لأنها لا تضرُّ ولا تنفعُ.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ أن يصيبني بمكروه من جهتها، فهو سبحانه قادرٌ أن يجعلَ فيما يشاء نفعاً وفيما يشاء ضرّاً، فالنفع والضر منوط بمشيئته سبحانه وحده. وهكذا فوَّض عليه السلام أمره لله تعالى بعد أن أعلن براءته من الأصنام.

---

(١) روح المعاني: ٧/ ٢١٣.

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: أحاط علمه سبحانه بكلِّ شيء، فلا يبعد أن يكون في علمه أن يحيق بي مكروه من جهتها[١].

وبهذا احتاطَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لنفسِه ولدينِه، فلن يستطيعوا أن ينسبوا إلى آلهتهم شيئاً من التأثير إذا قدَّر الله تعالى بعض المكروه، كما أظهر عبوديته واستسلامه لله تعالى، ورضاه بقضائه وقدره جَلَّ جَلَالُهُ، الذي له كمال العلم وتمام المشيئة، فلا يخرج شيء عن علمه ومشيئته أبداً.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتميِّزوا بين الإِله العالم القادر وبين هذه الأصنام الضعيفة العاجزة، فالأمرُ واضحٌ ظاهرٌ، لا يحتاج إلى عَنَاء وتفكُّر، ولا يحتاج إلا إلى شيء من التذكُّر.

- **أمْنٌ وخَوْف:**

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ من الأصنام والأوثان، وهي مأمونةُ الخوف بسبب عجزها.

﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ وهو أهل أن يُخاف ويُخشى وقد أشركتم به.

﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ يعني: ما ليس لكم فيه حجّة ولا برهان.

فكأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لهم: ما لكم تنكرون عليَّ الأمنَ في موضعِ الأمنِ، ولا تنكرونَ على أنفسِكم الأمن في موضع الخوفِ[٢].

﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ من العذاب؛ الموحِّدون أم المشركون؟.

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٢/ ٤٣٧.

(٢) تفسير النسفي: ٢/ ٤٣٧.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم فأخبروني عما سألتكم عنه، ولا يخفى ما في كلامه عليه السلام من تهكم مُرٍّ بهم.

وجاء قوله ﷻ بعد ذلك على سبيل الاستئناف يفصل بين الفريقين المتناظِرَين، فيشهَدُ بصحةِ قول إبراهيم عليه السلام ويؤيده:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَتِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢)﴾.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: لم يشوبوه، ولم يخلطوه بشيء من الشِّرك، بسبب إخلاصهم لله تعالى، فالشِّركُ أعظمُ أنواع الظلم، دلَّ عليه ما جاء في الحديث الشريف: عن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شقَّ ذلك على أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ فقالوا: يا رسولَ اللهِ أيُّنا لا يظلمُ نفسَه؟! فقال: «**إنّه ليسَ الذي تَعْنُوْنَ، أَلَمْ تسمعوا ما قالَ العبدُ الصّالِحُ**: ﴿يَبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]؟! **إنّما هو الشِّرْكُ**» [رواه البخاري (٤٦٢٩) ومسلم (١٢٤)].

﴿أُوْلَتِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ يوم القيامة، فلا يصيبهم ما يصيبُ الناسَ من الفزع الأكبر في هذا اليوم، كما قال تعالى فيهم: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّنهُمُ الْمَلَتِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: وهم في الدنيا على هدًى ورشاد.

وهكذا خصَم إبراهيمُ عليه السلام قومَه، وغلبهم بحجّته التي أيّده الله تعالى بها، وبصيرته التي شَرَح الله صدره لها، فقال سبحانه يبيِّن فضله عليه:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَهَا إِبْرَهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)﴾.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَهَا إِبْرَهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ بما نعطيهم من العلم والحكمة، فالعلمُ الذي يدلُّ على الله تعالى شرفٌ لصاحبه، وسعادةٌ في

الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في كلِّ أفعاله وأقواله.

﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال عباده.

- **شجرة النبوة:**

وتابعت الآيات بيانَ فضل الله العظيم على إبراهيم عليه السلام:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾ أي: من قبل إبراهيم عليه السلام.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ أي: ومن ذرية إبراهيم؛ لأن الآيات تتحدّث عنه، وتبيِّن فضله.

﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ فهو كقوله سبحانه: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

فكما أحسن إبراهيم عليه السلام في طاعةِ ربه، وأخلصَ في الدعوة إلى توحيده، أحسنَ اللهُ تعالى إليه برفع درجاته، وجعل النبوة والكتاب في أولاده وذريته، فهو أصلُ شجرة النبوة، ومنه تفرَّعت فروعُها وأغصانُها، فما من نبيٍّ أكرمه الله تعالى بالنبوة والرسالة بعده إلا كان من ذريته عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

أي: الكاملين في الصلاح. والجديرُ بالذكرِ أنَّ عيسى من ذرية إبراهيم من جهة أمه؛ لأنَّ الله تعالى خلقه من أم دون أب.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦)﴾.

أي: فضَّل الله هؤلاء الأنبياء على غيرهم من العالمين.

وهؤلاء المذكورون في هذه الآيات ليسوا كلَّ الأنبياء، فالأنبياء كثيرون، وقد أشار سبحانه إليهم على وَجْهِ العموم بقوله الكريم:

﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧)﴾.

﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ أي: اخترنا للنبوة من آباء الذين سَبَقَ ذكرُهم ومن أبنائهم وإخوانهم.

﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

تلك هي شجرةُ النبوةِ المباركة المتفرِّعةِ عن إبراهيمَ ﷺ، والممتدَّةِ امتدادَ الأجيالِ البشريّةِ المتعاقبةِ، تحمل إليها رسالةَ الله تعالى.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨)﴾.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ﴾ فالله سبحانه هو المتفضِّلُ بالهداية، وليس لأحدٍ سابقةُ استحقاق عليه جَلَّ جَلَالُهُ.

﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: لو أشرك هؤلاء الأنبياء لبَطَل وذهب عنهم كلُّ ما أسلفوه من الأعمال الصالحة، فليس لأحدٍ أن يغترَّ بعمله، ويُعْجَبَ بنفسه، فالفضلُ لله تعالى بدءاً وختاماً.

وإذا كان هذا حال الأنبياء ﷺ فما بالك بحال غيرهم من الناس؟! نسأل الله العليَّ القديرَ أن يُثَبِّتَنا على صراطه المستقيم.

- **التوكيل بالرسالة:**

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩)﴾.

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الذي أنزله الله تعالى كالتوراة والإنجيل والقرآن، فالمراد جنس الكتاب.

﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾ أي: وآتيناهم الحِكمةَ، وهي حُسْن فهم الكتاب والعمل به.

﴿وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾ وهي الوحي الذي أنزله الله تعالى عليهم.

﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: فإن يكفر بهذه الثلاثة: **الكتاب، والحكم، والنبوة**، هؤلاء المعارضون لدعوة الرسول ﷺ من أهل مكة.

﴿فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ وهم كلُّ من آمن برسالة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، من الصحابة والتابعين لهم إلى يوم الدين، فالأمةُ المسلمةُ هي الأمة الموكَّلةُ بحمل الرسالة وأداء الأمانة، بعد أن ختم الله النبوة والرسالة بخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ.

ومعنى توكيلهم بها أنهم وُفِّقوا للإيمان بها، والقيامِ بحقوقها، كما يُوَكَّلُ الرجل بالشيء، ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه[1].

فالأنبياء آتاهم الله الرسالةَ بما أنزل عليهم من الوحي، وكلَّفهم بتبليغها، بينما الأمة المسلمة وُكِّلت بحفظ الرسالة، والقيام عليها، ونشرها بعد أن خُتمت النبوة.

ففي الآية **بِشَارةٌ كبيرة للنبيِّ ﷺ**، وهو في مكة المكرمة، أن الله ﷻ سيظهر دينه، ويعزُّ رسالَته، ويمكِّن له في الأرض، وفيها أيضاً **تنويه بفضل الصحابة** ﷺ من المهاجرين والأنصار، الذين وكَّلهم الله تعالى على رسالته، وجعلهم الحَمَلَةَ والحَفَظَةَ لأمانته، **وتنويهٌ أيضاً بفضل الأمة الإسلامية**، وبيانِ مسؤوليتها الكبيرة في حمل رسالة الإسلام وحفظها ونشرها بين الناس.

كما تدلُّ الآية على **كمال الشريعة الإسلامية**، فكتابُها القرآن الكريم الذي تعهَّد الله تعالى بحفظه، وحُكمها سُنَّة النبي ﷺ المبيِّنة لأحكام الكتاب الكريم، ونبوَّتُها خاتمة النبوات، فَبِهِ عليه الصلاة والسلام اكتملت شجرةُ النبوةِ وخُتِمت،

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٢٤١.

كما قال الله تعالى في **سورة الأحزاب**: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

وعن **أبي هريرة** ﷺ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**مَثَلِي ومَثَلُ الأنبياءِ مِنْ قبلي كَمَثَلِ رجلٍ بَنَى بُنياناً فأحسنَه وأجمله إلَّا مَوْضِعَ لَبِنةٍ من زاويةٍ من زواياه، فجعلَ الناسُ يطوفونَ به، ويَعْجَبُوْنَ له، ويقولونَ: هلَّا وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَةُ! فأنا اللَّبِنَةُ، وأنا خَاتِمُ النبيينَ**» [رواه البخاري (٣٥٣٥) ومسلم (٢٢٨٦)].

وبهذا يظهر كذب الدجَّالين من مُدَّعي النبوة بعده عليه الصلاة والسلام الذين سيأتي ردُّ آيات السورة عليهم، والإشارة إلى بعضهم إن شاء الله تعالى.

فهو عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين وأفضلهم، جمع الله تعالى فيه كلَّ فضائلهم ومحاسنهم بقوله تعالى مخاطباً له عليه الصلاة والسلام:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ أي: أولئك الأنبياء الذين سبق ذكرهم الذين هداهم الله تعالى بالوحي الذي أنزله عليهم.

﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ أي: لا تقْتَدِ إلا بهم، ولهذا قدَّم المفعول ليفيدَ الحصرَ والتخصيصَ، وهُداهم هو إيمانهم بالله تعالى وحده، واستسلامهم لأمره ومشيئته، وما كانوا عليه من الأخلاق الفاضلة الكريمة.

ثم بعد أن بيَّنَ الله تعالى فضلَ النبيِّ ﷺ وكمال دعوته ورسالته وصلتَها برسالات الأنبياء قبله، أمره الله تعالى أن يتوجَّه إلى أهل مكة بالخطاب:

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ﴾ أي: إنَّ دعوتي منزهةٌ عن كلِّ الأغراض الدنيوية والمنافع المادية، فلا أطلبُ أي أجرٍ عليها، كما هو حال الأنبياء عليهم السلام الذين أمرت بالاقتداء بهم.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ما هذا التبليغ الذي كُلِّفت به إلا تذكيراً وموعظةً للعالمين.

وهذا **يدلُّ على عموم رسالةِ الإسلام**، فهي رسالةٌ كاملةٌ وعامة ومنزهةٌ عن كلِّ الأغراض المادية، فعلى حملة الرسالة ودعاتها أن يعرفوا طبيعة هذه الرسالة، ليرتفعوا إلى مستواها، وينزِّهوا أنفسهم ودعوتهم عن أغراض الدنيا ومتاعها الرخيص.

- **الرد على منكري النبوة:**

ثم شرعت الآيات تردُّ على المخالفين، وبدأت بالردِّ على منكري النبوة بمناسبة الحديث عن النبوة والأنبياء، قال تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ﴾ أي: ما عرفوا الله حقَّ معرفته عندما أنكروا الوحيَ والنبوةَ وبعثةَ الأنبياء والمرسلين، فإنكارهم نابعٌ من جهلهم بالله تعالى وصفاتِه الكاملة، فهو سبحانه الخالِقُ العليمُ، والحكيم الرحيم، فلا يعقل أن يخلق الخلق ويتركهم دون هداية، وهو سبحانه يعلم شدّةَ حاجتهم إليها، فإذا لم يكلِّفهم بحمل رسالة، ولم ينزِّل عليهم وحياً، ولا نبوة، فلماذا خلقهم؟! ليتظالموا ويتخاصموا ويقْتَتِلوا، ثم يموتون وينتهي الأمر؟! فما أجهلَ أولئك الذين أنكروا وحي الله ورسالاتِهِ، وجحدوا نبوة أنبيائه! ما أجهلهم بصفات الله تعالى وكمالاته!.

ويلتحق بهؤلاء أصحاب القول بالعبقريات، الذين سيطرت على عقولهم ومشاعرهم المحسوسات والماديات، حتى أنكروا ظاهرةَ الوحي والنبوة،

فوصفوا الأنبياء بصفة العبقرية والنبوغ، ورأوا أن ما أتوا به نابعٌ من نبوغهم وعبقريتهم لا منزَّلاً عليهم من الله تعالى.

لكلِّ هؤلاء أُمر رسول الله ﷺ أن يقول لهم على سبيل التحدي:

﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ فإنَّ إنزال التوراة على موسى عليه السلام من الأمور الذائعة المعروفة حتى عند العرب، ولهذا حكى الله تعالى عنهم قولهم الذي سيأتي معنا في آخر السورة: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ أي: تكتبونه في أوراق، تظهرون بعضها، وتخفون كثيراً منها. والخطابُ لليهودِ الذين بدَّلوا وغيَّروا في التوراة، وأخفوا بعض ما فيها، وهذا ما جعلَ بعضَ المفسِّرين يرى أنَّ هذه الآية مدنية.

لكن يمكن لنا أن نقول: جاء الخطابُ في الآية لليهود على سبيل الإخبار عمّا سيحدث في المستقبل، فقد أخبر القرآنُ الكريمُ عن كثير من الوقائع والحوادث قبل حدوثها، من ذلك قوله تعالى في **سورة المزمل**، وهي من أوائل ما نزل على الرسول ﷺ في مكة: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [٢٠] ولم يكن حينئذٍ في مكة قتال.

والجدير بالذكر أنّ لهذه الآية قراءة أخرى بصيغة الغيب **(يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً)**[١].

ثم عادت الآية تخاطبُ المشركين بقوله تعالى:

﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أي: ومَنْ أنزل القرآن الذي فيه علوم لا تعلمونها ولا علمها آباؤكم؟.

ولمَّا كانوا جاحدين معاندين أُمِر رسول الله ﷺ أن يتولَّى الإجابة عنهم على سبيل التقرير للحقيقة الثابتة:

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي: الله سبحانه أنزله.

---

(١) انظر: مجموعة التفاسير: ٢/ ٤٤٤ وهي قراءة المكي والبصري.

﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: ثم بعد تقرير الحقيقة لا تأبه بهم، ولا تهتم بعنادهم وإعراضهم، واتركهم في باطلهم يلعبون.

وقد تضمَّن قوله تعالى: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ ردّاً علميّاً ومنطقيّاً قاطعاً على منكري ظاهرة الوحي، ففي القرآن الكريم علوم ما كان أحدٌ من البشر يعلمها، فما كان يعلمها النبيُّ عليه الصلاة والسلام ولا أحدٌ من قومه، بل لقد كشف التقدُّم العلمي في العصر الحاضر أنه يوجد في القرآن الكريم حقائق علمية كبيرة، ما عرفها أحدٌ من البشر إلا في العصور المتأخرة، فلو أنَّ منكري النبوة والوحي الذين لم يتذوقوا بلاغة القرآن الكريم، ولم يدركوا تميُّزه على غيره من الكلام، لو أنهم تدبَّروا آياته وعرفوا بعض ما فيه من العلوم، لما وَسِعَهم إلا التسليم بأنه كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأنه تنزيل العزيز الحكيم.

- **أم القرى:**

فالقرآن الكريم بما فيه من إعجاز أكبرُ ردٍّ على منكري الوحي والنبوة؛ ولهذا التفتت الآيات الكريمة إلى الحديث عن القرآن الكريم في سياق الردِّ على منكري الوحي والنبوة، قال تعالى:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ فهو كتاب منزَّل بواسطة الوحي على النبي ﷺ، كثير الفوائد عظيم المنافع.

﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتبِ المنزلة قبلَه كالتوراة والإنجيل.

﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: وأنزل الله تعالى القرآن الكريم عليك يا محمد ـ ﷺ ـ لتنذر به أهل أم القرى ومن حولها.

وأمُّ القرى: هي مكةُ المكرمة البلد الحرام، التي حرَّمها الله تعالى يوم خلق

السموات والأرض، قال عليه الصلاة والسلام: «**إنَّ هذا البلدَ حرَّمه اللهُ يومَ خلقَ السمواتِ والأرضَ، وهو حرامٌ بحرمةِ اللهِ إلى يومِ القيامةِ، وإنَّه لم يحلَّ القتالُ فيهِ لأحدٍ قبلي، ولم يحلَّ لي إلا ساعةً مِنْ نهارٍ، فهو حرامٌ بحرمةِ اللهِ تعالى إلى يومِ القيامةِ، لا يُعْضَدُ شوكُه، ولا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، ولا يُلْتَقَطُ لقطتُه إلَّا مَنْ عرَّفها، ولا يُخْتَلَى خلاه**» [رواه البخاري (١٥٨٧) ومسلم (١٣٥٣)].

فهي أفضل البلاد وأعظمها، فيها الكعبة المشرفة بيت الله الحرام، قبلة المسلمين، التي جعلها الله تعالى مثابةً للناس وأمناً بقوله الكريم: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ الآية [المائدة: ٩٧].

وهي سُرَّة الأرض ومركزها، وقد ثبت علمياً أنّها تقع وسط الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية[١].

فقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يشير إلى هذه الحقيقة العلمية الهامّة التي اكتُشفت مؤخراً، فالأرض اليابسة كلّها تقع حولَ مكة المكرمة، وهي مركزُها، وفي هذا تأكيدٌ لعموم رسالة النبي ﷺ، وردٌّ لمزاعم القائلين بأن رسالته عليه الصلاة والسلام هي للعرب فقط؛ لأنَّ بلاد العرب هي البلاد الواقعة حول مكة المكرمة، والحمد لله الذي ردَّ مزاعمهم، وهدى الإنسانَ إلى هذه الحقيقة العلمية التي ذُكرت في القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة، فمكة المكرمة هي أم القرى حقيقةً وشرعاً.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، فالإيمان باليوم الآخر يستلزم الإيمان بالوحي والنبوة، فهما أمران متلازمان، لا يمكن الفصل بينهما، فكل من يؤمن

---

(١) انظر: مجلة البحوث الإسلامية، العدد السادس، الإسقاط المكي العام، للدكتور حسين كمال الدين أحمد، ص٢٤٢. ومما جاء فيها: وعندما تم توقيع حدود القارات الأرضية السبع على خريطة الإسقاط، وجدنا أن الحدود الخارجية لهذه القارات يجمعها محيط دائرة واحدة مركزها عند مدينة مكة المكرمة، أي: إن مكة تعتبر مركزاً وسطاً للأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية.

بيوم القيامة لابد أن يؤمن بالقرآن الكريم، ويدفعه إيمانُه بيوم القيامة والقرآن الكريم إلى تطبيق أحكامه، وأهمها إقامة الصلاة والمحافظة عليها.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، فالصلاة عَلَم الإيمانِ وعمادُ الدين، ومن حافظ عليها وأقامها على وجهها الصحيح المشروع لابد أن يحرص على غيرها من أحكام القرآن وشريعته.

● **الردُّ على مُدَّعي النبوة:**

وكما ردَّت الآيات الكريمة على منكري ظاهرة الوحي والنبوة، ردَّت أيضاً بالمقابل على الدجالين الكذَّابين أدعياء النبوة من أمثال مسيلمة الكذاب والأسود العنسي اللذين ادَّعيا النبوة في آخر حياة النبي ﷺ، وكلّ من أتى بعدهما مِن الدجالين ومن سيأتي إلى قيام الساعة.

وقد ظهر في العصور المتأخرة بعضُ الكذَّابين الدَّجالين، منهم حسين علي المازندراني[1] الذي لقَّب نفسه بالبهاء، وادَّعى النبوة ونسخ القرآن الكريم، وتوحيد الملل والنحل.

ومنهم غلام أحمد القادياني[2] الذي ادَّعى النبوة أيضاً، وزعم أن نبوته تبع لنبوة النبي ﷺ كهارون مع موسى عليه السلام. قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ كالذين أنكروا الوحي والنبوة وقالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، كما مرَّ معنا.

---

(١) ولد في مازندران في إيران، وقيل: في طهران عام (١٨١٧م)، وتوفي في عكا عام (١٨٩٠م).

(٢) ولد في قاديان من قرى البنجاب في الهند عام (١٨٣٩م)، ومات فيها عام (١٩٠٨م).

﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ أي: ادّعى النبوة كاذباً، وأنَّ الله تعالى أوحى إليه، والحقيقة أنه كذَّاب، وأن الله لم يوحِ إليه بشيءٍ.

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: ومن ادّعى أنه سيعارض وحي الله تعالى بما يفتريه من القول، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

فلا أظلم من هؤلاء المكذِّبين لوحي الله تعالى، والدّجالين المدَّعين للنبوة كذباً، والمدَّعين القدرة على معارضة وحي الله تعالى.

ولا ينفعُ مع أمثال هؤلاء دليل ولا برهان، ولا يناسبهم إلا التهديد والوعيد بأشدِّ أنواع العقاب، فانظر إليهم عند نزول الموت بهم:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: وهم في سكراته وكرباته التي تغمرهم.

﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ يضربون وجوههم وأدبارهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]، ويقولون لهم:

﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ أي: خلِّصوا أنفسكم من العذاب، أو: هاتوا أرواحكم، أخرجوها إلينا من أجسادكم، كأنهم يتقاضون منهم أرواحهم[1].

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: العذاب المشتمل على الهون والشدَّة.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: تعرضون عنها تكبُّراً بلا رَوِيَّةٍ ولا تفكير.

ويقال لهم أيضاً يوم القيامة عندما يحشرون إلى الحساب:

---

(١) تفسير النسفي وتفسير البيضاوي: ٢/ ٤٤٨.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ أي: منفردين عن الأموال والأولاد والخدم والأعوان.

﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: وأنتم في حال ضعفٍ وذِلَّة مجرَّدين عن كلِّ حولٍ وقوةٍ، كما كنتم عند خروجكم من بطون أمهاتكم، قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨].

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي: تركتم ما أعطيناكم في الدنيا من الأموال والمتاع، وفي **الحديث الصحيح**: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**يقولُ ابنُ آدمَ: مالي مالي، وهَلْ لكَ مِنْ مالِك إلا ما أكلتَ فأفنيْتَ، أو لَبِستَ فأبْلَيْتَ، أو تصدَّقْتَ فأبْقَيْتَ، وما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركُه للناسِ**» [رواه مسلم (٢٩٥٩)].

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: شركاء لله تعالى في استحقاق عبادتكم.

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: لم يبقَ اتصالٌ بينكم وبينهم.

﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ وضاعت أمانيكم الكاذبة فيهم.

- **الردُّ على الطبيعيين:**

ثم ردَّت الآيات على أصحاب القول بالطبيعة، الذين ينسبون كلَّ ظاهرة من الظواهر التي تجري في هذا الكون إلى الطبيعة، غافلين أو متغافلين عن الإحكام والإبداع والتنسيق بين كل الحوادث التي تجري حولهم، بحيث يلزمهم على وجه القطع أن يقرُّوا بوجود خالق واحد، هو وحده سبحانه الذي يخلق ويدبِّر ويقدِّر:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾ كالحنطة والشعير والذرة.

﴿وَٱلنَّوَىٰ ۖ﴾ جمع نواة، وهي ما تكون داخل الثمرة.

والفَلْق: الشَّقُّ، فهو سبحانه الذي يشقُّ كل حبةٍ ونواةٍ، فيخرج منهما النبات والشجر، يحدثُ هذا الشَّق بقدرةِ الله تعالى في باطنِ الأرض، وتحت الثَّرى، فكلُّ حبةٍ أو نواةٍ يشقُّها الله تعالى بقدرتِه من أعلاها ومن أسفلها، يخرج من الشق الأعلى أصل كلِّ نبات وشجر، يتجه بقدرة الله ومشيئته إلى الأعلى، ويخترق رغم ضعفه ولطفه طبقات التراب والحجارة، ليكون بعد ذلك الزرع والشجر، ويتجه بقدرته سبحانه أيضاً ما يخرج من الشق الثاني إلى الأسفل، فينفذ في طَيَّاتِ الأرض ليكوِّنَ الجذورَ الضاربةَ في الأعماق، فمن كلّ حبة ونواة يخرج الله تعالى أصلين متضادين، صاعداً ونازلاً، وهذا دليل باهر على كمال قدرته جلّ وعلا، وتمام مشيئته النافذة في كلِّ المخلوقات، فمن الذي يقدر أن يشق الحبةَ اليابسةَ ويخرجَ منها النبات؟! ومن الذي يستطيعُ أن يشقَّ النَّواةَ الصُّلبةَ ويُخرجَ منها النخل والشجر؟! مَنْ غيرُه ﷻ؟!.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ يخرج ما ينمو من الحيوان والنبات والشجر من النطفة والحبة والنواة.

﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ﴾ ويخرج الحبَّ والنوى والنُّطَف من الحيوان والنبات والشجر.

إنَّ إخراج الحي من الميت، وإخراجَ الميت من الحي، من الظواهر المتجددة والمبثوثة في كثيرٍ من المخلوقات، وهي تحدث أيضاً في داخل أجسامنا، ففي كلِّ لحظة تتجدَّد ملايين الخلايا، تنقسم ثم تموت، ويُحيي الله غيرها، وفي كلِّ فترة تتخلَّق ملايين الحيوانات المنوية داخلَ أجسامنا من الدم الذي تمدّه الأغذية المقطعة والمطبوخة والممضوغة والمهضومة.

ويلاحظ أن قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ عُدل به عن صيغة اسم الفاعل إلى الفعل المضارع؛ لأنَّ تصور إخراج الحي من الميت في ذهن القارئ والسامع يتأتَّى بالفعل المضارع أكثر من اسم الفاعل، ولعلّ فيه إشارة إلى أنَّ الحيَّ أفضلُ من الميت، وأنه ينبغي الاعتناء بإخراج الحي من الميت أكثر من الاعتناء بإخراج الميت من الحي(١).

فكلّ ما يحدث في هذا الكون يحدث بمشيئته تعالى وعلمه وقدرته، فما من حبة في طيَّات الأرض تنشق إلا بمشيئته تعالى وعلمه وقدرته، فبقدرته تعالى انشقت لا بقوةٍ مودَعةٍ فيها، فهذه الظواهرُ لا تحدثُ من تلقاءِ نفسها، بل لابدّ لها من خالق عليم حكيم.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ الخالقُ الحكيمُ العليمُ، فله صفات الكمال وحده.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تُصْرَفون عن عبادته وطاعته، وتنسبونَ الحوادثَ إلى غيره جلّ جلاله؟!. وهو سبحانه:

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾، ففالق الحبِّ والنوى هو أيضاً فالقُ الإصباح، الذي يشقُّ عمودَ الصبح ونورَه عن ظلمة الليل وسوادِه.

﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ ليسكن فيه الخلق للراحة.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أي: جعل لهما نظاماً معيَّناً ثابتاً يدلُّ على قدرته وحكمته، تحسب فيه الأيام والشهور والسنون.

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ وكلّ هذه الظواهر تقديرُ الإلـٰه الغالب الذي أحاط علماً بكلِّ شيء.

---

(١) انظر: روح المعاني: ٧/ ٢٢٧.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ﴾ أي: لتسترشدوا بها إلى الطرق والمسالك في البر والبحر، فهي مخلوقاتٌ مقهورةٌ لا تأثير لها في الحوادث الأرضية، فلا تجلِبُ لأحدٍ نفعاً، ولا تدفع عنه ضرراً، ولا تستحق أن تعبد وتعظَّم.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: قد بيَّنا بصائر الحق التي تدلُّ على توحيدِ الخالق وكمال علمه وقدرته.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يعلمون هذه الحقائق وينتفعون بها، ويعلمون أنها لا تتحرك إلا بمشيئة الله تعالى وقدرته.

- **المستَقَرُّ والمسْتَودَع:**

ثم بيَّن الله تعالى كمالَ قدرته وعلمه في خلق البشر من نفس واحدة فقال:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ فكل الناس متفرِّعون من نفسٍ واحدة على رغم ما بينهم من تفاوتٍ في الصفات والخصائص والملكات والمواهب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّساء: ١].

وظلَّت موروثات الناس تنتقل بقدرةِ الله تعالى من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات حتى الوقت المحدّد لبروزهم وظهورهم على الحياة:

﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ﴾ فالإنسانُ قبل أن يكونَ مجسَّماً بأعضائه وصفاته كان صيغة كروموزوميّة وموروثية معيَّنة، فهو ست وأربعون كروموزوماً تحتوي على عدد كبير من الموروثات ـ الجينات ـ تتوزَّع عليها بصيغة تختلف من إنسان إلى

إنسان آخر، وهذه الكروموزومات والموروثات وُجِدَت كلها في آدم عليه السلام، ثم أخذت تتوزع في ذريته.

وتصوُّر المسألة بسيط، إن قرص الهاتف يحتوي على عشرة أرقام فقط نستطيع بإدارتها بترتيب مختلف أن نكلِّمَ من نشاء في أرجاء المعمورة، فأرقام هواتف العالم كلّها موجودة في هذا القرص(١).

فكل إنسان يحمل في خلاياه الجنسية موروثاتِ كلٍّ من يتفرَّع عنه من ذريته، والله سبحانه بكامل علمه ومشيئته وقدرته أحاط بها، وهي تنتقل من مستقرها في الأصلاب إلى مستودعها في الأرحام.

ومن المقرَّر الآن في علوم تكوين الجنين أن الخلايا الجنسية الابتدائية تُشتقُّ من جدار الحويصل المُحِّي، ثم تهاجر وتنتقل إلى الغدد الجنسية الآخذة بالتكون في ظهر المخلوق الجديد ثم تتكاثر فيها(٢).

فكلُّ إنسان تنقَّلَ من أصلاب آبائه إلى أرحام أمهاته من لدن آدم عليه السلام حتى الوقت المحدد لبروزه إلى الحياة، إنَّها رحلة طويلة وطويلة جدّاً، ولكنها مقدَّرة ومعلومة في كلِّ مراحلها وأطوارها وحركاتها؛ إنّها رحلةٌ مبرمجةٌ بدقّة من قِبَل الله العليم الحكيم، فماذا يقول الطبيعيون وهم يواجهون هذه الحقائق العلمية الملزمة لكلِّ إنسان عاقل بأن يؤمن بوجود خالق واحد عليم حكيم؟.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ﴾ المبيِّنة لمراحل خلق البشر بدقةٍ علمية، وقد برزت في العصر الحاضر على الخصوص بسبب التقدُّم العلمي الكبير الذي حققه الإنسان في هذا المجال، وكشفت عن المدى الواسع الكبير للإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ أي: يفهمون معاني هذه الآيات.

والفقه: الفهم واستعمال الفطنة وتدقيق النظر.

---

(١) القرار المكين، ص٢٥٨.

(٢) المصدر السابق، ص١٥٥.

• **الحَبُّ المتراكب:**

وتنقُلنا الآياتُ من تكوين الإنسان ورحلته الطويلة في الأصلاب والأرحام، إلى تكوين النبات بقدرة الله تبارك وتعالى العليم الحكيم:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ فهو سبحانه وحده الذي أنزل ماءَ المطرِ من السحاب الذي في جهة السماء.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: أخرج الله تعالى بماء المطر كلَّ ما ينبت من الأرض، وهي ظاهرةٌ تدلُّ على عظمة الله تعالى، ولهذا جاء التعبير عنها بنون العظمة، فالمُخرج الحقيقيُّ للنبات هو الله تعالى، والماء سبب، وكثيراً ما ينزل الماء ولا يخرج النبات؛ لأنَّ مشيئته تعالى لم تتعلق بخروج النبات.

ثم فصَّلت الآيةُ الكريمةُ بعضَ أطوارِ خروج بعضِ النبات:

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ أي: فأخرجنا من أصله الذي شقَّه الله تعالى في الأرض خضراً، أو نخرج من الماء الذي لا لون له خضراً، والخَضِر بمعنى الأخضر، وأكثر ما يُستعمل فيما تكون خضرته خلقية[1].

ومن المعلوم المشاهد أنَّ كلَّ نبات يكون لونه أخضر عند خروجه من سطح الأرض، سواء كان زرعاً أو شجراً أو كلأً، وهو سبب اخضرار الأرض بعد نزول المطر بتقدير الله تعالى، ولهذا قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣]. ثم:

---

(١) روح المعاني: ٧/ ٢٣٨.

﴿نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا﴾ أي: ثم نخرج من هذا النبات اللطيف الأخضر الزرع الذي نخرج منه حبّاً متراكباً بعضه فوق بعض.

وكلمة ﴿مُّتَرَاكِبٗا﴾ لم تأت هكذا اتفاقاً، وإنما تشير إلى مظهر من مظاهر قدرته تعالى وإبداعه في تركيب الحب داخل السنبلة تركيباً معجزاً، فلو أخرجنا حبات القمح من داخل سنبلتها، فلا يستطيعُ أحدٌ أن يعيدَ تركيبها كما كانت، وإذا كان تركيبها معجِزاً؛ فما بالك بأطوار خلقها منذ أن كانت حبة واحدة في ظلمات الأرض، فاعرف أيها الإنسانُ قدرةَ الله تعالى وعظمته وعلمه، واعرف فضله عليك وإحسانه إليك، واعرف أيضاً عجزك وافتقارك إليه سبحانه.

ثم تنقُلنا الآيةُ من الحبِّ المتراكِبِ في الزرع إلى ثمر الشجر:

﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ أي: ويخرجُ من طلع النخل الذي أخرجناه من الخضر قنوَان دانية.

والطلع: أكمامُ النخلِ التي يطلعُ منها الثمر، يطلع من النخلِ كأنه نعلان مطبقان والحمل بينهما منضود[1].

وقنوان: جمع قنو بمعنى العِذْق، وهو للتمر بمنزلة العنقود للعنب[2].

وقوله: ﴿قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ أي: تميل بسبب ثقلها وكثرة ثمرها إلى الأرض فيسهل تناولها.

﴿وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ﴾ أي: ونخرج من الخَضِر جنَّاتٍ من أعناب، والعنب والتمر من أشرف الثمار وأنفعها للإنسان، فهما قوت وفاكهة.

﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾ ونخرِجُ أيضاً الزيتون والرمان؛ فبعضه مشتبه، وبعضه غير متشابه في الهيئة والمقدار واللون والطعم وغير ذلك من الأوصاف الدالَّة على حكمة مبدعها وقدرة صانعها، كما قال الله تعالى: ﴿وَفِي

---

(١) تفسير أبي السعود: ٢/ ١٦٦.

(٢) روح المعاني: ٧/ ٢٣٨.

ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

فلو لم يكن لها فاعلٌ مختار، وكان وجودُها بسبب طبيعتها، لكانت على نسق واحد وشكل واحد، وحتى تعرفوا عظمة خالقها ومبدعها:

﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ أي: انظروا إليه عند أول ظهور ثمره كيف يكونُ صغيراً ضئيلاً، ثم انظروا إليه مرّةً ثانية عند نضجه وقطافه كيف يصبحُ كبيراً ذا نفع عظيم ولذّة كاملة، فما الذي طوّره وغيّره؟! والحادثات لابدَّ لها من محدِث، والمتغيِّرات لابدَّ لها من مغيِّر.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنّكم تجدون في نظركم إلى النبات؛ وتأمّلكم في مراحل تكوينه وأطواره؛ دلائلَ كثيرة وعظيمة، تجعلكم تؤمنونَ بوجود الخالق العظيم سبحانه، وهذا يدلُّ على أن من ينسب هذه الظواهر إلى الطبيعة لا يكون من المؤمنين.

- **الرد على القائلين بصفة الولادة والولد لله تعالى:**

وهي من أقبح الأكاذيب والافتراءات على الله تعالى الواحد الأحد المنزَّه عن الشريك والصاحبة والولد:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ أي: وجعلوا الجنَّ شركاء لله فعبدوهم، وقالوا: إنهم بنات الله، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ والحال أنه تعالى خلق الجن، فكيف يجعلون المخلوق شريكاً للخالق؟!.

﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: اختلقوا لله سبحانه بنين وبناتٍ جهلاً منهم بالله تعالى ووحدانيته وكماله وعظمته، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ

وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم][1].

ففي القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ ردَّ سبحانه بها على من قال من مشركي العرب: الملائكةُ بناتُ الله، وردَّ أيضاً على النصارى الذين يقولون: المسيحُ ابن الله، وعلى اليهود الذين قالوا: عزيرٌ ابن الله:

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تقدّس وتنزَّه وتعاظَمَ عَمَّا يصفُه هؤلاء الجهلةُ الضالُّون[2].

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مُبْدِعُ السماواتِ والأرض ومحدِثُهما على غير مثال سبق.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ كيف يكون له ولد وهو خالق كلِّ شيء، ومالك كلِّ شيء، والمحيط علماً بكلِّ شيء؟! تقدَّست ذاته، وتسامَت صفاته ﷻ.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ المتّصفُ بكلِّ صفات الكمال، والمنزَّه عن كلِّ صفات الحدوث والنقصان، ومنها الولادة والولد.

---

(١) انظر: تفسير سورة مريم (التوحيد والتنزيه في سورة مريم)، وهو جزء من تفسيرنا هذا.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٦٠٤.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحقّ إلا هو؛ لأنه وحده:

﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ وحده.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ وَكِيلٌ﴾ حفيظ ورقيب.

- **الإدراك والرؤية:**

وكيف يكون له ﷻ صاحبةٌ وولد وشريك وهو:

﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أي: لا تحيطُ به الأبصار.

فالإدراك: الإحاطة بكُنْه الشيء وحقيقته.

والأبصار: جمع بصر، حاسة البصر، وهي مخلوقة محدودة.

ولا يحيط المخلوق الضعيف المحدود بالخالق جلَّ وعلا.

وقد استدلَّت بعض الفرق الضالة كالمعتزلة بهذه الآية على أنه تعالى لا يُرى يوم القيامة، وليس في الآية نفيٌ لرؤيته سبحانه، فرؤيتُه تعالى ثابتةٌ للمؤمنين يوم القيامة بصريح قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة].

وبالأحاديث النبوية الصحيحة الكثيرة، منها:

ما رواه **أبو هريرة** ﷺ: أنّ ناساً قالوا: يا رسولَ اللهِ هل نرى ربَّنا يومَ القيامةِ؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**هل تَضارُّونَ في رؤيةِ القَمَرِ ليلةَ البدرِ؟**» قالوا: لا يا رسولَ اللهِ، قال: «**هل تُضارّون في الشَّمْسِ ليس دونها سحابٌ؟**» قالوا: لا، قال: «**فإنَّكُم ترونَه كذا**» [رواه البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢)].

ومعنى قوله: «**هل تضارون؟**» أي: هل يحصل ضرر أو مانع؟.

وعن **صُهيب** ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنةَ يقولُ اللهُ ﷻ: تريدونَ شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: أَلَمْ تبيِّضْ وجوهنَا، أَلَمْ تُدْخلنا الجنَّةَ وتنجِّنا من النار؟ قال: فيُكشَفُ الحجابُ، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من**

النظرِ إلى ربِّهم» ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. [رواه مسلم (١٨١)].

ومعنى قوله: «**فيُكشف الحجاب**» إزالةُ الموانع القائمة فينا وهي التي تمنعنا من رؤيته سبحانه في الدنيا، فالحجاب هو النقص البشري الدنيوي، يزيله الله سبحانه عن أهل الجنة تكميلاً لهم وتشريفاً، ليتمكَّنوا من رؤيته سبحانه رؤيةً تليق بذاته المقدَّسة، ويبقى الكافرون محرومين من رؤيته سبحانه، محجوبين عنه ﷻ، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

فالأبصار ترى الله سبحانه يوم القيامة رؤيةً تليق بذاته بلا تكييف، ولكنَّها لا تحيطُ به كما أنَّ القلوب تعرفه ولا تحيط به، قال سعيد بن المسيب رحمه الله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لا تحيطُ به الأبصار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كلَّت أبصارُ المخلوقين عن الإحاطة به[1].

فلا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية، كما لا يلزم من عدم الإحاطة بالعلم عدم العلم، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، ومرَّ معنا في أول السورة الحديث الذي في [صحيح مسلم (٤٨٦)]: «**لا نحصي ثناءً عليك أنتَ كما أثنيتَ على نفسِكَ**» فلا يلزم منه عدم الثناء[2].

﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي: يحيطُ بها ويعلمها ويراها، فهو خالقها سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

والمراد من **الأبصار** هنا: النورُ الذي تُدرك به المُبْصَرات، ولعلّ هذا هو السرُّ في الإظهار في مقام الإضمار[3]؛ إذ الأصل أن يقول: (لا تدركه الأبصار وهو يدركها) فدلَّ إظهارها مرّة ثانية على أنَّ بينهما تغايراً، فالأولى: حواسُّ البصر، والثانية: النور الذي تدرك به المبصرات.

---

(١) تفسير الخازن: ٢/ ٤٥٨.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٦٠٥.

(٣) روح المعاني: ٧/ ٢٤٨.

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ الذي لا تحيطُ به الأبصار.

﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ الذي يحيط بالأبصار وبأصحابها[١].

- **جاءت البصائر:**

ولمّا وصلت الآيات الكريمة في سورة الأنعام إلى هذا الحدِّ في الإثبات والردِّ: إثبات صفات الكمال والجلال لله تعالى، والردِّ على أصحاب النِّحَلِ والملل الفاسدة الضالَّة بالحجج البالغة، والبراهين القاطعة، عقَّبت على ذلك بقوله ﷻ على وجه التقرير والتحقيق:

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ﴾ والبصائر للقلب كالإبصار للعين؛ لأنّها تجعلُ القلبَ يبصر الحقيقة، فهي تجلو الحقائق وتظهرها كما يجلو النورُ المحسوسات ويظهرها؛ ولهذا قال سبحانه بعد ذلك:

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ﴾ أي: فمن أبصرَ الحقَّ وآمنَ به فلنفسه أبصر؛ لأنَّ نفعَه لها، والله سبحانه غنيٌّ عن إيمانه.

﴿وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَاۚ﴾ أي: ومن أعرضَ عن الحقِّ وضلَّ عنه فإنَّ وبال إعراضه وضلاله على نفسه، فهو كقوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أحفظُ أعمالَكم لأجازيكم عليها، إنما أنا منذر لكم والله سبحانه هو الحفيظ عليكم.

وهكذا بيَّن الله تعالى أدلَّةَ الإيمان وبصائر الحق بياناً شافياً كافياً، وردَّ شبهَ المعارضين ونقضها، وكشف العلل وفضحها، فقال سبحانه:

---

(١) انظر: نظم الدرر: ٧/ ٢٢٠.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: وكذلك نصرِّف الآيات مثل ما تلونا عليك. وأصل **التصريف**: نقل الشيء من حالٍ إلى حالٍ، والمعنى: أنَّا نجعل الآياتِ تنتقلُ من معنى إلى معنى، حتى تأتيَ على جميع ما يُحتاج إليه من المعاني والحجج والبراهين.

ولكنَّ المعاندين المعارضين من المشركين ظلُّوا على عنادهم وإعراضهم، واتَّهموا النبيَّ ﷺ بتعلّم ما أتى به من أهل الكتاب:

﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ أي: وليقولَ المشركون المعاندون: دارست يا محمد مَنْ قبلك من أهل الكتاب، وتعلَّمْتَ منهم.

وهي شبهة باطلة تمسّكوا بها، وحكاها سبحانه عنهم في عدَّة آياتٍ؛ منها: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، مع أنهم يعلمون أنه عليه الصلاة والسلام كان أميّاً لا يعرف القراءةَ والكتابةَ، فأميَّتُه عليه الصلاة والسلام من أدلَّةِ صدقه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

والعجيبُ أنه لا يزال حتى الآن كثيرٌ من أعداء الإسلام كبعض المستشرقين يردِّدون أمثال هذه الشبهة الباطلة التي كان يردِّدها من قبل المشركون المعاندون، وقد ردَّها سبحانه، وبيَّن بطلانها وزيفها في عدّة آيات كريمة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

فلقد أعجز القرآن الكريم فصحاء العرب، فكيف يأتي به النبي ﷺ من أهل الكتاب ذوي اللسان الأعجمي؟! ولو تأمَّل المستشرقون معاني القرآن الكريم على وجه الإنصاف لما قالوا مثل هذه المقولة الكاذبة، فقد صحَّحَ القرآنُ الكريم ما كان عليه أهل الكتاب من انحرافات في عقائدهم وعباداتهم، كما كشف كثيراً من الحقائق التي أخفوها في كتبهم، فلا يُعْقَل أن يكون القرآن منقولاً عنهم.

﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: وَلِنُبَيِّنَهُ للفريق الآخر الذي أبصر الحقَّ وآمن به، حتى يكون إيمانُه مبنيّاً على بصيرة وبرهان.

إن أمثال هذه الشبهات الواهية الضعيفة لا تؤثِّر على الحقِّ في مسيرته ولا تعوقه؛ ولهذا أمرت الآياتُ الكريمةُ النبيَّ ﷺ أن يتمسَّك بوحي الله تعالى، ويعرضَ عن أصحاب هذه الشبهات الواهية:

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

فلا تبالِ بهم، فالله سبحانه قادرٌ على هدايتهم:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ﴾ تحفظ أعمالهم لتجازيهم عليها.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

- **من أدب المناظرة:**

والْتَفَتَتِ الآياتُ بعد ذلك إلى المؤمنين لتبيِّنَ لهم أدباً من أهم آداب المناظرة والمجادلة مع المخالفين لهم:

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: نزِّهوا أنفسكم عن سبِّ المشركين وشتمِهم وسبِّ آلهتهم، عليكم فقط أن تبيِّنوا لهم الأدلَّةَ والبراهينَ بأسلوب لطيف وموضوعي بعيدٍ عن السباب والشتائم، فأنتم على حق، ومعكم بصائره الواضحة، وحججه البالغة، ولا حاجةَ بكم أن تلجؤوا إلى السبِّ والشتم، فإنَّه يؤدِّي إلى تنفيرهم وإعراضهم، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ

بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

ويؤدِّي السبُّ والشتمُ أيضاً إلى مفسدةٍ كبيرة بيَّنها سبحانه بقوله:

﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا﴾ عُدواناً وتجاوزاً من الحق إلى الباطل.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ أي: وهم على جهالةٍ بالله تعالى، وما يجب له ﷻ من التعظيم.

وهذا يؤكد القاعدة الشرعية التي مرَّت معنا وهي: «**دفع المفسدةِ مقدَّمٌ على جلب المصلحة**»، إنْ كان يوجدُ مصلحةٌ في سبِّهم وشتمهم.

ومن هذا القبيل قوله ﷺ: «**إنَّ من أكبرِ الكبائرِ أن يلعنَ الرجلُ والديه**» قيل: وكيف يلعنُ الرجلُ والديه؟! قال: «**يسبُّ أبا الرجلِ فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمَّه فيسبُّ أمه**» [رواه البخاري (٥٩٧٣) ومسلم (٩٠)].

﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي: كما زيَّنا لهؤلاء حبَّ أصنامهم، والمحاماة عنها، والانتصار لها، زيَّنا للأمم السابقة عَمَلَهم الذي كانوا عليه بسبب سوءِ كسبهم واختيارهم.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ليحاسبهم عليه ويجازيهم.

ثم حذَّرت الآياتُ المؤمنين من الانخداع ببعض الأساليب الملتوية التي يلجأ إليها الكفار في أثناء مناظرة المؤمنين لهم ليستروا فشلهم وعنادهم:

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ﴾ إنهم يكثرون الحَلْف بالله تعالى، ويبذلون جهدهم في تأكيدها، فلا تغتروا بها فهي أَيْمَانٌ كاذبة.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ فالمعجزاتُ بيد الله تعالى وحده.

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فهو سبحانه يعلمُ حقيقةَ حالهم، فلا

تغتروا بِأَيْمانهم الكاذبة، فقلوبهم وأبصارهم تحت قهره ومشيئته سبحانه، وبقبضة قدرته، يقلبها كيف يشاء:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما جحد المشركون ما أنزل الله تعالى لم تثبت قلوبُهم على شيءٍ وردّت عن كلِّ أمر[1].

فمجيء الآياتِ المقترحةِ لن يغيِّر مواقفَهم؛ لأنَّ قلوبهم وأبصارَهم في قبضة قدرته سبحانه قبل مجيء الآيات وبعدها.

﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: نتركهم في كفرهم وضلالهم يتحيَّرون ويتردَّدون.

فإيمانهم منوط بمشيئته سبحانه لا بمجيء الآيات والمعجزات:

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ معاينة ومقابلة.

﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فهو كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس].

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أنَّ مشيئته سبحانه هي الغالبة النافذة.

- **الإعلام المزخرف:**

وقد عوَّدنا الله تعالى في التنزيل الحكيم أنّه كلَّما بيَّن شدَّةَ عنادِ المشركين

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٦٠٨.

وإعراضهم، أنزل آياتٍ تواسي النبيَّ ﷺ وتسلِّيه عمّا يلقى من عنادهم وإعراضهم؛ ولهذا قال تعالى في سياق ما تقدم:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ أي: كما ابتليناكَ بهؤلاءِ المعاندين جعلنا لكلِّ نبيٍّ أعداءً، فلست بِدْعاً بين الأنبياء.

﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ أي: شياطين من الإنس وشياطين من الجن ـ **والشيطانُ**: كُلُّ عاتٍ متمرِّدٍ من الجنِّ والإنسِ[1] ـ يتعاونون فيما بينهم على معارضة الأنبياء عليهم السلام.

﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: يوسوسُ شياطينُ الجنِّ إلى شياطين الإنس، أو بعضُ الجن إلى بعض، وبعض الإنس إلى بعض.

﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ﴾ الأقوال المزخرفة الخادعة.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ﴾ لكنَّه سبحانه قدَّر أن تكونَ الحياة الدنيا دار اختبار وابتلاء.

﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي: اتركهم ولا تبالِ بخداعهم وأكاذيبهم، فإنَّ الله تعالى ناصرُك عليهم.

ولا يميل إلى هذا القول المزَخْرف ولا يتأثَّر به إلا من كان مثلهم في الكفر والفجور:

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: لتميل إليه قلوب الذين

---

(١) تفسير الخازن: ٢/ ٤٦٩.

لا يؤمنون بيوم القيامة؛ لأنَّ حبَّ الدنيا أعمى قلوبَهم عن بصائر الحق، فمالت إلى هذه الأقوال المزخرفة الباطلة.

وبعد أن تميلَ إلى القول المزَخْرَفِ الكاذِبِ، ترضى به وتطمئنُّ إليه:

﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾، ثمَّ بعد ذلك يقترفون ما فيه من إثم وفجور:

﴿وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾، فكأنَّ كلّ مرحلة تؤدِّي إلى ما بعدها.

ولا يخفى ما في الآية من تحذير للمؤمنين من الوقوع في شِراكِ الضالِّين المضلِّين، فعليهم أن يتجنبوا استماع كلامهم المزوَّق المزخرَف الذي يخفون في طيَّاته السُّمَّ النَّاقع، فما أكثر ما يخلطون السمَّ بالدسم، فالاستماع إلى أقوالهم قد يؤدّي إلى الرضَا بها، ثم الاستجابة الفعلية لما فيها من إثم وفجور.

وكأنِّي بالآية الكريمة قد نَزَلت لهذا العصر الذي أصبح فيه لوسائل الإعلام سلطانٌ كبير، وتأثيرٌ شديدٌ على الناس، لقد وجَّه شياطينُ الإنس من أعداءِ الإنسانِ بوحيٍ من شياطين الجنِّ كثيراً من وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة إلى الشعوب الإسلامية، ليفتنوا المسلمين عن دينهم وأخلاقهم، وقد ملؤوها بالبرامج المزخرفة المموّهة، التي تستهدف في حقيقتها تشكيك المسلمين بدينهم، وإشاعة الفواحش والفجور في مجتمعاتهم.

- **تحكيم القرآن الكريم:**

فواجبُ المسلمين لحمايةِ أنفسِهم وأبنائِهم من تأثير وسائل الإعلام الموجَّهة إليهم، أن يحكِّموا فيها كتاب الله تعالى، الذي فصَّل الله فيه كلَّ ما يحتاج إليه الإنسان ليميِّز بين الحق والباطل والحلال والحرام، فما وافقه قَبِلوه، وما عارضه ردُّوه، وليحذروا من تحكيم غير ما أنزل الله تعالى عليهم استجابةً لمقترحات يقترحها الكفّار عليهم، كما فعل مشركو قريش عندما قالوا للنبيِّ ﷺ: اجعل بيننا وبينك حكَماً من أحبارِ اليهود أو من أساقفةِ النصارى ليخبرنا عنك[١].

---

(١) انظر: روح المعاني: ٨/٨.

فالاحتكامُ في أمر الدين إلى غير القرآن الكريم إعراضٌ عن كتاب الله تعالى، ويعد شكّاً فيه، قال ﷺ يحذِّر من الوقوع في مثل هذا الأمر:

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ﴾ أي: كيف أطلبُ حَكَماً غير الله تعالى الذي أنزل القرآن الكريم، مبيِّناً فيه الحق والباطل والحلال والحرام وغير ذلك من الأحكام، بحيث لم يبقَ في أمر الدين شيء من التخليط والإبهام؟!.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ﴾ أي: واليهود والنصارى الذين طلب المشركون تحكيمَ بعضهم يعلمون أن القرآن منزلٌ من الله تعالى بالحق.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي: المتردِّدين في أنهم يعلمون ذلك.

فالحُكْمُ في دين الله للقرآن الكريم لا لغيره؛ لأنَّ تمام الدين وكماله في القرآن الكريم وصدقه وعدله:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ﴾ فكل ما أخبر به حقٌّ لا مِرْيةَ فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عَدْل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة[١].

والقرآن الكريم أيضاً ثابت لا يستطيع أحدٌ أن يغيِّره أو يبدله:

﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾ لأنها مصونةٌ عن التغيير والتبديلِ، محفوظةٌ بحفظِ الله تعالى.

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٦١١.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقول العباد.

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم.

ويؤدِّي التأثُّر بأقوال الناس والاستجابة لمقترحاتهم إلى الضلال والبعد عن دين الله تعالى، ولهذا قال تعالى محذِّراً ومؤدِّباً:

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: إن تطع أكثر الناس يبعدوك عن دين الله تعالى، أو يبعدوك عن الطريق الذي يوصل إلى رضوانه سبحانه. ثم بيَّن تعالى سببَ ذلك فقال:

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: ما يتبعون في عقائدهم إلا الظن؛ لأنهم قلَّدوا فيها آباءهم دون نظر وتدبُّر.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يكذِّبون.

وتدلُّ الآية على محدوديةِ الإنسان وقصوره عن معرفة الحقيقة الكاملة؛ بسبب ضعفه ومحدوديته وغلبة أهوائه عليه، وكلُّ ذلك يؤكِّد حاجته إلى وحي الله تعالى، الذي أحاط علماً بكلِّ شيء:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁



الفصل الرابع

سفه وضلال

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن

رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ
عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ
بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ
أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ
لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ
نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ
إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾
وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ
وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ
أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا
يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى
بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ
شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾
۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ
وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ
حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟
مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ
ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ
ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ
ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ
وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ

مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ
بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ
ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ
بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ
وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ
ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ
عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ
ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن
شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ
وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ
وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟
ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ
وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟
ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ
وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا
فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾
ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ
رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ
أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ
عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن
كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟
يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى
بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا

مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

- **تمهيد:**

انتقلت الآيات الكريمة في هذا الفصل من المناقشة والمجادلة حول موضوعات الإيمان الكلية الكبرى إلى بعض الموضوعات الجزئية التي كانت سائدة بين العرب في الجاهلية، لتبيِّن بعض ما كانوا عليه من سَفَهٍ وضلال، ولتربط أيضاً بين هذه القضايا والموضوعات الجزئية وبين موضوعات الإيمان الكبرى، ولتؤكِّد أيضاً على حاجة الإنسان إلى شريعة الله تعالى، وإنزال الوحي، وبعثة الأنبياء عليهم السلام.

واستمرت الآيات الكريمة في هذا الفصل متمسكة بأسلوبها السابق الذي غلب على أكثر آيات سورة الأنعام، أسلوب المجادلة والمناظرة، ودفع الشبهات وردِّها، والكشف عن أساسها ومصدرها، وبيان بطلانها وفسادها.

- **التحليل والتحريم لله تعالى:**

وجّهت الآيات الخطابَ للمؤمنين تأمرهم فيه على وجه الإباحة بالأكل من لحوم الذبائح التي تذبح على اسم الله تعالى:

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

فإن من مقتضيات الإيمان استباحة ما أحلَّ الله تعالى، واجتنابُ ما حرَّم،

ومفهومه أنّه لا يباح الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه كما كان يستبيحه العرب في الجاهلية، فكانوا يأكلون الميتاتِ وما ذُبحَ على النصُب تقرُّباً للأصنام وغيرها.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: لا يوجد سببٌ يمنعكم من أكل ما ذبح على اسم الله تعالى، إذ كان المشركون يحرِّمون على أنفسهم بعض ما أحلّ الله تعالى، كما سيأتي قريباً.

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: بيّن سبحانه على وجه التفصيل كل ما حرَّم عليكم.

﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِۗ﴾ أي: إلا في حال الاضطرار، فإنه يباح لكم المحرَّم، كما سيأتي بيانه أيضاً.

فالحلال ما أحلَّه الله تعالى، والحرام ما حرَّمه سبحانه وحده، لا ما كان يفعله زعماء الضلال والكفر من تحليل وتحريم.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾ الناس بتحليل الحرام وتحريم الحلال.

﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ الفاسدة المنحرفة.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ بما يناسب الناس وينفعهم، وبما يؤذيهم ويضرهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين حدود ما شرع سبحانه لهم.

إن التحليل والتحريم من الأمور الخطيرة الهامّة، لا ينبغي لأحد من الناس أن يدَّعيها لنفسه، إنها منوطة بالله تعالى، فهو وحده الخالق الحاكم، فله سبحانه الخلق والأمر، وعلى الناس أن يلتزموا حدود ما شَرَعَ الله تعالى لهم.

﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾ **والإثمُ الظاهر**: ما كان تحريمُه ظاهراً

ومعلوماً، وباطن **الإثم**: ما فيه شبهة، وقد جعل الله تعالى له في القلب علامة، وهي أن يضطربَ القلبُ عند فعله، ولا يطمئنُّ إليه، فقلبُ المؤمن لا يطمئنُّ إلى المحرَّمات؛ قال رسول الله ﷺ: «**البرُّ حُسنُ الخلقِ، والإثمُ ما حاكَ في صَدْرِكَ، وكرهتَ أن يطلعَ عليه الناسُ**» [رواه مسلم (٢٥٥٣)].

ومعنى قوله: «**حاك**» تحرّك وتردّد، ولم ينشرح له الصدر، وحصل منه في القلب الشك وخوف كونه ذنباً.

ويمكن أن يكون المرادُ من **ظاهر الإثم**: أفعال الجارح، ومن **باطنه**: أفعال القلب كالحسد والكبر والعجب والرياء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ﴾ أي: يتجاوزون الحدود المشروعة، ويفعلون المحرَّمات.

﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ أي: سيحاسبهم الله تعالى ويجازيهم على ما فعلوا في الدنيا من معاصٍ وآثام.

- **التسمية عند الذبح:**

ثم بيَّنت الآيات تحريم الأكل من الذبائح التي لم تذبح على اسم الله تعالى لأن الذبح على غير اسمه تعالى من مظاهر الشرك، وقد حرَّم الله تعالى كلَّ مظاهر الشرك:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ كالميتة وما ذُبح لغير الله تعالى.

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ أي: إنّه خروجٌ عن طاعته سبحانه، أو إن الذبحَ على غير اسمه تعالى لفسق وخروج عن طاعته.

فلا يدخل فيه ذبيحة المسلم التي ينسى التسمية عليها عند الذبح، لِمَا صحَّ عن **عائشة** ﵂: أنَّ ناساً قالوا: يا رسول الله إنّ قوماً يأتوننا باللحمِ لا ندري

أذكر اسم الله عليه أم لا؟ قال: «**سَمُّوا عليه أنتم وكُلُوا**» قالت: وكانوا حديثي عهد بالكفر. [رواه البخاري (٢٠٥٧)].

ثم ردَّت الآية شبهة من وحي الشياطين كانوا يتمسكون بها في الجاهلية:

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٢].

فقد كان المشركون ينكرون تحريمَ أكل الميتة، ويدَّعون أنها ذبيحة الله، ويقولون للمسلمين: كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله تعالى، فما قتل الله فلا تأكلونه، وما ذبحتم أنتم تأكلونه؟![1].

وهذا مثالٌ للشُّبَهِ والضلالات التي كان الشياطين يوحون بها إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوا المسلمين، حذَّر الله تعالى المسلمين منها فقال:

﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ أي: إن أطعتموهم في استحلال ما حرَّم الله تعالى فقد أشركتم، فكلّ من أحلَّ شيئاً مما حرَّم الله، أو حرَّم شيئاً مما أحلَّ الله فهو مشرك، لأنه أثبت حاكماً ـ مشرعاً ـ غير الله ﷻ، ومن كان كذلك فهو مشرك[2]، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وقد روى [الترمذي (٣٠٩٥)] في تفسيرها: عن **عدي بن حاتم** رضي الله عنه: أنه قال: يا رسول الله ما عبدوهم، فقال: «**بلى إنهم أحلُّوا لهم الحرام، وحرَّموا عليهم الحلالَ، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إيّاهم**».

- **الإيمان حياة والكفر موت:**

ثم ضربت الآياتُ مثلاً تبيِّن فيه نعمةَ الإيمان وآثاره الطيبة الحميدة في قلوب المؤمنين وسلوكهم، وتقارن بينه وبين الكفر وظلماته وآثاره السيئة في

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٦١٤.

(٢) تفسير الخازن: ٢/ ٤٧٧.

نفوس أصحابه وسلوكهم؛ فالمؤمنون مستضيئون بأنوار الوحي الإلٰهي، بينما المشركون غارقون في ظلمات الجهل والطغيان، ووساوس الشيطان، وتقليد رؤساء الضلال والكفر:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ يعني: أومن كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالإيمان، فالكفر موت، والإيمان حياة، ولا خير في قلب لا إيمان فيه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقد يكون المعنى: أو من كان ميتاً بالجهل وهوى النفس فأحييناه بالعلم ومحبّة الحقِّ.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾ أي: نور الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل، والمحق والمبطل(١).

وقد مرّ معنا أنه سبحانه سمَّى ما في السورة من أدلَّة وبراهين بصائر: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٤]؛ فالمؤمن على بينة من ربِّه وبصيرة، يميِّز بها بين المحق والمبطل من الناس:

﴿يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ فلا ينخدع بزخرف القول مهما كانت وسائل الخداع والتزوير قوية.

وسبق أن بينتُ من خلال ما تقدَّم من آيات السورة خطورة وسائل الإعلام وشدَّة تأثيرها على الناس، وأنه لا سبيل لحماية المسلمين من خطرها إلا بالاعتصام بالقرآن الكريم، وهذه الآيةُ تأكيدٌ لما سبق، فالقرآن الكريم هو النور

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢/ ٤٧٧.

الذي يضيء للمسلم طريق حياته، يسير به بين الناس مهما كانت نحلهم ومللهم، دون أن يتأثَّر بزخرف أقوالهم ووسائل إعلامهم.

وتدلُّ الآية أيضاً على أن المسلم ينبغي أن يكون إيجابيّاً مع الناس، يمشي بينهم، ويعيش معهم على هدي كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، كما تدلُّ على ضرورة التطبيق العملي لأحكام القرآن الكريم، فالمعرفة النظرية لا تكفي، فلابدَّ للمسلم أن يمشي بالقرآن الكريم بين الناس، وقد ألزمَ نفسه بأحكامه عقيدة وعملاً وسلوكاً وخُلُقاً.

فلا يمكن للمسلم أن يسير بالقرآن بين الناس بمجرَّد المعرفة النظرية، فالناس لا يرون من المسلم خبيئةَ نفسه وما عقدَ عليه قلبه، وعندما يرى الناسُ من المسلم صدقه وأمانته وعفّته واستقامته وتنزهه عن المحرَّمات، وحرصه على الطاعات والعبادات، عندئذٍ يرون المسلم الذي يمشي بينهم بالقرآن الكريم، ويعرفون حقيقة الإسلام وجوهر الإيمان.

وبهذا يتميَّز المسلم الذي يمشي بين الناس بنور القرآن وهدي الإيمان عمَّن يتخبط في ظلمات الكفر:

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ وهي ظلمات الكفر والشهوات، وما أكثرها، يتراكم بعضها فوق بعض حتى تحجبَ صاحبها عن رؤية الحقيقة مهما كانت قريبة وواضحة.

فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ يدلُّ على شدّة الظلمات المحيطة به من كلِّ جانب، فقد غلفت قلبه وختمت عليه، فأنَّى له أن يرى طريق الهداية، ويبصر معَالمَ النور، وهو مُعْرِضٌ عن هدي الله تعالى، مقبلٌ على موالاة الشياطين الذين يزيِّنون له المعاصي والفواحش بزخرف القول غروراً:

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

- **أكابر المجرمين:**

ورؤوس الضلال والكفر الذين يزيِّنون للناس المعاصي والآثام موجودون

في كلِّ المجتمعات، منشأ ضلال الناس من تقليدهم تقليداً أعمى، فتراهم يسيرون وراءهم، وقد خدعتهم أقوالهم المزخرفة:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ قدّر الله تعالى أن تكونَ الحياة الدنيا دار اختبار وابتلاء، فكما جعل فيها الأنبياء والمرسلين ومن سار على طريقهم من الصالحين المصلحين، جعل بالمقابل في كلِّ بلدٍ ومجتمعٍ أكابر المجرمين، ينشرون الفساد، ويعارضون دعوة الأنبياء والمرسلين، ويصدُّون الناس عنها بكلِّ ما لديهم من وسائل المكر والخداع.

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يعودُ وبالُ مكرهم وإضلالهم إلا على أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وأكابر المجرمين هؤلاء شأنهم التكبُّر والتجبُّر ومعارضة دعوة الأنبياء عليهم السلام حسداً وبغياً:

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ فيها بصيرةٌ من بصائر الحقِّ وبرهان قاطع يلزمهم بتصديق النبي ﷺ.

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ أي: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، وهذا يدلُّ على شدّة الكبر والحسد في نفوسهم فكلّ واحد منهم يريد ألا يختص أحد دونه بشيء: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٢].

وسبق أن مرَّ معنا أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يطرد الفقراء والضعفاء عن

مجلسه، وأنهم استنكروا أن يجعل الله هدايته في هؤلاء الضعفاء الفقراء فقالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وأنه تعالى ردّ عليهم بقوله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وهاهو سبحانه يردُّ عليهم هنا عندما رفضوا الإيمان، واعترضوا على تخصيص الرسول ﷺ بالرسالة دونهم، بقوله الكريم:

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ فلا يجعلُ رسالته إلا عند من يصلح لها من خلقه، وهو سبحانه العليم الحكيم.

وهذه شهادةٌ ربَّانية رفيعةٌ بأنه عليه الصلاة والسلام خيرُ من يَصْلحُ لحمل رسالة الله تعالى وتبليغ أمانته، فهدايته جلّ وعلا يجعلها في الشاكرين المعترفين لله تعالى بفضله وإحسانه عليهم، أمَّا رسالته سبحانه فشأنها أخطرُ وأعظمُ، فلا يجعلها إلا في أكمل عباده خَلْقاً وخُلُقاً، ولهذا جاء قوله سبحانه هنا مطلقاً عن أي قيد بوصف معيَّن، فدلّ على أنه ﷺ هو خيرته تعالى وصفوته من عباده على الإطلاق.

قال عليه الصلاة والسلام: «**إنّ اللهَ ﷻ اصطفى كنانةَ من ولدِ إسماعيلَ عليه الصلاة والسلام، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريشٍ بني هاشمٍ، واصطفاني من بني هاشمٍ**» [رواه مسلم (٢٢٧٦)].

ثم بيّن سبحانه عاقبة هؤلاء المجرمين المتكبِّرين بقوله:

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: ذلّةٌ دائمة يوم القيامة، الجزاء من جنس العمل.

﴿وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾ أي: بسبب مكرهم وخداعهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى.

- **من حقائق القرآن العلمية:**

والإسلام هو التسليم الكامل لله تعالى، والرضا بأحكامه الشرعية والقدَرية دون أي اعتراض، فالمسلمُ لا يبغي على أحدٍ، ولا يحسدُ أحداً، وذلك لأنّ الله

تعالى يشرحُ صدره للإسلام، وينوره بنور القرآن، ويحبّب إليه الإيمان، ويزيِّنه في قلبه:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: ييسره له وينشطه ويسهله لذلك، فهذه علامات على الخير، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

يقال: شرح الله صدره فانشرح، أي: وسَّعه لقبول الإيمان والخير فتوسَّع، فمال إليه وقويت رغبته فيه. وبالمقابل:

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ أي: يخذله ويتركه في ضلاله.

﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ شديد الضيق، فلا يصل إليه شيء من الإيمان والخير.

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فإذا ما دُعي إلى الإسلام كأنه قد كُلِّف أن يصعدَ إلى السماء، ولا يقدر على ذلك، أو ضاقَ صدرُه عن الإسلام، فطلب مصعداً في السماء، أو كأنه يصعدُ إلى السماءِ بُعداً عن الإسلام وتكبُّراً[١].

هكذا فسّر المفسّرون السابقون الآية الكريمة، وقد أضافَ العلمُ الحديث معنًى آخر للآية، لا يتعارض مع ما تقدمَ، فقد كَشَفَ العلم الحديثُ التوازن القائم بين ضغط الغلاف الجوي على جسم الإنسان، وبين ضغط الدم على جدران العروق والشرايين التي يجري فيها، فإذا ما صعد الإنسانُ في جوِّ السماء اختلَّ هذا التوازن، ونتجَ عنه شعورُ الإنسان بضيق في صدره، وصعوبة في التنفس، مع دوار وثقل في رأسه، ويمكن أن يؤدِّي الاستمرارُ في الصعود إلى انفجار مجاري الدم في جسده، ولهذا صنعوا للطيارين الذين يصعدون إلى

---

(١) مجموعة التفاسير: ١/ ٤٨١.

طبقات عالية في الجو، ولرجال الفضاء، ملابسَ خاصةً بهم، لتحفظ لهم التوازن وتحميهم من مخاطر اختلاله، فكلما ارتفعَ الإنسانُ تعرَّض لمخاطر انخفاض الضغطِ الجويِّ ونقصِ الأوكسجين أيضاً، ولهذا تزوَّدُ الطائراتُ بأجهزةٍ خاصةٍ تمدُّ المسافرين بالأوكسجين اللازم في حال اضطرارِها إلى الطيرانِ المرتفِع.

فالآية تشير إلى حقيقة علمية ما عرفها الإنسان إلا في العصر المتأخر، مما يؤكِّد أنَّ القرآن الكريم من كلام الله تعالى العليم الحكيم.

﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي: العذاب أو الخذلان:

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ومع أنّ الهداية والضلال بيده سبحانه وبمشيئته، فقد جعلَ للإنسان كسباً واختياراً، وجعل طريق الهداية أمامه مفتوحاً، وبصائرَ الحقِّ على أطراف الطريق واضحةً ظاهرة:

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ﴾ لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهو ظاهرٌ لا لَبْس فيه ولا خفاء.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدلائل والبراهين والبصائر التي تبيِّن الطريق وتوضحه.

﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: ينتفعون بالدلائل والبصائر ويتعظون.

﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ﴾ أي: لهؤلاء المنتفعين بالآيات الجنة السالمة عن كلِّ الآفات والمنغصات، أو هي الدار التي يدعو إليها السلام، وهو اسم من أسمائه تعالى الذي قال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ متولّي أمورهم في الدنيا والآخرة.

﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من الطاعات والعبادات.

- **الانتقام من الظالمين بالظالمين:**

وأما الذين أعرضوا عن دين الله و تولَّوا غيره من شياطين الإنس والجن، فقد بيَّن سبحانه حالهم يوم القيامة بقوله:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ شياطين الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ويلوذون بهم، ويطيعونهم، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي: يقال لهم: يا معشر الجن قد أضللتم كثيراً من الإنس.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾أي: انتفعَ بعضنا ببعض، فالمنفعة بين الفريقين متبادلة، فانتفاع الإنس بالجن بأن دلُّوهم على الشهوات وأسباب التوصل إليها، وانتفاع الجن بالإنس بطاعة الإنس لهم وموالاتهم واتباعهم.

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ وكان هذا الاستمتاعُ إلى أجل معيَّن ووقت محدَّد، ثم انقضى ومضى وبقيت الحسرة والندامة.

﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ منزلكم ومأواكم.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: ماكثين في النار بمشيئته سبحانه، فخلودهم في النار ليس واجباً ولا لازماً، وإنما هو بمشيئته سبحانه وتقديره، وقد أخبر

سبحانه في آيات كثيرة أنه شاء وقدَّر أن يمكثوا فيها أبداً، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب].

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

ومن حكمته سبحانه أن يسلِّط الظالمين بعضهم على بعضهم، فينتقم من الظالمين بالظالمين:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

أي: كما جعلنا لظالمي الجن وشياطينهم تسلُّطاً على ظالمي الإنس، نسلط بعض الظالمين على بعض، ونهلك بعضهم ببعض، وننتقم من بعضهم ببعض؛ جزاء على ظلمهم وبغيهم.

وقد روي عن ابن مسعود مرفوعاً: «من أعان ظالماً سلّطه الله عليه»[1] [رواه الديلمي في «الفردوس»، وابن عساكر في تاريخه، وفيه ابن زكريا العدوي متهم بالوضع كما في «كشف الخفا»].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: هو أنّ الله تعالى إذا أراد بقوم خيراً ولَّى عليهم خيارهم، وإذا أراد بقوم شرّاً ولَّى عليهم شرارهم.

فعلى هذا القول: إنَّ الرعية متى كانوا ظالمين سلَّط الله عليهم ظالماً مثلهم، فمن أراد أن يخلص من ظلم ذلك الظالم فليترك الظلم[2].

ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الآية [الرعد: ١١]، وما جاء في الأثر «أعمالُكُم عمّالُكُم كما تكونوا يولَّ عليكم» [رواه الطبراني من كلام الحسن البصري، والحاكم والقضاعي عن أبي بَكْرة مرفوعاً، وفي سنده مجاهيل كما في «كشف الخفا»].

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٦١٩.

(٢) انظر: تفسير الخازن: ١/ ٤٨٤.

• **الاعتراف بالجريمة:**

وتابعت الآيات الكريمة حكاية ما يقال للمكذِّبين بدعوة الحق من الإنس والجن يوم القيامة:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من جملتكم؛ فالرسل من الإنس، وأما رسلُ الجنّ فهم الذين بلَّغوا قومهم ما سمعوا من رسل الإنس، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

ويمكن أن يرسل الله تعالى رسلاً من الجنّ كما أرسل من الإنس، كما رأى بعض المفسِّرين(١).

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ أي: يقرؤون عليكم آياتي التي أنزلتها عليكم.

﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ﴾ أي: ويخوفونكم من الحساب والجزاء في يوم القيامة.

﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ﴾ بقيام الحجّة علينا، وبتبليغنا آيات الله تعالى، وهو اعتراف منهم بالجرم والكفر واستحقاق العذاب.

ثم بيَّنت الآية الكريمة سببَ إعراضهم عن دعوة المرسلين عليهم السلام:

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: خدعتهم الحياة الدنيا بزخرفها وزينتها وطول آمالهم فيها.

﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٧/ ٣٦.

وقد قدَّر سبحانه أنه لن يهلك أمةً من الأمم مهما بلغَ عنادها وكفرُها، حتى يرسل إليهم رسولاً ينذرهم ويحذرهم عاقبة كفرهم وفجورهم:

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

أي: وهم غافلون عن عاقبة كفرهم وفجورهم، لم ينذرهم رسول، ولم يحذِّرهم، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

لقد أعذَرَ الله إلى الأمم بإرسال الرسل إليهم، وما ظلمهم سبحانه عندما أنزل بهم ما أنزل من العذاب والهلاك، كما أنَّه سبحانه لا يظلمهم أيضاً يوم القيامة بل يعاملهم على حسب أعمالهم التي عملوها في الدنيا:

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ﴾ أي: لكل عامل من طاعة الله أو معصيته مراتب ومنازل من عمله، يبلغه الله إياها، ويثيبُه بها إنْ خيراً فخير، وإنْ شرّاً فشر[1].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فلا يخفى عليه سبحانه عمل واحد منهم.

فمن يعمل بطاعة الله تعالى فثواب عمله يعود على نفسه، والله غنيٌّ عنه، لا يحتاجُ إلى أحدٍ من خلقه، وجميع الخلق محتاجون إليه سبحانه:

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ﴾ ومن رحمته إرسالُ الرسل، وإنزالُ الكتب، وعدمُ تعجيل عذاب المعاندين والمعرضين لعلَّهم يتوبون إلى الله، ويعودون إلى ساحة فضله ومغفرته.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٦٢٠.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ جميعاً بالإهلاك، فلا يظننَّ أحدٌ أنّ الإهلاكَ متوقف على شيءٍ غير مشيئته تعالى.

﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ أي: وهو سبحانه قادرٌ على أن يخلق بعد إهلاككم ما يشاءُ من المخلوقاتِ من جنسكم أو من غير جنسكم.

﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ بعد أن أهلكهم.

فموعدُ الهلاك قادمٌ لا شك فيه:

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾.

فلا يعجز الله تعالى عنكم، ولا مفرَّ لكم من سطوته وقهره جلَّ وعلا.

- **الكلمة الأخيرة:**

وبعد هذا التهديد والوعيد الشديد للمعاندين والمعارضين من المشركين، أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يوجه لهم كلمة أخيرة على وجه النصيحة المشوبة بالتهديد الشديد:

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ﴾ أي: يا أقرب الناس إليَّ، فأنتم أهلي وعشيرتي، ولا آلو في نصحكم.

﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على أقصى تمكنكم واستطاعتكم، أو على حالتكم التي أنتم عليها، يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حاله: على مكانتك يا فلان[١]. والمعنى: اثبتوا على كفركم وعداوتكم، وهذا على سبيل التحدِّي لهم.

﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ على مكانتي ثابت على الإسلام، لا أبالي بكلِّ ما ألقاه منكم،

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٤٨٨.

فهو كقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [هود].

إنها العزيمة والثقة التي تملأ قلبَ النبي ﷺ، وهو في أشدِّ حالات المواجهة مع المشركين.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: أتكون لي أم لكم؟ وفي هذا الأسلوب اللطيف للإنذار إنصافٌ في المقال، وحسنُ الأدب، مع إظهار الثقة والعزيمة في وجه المخالفين.

ثم بيَّن أن عاقبة الدار للنبي ﷺ فقال:

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وقد أنجز الله موعده لرسوله ﷺ، فإنه تعالى مكَّنه في البلاد، وحكَّمه في نواصي مخالفيه من العباد، وفتح له مكة، وأظهره على من كذَّبه من قومه وعاداه وناوأه[1].

• **ضلالات جاهلية:**

وعادتِ الآياتُ الكريمة تعرض نماذج أخرى للضلالات والمفاسد التي كانت فاشيةً بين العرب في الجاهلية:

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي: مما خلق.

﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾ الزرع والثمر.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الإبل والبقر والغنم.

﴿نَصِيبًا﴾ جزءاً وقسماً.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٦٢١.

﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ أنه لله، والله لم يأمرهم بذلك، ولم يشرع لهم القسمة.

﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ وهذا القسمُ الآخرُ للأصنام والأوثان، وكانوا ينفقون ما جعلوه لله على الضيفان والفقراء، وما جعلوه للأصنام على سدنتها والقائمين عليها.

﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ما كانوا ينفقونه في الوجوه التي ترضي الله تعالى.

﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ لأنّهم ينفقونه على سدنتها، فقد كانوا إذا أصابتهم شدَّة وقحط أو هلك ما جعلوه لشركائهم، أخذوا بدله ممَّا جعلوه لله تعالى.

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس ما يحكمون من هذه الأحكام الفاسدة التي لا يقرها عقل، ولم يرد بها شرع، ولهذا كان **ابن عباس** رضي الله عنهما يقول: من أراد أن يعلم جهلَ العربِ فليقرأ ما فوق الثلاثين والمئة من سورة الأنعام[1].

ومن هذه الضلالات والمفاسد:

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ﴾ بوأد البنات الصغيرات بدفنهن في التراب أحياءً خشية الفقر والعار، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل].

(١) تفسير القرطبي: ٧/ ٩٠.

وأخَّرت الآيةُ بيانَ مصدر التزيين والتحسين لجريمة قتل الأولاد لتتشوَّف النفوس إلى معرفته بعد أن تشمئز من قبح الجريمة وشناعتها، فقال:

﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ والمراد بهم الشياطين الذين كانوا يوسوسون لهم زخرف القول غروراً، كما مرّ معنا، أو سدنة الأصنام، وسُمُّوا شركاء لأنهم كانوا يطيعونهم ويعظِّمون أمرهم، فأصبحت طاعتهم عبادة لهم من دون الله تعالى.

ولا تزالُ الشياطين تزيِّن لكثيرٍ من الناس في العصر الحاضر قتلَ أولادهم وهم أجنَّةٌ في بطون أمهاتهم، بعمليات الإجهاضِ ووسائلِ الإسقاط المختلفة.

ثم كشفت الآية الغايات الخبيثة لتزيين مثل هذه الجرائم بقوله جلّ وعلا:

﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي: ليهلكوهم وليبعدوهم عن الدين الحق.

والله سبحانه قادر على عصمتهم من هذه الجرائم والضلالات، ولكنه سبحانه جعلَ لهم كسباً واختياراً لها:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي: اتركهم وما يختلقون من الأكاذيب والأضاليل بعد أن تبيَّن لهم فسادها وتبلغهم رسالة الله تعالى.

ثم بيَّنت الآيات الكريمة جانباً من الضلالات والمفاسد التي كانوا يفعلونها في أموالهم من الزروع والأنعام:

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ أي: قال المشركون: هذه أنعام وزروع وثمار حرام لا ينتفع بها.

﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ أي: لا يأكل منها إلا من نريد.

﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ الباطل من غير حجّةٍ ولا برهان.

﴿وَأَنْعَـٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ وهذه أنعام منعت ظهورها فلا تُركبُ ولا يُحْمَلُ عليها.

﴿وَأَنْعَـٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي: وهذه أنعام تذبح للأصنام، ولا يذكرون اسم الله عند ذبحها.

﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ على الله سبحانه.

﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: بسبب ما كانوا يكذبون على الله تعالى.

﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ أي: الأجنة التي في بطون هذه الأنعام الحوامل حلالٌ للذكور خاصةً دون الإناث.

﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ أي: وهي محرَّمة على الإناث والزوجات.

﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ أي: وإن تكن الأجنة ميتة فالذكور والإناث فيها سواء.

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ في التحريم والتحليل والكذب عليه تعالى.

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ في كلِّ ما يشرع، وتتنزَّه شريعتُهُ سبحانه عن هذه المفاسد والضلالات.

ويدلُّ هذا التهديد المتوالي: ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٨]، ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ على خطورة التحليل والتحريم، فهو منوط بالله تعالى وحده، ولا يجوز لأحد أن يحلل شيئاً أو يحرِّمه من تلقاء نفسه.

- **سفهٌ وجهل:**

ولقد دأبت السورة كما مرَّ معنا على الردِّ على كل المخالفين، ولهذا

شرعت الآيات بعد أن بيَّنت بعض ضلالات العرب في الجاهلية ومفاسدهم، شرعت في ردِّها وبيان قبحها وفسادها بقوله تعالى:

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ١٤٠﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فالأولادُ نعمةٌ من الله تعالى، وقتلهم خسارةٌ كبيرةٌ وجريمةٌ عظيمة، لا يفعلها إلا سفيهٌ طائش جاهل.

﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي: وخسر أيضاً الذين حرَّموا بعض ما رزقهم الله تعالى من الزروع والثمار والأنعام كذباً عليه سبحانه.

﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ أي: جاروا عن الحقِّ وابتعدوا عن الهدى.

ثم بيَّن سبحانه أنه هو المالك الحقيقي للزروع والثمار والأنعام، لأنه هو الذي أنشأها وخلقها، فله سبحانه وحده أن يحلِّلَ ويحرّم، فقال:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ١٤١﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ أي: مرفوعات عن الأرض على ما يحملها.

﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ أي: متروكات على وجه الأرض غير مرتفعات عنها كالعنب والبطيخ والقرع ونحوها.

﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ أي: وأنشأ النخل والزرع مختلفاً في الطعم والرائحة واللون.

﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا﴾ في المنظر والحجم والطعم.

﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ﴾.

وهذه المرةُ الثانيةُ التي ذكر الله تعالى في سورة الأنعام قدرته على إنشاء

الزروع والأشجار والثمار، إلَّا أنَّه في الآية الأولى ذكرها الله في سياق بيان قدرته سبحانه على خلقها وإبداعها، لذلك جاء مع ذكرها التوجيه الكريم من الله تعالى للنظر إليها والتأمُّل فيها خاصة عند نضجها لمعرفة عظمة خالقها ومبدعها: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

أما في المرَّة الثانية هذه فقد ذكرت في سياق بيان ملكه تعالى لها، لأنه هو خالقُها ومبدعها، فهو سبحانه الذي يبيِّن ويشرِّع كيفية التصرُّف فيها، ولهذا قال سبحانه في ذيل الآية:

﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ أي: إذا ظهر الثمرُ ولم ينضجْ بعد، والأمرُ للإباحة.

وفائدة الإباحة بيانُ جواز الانتفاع منه قبل أداء حق الله تعالى فيه الذي أوجبه بعد ذلك بقوله:

﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ أي: يوم قطعه وقطافه.

﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ أي: لا تتجاوزوا حدّ الاعتدال في الأكل منه، قال عليه الصلاة والسلام: «**كُلوا واشربوا والْبَسُوا من غيرِ إسرافٍ ولا مَخيلةٍ**» [رواه البخاري تعليقاً (١٠/ ٥٢) والترمذي (٢٨٢٠) والنسائي (٥/ ٧٩) وابن ماجه (٣٦٠٥)].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ بل يبغضهم بسبب إسرافهم، ففيه وعيد شديد للمسرفين

● **الأزواج الثمانية:**

ثم بيَّنت الآياتُ حكمته سبحانه وفضله في خلق الأنعام وتسخيرها للإنسان، وبطلان ما كان يفعله المشركون فيها:

﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ١٤٢﴾.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾ أي: وأنشأ سبحانه من الأنعام ما يحمل

الأثقال، ومنها ما يفرشُ للذبح، أو ما يفرش المنسوج من شعره وصوفه ووبره[١]. والمعنى الأول أظهر، لقوله سبحانه بعد ذلك:

﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: كلوا مما أحلَّ لكم منه.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ في التحليل والتحريم، والتي كان المشركون يسيرون عليها.

﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ أي: عداوته ظاهرة لكم، فلا يريد بكم إلا الشر.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣﴾.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ﴾ أي: أنشأ سبحانه من الأنعام ثمانية أصنافٍ، والزوج الفردُ من الذكر أو الأنثى، لأنّ كلّاً منهما يقارن الآخر ولا ينفك عنه.

﴿مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ أي: من الغنم ذوات الصوف ذكر وأنثى.

﴿وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾ أي: ومن الغنم ذوات الشعر ذكر وأنثى.

﴿قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ أي: قل لهؤلاء الجهلة: هل حرم الله عليكم الذكرين من الضأن والمعز، أم حرّم الأنثيين منهما؟ فهو استفهام إنكاري.

﴿أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ﴾ أم حرَّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الضأن والمعز؟.

﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ﴾ أي: نبئوني بأمرٍ معلومٍ يدلُّ على أن الله حرَّم شيئاً من ذلك:

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢/٤٩٦.

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثى.

﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ﴾ ذكر وأنثى.

﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ﴾.

والآية تدلُّ على مشروعية المناظرة في العلم، لأنَّ الله تعالى أمرَ نبيَّه عليه الصلاة والسلام بأن يُناظرهم، ويُبيِّن لهم فسادَ قولهم، فإن كان الله تعالى حرَّم الذكور، فكل ذكرٍ حرامٌ، وإنْ كان حرَّمَ الإناث فكل أنثى حرامٌ، وإنْ كان حرَّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، فكل مولود حرام ذكراً كان أو أنثى(١).

وبعد أن بيَّن سبحانه تهافت أقوالهم وتناقضها عقلاً، بيَّن بطلانها نقلاً أيضاً فقال:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾ التحريم، وفيه تهكم شديد بهم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فنسب إليه سبحانه تحريم ما لم يحرّم.

﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ فالمسارعة إلى التحريم من غير علم ضلال وإضلال، فهو أمرٌ كبير وخطير لا ينبغي القول به من دون دليل قطعي يدلُّ عليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يضعون الأحكام الشرعيةَ في غير مواضعها الصحيحة، قال تعالى محذِّراً من هذا الأمر: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

ولهذا نرى كثيراً من الفقهاء لا يطلقون لفظ الحرام على شيءٍ لم يجدوا فيه نصّاً قاطعاً، فإذا وجدوا نصّاً قاطعاً بالتحريم والتحليل قالوا به، وإلا قالوا في

---

(١) تفسير القرطبي: ٧/ ١١٥.

الحلِّ: لا بأس، وفي الحُرمة: أكرهُ، خوفاً من أن يشملهم هذا الوعيد والتهديد في مثل هذه الآيات الكريمة.

- **شريعة الرحمة والتيسير:**

التحليل والتحريم لا يكونُ إلا عن طريق الوحي الإلٰهي والشرع النبوي، ولهذا أمرَ الله تعالى النبيَّ ﷺ أن يقول للمشركين الذين يحللون ويحرمون من عند أنفسهم:

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ أي: لا أجد طعاماً محرّماً على آكل يأكله.

﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ وهي كل حيوان ماتَ ولم يذبح ذبحاً شرعيّاً.

﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ أي: مصبوباً سائلاً، فخرج منه دمُ الكبدِ والطحالِ، وما يبقى في العروق بعد الذبح.

﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ أي: إن الخنزير قذر، أو إنه خبيث، أو إنه نجس، وقد أثبت العلمُ الحديثُ أنّ لحم الخنزير يحمل كثيراً من أسباب المرض[١].

وفي كلِّ فترة يكتشف العلماء آفات كبيرة فيه[٢] تؤكّد رحمته سبحانه

(١) انظر: تفسير سورة المائدة في هذه الموسوعة، المسمَّى (الحلال والحرام في سورة المائدة).

(٢) من آخر ما اكتشف ما توصل إليه الدكتور بورجن هانوفر من الدانمرك بعد أبحاث عديدة على حوالي (٢٥٥٨٥) مريضاً من بلاده، من اكتشاف الجرثومة المسببة لمرض كثير =

وحكمته في تحريم أكل الخنزير، كما تبيّن ضرورة أن يكون التحليل والتحريم بيده سبحانه وحده الذي وسع علمه كلَّ شيء.

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ يدلُّ على تحريم استعمال جميع أجزاء جسم الخنزير، والجدير بالذكر هنا أنَّ الأممَ التي تأكل لحم الخنزير، أدخلت دهنه وشحمه وبقية أجزاء جسمه في كثير من الأطعمة المصنَّعة كالخبز والحلويات والبسكوت والمعلَّبات واللحوم والحساء والسلطة والجبن وما يسمُّونه: الجيل، وغير ذلك من الأطعمة، فعلى المسلم أن ينتبه لهذا، ويتأكَّد من محتوياتها قبل أن يتناول منها شيئاً.

﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ وهو ما ذُبح على غير اسم الله تعالى.

وسُمِّي ﴿فِسۡقًا﴾ لتوغُّله في باب الفسق، وهو الخروج عن طاعة الله تعالى.

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ أي: دعته الضرورة إلى أكل شيءٍ من هذه المحرَّمات.

﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ غير قاصد التلذذ بالطعام المحرَّم، فهو كقوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٣].

﴿وَلَا عَادٖ﴾ ولا متجاوزٍ فيما يأكل قدر الضرورة.

﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فلا مؤاخذة عليه إذا تناول من الطعام المحرَّم ما يحفظ حياته حتى يجد الطعام الحلال، فشريعةُ الإسلام شريعةُ الرحمة والتيسير والسماحة.

ودلَّت الآية على أنَّ التحريم لا يكون إلا بوحي من الله تعالى، وأنَّ الأصل في الأشياء الحل والإباحة حتى يقوم دليلٌ على تحريمها، وقد جاءت الأدلَّة بعد ذلك بتحريم غير هذه المحرَّمات الأربعة كالخمر، وأكل كلِّ ذي ناب من

= الانتشار في أوربة، يبدأ بالإسهال والأنفلونزا وأعراض الزائدة الدودية، وينتهي بالالتهاب المزمن في المفاصل والكُلى والقلب، وقد دعته هيئة الإعجاز العلمي في القرآن إلى جدّة ليتحدث عن أبحاثه العلمية. أخبار العالم الإسلامي، السنة (٢٣)، عدد (١٠٨٥).

السباع، وكلِّ ذي مَخْلب من الطير، فالآيةُ مكيةٌ، ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت محرَّم غير هذه الأشياء[١]. والقول بأنَّهُ لا يحرمُ مطعومٌ غير الأربعة المذكورة في هذه الآية باطلٌ بإجماع المسلمين[٢].

وما كان أهلُ الجاهلية يحرِّمونه من الأنعام والحرث لا يوجد دليل على تحريمه في شريعة الإسلام، ولا في الشرائع الإلٰهية السابقة، ولهذا بيَّن الله تعالى المحرَّمات التي حرَّمها على اليهود بسبب بغيهم وظلمهم، وعدم انقيادهم لشريعة ربِّهم، فقال سبحانه:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ﴾ أي: حرَّمنا على اليهود أكل كلِّ حيوان ذي ظفر، وهو ما ليس منفرجَ الأصابع، كالإبل والنعام والأوز والبط[٣].

﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ أي: شحم الجوف والكليتين.

﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ من الشحم فإنه غير محرَّمٍ عليهم.

﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ وما اشتملت عليه الأمعاء فإنه غيرُ محرّم.

﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ﴾ أي: والشحم المختلط بالعظم غير محرَّم عليهم أيضاً.

وسبب هذا التحريم الذي خصَّ به اليهود بيَّنه سبحانه بقوله:

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ﴾ بسبب ظلمهم.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في كلِّ ما نخبر عنه. قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ

---

(١) تفسير القرطبي: ٧/ ١٦٥.

(٢) أضواء البيان: ٢/ ٢١٨.

(٣) روح المعاني: ٨/ ٤٧.

حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النِّسَاء].

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ أي: المشركون أو اليهود بما أخبرت عن بغيهم وما حرَّم الله عليهم.

﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ يمهلكم، ولا يعاجلكم بالعقوبة، فلا تغتروا بتأخير عقوبة تكذيبهم، فإنها إذا نزلت فلا يردُّها أحدٌ.

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾ عذابه وانتقامه.

﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المكذِّبين لآياته والمعرضين عن شريعته.

- **الردُّ على المحتجين بالقدر:**

ولمَّا كانت آيات سورة الأنعام مهتمةً بردِّ كلّ الشبهات والضلالات التي يتعلق بها المخالفون في أي قضية من القضايا التي تتصدى لها ـ كما مرَّ معنا ـ ردّت هنا في الآية التالية شبهةً يحتجُّ بها المشركون في قضية التحليل والتحريم:

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ أي: إنَّ الله قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن عليه من الشرك حتى لا نفعله، فلولا أنه رضيَ ما نحنُ عليه من الشرك، وأراده منا لحال بيننا وبينه.

﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ مما حرمناه من الأنعام والحرث كما مرَّ معنا.

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السابقة، كذّبوا أنبياءهم وقالوا مثل هذا القول.

﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ﴾.

ولا يزالُ كثيرٌ من الناس بعدهم حتى العصر الحاضر يحتجُّون بمثل ما احتجَّ به المشركون، فتراهم يقترفون المعاصي والآثام، ثم يحتجّون بالقدر، ويقولون: هكذا قدَّر الله علينا، وهي كلمة حق وصدق، فكلُّ شيء بإرادته سبحانه وعلمه.

والتكذيب ليس في قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ فالله سبحانه قادرٌ على هداية جميع الناس إلى الإيمان ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

إنما الكذب في قولهم: إنَّ الله أمرنا به، ورضي ما نحن عليه، والذي يضمونه إلى قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ فقد حكاه الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وردّ سبحانه عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

فأمر الله تعالى يغاير مشيئته وإرادته، فهو سبحانه مريد لجميع ما يحدث في الكون، غير آمرٍ بجميع ما يريد، وعلى العبد أن يتَّبعَ أمره سبحانه، وليس له أن يتعلق أو يحتج بمشيئته، فإنّ مشيئته لا تكون عُذراً لأحد فيما يفعله بكسبه واختياره، فلا يأمر سبحانه بالكفر والفجور، ولا يرضى به، مع أنه بمشيئته وإرادته جلّ وعلا.

فالذين يتمسكون بمشيئته سبحانه في شركهم وفجورهم مخطئون، وتمسُّكهم باطلٌ وفاسدٌ، وهم مسؤولون ومحاسبون يوم القيامة عمَّا أمرهم به سبحانه بواسطة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام[1].

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ﴾ أي: هل عندكم حجَّةٌ وبرهان على صحة دعواكم في الاحتجاج بمشيئته تعالى فتظهروه لنا وتبيِّنوه؟ هل أعلمكم الله تعالى بما قدَّره عليكم؟ وهل كلَّفكم إلا بما أمركم به بواسطة أنبيائه ورسله؟.

---

(١) انظر: تفسير الخازن: ٢/ ٥٠٤.

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ إلا الوهم والخيال.

﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ وما أنتم إلا تكذبون على الله تعالى.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ أي: السلطان، أو البيِّنةُ الواضحة التي بلغت غايةَ الوضوح والقوةِ.

فلا حجَّة لأحد عصى الله تعالى، ولكن لله الحجَّة البالغة على عباده بما أرسل إليهم من رسلٍ، وأنزل عليهم من كتبٍ، ولهذا فإنه سبحانه يذكر المحتجين بمشيئته بما كلَّفهم به بواسطة رسله، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل].

فرسالته سبحانه إلى المكلَّفين من عباده واضحةٌ لا خفاء فيها: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقد جعل الله لهم كسباً واختياراً في ذلك، ولهذا فهم مسؤولون أمام الله سبحانه عمَّا يعملون بكسبهم واختيارهم.

﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لكنه سبحانه شاء أن يكون للمكلَّفين كسبٌ واختيارٌ كما سبق معنا من قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

ثم أمر الله تعالى النبيَّ ﷺ أن يزيد في تبكيتهم وتقريعهم؛ بقوله لهم:

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ أي: أحضروهم للشهادة.

﴿ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ﴾ الذي حرَّمتم من الأنعام والحرث.

﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ﴾ أي: فلا تصدقهم، فشهادتهم كاذبة باطلة.

﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ وهي كما مرَّ معنا في أول آيات السورة: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

- **الوصايا العشر:**

وجاء دورُ الوصايا بعد كلِّ هذا الحشدِ الهائل من الأدلَّة والبراهين، والمناظرات والمجادلات، والردود والتمحيصات، فمن أجل هذه الوصايا جمع الله تعالى في سورة الأنعام كلَّ هذه الحجج والبصائر، وهي عشر وصايا، بدأها سبحانه بقوله الكريم:

﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ أي: أقصُّ عليكم وأخبركم بما حرّم ربكم عليكم وبما أوصاكم به:

- **أولها:** ﴿أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ والإشراكُ باللهِ رأسُ المحرَّمات وأكبرها وأقبحها، ولا يقبل الله معه شيئاً من الطاعات، ولذلك جعله بداية هذه الوصايا وعنوانها.

- **وثانيها:** ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ﴾ أي: أوصاكم بالإحسان إلى الوالدين، وحرَّم عليكم عقوقهما.

وقد اقترن الأمرُ بالإحسان إلى الوالدين مع الأمر بعبادته وحده في عدد من الآيات الكريمة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: ٢٣].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان].

ـ **وثالثها**: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: من أجل فقر، أو من خشيته، وكان بعض العرب في الجاهلية ـ كما مرَّ معنا ـ يقتلون أولادهم بسبب تزيين الشياطين ووساوسهم، وقد حذَّر الله تعالى منه في عددٍ من الآيات الكريمة، منها قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١]. وقال سبحانه هنا:

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فقد تكفَّل سبحانه برزق الآباء والأبناء.

ـ **ورابعها**: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: ما كان ظاهراً منها وما كان خفيّاً، فهو كما سبق معنا من قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

ـ **وخامسها**: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لا تقتلوا النفس البشرية التي حرَّم الله قتلها، إلا بسبب مشروع يستوجب ذلك، قال رسول الله ﷺ: «**لا يَحِلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ يشهدُ أنْ لا إلهَ إلا الله وأنِّي رسولُ اللهِ إلا بإحدى ثلاثٍ: الثيِّب الزاني، والنفس بالنفسِ، والتارك لدينه المفارقِ للجماعةِ**» [رواه مسلم (١٦٧٦)].

فالاعتداءُ على حياة الإنسان بغير حق ذنبٌ كبير، وجرمٌ عظيم، وقد شرَعَ اللهُ تعالى القصاص حقناً لدماء الناس، وحفظاً لحياتهم، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وتوعَّد سبحانه قاتل النفس دون حق بأشدِّ أنواع العذاب يوم القيامة: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

ثم ختم الله تعالى هذه المجموعة من الوصايا بقوله:

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: وصاكم بهذه الوصايا الكريمة لعلكم ترشدون، فإن كمالَ العقلِ هو الرشدُ.

ففي هذه الآية أسبابُ الكمال الإنساني، وأهمها توحيدُ اللهِ تعالى، وإفرادُهُ وحده بالعبادة والطاعة، ثم برُّ الوالدين والإحسان إليهما، وتطهير النفس والسلوك من دَنَسِ المعاصي الظاهرة والباطنة، واحترام حقوق الآخرين والمحافظة عليها، ومن أهمها حق الحياة.

وبهذه الخصال الرفيعة يتميّزُ الإنسان عن الحيوان، ويسمو في معارج الكمال، ويكون حقّاً منتفعاً بعقله، متفهماً لحقيقةِ حياته وجوهرِ وجودهِ.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

- **سادسها**: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: لا تعتدوا على حقوق الأيتام، ولا تقتربوا من أموالهم إلا بقصد حفظها لهم.

فقد اهتمَّ الإسلامُ بالضعفاء في المجتمع، وأمر بالمحافظة على حقوقهم، قال رسول الله ﷺ يحثُّ على رعاية الأيتام وتربيتهم: «**أنا وكافِلُ اليتيمِ في الجنَّة هكذا**» وأشار بالسبابةِ والوسطى، وفرّجَ بينهما. [رواه البخاري (٦٠٠٥)].

وتوعّد الله تعالى آكلي أموال اليتامى بأشدِّ أنواع الوعيد فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

وينبغي أن تستمرَّ رعايةُ اليتيم وحفظُهُ:

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: حتى يصيرَ بالغاً راشداً، قادراً على التصرُّف في ماله، والمحافظة عليه، كما قال: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦].

ـ **وسابعها**: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل، وهو مبدأ الإنصاف في المعاملات، والاحتراز والتوقي عن الشبهات.

ولمّا كان الالتزامُ بهذا المبدأ وتطبيقُهُ في مختلف مجالات التعامل مع الناس أمراً عسيراً، قال سبحانه بعده:

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: إلا ما يسعها ولا يعسر عليها، فما وراء الوسع معفوٌّ عنه.

ـ **وثامنها**: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: إذا تكلَّمتم بأداء شهادة أو تحكيم فاعدلوا، ولو كان الذي تشهدون عليه من أقاربكم، فلا ينبغي لعلاقات القرابة أن تؤثِّر على التزام الحق والعدل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٠].

ـ **وتاسعها**: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ﴾ أي: عهد الفطرة وعهد الإيمان وما عاهدتم الله عليه في النذور والأيمان، والعهود التي بينكم وبين الناس.

وأضيفت إلى الله تعالى لأنه أمر بحفظها والوفاء بها، فقال: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وختم الله تعالى هذه الآية بقوله:

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لما في هذه المجموعة من الوصايا من التزامات يحتاج الإنسان دائماً أن يذكَّر بها ليؤدِّيها على الوجه الكامل.

- **الصراط المستقيم:**

ـ ختم الله تعالى هذه الوصايا **بوصيةٍ عاشرة**، جمع فيها كلَّ ما تقدم من الوصايا السابقة، آمراً بالتزامها والاستقامة عليها، محذِّراً من أي انحراف عنها، فقال ﷻ:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ فهو المنهج القويم والدين المستقيم الذي ارتضاه الله تعالى لعباده المؤمنين، فاتبعوه جملةً وتفصيلاً.

وسبق أن مرَّ معنا قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦] فكأنّ هذه الوصايا العشر جَمَعَ الله تعالى فيها كلَّ التوجيهات والإرشادات التي ذكرت في آيات السورة.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ أي: لا تتَّبعوا الشّرائعَ والعقائدَ والمللَ والنحلَ المخالفة لدين الإسلام.

﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: تميل بكم عن الصراط المستقيم كما قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

قال **ابن عباس** رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة، وأخبرهم أنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله[1].

وفي الحديث الشريف: عن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه قال: خطَّ رسولُ اللهِ ﷺ خطّاً بيدهِ، ثم قال: «**هذا سبيلُ اللهِ مستقيماً**» وخطَّ عن يمينِهِ وشمالِهِ ثم قال: «**هذهِ السُّبلُ، ليسَ منها سبيلٌ إلا عليه شيطانٌ يدعو إليه**» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾. [رواه أحمد (١/ ٤٦٥) والحاكم (٢/ ٣١٨) وصححه].

فللحقّ طريقٌ واحد، وللباطلِ طرقٌ كثيرة متفرقةٌ متشعبةٌ لكثرة الأهواء واختلافها، ولهذا وحَّد الله تعالى النور، وجمع الظلمات في أول آيات السورة: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٦٣٣.

وكان بعض السلف يرى أن هذه الآيات الثلاث رسالة من النبي ﷺ إلى كلِّ إنسان، مختومة بخاتمه عليه الصلاة والسلام، قال ربيع بن خيثم لجليس له: أَيسرُّكَ أن تُؤْتَى بصحيفةٍ من النبيّ ﷺ ولم يُفكّ خاتمها؟ قال: نعم، قال: فاقرأ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ إلى آخر الآيات الثلاث.

وقد أجمعت كلّ الشرائع الإلـٰهية المنزلة عليها، ولم تنسخ قط في مِلَّة، وقد قيل: إنها العشر كلمات المنزلة على موسى، ونقل عن كعب الأخبار أنها مفتتح التوراة[١].

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: تتقون الله تعالى بالتزام الصراط المستقيم، والابتعاد عن السبل، والملل والنحل المخالفة له.

وممَّا يؤكِّد أهمية هذه الوصايا العشر، وإجماعَ الشرائع الإلـٰهية عليها قوله تعالى بعد ذلك:

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي: وآتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسنه الله ﷻ إلى موسى عليه السلام، فإنزال التوراة عليه من تمام نعمته جلَّ وعلا وإحسانهِ على نبيِّه موسى عليه السلام[٢].

﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: وفي التوراة تفصيل كل شيء يحتاجون إليه في شريعتهم، وفيها أيضاً:

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لعل بني إسرائيل يصدقون بلقاء الله تعالى يوم القيامة.

---

(١) تفسير القرطبي: ٧/ ١٣١.

(٢) المرجع السابق: ٧/ ١٤٣.

وانتقلت الآياتُ من الحديث عن التوراة وعمّا فيها، ومسؤولية بني إسرائيل عنها إلى الحديث عن القرآن الكريم:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ فالقرآن الكريم خيرُهُ كثير لا ينتهي، ونفعُهُ كبيرٌ لا ينقطع، وقد سبق وصفه بهذه الصفة في قوله تعالى ـ الذي مرَّ معنا ـ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

ثم أمر سبحانه باتباع أحكامه، وحذَّر من مخالفتها والخروج عنها فقال: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لعلكم بهذا الاتباع والالتزام تنالون رحمة الله في الدنيا والآخرة.

● **القرآن الكريم والعرب:**

ولما انتقلت الآياتُ الكريمةُ للحديث عن القرآن الكريم انتقلت أيضاً إلى مخاطبة قوم النبي ﷺ وهم العرب، لتبيِّنَ لهم مسؤوليتهم الكبيرة على وجه الخصوص في حمل رسالة القرآن الكريم إلى جميع الناس، إذ قامت حجّةُ الله عليهم أكثر من غيرهم من الأمم، لأنَّ القرآن الكريم نزلَ على رجلٍ منهم، ونزلَ بلغتهم وفي أرضهم، فلا عذر لهم:

﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾.

﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ أي: أنزلنا القرآن الكريم لينقطع عذركم، فلا تقولوا: أنزل الكتاب على اليهود والنصارى من قبلنا ولم ينزل علينا شيء.

﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي: وما كنا نفهم ما يقولون، لأنهم ليسوا بلساننا، ونحن في غفلة وشغلٍ مع ذلك عمَّا هم فيه[١].

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٦٣٥.

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)﴾.

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ أي: أكثر هدايةً إلى الحقِّ ومعرفته منهم، لحدّة أذهاننا وغزارة حفظنا.

﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: فقد جاءكم في القرآن الكريم حجة واضحة تعرفونها؛ لظهورها، ولكونها بلسانكم.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ وفيه أيضاً هدًى ورحمة كما في التوراة.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: فلا أظلم ممن كذَّب بآيات الله بعد أن عَرَفَ صحتها أو تمكَّن من معرفتها.

﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ وأعرض عنها، أو صرف الناسَ عنها، فجمع بين الضلال والإضلال[1].

﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: العذاب السيئ الشديد.

﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ أي بسبب صدّهم وإعراضهم عن القرآن الكريم وبصائره وبراهينه.

فالعرب مسؤولون عن رسالة القرآن الكريم أكثر من غيرهم، لأن حجة الله تعالى قامت عليهم قبل غيرهم وأكثر من غيرهم، فقد بلَّغهم النبيُّ ﷺ رسالة الإسلام قبل أن يبلِّغ غيرهم، وقد مرَّ معنا قوله تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، فبدأ رسول الله ﷺ بأم القرى مكة المكرمة، ثم ثنَّى بما حولها من بقاع الأرض، وظلَّ مشغولاً بتبليغهم معظمَ سنوات حياته في الدعوة حتى السنة السادسة من الهجرة، فبعد أن عقد عليه الصلاة والسلام صلح الحديبية مع قريش، ووضعت الحربُ أوزارها، شرعَ النبي عليه الصلاة والسلام

(١) انظر: روح المعاني: ٨/ ٦٢.

في تبليغ الأمم والشعوب الأخرى خارج أرض العرب، وأرسل الرسائل والكتب إلى الملوك والأمراء، يدعوهم إلى الإسلام، ويبلغهم دعوة القرآن.

ويؤكد مسؤولية العرب الخاصة عن حمل رسالة القرآن الكريم إلى الناس كافةً أنّ الله تعالى خصّص في القرآن الكريم آياتٍ كثيرة تبيِّن ما كان فاشياً في المجتمع العربي الجاهلي من ضلالات ومفاسدَ، وقد مرّ معنا كثير منها في سورة الأنعام، كما مرَّ معنا: أنّ النبي ﷺ أُمر أن يناديهم بـ **(يا قوم)** تذكيراً لهم بروابط القرابة والجنس واللغة والأرض التي تربطه عليه الصلاة والسلام بهم، وما ناداهم عليه الصلاة والسلام بذلك إلا ليذكّرهم بمسؤوليتهم الكبيرة الخاصة أمام الله تعالى عن حمل القرآن وتبليغه للناس.

فدعوةُ الإسلام منزّهةٌ عن كلِّ هذه الروابط، وهي أسمى منها، فهي رسالةٌ عامةٌ شاملةٌ للإنس والجن، وقد قال تعالى يقرر هذه المسؤولية ويؤكِّدها ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

● **أشراط الساعة:**

فماذا ينتظر المعاندون والمعرضون من قوم النبي ﷺ بعد كلّ هذه الحجج والبصائر؟! ولم يَبْقَ إلا أن يكشفَ لهم عن المصير الأليم الذي ينتظرهم إن أصَرُّوا على عنادهم واستكبارهم:

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لتقبض أرواحهم عندما تحينُ آجالهم، وقد مرَّ معنا وصفٌ للملائكة وهي تقبض أرواحهم في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ يوم القيامة ليسألهم ويحاسبهم.

﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ من أمارات الساعة وأشراطها، فقد جعل سبحانه ليوم القيامة علامات وأشراطاً تتقدم عليها، وهي أحداثٌ كبيرةٌ وعظيمةٌ خارقةٌ لعادات الناس ونواميس الكون في الحياة الدنيا، لأنها تأتي مقدمة لأعظم الأحداث الكونية وأشدها هولاً، ألا وهي قيام الساعة، فعندما تقومُ الساعةُ تتغير النظم والنواميس الكونية كلُّها الأرضية والسماوية، فالسماواتُ تتشقق وتطوى، والنجوم تنكدر وتزول عن مواقعها، والأرض تتغير معالمها، فَتُنْسَفُ جبالها، وتمتلئ ديانها ووهادها، والشمس تكور وتذهب أشعتها، ويزول ضوءُها، ومبدأ هذا التغير الكلي لجميع النظم الكونية يكون عند حدوث علامات الساعة الكبرى، إن هذه العلامات تغيرٌ جزئيٌّ في النظم والنواميس الكونية، يؤذنُ بقرب حدوث التغير الكلي، وقد أشار الله تعالى إلى أشراط الساعة هذه في عدَّة آيات، هنا في هذه الآية، وفي قوله أيضاً: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٨].

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ وذلك قبل يوم القيامة كائنٌ من أمارات الساعة وأشراطها حين تطلع الشمس من مغربها، فعن **أبي هريرة** ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لا تقومُ الساعةُ حتّى تطلعَ الشمسُ مِنْ مغربِها، فإذا طلعتْ ورآها الناسُ آمنوا أجمعون، وذلك حينَ لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكنْ آمنتْ من قبلُ**» ثم قرأ هذه الآية. [رواه البخاري (٤٦٣٥)].

وعن **أبي موسى الأشعري** ﷺ: أن النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ الله ﷻ يبسطُ يدَهُ بالليلِ ليتوبَ مُسِيءُ النهارِ، ويبسُطُ يدَهُ بالنهارِ ليتوبَ مُسِيْءُ الليلِ، حتَّى تطلعَ الشمسُ مِنْ مغربِها**» [رواه مسلم (٢٧٥٩)].

﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ وهو تهديدٌ شديدٌ للكافرين، ووعيد أكيد لمن سوَّفَ إيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك[1].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٦٣٧.

- **الدين الحق:**

وعندما أشْرَفَتْ سورة الأنعام على الانتهاء التَفَتَتْ إلى النبي ﷺ تواسيه، وتخفف من معاناته، وتعلن براءته عليه الصلاة والسلام من جميع المخالفين لدعوته:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ باتباعهم للسبل المخالفة، وإعراضهم عن الصراط المستقيم. وقرئ: **(فارقوا دينهم)**.

وأضيف **(الدين)** إليهم مع أنهم فارقوه وكفروا به، لأن الإسلام هو الدين الوحيد الحق الذي رضيه الله تعالى للناس جميعاً، ففطرهم عليه، ودعاهم إليه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ أي: وأصبحوا نتيجة مفارقتهم للدين الحق فرقاً متعددة، وأحزاباً كثيرة مختلفة، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فكثرة السبل يؤدِّي إلى كثرة الفرق والأحزاب والملل والنحل الضالة المضلة.

ولا شك أنّ الآيةَ تنسحبُ أيضاً على أهل الضلالة من الأمة المسلمة من أصحاب البدع والشبهات، قال ابن كثير رحمه الله: «والظاهرُ أنَّ الآيةَ عامةٌ في كلِّ من فارق دين الله، وكان مخالفاً له، فإن الله بعثَ رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلِّه، وشرعه واحدٌ لا اختلافَ فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ أي: فرقاً كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات، فإن الله تعالى قد برَّأ رسول الله ﷺ مما هم فيه»[1].

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٦٣٨.

﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ أي: أنت بريء منهم.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في الحساب والجزاء.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي: يحاسبهم يوم القيامة عما كانوا يفعلون في الدنيا.

ثم بيَّنت الآيات فضل الله تعالى وعدله في الحساب يوم القيامة:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ وهذا من فضله سبحانه، فهو كقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهذا من عدله جلَّ وعلا.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص في الثواب أو زيادة في العقاب، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

- **إعلان الدعوة:**

وكما أعلن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ براءته من قومه ومن كفرهم وشركهم بعد أن ناظرهم وأقام الحجة عليهم ـ كما مرَّ معنا ـ أُمِرَ نَبِيُّنَا محمد ﷺ بعد أن واجه قومه والمعارضين لدعوته بكلِّ ما تقدَّم في السورة من الحجج البالغة والبراهين القاطعة، أن يعلنها دعوةً ربانية خالصةً عن شوائب الكفر والشرك، ويعلن انقياده لها، واستسلامه الكامل لله تعالى، المتصف بكلِّ صفات الجمال والجلال والكمال، ليكون ﷺ القدوة المثلى، والأسوة العظمى:

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ أي: دلَّني ربي إلى الصراط المستقيم، وأمرني باتباعه والتزامه، فهو الدين الحق الذي تمتد جذوره في أعماق التاريخ البشري إلى عقيدة التوحيد التي نادى بها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وتستدعي هذه العقيدة توحيد العبادة والسلوك، وتوجيه الحياة كلّها بما فيها حسب منهج الله تعالى ودينه وشريعته:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ أي: قرباني وذبحي.

﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ فما أحيا عليه من الإيمان والإسلام أموت عليه، وأبقى متمسكاً به حتى الموت.

﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خالصاً لله تعالى وحده.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي: بهذا الإخلاص والتوحيد أمرت.

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وهو كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَۖ﴾ [الأنعام: ١٤].

ولم تترك السورة حتى في هذا الإعلان أسلوب الجدال وإقامة الحجة على المخالفين وهو ظاهر في قوله:

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ أي: أطلب ربًّا.

﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍۚ﴾ فكل ما سواه سبحانه مربوب لا يصلح للربوبية.

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ﴾ فكل مكلَّف له كسبٌ واختيار، وإلى نفسه يعود نتيجة كسبه واختياره.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فالمسؤوليةُ شخصيةٌ، فلا يحاسب أحدٌ عن أحد، ولا يتحمل أحدٌ ذنب أحدٍ.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ بسبب انحرافكم عن المنهج القويم والصراط المستقيم.







﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾

ثم ختم الله تعالى هذه السورة الكريمة ببيان الحكمة من خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، وبيان السبب الذي جعل الكفار يعدلون بالله تعالى غيره من المخلوقات.

وبهذا يظهر الارتباط الوثيق بين أول آيات السورة وآخرها، ففي أولها قال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾.

فالله سبحانه خلق السماوات والأرض، وجعل فيهما الظلمات والنور الحسية والمعنوية، وخلق الإنسان، وسخر له ما في السموات والأرض، وأقام له الحجج والبراهين، وأنزل عليه الآيات والبيّنات، وقرّب له البصائر، وجعل له وسائل التمكين والتمييز ليصبح أهلاً للمسؤولية، ابتلاءً واختباراً، ليهلك منْ هلك عن بيِّنة وبصيرة، ويحيا من حيّ عن بيِّنةٍ وبصيرة.

بيَّن سبحانه كلَّ ذلك ووضحه في آية الختام:

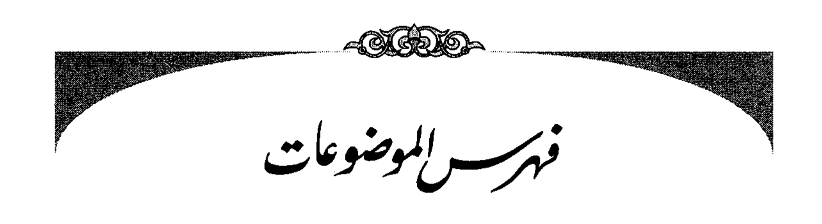
﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ يخلف بعضكم بعضاً في الأرض.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أسأله سبحانه أن ينوِّر قلوبنا ببصائر الحق، ويثبتنا على صراطه المستقيم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمدٍ، وعلى آله وأصحابه والتابعين.





فهرس الموضوعات

تفسير سورة النساء

حقوق الإنسان في سورة النساء

تفسير سورة المائدة

الحلال والحرام في سورة المائدة

تفسير سورة الأنعام

بَصَائِرُ الحَقِّ في سُورَةِ الأنعَامِ

